الدكتور
ابراهيم بيضون

الدولة العربية في إسبانية

من الفتح حتى سقوط الخلافة

٩٢ - ٤٢٢هـ / ٧١١ - ١٠٣١م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت . ص ب ٧٤٩-١١

الدّولة العربيّة في إسبانية

الدولة العربية في إسبانية

من الفتح حتى سقوط الخلافة

٩٢ - ٤٢٢هـ / ٧١١ - ١٠٣١م

الدكتور

ابراهيم بيضون

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١-٧٤٩

الطبعة الثالثة

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

● الإدارة : بيروت، شارع مدحت باشا -
بناية كريدية تلفون: ٣١٢٢١٣ -
برقياً: دانهضة -
ص.ب.: ٧٤٩ - ١١ -
تلكس: NAHDA 40290 LE

● التوزيع : شارع البستاني - بناية اسكندراني
رقم ٣ غربي جامعة بيروت
العربية - تلفون: ٣٠٣٨١٦ -
٣١٦٢٠٢.

الإهـداء

إلى والـدتي

وهي على مشارف الثمانين

تحيّة الوفـاء...

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد مضت سنوات عشر على هذا الكتاب في طبعته الأولى، حيث كان الدافع مزدوجاً لهذا العمل الصعب، بعد رحلتي إلى الأندلس وتجوالي في مدنها العريقة من جهة، وحاجتي إلى مثل هذا الكتاب، بعد أن توليت تدريس مادة المغرب والأندلس في الجامعة اللبنانية من جهة ثانية. فقد انصرفت تدريساً وكتابةً إلى الاهتمام بقضايا الإسلام الأول، ولا زلت في هذا الهاجس حتى اليوم. ومن هذا المنطلق، فإنني أعترف بتطفلي على التاريخ الأندلسي، الذي يحتاج إلى تخصص دقيق وظروف علمية ملائمة، لا سيما المرحلة التاريخية المتأخرة، بعد ابتعاد المؤرخين والعلماء المسلمين عن دائرة الأحداث أو فقدان بعض نتاجهم، مما يجعل الصورة غائمة أو مشوشة إن لم نقل غير مكتملة. فمن الضروري التعرّف إلى نتاج الكتاب الاسبان في تلك المرحلة، على الرغم من جنوح معظمهم إلى التطرف وتدوين الأحداث تحت تأثير هذا الشعور المعادي للعرب المسلمين، مع أن الموضوعية تقتضي الاعتراف بأن المؤرخين المسلمين كتبوا أيضاً تاريخ الأندلس بشيء من هذه الوتيرة، سواء الذين عاشوا على مقربة من الأحداث، مكاناً وزماناً، أو الذين كتبوا عنها بعد رحيلهم إلى المغرب، حيث عاشوا هنا أو هناك تحت تأثير الحالة الأندلسية، بتفاصيلها الأكثر ارتباطاً بالجهاد ضد الأسبان والحنين إلى الأرض المفقودة، دون أن يكون الأوان قد حان لذلك، إذا ما توقفنا عند مرثية الأندلس الشهيرة التي نظمها أبو البقاء الرندي، قبل قرنين أو أكثر من سقوط غرناطة .

ولكن لا بد من الاعتراف أيضاً، بأن ثمة حافزاً آخر دفعني إلى هذه المحاولة، هو أن المكتبة الأندلسية، على توفّر الدراسات الأدبية القيمة فيها، فلا زالت فقيرة في الدراسات التاريخية، ربما من الناحية النوعية، حيث القليل منها يندرج في مصاف الأعمال الجادة، بينما الكثير ينوء تحت عبء النصوص، دون ثمة اختلاف ـ يتعدى الشكل ـ عن الكتابات القديمة. ومن هنا كانت الحاجة ماسة ـ بالنسبة لي على الأقل ـ إلى كتاب جامع للأحداث الهامة ومؤثراتها في مسار حركة التاريخ الأندلسي، يأخذ من النصوص روحها دون الجسد، بحيث يخرج القارىء مزوّداً بالتفاصيل غير مرهق بها، على الرغم من شمولية الكتاب وسعة مداه، وتداخل القضايا المطروحة بين عصر وآخر.

وإذا كان الموضوع قد شكّل وحدة منسجمة من خلال تناوله «الدولة العربية في اسبانية»، أي الحقبة التي ارتبطت بالأسرة الأموية منذ الفتح حتى سقوط الخلافة، فإن ما قمتُ به في هذه الطبعة، من إضافة فصل جديد يحمل عنوان «ما بعد الخلافة»، لم يكن خرقاً لهذه الوحدة، بقدر ما كان استكمالاً لها، حيث التاريخ الأندلسي يشكل حالة غير مجتزأة في الأسباب والنتائج. فلا نستطيع على سبيل المثال فصل الظروف التي مهّدت لقيام «الطوائف الأولى» عن تلك التي سبقت ظهور «الطوائف الثانية»، كنتيجة حتمية لتدهور السلطة المركزية واستفحال الصراع السياسي الذي مزّق وحدة الدولة. كذلك، فإن الأسباب التي أدت إلى سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين في اسبانية، كانت هي نفسها وراء انهيار تلك النماذج السابقة التي لم تعرف التماسك أو الاستقرار.

ومن هذا المنظور، قد يجوز لنا إعادة صياغة السؤال، ليس عن أسباب سقوط الأندلس، ولكن عن استمرارها تلك القرون في ظل صراعات لم تتوقف وأخطار محدقة من كل صوب؟. ولكن الأندلس على ما يبدو كانت تختزن في الجعب دماء جديدة، وتكتشف مصادر النور عند اشتداد الظلام. وهنا تكمن خصوصية التاريخ الأندلسي، حيث إرادة البقاء كانت قوية وان تصارعت مع نزعة السلطة القوية أيضاً، دون أن يفجأنا في هذا المجال اتفاق امير مسلم مع الأسبان، ضد امير مسلم آخر، عندما يشعر بالخطر على نفوذه، وعودته إلى معاداة هؤلاء وشن الحروب عليهم انطلاقاً من الشعور نفسه.

والواقع أن هذا الكتاب قد أخذ مني الجهد الكبير في حينه. ولجأت إلى تهذيبه بصورة ما في الطبعة الثانية، قبل أن أضيف إليه فصلاً جديداً في هذه الطبعة، ولكن دون أن أمسّ السياق العام إلا من تعديل طفيف على بعض العبارات أو سدّ بعض الثغرات القليلة. فقد حرصت على أن يبقى هذا الكتاب ممثلاً لمرحلة، وأن لا يخضع لشيء من إعادة النظر، التي ستجعله - في حال تطبيقها - كتاباً جديداً بكل ما تعنيه هذه الكلمة. وإذا كان هنالك من هنات فيه، فأرجو أن لا تكون كبيرة، فقد بذلت من الجهد ما استطعت في ظل ظروف يعرف الجميع صعوبتها وشدة ضغطها على أهل القلم خاصة .. وفي الختام، لا بدّ من تحية إلى من كان له الفضل في تصحيح وفهرسة هذا الكتاب، إلى تلميذي وصديقي الأستاذ إبراهيم مهدي، وتحية أيضاً إلى الصديق مصطفى كريديه واخوانه في دار النهضة، لما بذلوه من جهد وحسن تعاون.. والله من وراء القصد.

بيروت في ١٩٨٦/١/٢٩

مقدمة الطبعة الثانية

كان ثمة إحساس بالرضا أو بعضه يرافقني خلال المسافة الزمنية بين طبيعتيّ هذا الكتاب، هو أنني لم أدخّر سبيلاً في الوقوف على النتاج التاريخي والأدبي للأندلس، سواء القديم منه أم المستجد. كما أنني تداركت عقدة اللغة الأسبانية التي أخذت في تعلمها منذ الطبعة الأولى، بما يعنيه ذلك من تحول جدي إلى مرحلة التخصص في هذا المجال الخضم.

والتاريخ الأندلسي في أمجاده وعثراته، هو حالة قائمة لمن يحسن جيداً قراءة التاريخ، تختزن من صلابة الإرادة وصنوف التحدي ما هو جدير بالاهتمام أيضاً، حتى لا نكون أسرى المفاخرة بتراث مجيد والبكاء على عتبات الماضي الغابر. فالعرب الأوائل في الأندلس، عاشوا في تلك البقعة الأوروبية النائية، ومعهم تناقضاتهم الجذرية، ربما بصورة أكثر مبالغة من الشام أو غيرها من الأقاليم الأموية. كما انتقل معهم النمط الحياتي والسلوكي، فضلاً عن الذوق الأدبي الذي بقي في الغالب شرقي الملامح والمضمون، دون أن نغفل التجمعات العسكرية التي احتفظت ـ رغم الأعوام المديدة ـ بأسمائها الشامية الأولى، التي عبّرت عن هويتها وكشفت انتماءها، فكان هنالك «جند فلسطين» في شذونة و«جند حمص» في اشبيلية و«جند دمشق» في البيرة و«جند قنسرين» في جيّان، إلى آخر هذه القواعد التي كانت تتحرك بفعل الدافع القبلي وأحياناً الاقليمي، دون أن يجمع بينها دافع «وطني» ومصيري مشترك.

ومن هذا الواقع افتقدت الأندلس العربية في السنوات الأربعين الأولى من

تأسيسها الاستقرار السياسي، وذلك بسبب غياب الدولة التي ظهرت لأول مرة مع عبد الرحمن (الداخل)، بعد انتصاره في معركة «المصارة»، المنعطف التاريخي الكبير الذي كان بمثابة فتح جديد لهذه البلاد، ربما لا يقل أهمية عن الفتح الأول في «وادي لكه». فمن هنا كان ذلك العبور إلى الدولة، التجربة الوحيدة في تاريخ الأندلس العربية، التي دانت بظهورها للمروانيين من البيت الأموي. لقد نجح هؤلاء في اسبانيا حيث أخفقوا في الشام، رغم توفر المعطيات في هذه الأخيرة بصورة لا مجال فيها للمقارنة. كما تطورت معهم إلى الخلافة في زمن تشرذم هذه المؤسسة واضمحلالها، وذلك في محاولة بعثها مجدداً في الإطار الأموي، في وقت كانت تنبعث فيه الامبراطورية الرومانية وراء السفوح الشرقية للبرينيه، بما تعنيه هذه أو تلك من «إنقاذ» للآمال المنهارة وتعزيز للروح المعنوية لدى الرأي العام الإسلامي والأوروبي.

وتبقى كلمة لا بدّ منها وأنا أعدّ الطبعة الثانية من «الدولة العربية في اسبانيا»، هي أنني مدين بالكثير لمن تفضّل عليّ بمساعدة ما، في هذا الكتاب أو غيره. وأخص منهم الأصدقاء: الأديب المؤرخ حسن الأمين الذي أعود إليه كلما أشكل عليّ الأمر لغوياً أو تاريخياً، وكذلك الأستاذ عبد القادر شعبان والأستاذ حسين خريس، فهما دائماً خير معين عندما يسلبني العمل كل الوقت.. دون أن أنسى ما أدين به للصديق مصطفى كريدية واخوانه في دار النهضة العربية، على حسن تعاونهم والروح الإيجابية التي يتحلون بها.

إلى هؤلاء الأصدقاء كل الشكر والتقدير.

إبراهيم بيضون

بيروت في ٢٣/٢/١٩٨٠

مقدمة الطبعة الأولى

إن تاريخ أسبانية العربية، تراثاً حضارياً وسياسة توسعية، يعتبر إحدى أبرز المحطات في التاريخ الإسلامي وأكثرها أهمية وإثارة، فيها من التألق والسطوع، كما فيها من التعثر والمأساة. فهذه المملكة القوطية القديمة التي اجتاحها العرب المسلمون، فتحولت إلى ولاية أموية في مطلع القرن الثامن الميلادي، قُدِّر لها أن تأخذ هوية منفردة واتجاهاً خاصاً، بحيث أن ارتباطها بالسلطة المركزية كان واهياً منذ بدايات تكوُّنها العربي، وذلك نتيجة عوامل جغرافية وسياسية معروفة فقدكانت مشكلة الحكم فيها نابعة من ظروف محلية خاصة، وليست مرتبطة بقرارات تصدر عن الخلافة، كما كان يجري في معظم الولايات. وما لبث هذا الجنوح الاستقلالي أن تبلور، بعد غياب الأمويين عن هذه المؤسسة في دمشق ومطاردتهم حتى التصفية.

وحافظت الولاية البعيدة على شواذها بعد انتقال الحكم إلى العباسيين، فكانت رائدة الدويلات المستقلة التي أفرزتها الخلافة، خاصة في الجناح الغربي منها. ولعل ذلك يجرنا إلى مناقشة الأسباب التي أدت إلى استئثار هذه المنطقة بالتيار الاستقلالي والانفلات من قبضة السلطة المركزية. وللبحث عن تعليل لهذه الظاهرة، لا بد من العودة إلى جذور العلاقة التي ارتبطت بها هذه المنطقة مع حركة التوسع العربي، وهي لم تكن علاقة عادية في مطلق الأحوال. فقد اصطدم العرب بتيار رفضي من قبائل البربر، المتعلقة حتى التشبث بكياناتها التقليدية المتوارثة. وكان للطبيعة الجبلية بكهوفها ومضائقها وشعابها، التي انعكست بدورها على طبيعة السكان، الدور البارز في تنشيط حركة المقاومة الداخلية، سواء في التصدي لحملات الفتح على مدى سبعين عاماً من المحاولات الصعبة، أم في الثورة على الارستقراطية العربية المهيمنة على الحكم في وقت لاحق. وهذا الواقع لم يكن

يعني للبربر سوى الحرمان من المشاركة السياسية والعسكرية التي تجلت في عهد موسى بن نصير، ومن طرف آخر فقدان الاستقلالية القبلية والفردية.

ومن البديهي أن فتح الأندلس، كان امتداداً طبيعياً لفتح المغرب.. فقد ارتبط كلاهما بالآخر عضوياً، ووحدت بينهما الظروف السياسية، بدءاً بعمليات الفتح وانتهاءً بالصراعات القبلية والإقليمية.. وحتى الاجتماعية. فالأندلس كانت جزءاً من تاريخ المغرب، تأثرت به وتفاعلت مع التطورات المتلاحقة على أرضه، بحيث لا يمكننا دراسة أحدهما في معزل عن الآخر.

وفي هذه المحاولة الدراسية لتاريخ الدولة المستقلة في الأندلس، كان لا بد من التعرض لمشاكل الفتوحات وآثارها في المغرب وجارتها الأندلس بصورة خاصة.. وكذلك التيارات السياسية المختلفة التي تجاذبت هذه المنطقة، وجعلت منها المسرح الدموي الدائم، قبل أن تأخذ هويتها الاستقلالية التامة منذ أن ارتبطت بالأسرة المروانية مع عبد الرحمن بن معاوية.

وإذا استطاعت الأندلس «الولاية الأموية» تنشيط حركة التوسع في أوروبا، رغم تعثراتها الداخلية، فإن الأندلس «الدولة الأموية» نجحت لأول مرة في إقامة مؤسسة مستقلة، وهي التجربة المركزية الوحيدة في تاريخ هذا الإقليم التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون من الزمن. ولا ريب أن هذه الحقبة تمثل أزهى فترات الأندلس السياسية، التي اختمرت فيها بذور الحضارة والعطاء الثقافي، فنجحت في اختراق «البرينيه» إلى قلب أوروبا، حيث فشل الغزو السياسي في الماضي.

وفي هذه الدراسة المتواضعة، عن تلك الحقبة الزاهرة من تاريخ العرب، جهدت قدر المستطاع لأن يكون طرحي للأحداث حاملاً ملامح الجدة، متجنباً النصوص الرتيبة والمسهبة. وإذا كان ما اعترضني من العوائق، عدم معرفتي للغة الأسبانية، التي ينبغي أن يتسلح بها كل باحث للتاريخ الأندلسي، وكذلك ابتعادي عن بعض المخطوطات حيث لا يزال فيها آفاق واسعة للدراسة، فإنني لم أدخر جهداً في الاطلاع على معظم ما هو منشور منها، من خلال المصادر الرئيسية والمراجع الحديثة المكتوبة باللغتين العربية والفرنسية.

وفيما يتعلق بتبويب هذا الكتاب الذي تناول تاريخ الدولة العربية في أسبانية منذ الفتح حتى سقوط الخلافة، فقد جعلته في قسمين رئيسيين: الأول، تناول تاريخ

الأندلس مع بداية سيطرة العرب عليها، بما في ذلـك فتوحـات المغرب وذلـك حتى سقوط الخلافة المركزية في دمشق. . وانتهـاءً بالفتـرة الانتقاليـة بين اضمحلال هـذه الأخيـرة ومجيء عبد الـرحمن بن معاويـة (الداخـل) إلى الأندلس. والثـاني، تنـاول الدولة الأموية المستقلة ومعها فترات الإمارة والخلافة وأخيراً الـدولة العـامريـة، التي كانت آخر مظهر من مظاهر الحكم المركزي والسيادة العربيـة الفعلية في الأنـدلس، حيث تشرذمت بعد ذلك إلى دويلات متعددة عرفت «بالطوائف».

وأخيـراً. . فإنهـا لصفحة مشـرقة في التـاريخ سجلتهـا دولة الأنـدلس العربيـة، وزرعتها تراثـاً حضاريـاً متألقـاً في تلك الأرض، التي ما زالت تنعكس على أجيـالها ملامح تلك القرون الخالية.

بيروت في ١٩٧٧/١١/٢٥ ابراهيم بيضون

الباب الأول

اسبانية : الولاية الأموية

١ - فتح المغرب
٢ - فتح اسبانية
٣ - عصر الولاة الأمويين

الفَتْح العَرَبي للمَغرب

الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب: إن اسم «المغرب» اصطلاح يطلق عادة على الأراضي الواسعة والبعيدة التي تقع إلى الغرب من مصر حتى المحيط الأطلسي، بحيث تنتشر بمحاذاة البحر المتوسط في الشمال، وتتوغل في عمق الصحراء الكبرى إلى الجنوب.

ومن الواضح أن هذه الكلمة كان لها مدلول جغرافي محض، يقصد به تلك البلاد الواقعة إلى الغرب من الدولة الإسلامية الأولى. غير أن تحديدها في إطار هذا المفهوم كان عرضة للاختلاف، فمرة يتناول اسم «المغرب» كل الأقاليم الغربية من الشمال الإفريقي بما فيها ليبيا وتونس والجزائر والمغرب [1] (الأسماء الحالية)، ومرة أخرى تُستثنى منه ليبيا أو برقة (الاسم القديم) ويقتصر على الأقاليم الثلاثة، هذا إذا لم تتوزع ليبيا أحياناً بين مصر وتونس، فتتجه برقة إدارياً إلى الأولى بينما تتجه طرابلس إلى الثانية [2].

وإذا كانت هذه الكلمة قد أصبحت أكثر تحديداً الآن باشتمالها على

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ص ٣.

(٢) عبد الحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ٢٠.

تونس والجزائر والمغرب أو ما يعرف بالمغرب العربي الكبير، فإن مدلولها التاريخي منذ القرن السابع الميلادي كان يتناول ـ حسب ما روته مصادر المؤرخين والجغرافيين القدامى ـ كل الأقاليم الواقعة بين مصر في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب[1]. وانطلاقاً من هذا التعريف للبلاد المتفق على تسميتها بالمغرب، يمكن تقسيمه إلى ثلاث وحدات ربما كان لها بعد إداري اقتضته إجراءات الدولة في ذلك الزمن.

١ ـ **المغرب الأدنى أو إفريقية**[2]: وكانت القيروان العاصمة السياسية لهذا الإقليم في أيام الأمويين، ثم تغيرت مع التغيرات في النفوذ السياسي، فأصبحت (المهدية) في أيام الفاطميين و (تونس) في أيام الحفصيين.

٢ ـ **المغرب الأوسط**[3]: وكانت (تاهرت) أشهر مدنه، حيث اتخذها الخوارج الأباضيون عاصمة لدولتهم الرستمية، و (تلمسان) عاصمة بني زيان، وأخيراً الجزائر عاصمة بني مزغنة.

٣ ـ **المغرب الأقصى**[4]: وهو الإقليم النائي في أقصى الولاية الإفريقية الذي يطل من موقعه الفريد على البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غرباً. وكان المغرب الأقصى أرضاً خصبة، أكثر من أي إقليم آخر، للأحداث السياسية الهامة أثناء وبعد حركة التوسع العربية في هذه المنطقة. ومن أشهر مدنه (فاس) عاصمة الأدارسة، و(مراكش) عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين، وأخيراً الرباط العاصمة الحالية.

وإذا نظرنا في الطبيعة الجغرافية للمغرب، لبدت لنا كتلة واحدة متشابهة إلى حد كبير في التضاريس والبيئة والمناخ، وحتى في الظروف الاجتماعية

(١) ابن حوقل، صورة الأرض ص ٦٤.
(٢) تونس حالياً وبعض المناطق الشرقية من الجزائر.
(٣) الجزائر حالياً.
(٤) المملكة المغربية.

المتجانسة. فهناك سلاسل جبلية ضخمة تخترق البلاد من الغرب إلى الشرق، واصلة ما بين المغربين الأقصى والأدنى، حيث ترتفع في الشمال سلسلة جبال الريف المتوسطة الارتفاع[1]، من المحيط إلى تلمسان على محاذاة سهول ساحلية ضيقة.

وإلى الجنوب منها تمتد سلسلة جبال أطلس كجدار مرتفع، يصل أحياناً إلى أربعة آلاف متر أو ما يعرف بأطلس العظمى، الجزء الأكثر ارتفاعاً وضخامة في هذه السلسلة. ثم يتفرع منها قسم جنوبي متوسط الإرتفاع أيضاً يعرف بأطلس الداخلية أو أطلس الصحراء، وقسم شمالي له نفس الارتفاع تقريباً، يعرف بأطلس الوسطى[2].

والواقع أن هذه الطبيعة الجبلية المتجانسة لأقاليم المغرب، قد انعكست على طبيعة السكان الذين عُرفوا منذ القدم بصلابتهم ومهارتهم القتالية، مستفيدين من الظروف الجغرافية الملائمة، حيث الممرات الضيقة والمسالك الوعرة، مما يجعل الدفاع عنها أمراً غير عسير. ولعل هذه الخاصة الدفاعية كان لها دورها الهام في إطالة العمليات العسكرية التي قام بها العرب المسلمون، قبل أن يتم لهم فتح المغرب بصورة نهائية، على نحو اختلف عن بقية الأقطار التي تمَّ فتحها من دون صعوبة. وإذا كانت ثمة عوامل قد أعاقت الفتوحات في هذه المنطقة، كالدور الذي قامت به المراكز البحرية البيزنطية على الساحل الأفريقي، والأزمات الداخلية التي شلّت طاقات العرب وقتاً غير قصير، إلا أن المقاومة العنيفة التي أظهرها البربر سكان المغرب، قد أعاقت بدون ريب عمليات العرب وأحبطت مشاريعهم التوسعية لمدة سبعين عاماً قبل أن تأخذ شكلها النهائي المستقر.

ولعله آن لنا التساؤل عن سكان المغرب عشية اندلاع موجة الفتوح وانتشارها إلى إفريقية؟ فقد مثّل المغرب بسكانه وحدة بشرية متجانسة

---

(١) صلاح الدين الشامي، الوطن العربي (دراسة جغرافية) ص ٧١-٧٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٠

بـالإضـافـة إلى وحـدتـه الجغـرافيـة. وقـد جـاء ذلـك ثمـرة المتغيـرات السياسية التي كـانت تجرف في طـريقها هـذه المنطقة وتطبـع عليها بصمـاتها الواضحة. فـالمغرب ارتبط بـالصراع الشهيـر بين روما وقرطاجنة أو ما عـرف بالحروب البونية (٢٦٤ ـ ١٤٦ م) [١] التي انتهت بتدمير الأخيـرة ومحوهـا من الوجود، خاضعاً حينذاك للحكم الروماني كغيره من الأقاليم المطلة على البحر المتوسط. وقد اكتفى الـرومان بـإنشاء منـاطق عسكريـة محصنة على الشـريط السـاحلي، حيث التقدم نحـو معاقـل السكـان الأصليين في الـداخـل لم يكن سهل المنال.

وقبل أن نتحدث عن طبيعة هؤلاء السكان وظروفهم الحياتية واختلافـاتهم القبليـة، تجدر الإشـارة إلى أن مناطق الشمـال من المغـرب قـد مـرّت عليهـا شعـوب عديـدة منذ خضـوعهـا للرومـان حتى مجيء العـرب المسلمين، فـي أعقـاب الاختـلال الـذي أصـاب مؤسسـات الامبـراطـوريـة وانقسـامهـا إلى امبراطوريتين (إحداها في الشرق اتخذت من القسطنطينية مركـزاً لها، والثـانية ظلت في روما العاصمة القديمة) حيث شهد القسم الغربي منها موجات عنيفـة من البرابرة والجرمان والأسيويين، منذ مطلع القرن الخامس الميلادي. ولعـل ما يهمنا من هذه الأفواج المتبربرة التي انتشرت في الأجزاء الغربية لامبراطورية الرومان بشكل خاص، تلك التي امتد تأثيرها إلى سـواحل المغـرب، لا سيما الـونـدال Vendals ، الـذين قنعـوا من نصيب التـطاحن على الامبـراطـوريـة بالسيطرة على أسبانية حتى مجيء القـوط الغربيين، عندما اقتلعهم منها هؤلاء واضطروهم إلى اجتياز المضيق والهـروب إلى الضفة الأخـرى، حيث سيطروا على الإقليم الساحلي الممتد من طنجة غرباً إلى طرابلس شرقاً [٢] .

وكان لا بد للبـربر أن يتـركوا السـواحل مـرة أخرى لهؤلاء الغـزاة، الذين

---

(١) راجع: ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ ج ١ ص ٣١ ـ ٣٤.
(٢) عاشور، أوروبا في العصور الوسطى ص ٧١.

عرفتهم تلك المنطقة من البحر المتوسط، بأنهم أكثر شعوب الجرمان صلافة وجرأة. ولكن ذلك لن يتجاوز القرن من الزمن[1]، حيث عادت السيطرة على المغرب إلى دائرة الامبراطورية الرومانية التي أصبحت تحمل اسمها الشرقي وهو الامبراطورية البيزنطية.

وهكذا فإن ارتباط المغرب بالمتغيرات التاريخية الهامة، انعكس على تكوينه السكاني قبل الفتح، حيث سكان الداخل من البربر يشكلون الأغلبية العظمى، بينما سكان السواحل متأثرون بالمتغيرات السياسية التي كانت تمر بها المنطقة بين الحين والآخر. وإذا تأملنا جيداً تركيب السكان في تلك الفترة المتدفقة بالأحداث السريعة لوجدنا هنالك نوعين من السكان:

١ ـ العناصر الوافدة من البيزنطيين، الذين ورثوا ممتلكات الرومان تقريباً على سواحل المتوسط ومنها هذه المنطقة. وساروا على خطى أسلافهم في إقامة قواعد بحرية محصنة. فكان تواجدهم عسكرياً بصورة خاصة. ولهذا كانت نسبتهم العددية ضئيلة بالمقارنة مع سكان الداخل.

٢ ـ السكان الأصليون الذين عرفوا بالبربر، وكانوا يمثلون الأغلبية الساحقة حيث انتشروا في البوادي والحواضر ومارسوا حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، على نحو يشبه كثيراً حياة القبائل العربية في شبه الجزيرة.

وعدا هاتين الفئتين الأساسيتين فقد عرف المغرب عناصر أخرى غير واضحة هويتها بالتحديد، وإن كان المؤرخون يسمونها بالأفارقة. وهي على ما يبدو خليط من سكان السواحل الأقدمين ومن بعض الشعوب المستعمرة، وكانت هذه العناصر تخضع مباشرة للحكم البيزنطي [2].

---

(١) استعاد البيزنطيون المغرب من الوندال سنة ٥٣٤ م بقيادة بليزاريوس. راجع: ابراهيم حركات، المغرب عبر العصور ص ٦٦.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٣٤.

البربر: لقد اختلف في تحديد المفهوم الدقيق لهذه الكلمة، ماذا تعني؟ من الذي أطلقها على سكان المغرب؟ من هم البربر في نهاية الأمر؟ هذه التساؤلات لا بد أن تجابه الباحث إزاء التعرض لتاريخ البربر واستقراء منابعهم الأولى. ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن هو البعد اللفظي للكلمة، إذ يبدو أن لها مدلولاً عاماً يرتبط على الأرجح بالعناصر الغربية التي اجتاحت امبراطورية الرومان، حيث كان لشواطىء المغرب نصيبها من هذه الموجات التي عرفت بالبرابرة، ذلك الاسم الذي أطلقه الرومان أيضاً على سكان المغرب، شأنهم شأن بقية العناصر التي اعتبروها غير متحضرة وتتكلم لغة غير مفهومة [١]. أما أصل البربر فلا يزال غير واضح، وكذلك تاريخهم القديم ولا يزال علماء الأنساب غير متفقين على تحديد هوية معينة لهم حيث يعتقد بعضهم أنهم يتحدرون من أصول حامية، والآخر يردهم إلى أصول عربية سامية[٢]، فضلاً عن الذين اعتمدوا التفسير التقليدي الشائع لدى بعض مؤرخي العرب الأقدمين، وهو الاعتقاد بأنهم ينتسبون إلى «بربر» أحد أجدادهم، مقارنة بانتساب العرب حسب زعمهم إلى يعرب بن قحطان [٣].

وكما اختلف المؤرخون وعلماء الأجناس حول هوية البربر، إذا كانت حامية أم سامية أم خليطاً من الإثنتين؟ فقد اختلفوا كذلك على المصدر الذي جاءت منه هذه الجماعات إلى المغرب. فمنهم من يعتقد أن البربر وفدوا من آسيا في وقت مبكر، ومنهم من يزعم أنهم أوروبيون في الأصل، استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة[٤].

وإذا كان المؤرخون مختلفين حول رأي نهائي في مسألة الانتماء العرقي والجغرافي للبربر، فإنهم متفقون بشكل عام على تصنيفهم إلى مجموعتين

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٢٣.

(٣) ابن خلدون، كتاب العبر ج ٦ ص ٩٤.

(٤) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير ص ١٣٣.

كبيرتين (١)، لكل منهما نمطه الحياتي المميز، المرتبط بعوامل اجتماعية معروفة:

١ ـ المجموعة الأولى التي عرفت باسم البرانس، وهم البربر المستقرون في الأراضي الخصبة والمدن حيث يمارسون الزراعة وأعمالاً حرفية مختلفة. وقد نالوا نصيباً من التطور بفضل اتصالهم بالشعوب الأخرى، سواء التي كانت لها رواسبها في المغرب، أم المستعمرة التي اتخذت من السواحل مقراً لها، مما أدى إلى غلبة الحياة الحضرية على هذه المجموعة.

٢ ـ المجموعة الثانية (البتر)، مثّلها سكان البوادي الرحّل، الذين احترفوا الرعي والأعمال الأخرى التي يعتمدها البدوي عادة كالغزو والإغارة على مناطق الحضر وغير ذلك.

ويميل بعض المؤرخين إلى تفسير هاتين الكلمتين (البرانس والبتر) تفسيراً لغوياً له علاقة بالزي القومي للمغاربة وهو «البُرْنُس»، الذي لا يزال سائداً حتى اليوم. فقد اعتقد أحد المستشرقين ومعه فريق من المؤرخين العرب أن بربر البرانس أو الحضر، كانوا يرتدون البرنس (وهو لباس أبيض عادة يغطي الجسم من الرأس حتى القدمين)، بينما اعتاد البتر البدو على الظهور بهذا الزي مبتوراً من دون غطاء للرأس كما يفعل البرانس ولذلك سموا بالبتر.

ولا نعرف مدى الحقيقة وراء هذا التفسير الذي لا يخلو من الطرافة كما يشير أحد المؤرخين (٢)، ولا نعرف صحة النظرية التي تقول إن البرانس والبتر يمثلان عرقياً فئتين مختلفتين: الوافدة والعناصر الأصلية(٣)، فثمة عوامل اجتماعية ربما رجّحت انقسام البربر أكثر من الإختلاف العرقي الذي نستبعده في هذا المجال.

---

(١) ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ ج ١ ص ٢٣.
(٢) العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ٢١.
(٣) حسن محمود، قيام دولة المرابطين ص ٢١.

بقي أن نشير إلى أهم القبائل التي شغلت أدواراً هامة في تاريخ البربر والمغرب عامة. فأشهر قبائل البرانس صنهاجة التي انتشرت على مساحة كبيرة من الأرض بين المغربين الأدنى والأقصى، وقبائل ازداجة ومصمودة وأوربة وكتامة وعدد آخر بلغ نحو عشرة فروع، كما يورد المختصون بتاريخ البربر. أما البتر فيتوزعون في أربع قبائل كبيرة وهي زناتة ولواتة وضريسة ونفوسة وزواغة ونفزة ومطغرة وغيرها[1].

هكذا كان المغرب بظروفه السياسية وقبائله، التي ميزت بينها فوارق اجتماعية واقتصادية ظاهرة، مؤدية إلى تكتلها في مجموعتين كبيرتين، لكل منها مصالحها المتناقضة مع الأخرى. وكثيراً ما نشب العداء الضاري بينهما واستفحل الصراع واستمر دون أن تخفف حدته السنون. وإذا بالبربر تصلهم أنباء تحركات عسكرية تطرق أبوابهم هذه المرة من الشرق، وذلك في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وتكون الجبهة الإفريقية أو المغرب من أعنف الجبهات في مسلسل حركة الفتوح العربية الإسلامية.

فتوحات المغرب في العهد الراشدي: البدايات الأولى يحتل فتح المغرب حيزاً هاماً في تاريخ العرب العسكري، اختلف عن بقية الفتوحات التي تمت في وقت يسير وبجهود متواضعة، حيث كان للعمليات الحربية الخاطفة، تأثير كبير في تحقيق إنجازات، لا زالت موضع دهشة المختصين بالشؤون العسكرية. فعلى عكس ما حدث في جبهات الشام والعراق ومصر، فضلاً عن الجبهة الفارسية التي انهارت في أقل من عشر سنوات وأصبح الحكم فيها إسلامياً، نجد جبهة المغرب تخرج على هذه القاعدة وتصاب الجهود التوسعية فيها بنكسات متلاحقة، قبل أن تخلد إلى الاستسلام وتذوب نهائياً في إطار الحكم الجديد. ولا يعود ذلك فقط إلى المتاعب الداخلية التي حالت دون التفرغ لحسم الموقف على جبهة المغرب بصورة كاملة، وإن كنا

---

(١) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٤، سالم، المغرب الكبير ص ١٣٨.

لا نستطيع إهمال ما تركته الأزمات السياسية من أثرٍ سلبي واضح على جهاز الحكم، ولكن العامل الأهم كان جغرافياً، له علاقة بالطبيعة الجبلية الوعرة، والقبائل الشديدة البأس المتمسكة بكياناتها التقليدية، والمحترفة لأساليب الحرب الخاطفة التي برع فيها العرب، تساعدها على ذلك معرفة جيدة بطبيعة الأرض وشعابها وكهوفها ووديانها. وهذا النوع من المجابهة ما لبث أن تحول مع الممارسة، إلى ما يشبه حرب العصابات في كل ما تعنيه هذه الكلمة في التاريخ المعاصر.

والبدايات الأولى لفتح المغرب تعود إلى مطلع العقد الثالث من القرن الأول للهجرة ، في وقت كان عمرو بن العاص أحد قواد الفتوح، قد أنهى السيطرة على مصر خلال سنوات ثلاث (١٨/ ٦٣٩ - ٢١/ ٦٤٢)، ثم تابع سيره غرباً إلى برقة أو ما كان يُعرف قديماً «أنطابلس»، وهي تحريف للكلمة اليونانية Pentapolis ومعناها المدن الخمس [(١)]. ولعل التفسير المقبول لهذه الخطوة، أن فاتح مصر أراد تأمين الحدود الدفاعية لهذا الإقليم الهام من الغرب، لأن أية خطة منظمة للتوسع أبعد من ذلك لم تكن قد ظهرت بعد. فالقوة العسكرية التي استخدمت للاستيلاء على مصر، وهي جزء من قوات الخلافة المنتشرة على عدة جبهات في المشرق، لم تكن كافية لتنفيذ عملية توسعية جديدة، فضلاً عن أوامر الخليفة [(٢)] المتشددة بعدم التوغل بعيداً في بلاد لا تزال مجهولة. فاقتنع ابن العاص بتحقيق نوع من السيادة غير الفعلية، حُصرت في وجود حاميات صغيرة من الجُند وفي استيفاء الضرائب من السكان.

ومن الملاحظ أن حملة عمرو بن العاص اتخذت طريقها إلى المغرب

---

(١) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية ج١ ص٢٢٤، سعد زغلول عبد الحميد، المغرب العربي ص٨٠.
(٢) عمر بن الخطاب.

بعد إتمام فتح الإسكندرية كما تشير بعض المصادر، ويُعتقد أنها سلكت الطريق المحاذي للساحل إلى برقة،التي كانت معقلاً من معاقل البربر، لا سيما قبيلة لواتة البترية[1]. ومن غير الواضح إذا ما كانت للبيزنطيين قواعد عسكرية في هذه الجهات، حيث الغموض يحيط بموقفهم في تلك الأثناء. ولعل تواجدهم هنا كان ضعيفاً أو متلاشياً ربما تحت ضغط البربر (اللواتيين)، أو لأن سقوط الإسكندرية أحدث ارتباكاً في صفوفهم وحال دون القيام بدور ما، لمنع تقدم العرب المسلمين في هذا الاتجاه. ومن المرجح أن الثقل العسكري للبيزنطيين كان محصوراً في الشريط الممتد إلى الغرب من طرابلس، حيث القاعدة الشهيرة قرطاجنة؛ ولذلك فإن عمرو بن العاص نفَّذ مشروعه الرامي إلى دخول المغرب عبر بوابته الرئيسية برقة، التي استسلمت دون أية مقاومة، ورحبَّت به قبيلتها البترية العريقة لواتة، فارضاً عليها ضريبة سنوية حدَّدها ابن عذاري بثلاثة عشر ألف دينار[2]. ويبدو أنه كانت لأخبار الفتوح في مصر التي سبقت هذه الحملة، تأثيرها الكبير في استسلام برقة، المعروف عن أهلها اللواتيين الصلابة والنزوع إلى الاستقلال، حيث ظهر ذلك في مقارعتهم للبيزنطيين ودفعهم على ما يبدو إلى الاعتراف بسيادتهم على المدينة.

ومن هذه المنطقة تابع عمرو بن العاص سيره بمحاذاة الساحل إلى طرابلس Tripolis (المدن الثلاث) أو أطرابلس كما جاء في فتوح مصر والمغرب[3]. وهي مدينة منيعة استطاع البيزنطيون تحصينها بالأسوار من جميع الجهات، باستثناء الجهة المطلة على البحر. ولكن طرابلس سقطت بعد شهر من حصارها، حيث أسهم عنصر المفاجأة، على ما يبدو، في نجاح

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٢٩.
(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٨.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٣١.

العمليـة، بعد تسلل المهاجمين إليهـا من ناحيـة البحر [1]، في الـوقت نفسه الذي أحبطت فيه محاولة القبيلة البترية نفوسة لفك الحصـار عن المدينـة. وما لبثت هذه القبيلة التي اتخذت من مدينة سـرت معقلاً لهـا [2]، أن لقيت مصير طـرابلس واستسلمت بعد قليـل من الوقت (أواخـر سنة ٢٢ هـ)، حيث كـانت سرت آخر مدينة بلغها المسلمون على الساحل الإفريقي الشمالي.

ولم يـأخذ تحـرك العرب المسلمين الخط السـاحلي فقط وإنما تفـرّع عن الحملة الرئيسية التي قادها عمرو بن العاص حملة أخرى على رأسها قائد يافع السن، سيكون له شأن كبير في فتوح المغرب هو عقبة بن نافع الفهري. فبعد سقـوط برقـة قاد هـذا الأخير حملة صغيـرة إلى الجنـوب في عمـل منسّق مـع قائده، لضرب تحركات القبائـل في تلك الجهات ومنعهـا من القيام بـأي عمل معيق لتقـدم العـرب المسلمين، فحقق انتصـارات هـامـة في ودان وفـزان وزويلة[3]. وعاش هذا القـائد الشجـاع بعد ذلـك سنوات طـويلة بين البربـر، استطاع خلالها بشخصيته القوية وبما انغرس في قلبه من إيمانٍ عميق أن يطوّع بعض قبـائلهم ويشـدَّ كثيـراً منهم إلى الإسـلام[4]، حتى إذا استلم الأمـويـون الحكم، جيء بعقبـة كخبير في الشؤون الإفـريقية ليستـأنف بصورة أكثـر جديـة مرحلة الفتح المنظم للمغرب.

اكتفت القيادة الإسلامية بهذا القدر من الانتصارات التي حققتها في برقـة وطـرابلس، فأمـرت قـائـد الحملة عمـرو بن العـاص الـذي أصبـح واليـاً عـلى مصر بـالعودة إليهـا. ولم يمر سـوى عـام واحـد بعـد ذلـك، حتى سقط الخليفـة عمـر بن الخطاب ضحيـة مؤامرة غـامضة قيـل في تعليلها الكثيـر، وإن كـانت سيـاسـة هـذا الخليفـة المتشـددة والمتعـارضـة مـع مصـالـح جـانب كبيـر من

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٣١.
(٢) المصدر نفسه ص٢٣٠، سالم، المغرب الكبير ١٤٦.
(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٤٠.
(٤) حسين مؤنس، فجر الأندلس ص ٣٧.

«الارستقراطية» العربية الجديدة، تتشابك مع خيوط هذه المؤامرة إلى حد قوي. واستلم الخليفة عثمان الحكم ليعزل بعد قليل من الوقت والي مصر، أول قائد عربي ارتبط اسمه بالفتوحات في إفريقية، ، ويعيّن قريبه عبدالله بن سعد بن أبي سرح مكانه (٢٤ هـ).

بدأ الوالي الجديد نشاطه الإفريقي، بعد استقراره في الفسطاط، بسلسلةٍ من العمليات الإستطلاعية لدراسة الموقف عن كثب، تمهيداً لاستئناف العمليات التوسعية نحو الغرب. ويبدو أن تفاهماً جرى مع الخليفة للقيام بعمل عسكري بارز[1]، يستهدف إلفات النظر إلى الحكم المركزي الذي كان لا يزال غير قادر على ملء الفراغ الكبير بعد غياب الخليفة القوي السابق.

ويتخذ الإعداد لهذا العمل العسكري أسلوباً دعائياً، حين يجتمع الخليفة إلى الصحابة الكبار للوقوف على رأيهم في هذا الشأن[2]. وتمتلىء عاصمة الخلافة بأخبار الحملة الإفريقية وتعج بأفواج الجند القادمين من مختلف القبائل. ولم تلبث طلائعها أن غادرت المدينة وعلى رأسها أحد أقارب عثمان (الحارث بن الحكم)، ومعه عدد كبير من زعماء المدينة الذين شاركوا فيها، من بينهم أخوه مروان وآخرون من أبناء الصحابة مثل: عبد الله ابن الزبير وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن العباس وغيرهم [3]. وفي مصر زُودت الحملة بقوات إضافية من حامية الفسطاط، فارتفع عددها إلى نحو عشرين ألفاً من المقاتلين. وسار عبدالله بن سعد القائد العام بهذا العدد الكبير إلى المغرب الأدنى، متخذاً على الأرجح الطريق المحاذي للساحل الشمالي، الساحلي [4] (٢٧ هـ). ويلاحظ أن هذا

(١) فتوح البلدان ص ٢٢٦.
(٢) فتوح البلدان ص ٢٢٦.
(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٤٦٢.
(٤)نفسه ص ٢٤٦.

الطريق أصبح المعبر التقليدي لحملات المسلمين العسكرية إلى المغرب، إذ تحاشى هؤلاء الصحراء في الداخل وتعمّدوا اتخاذ الخط الساحلي، حيث المدن والركائز العمرانية والحضارية.

وفي تلك الأثناء كانت أخبار تقدم قوات المسلمين تصل إلى مسامع حاكم إفريقية البيزنطي جريجوريوس أو «جرجير»[1] حسب التعبير العربي الذي كان نفوذه يمتد ما بين طرابلس وطنجة ويتخذ قرطاجنة عاصمة له [2]. فأخذ يعد للأمر على أكثر من اتجاه، فمن ناحية استنفر كل قواته التي تفوقت عددياً على القوات الإسلامية [3]، ومن ناحية ثانية استطاع أن يحمل مدينة طرابلس على العصيان والثورة في محاولة لإنهاك أعدائه قبل الوصول إليه. وقد فوجىء المسلمون بتمرد المدينة، ولكن خطة الحاكم البيزنطي لم تحقق هدفها المنشود، لأن العرب رفعوا الحصار عن طرابلس وآثروا التوجه مباشرة إلى معقل البيزنطيين في قرطاجنة. وفي مكان بعيد عن الشاطىء، وعلى مقربة من مدينة قديمة تعرف باسم سبيطله Sufetula، حيث كان الحاكم البيزنطي حاشداً قوات كثيفة، جرت معركة وصفت بأنها من أعنف المعارك، قتل خلالها جريجوريوس وعدد ضخم من جنوده، وتفرق الآخرون في مختلف الاتجاهات [4]. وتخليداً لهذا الانتصار العظيم في سبيطلة التي كانت من أهم المدن البيزنطية بعد قرطاجنة، سيقيم العرب المسلمون في وقت لاحق بالقرب من هذا الموقع مدينة القيروان، قاعدة إفريقية وعاصمة المغرب لأمد طويل من الزمن.

وبعد ستة أشهر من غيابه، عاد عبد الله بن سعد إلى الفسطاط، مكتفياً بما حققه من انتصار باهر، دون أن تحمله نشوة النصر على الاستفادة من

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ص ١٠.
(٢) ابن الأثير، الكامل ج ١ ص ٤٤.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٤٦.
(٤) نفسه ص ٢٤٦.

الظروف ومتابعة النشاط التوسعي في هذه الجهات، متوجساً الخطر على ما يبدو من عملية بيزنطية تهدد طريق العودة الطويل إلى مقر ولايته. ومن هنا فإن النتاج التي أسفرت عنها سبيطلة، لم تتناول أي تغيير جديد في الصراع على النفوذ في المنطقة. فقد تراجع قائد الحملة بعد انتصاره الكبير دون أن يقيم مركزاً عسكرياً أو حامية مسلحة، بل اقتنع بمجد النصر وفُتن بسحر الغنائم [1]. ولكن سبيطلة لم تخل من نتائج هامة، حيث كانت ضربة قوية أصابت معنويات البيزنطيين في صميمها، وكان عليهم حينذاك الحساب بدقة لكل مجابهة مع المسلمين الذين استعادوا طرابلس بعيد انتصارهم في سبيطلة، مما يعني أن أي تحالف مرتقب مع البربر سيلحق به الفشل، بعد سيطرة المسلمين على الخط الساحلي، جنوبي هذه المدينة.

كانت حملة ابن سعد إلى إفريقية، العمل العسكري البارز في عهد الخليفة عثمان. وباستثناء عمليات صغيرة على الأطراف الجنوبية من مصر لم يقم أي تحرك جدي في هذه الجبهة، لأن الخلافة غرقت في أزماتها الداخلية التي فجّرها الصراع على النفوذ بين فريق السلطة من الأقارب والأعوان، وبين العسكريين المبعدين في الثكنات والحملات الحربية. وقد عكست هذه الحالة تأثيرها السلبي على سياسة الفتح، بحيث أصيبت الجبهات المختلفة لا سيما الجبهة الإفريقية بركود طويل، استمر حتى سقوط الخلافة الراشدة ومجيء الأسرة الأموية بزعامة معاوية بن أبي سفيان، بعد أن أخذت الحرب الأهلية كل الاهتمام من السنوات الخمس التي أمضاها علي في الخلافة.

ولقد حدث بعد حسم الموقف لمصلحة معاوية، أن أُعيد عمرو بن العاص إلى مركزه السابق في مصر، كجزء من التسوية التي اتُفق عليها بين الرجلين في صفّين. ولكن معاوية الذكي كان يقظاً في مراقبة واليه الطامح إلى جعل مصر وما يتبعها، ملكاً آخر لا يقل بريقاً عن ملك سيده معاوية. فما كاد

(١) العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ٢٦.

يعود إلى الفسطاط حتى أخذ يخطط لاتساع ولايته باتجاه الغرب والجنوب، ذلك أن الانتصارات السابقة التي حققها في مصر وبرقة وطرابلس، والسرعة التي تمت بها، أعطته ثقة كبيرة في نفسه، فتاق إلى التوسع والمزيد من السيطرة والثراء، وكانت تلك الحملات الدورية الصغيرة التي أخذت طريقها في أكثر من اتجاه، فخضعت حركات البربر الذين تظاهروا بالولاء للحكم العربي الإسلامي، في حين كانوا يلجأون إلى التمرد مع كل سانحة. ثم انتشرت إلى الجنوب وحققت السيطرة على بعض المواقع الهامة في السودان حيث كان لواء هذه الحملات معقوداً لعقبة بن نافع، قائد الحامية في برقة وقريب عمرو بن العاص (١).

وعلى الرغم من أهمية هذا الجهد الذي قام به عقبة، فإن ذلك لم يدخل في إطار النشاط التوسعي الحاد في المغرب، بل كان مجرد عمليات استطلاعية أو حملات وقائية إذا شئنا، ضد قبائل البربر المتذبذبة في الولاء للحكم العربي الإسلامي. غير أن هذه الحملات ستكون بدون ريب مقدمة للفتح المنظم الذي كان رائده وفارسه المجلّي عقبة بن نافع بعد نحو عشرين عاماً. وهكذا انحصرت جهود والي مصر في إطار ضيّق، لا يتناسب في كل الحالات مع طموحه الكبير الذي عاد به إلى ولايته. ولعل تقدمه في السّن خذل هذا الطموح وأعاق أحلامه التوسعية في هذه المنطقة. وتشاء لعبة الحظ أن تقف دائماً إلى جانب خليفة دمشق، فينتهي من حليفه الخطر عمرو بن العاص، بموته بعد سنة واحدة من إتمام عقبة مهمته في الجنوب (٤٤/ ٦٦٥). ويكون أول قرار يتخذه في أعقاب ذلك، هو الفصل بين ولاية مصر وبين ولاية إفريقية (الاسم الغالب عليها في ذلك الحين)، التي ستصبح مستقلة ومرتبطة مباشرة بعاصمة الخلافة. وقد استمر هذا القرار سارياً حتى سنة (٥٠/ ٦٧٠) عندما عُيّن مسلمة بن مخلد والياً على مصر والمغرب (٢).

(١) ابن الأثير، الكامل ج٢ ص٢١٢.
(٢) الطبري ج ٦ ص ١٣٤.

فتوحات العهد السفياني: الحملات المنظمة بعد موت عمرو بن العاص، وانفصال المغرب عن ولاية مصر، أصدر معاوية قراراً آخر بتعيين قائد على الولاية المستجدة هو معاوية بن خديج الكندي، وأمره بالتحرك في السنة التالية (٤٥ هـ) إلى برقة لاستلام مهامه، ومعه أوامر باستئناف الأعمال العسكرية في المغرب. وبعد وصوله إلى الفسطاط وقف معاوية بن خديج على دقائق الموقف، في وقت كانت الدولة البيزنطية في عهد الامبراطور قسطنطين الثاني، تعمل على إعادة نفوذها إلى إفريقية بعد الضربة التي كسرت شوكتها في سبيطلة، فأخذت في حشد قوات كثيفة لاستعادة ما خسرته هناك.

وتصادف المؤرخ هنا مشكلة تحديد الوقت الذي تمت فيه حملة القائد الجديد إلى إفريقية. ولعل السبب في ذلك هو الخطأ الذي وقع فيه المؤرخ القديم (ابن عبد الحكم) وعدد آخر من المؤرخين المحدثين، حين قالوا إن الحملة تمت في سنة ٣٤ هـ، أي في خلافة عثمان وولاية عبدالله بن سعد على مصر. ويعتقد أن سبب هذا الالتباس ربما يعود إلى مشاركة ابن خديج في إحدى الحملات الإفريقية في أيام عبد الله بن سعد، خاصة تلك الحملة التي تحدّث عنها ابن عبد الحكم نفسه، وتعود إلى سنة ٣٤ هـ[1]. ولم يكن هذا القائد جديداً على مسرح النشاط العسكري في إفريقية، بل كان يتردد اسمه كعنصر فاعل في جيش عبدالله بن سعد، مشاركاً في كل أعماله الحربية[2]. ومما يسقط الاعتقاد نهائياً أن هذه الحملة ـ كما يُقصد بها ـ حدثت في هذا الوقت حسب رواية ابن عبدالحكم، ما جاء عن وجود عبد الملك بن مروان[3] كمقاتل فيها، مع أن عمره حينذاك لم يكن يتعدى العشر سنوات. وبناءً على ذلك فإن حملة ابن خديج، هي حملة أموية الطابع تمت بعد أعوام من انتقال الحكم إلى الأمويين. وكانت تشبه إلى حد ما حملة عبدالله بن سعد

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦١.

(٢) قيل ان معاوية بن خديج أصيب في عينه سنة ٣١ هـ أثناء حملة الى النوبة. ابن عبد الحكم ص ٢٥٣.

(٣) نفسه ص ٢٦٠.

بمن شارك فيها من الأسماء المعروفة كعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر وعبد الملك بن مروان وغيرهم، ولكنها كانت أقل كثافة منها حيث بلغت نحو عشرة آلاف مقاتل، كان الخليفة الأموي قد أعدَّهم من نخبة الجند ذوي الخبرة والمعرفة بشؤون إفريقية [١].

غادر معاوية بن خديج الاسكندرية إلى المغرب مُتخذاً الطريق التقليدي إلى برقة فطرابلس، دون أن يصطدم بعقبات أو مفاجآت في هذه النواحي التي باتت الحكم العربي الإسلامي فيها مستقراً وراسخاً. وكانت وراء ذلك بشكل رئيسي، الجهود الدائبة التي قام بها عقبة بن نافع أحد قواد هذه الحملة. وتوقف الجيش أخيراً في قونية أو قمونية، الواقعة إلى الجنوب من قرطاجنة، وقد وصفها ابن عبد الحكم بأنها تحتل الموقع الذي قامت عليه القيروان[٢]، مما يعني أن حملة ابن خديج سلكت طريق الحملة السابقة وانتهت تقريباً إلى نفس المكان.

وفي تلك الأثناء تناهى إلى مسامع البيزنطيين أنباء التحرك الأموي، وكانت قرطاجنة تعج حينئذ بالأفواج القادمة من جنودهم بقيادة نقفور[٣] Neciphore الذي يبدو أنه أُرسل في نفس الوقت حاكماً على أفريقيا البيزنطية، في أعقاب اضطرابات نالت كثيراً من سيادة البيزنطيين فيها. ولكن الحاكم الجديد لم يكن كما يبدو قادراً على إنقاذ هذه السيادة، لأن الروح المعنوية لدى مقاتليه لم تكن على المستوى المطلوب. فبعد سلسلة من المناوشات الخفيفة تقدم الجيش الأموي ليتخذ معسكره في جبل القرن، وقام أحد قواده[٤] ومعه مجموعة من الفرسان بهجوم جريء على مواقع الجيش البيزنطي قرب (سوسة)، وهي مدينة ساحلية غير بعيدة عن القيروان، فأحدث هلعاً في صفوف البيزنطيين؛ الذين تهافتوا مذعورين

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ١ ص ١٦.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٣) نجفور عند ابن عذاري، البيان ج ١ ص ١٦.

(٤) عبد الله بن الزبير.

إلى سفنهم، التي حملتهم إلى قاعدتهم الرئيسية في البحر المتوسط (صقلية)، دون حدوث أي اشتباك بين الطرفين[1]. وأعقب القائد الأموي هذا النصر بعمل آخر لم يكلفه من الجهد كثيراً، حين عهد إلى قائد آخر في الحملة[2] بمهاجمة أحد الحصون البيزنطية الهامة (جلولاء Gouloulis)، وهو على مسافة نحو عشرين ميلاً من القيروان، فتمكن من إسقاطه دون صعوبة تُذكر. وقيل إن عامل الصدفة ساعد الأمويين على الظفر بهذا الحصن، عندما سقط فجأة أحد أسواره، الأمر الذي مهّد الطريق أمامهم لاختراقه[3].

وهناك أخبار عن قيام معاوية بن خديج بعمليات عسكرية أخرى، كهجومه على بعض مدن الساحل في الشمال[4] أو هجومه على جزيرة صقلية[5]، متتبعاً القائد البيزنطي المهزوم. ولعل أمر الهجوم على صقلية يحتاج إلى تدقيق أكثر قبل الأخذ به، لا سيما وأن الوقت الذي ذُكر أنه حدث فيه (٤٦ هـ)، لم يكن سلاح البحرية لدى الأمويين قد تطور بصورة جدية ومتكافئة مع السلاح البحري البيزنطي. كذلك لم يكن الأمويون قد أنشأوا قاعدتهم الإفريقية، ليكون أمر المطاردة في البحر ميسوراً، فضلاً عن ذلك فإن حملة معاوية بن خديج كانت حملة برية، وسلكت طريقاً برياً ومن ثم عسكرت في مكان يبعد عدة أميال عن البحر. لذلك، فإن حملة صقلية لا تعدو أن تكون مجرد تصور خاطىء عند بعض المؤرخين التقليديين كالطبري، والبلاذري، وابن عذاري، إنجر إليه عدد من المؤرخين المعاصرين على الرغم من وصول بعضهم إلى نفي قاطع لهذه الرواية[6].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ١ ص ١٦.
(٢) عبد الملك بن مروان.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٦١، ابن عذاري ج ١ ص ١٧.
(٤) من هذه المدن (بنزرت) عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ١٣٠.
(٥) ابن عذاري ج ١ ص ١٨.
(٦) حسين مؤنس، فجر الأندلس ص ٣٩.

وهكذا أتيح لمعاوية بن خديج، أن يسهم في تنشيط خطة الفتح الأموي للمغرب، حيث شكلت هزيمة البيزنطيين والمواقع العسكرية الهامة التي افتقدوها، بداية الاختلال الواضح في موازين القوى بين الأمويين والبيزنطيين في إفريقية. وعلى الرغم من ارتكاب القائد الأموي نفس الخطأ الذي وقع فيه القائد السابق عبدالله بن سعد، بعودته دون القيام بإجراءات عسكرية أو إدارية تضمن استمرار هذه المنطقة في ظل الحكم الأموي، إلا أن هذه العملية أسهمت بدون شك في خلق أجواء أفضل لانتزاع المبادرة من البيزنطيين والسيطرة على المغرب.

ولم يستمر معاوية بن خديج طويلاً في منصبه، حيث صدر قرار بعزله (٤٨ / ٦٦٩) وتعيين القائد الآخر عقبة بن نافع الذي عرفته الجبهة الإفريقية واحداً من فرسانها المشغوفين بالجهاد. ومن المستبعد أن يكون قرار العزل له علاقة بتقصير ما وقع فيه القائد السابق المقرب من الخليفة. ذلك أنه اختير لمهمة محددة وأنجزها كما أريد له إنجازها، ضمن ظروف لم تكن على الأرجح - والحكم الأموي في بداية سنواته - ملائمة لتحقيق ما يتجاوز ذلك. ومن جهة ثانية فإن الدولة قدرت له جهوده بتعيينه، والياً على مصر في وقت لاحق، ولكن دون أن يبقى طويلاً في هذا المنصب، حيث تولى مسلمة بن مخلد[١] شؤون مصر وإفريقية[٢]. وليس ثمة شك أن اختيار الخلافة آنذاك لعقبة بن نافع، كان مؤشراً لتطور جديد في خطة الفتح الأموي للمغرب، ونابعاً من قناعة تامة بأن القائد الجديد هو رجل المرحلة المستقبلية التي تنتهي معها حروب الاستنزاف والسرايا العادية، لتبدأ مرحلة ذوي الكفاءات والألمعية العسكرية من فرسان وجنود هذه الجبهة.

عقبة بن نافع: رائد الحملات المنظمة في المغرب يتفق المؤرخون على

---

(١) عُيِّن سنة ٤٨ هـ. ابن عذاري ج ١ ص ١٨.

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٣٤.

أن الحملات العسكرية المنظمة التي استهدفت فتح المغرب، إنما بدأت مع عقبة بن نافع الفهري، الوالي الجديد لإفريقية، حيث تتأرجح بدايتها ما بين سنتي ٤٩ و ٥٠ هـ تبعاً للروايات المختلفة. ولعل الالتباس حادث في الخلط بين السنة التي عيّن فيها عقبة قائداً عاماً لجبهة المغرب [١] وبين السنة التي نفّذ فيها المهمة وقاد حملته العسكرية إليها، وإن كان الأقرب إلى الحقيقة بعد مقارنة مجمل الروايات، هو التاريخ الثاني[٢] الذي يتوافق عملياً مع تحركات شهدتها الدولة الأموية في هذا المجال، بعد استقرار الوضع السياسي فيها.

بدأ القائد الجديد تحركه العسكري بسلسلة من الحملات الناجحة إلى غدامس، حيث يبرز هنا اسم زهير بن قيس البلوي (والي إفريقية في عهد مروان ابن الحكم)، الذي بقي في المدينة ومعه حامية صغيرة، كمؤشر للخطة الجديدة التي اتبعها عقبة، وهي الاحتفاظ بالأرض وليس الغزو فقط، كما حدث في الماضي. وبعد غدامس خضعت فزّان وعاصمتها زويلة، بالإضافة إلى عدد من المدن الهامة الواقعة في المغرب الأدنى[٣]، حيث كان لشخصيته العسكرية تأثير كبير في نفوس البربر، الذين تهيبوا جسارة هذا القائد وقوة إرادته في القتال.

وكانت الخطوة التالية والأكثر أهمية، هي الشروع في ترسيخ جذور الإسلام على أرض المغرب، عبر إنشاء قاعدة عسكرية في قلب البلاد التي تمت السيطرة عليها، وذلك من أجل تحقيق هدفين: أولهما توسعي يرمي إلى إيجاد حامية ثابتة تغطي عمليات الهجوم في أطراف المغرب من جهة، وتؤمن الخطوط الدفاعية للحكم الأموي من جهة أخرى، وثانيهما أن تكون مركزاً

(١) حدث ذلك سنة ٤٩ هـ على الأرجح.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٤٧.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٦٤.

لصنع أجيال مستقبلية من البربر تنصهر مع العرب في إطار واحد هو الإسلام.

ويبدو أن الظروف السياسية كانت مواتية في ذلك الحين، مع انصراف البيزنطيين عن التصدي بصورة جدية لمشاريع عقبة التوسعية، إلى معالجة مشاكلهم في الداخل بُعيد مقتل الإمبراطور قسطنطين الثاني الذي عُرف بسياسته العدائية للعرب المسلمين، ومن ثم تفرُّغ خليفته إلى الاهتمام بحركة التمرد التي قامت في صقلية إحدى ولايات الامبراطورية [1]. فالوقت ملائم إذن لترسيخ النفوذ الأموي في تلك المنطقة، دون ثمة مواجهة بيزنطية ظاهرة، أو مقاومة من البربر الذين كانوا أقرب ربما إلى الالتقاء مع العرب المسلمين في صف واحد أكثر من الرفض لهم. ذلك أن الوجود البيزنطي لم يعكس تأثيره القوي عقائدياً أو حضارياً على طبيعة البربر، الذين كانت علاقتهم بالبيزنطيين علاقة عسكرية سطحية.

ولم يبق أمام القائد الأموي سوى اختيار المكان المناسب للقاعدة العسكرية التي قرر إنشاءها، دون أن يأخذ ذلك من وقته الكثير، لأن المبدأ العام الذي اعتمده العرب في هذا المجال، أن تقام هذه القواعد على مسافة ما من خط المواجهة مع العدو، لتكون خطوطهم الدفاعية في مأمن، وتكون ظهورهم محمية بالعمق من الأرض، لتسهيل تراجعهم في الوقت المناسب.

وهكذا كان اختيار القيروان [2] ـ الاسم الذي عرفت به قاعدة عقبة ـ في إحدى الوديان ذات الأشجار الكثيفة غير البعيدة عن الساحل [3]. وهي تقع بالتحديد إلى الجنوب من قرطاجنة، وإلى الغرب بمسافة أقل من

---

(١) عبد الحميد، المغرب العربي ص ١٤٣.

(٢) يعتقد أن القيروان مأخوذة من أصل فارسي يعني القافلة. حول بناء القيروان راجع: ابن عذاري ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١.

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

سوسة المدينة التي سقطت أثنا حملة ابن خديج. وقد استغرق العمل في القيروان نحو أربع سنوات حيث كانت أولى معالمها دار الإمارة أو مركز الحكم، والمسجد الذي حمل حتى اليوم اسم القائد الفهري [1]، فضلاً عن الأسوار ومساكن الجنود التي بنيت بصورة تدريجية. ولقد نمت المدينة بسرعة مدهشة، يساعدها الموقع الجغرافي في منطقة من الأشجار والمراعي، وكذلك موقعها على امتداد الخط البري الذي يصل بينها وبين الفسطاط، وينأى بها عن أي خطر بيزنطي من جانب البحر. وتأخذ القيروان دورها المرسوم، فتنطلق منها الحملات الصغيرة التي عرفت عند العرب بالسرايا في وقت واحد مع بناء القاعدة. فلم يكن الجيش بكامل عناصره منهمكاً في هذا العمل، وإنما كان فريق منه يشق طريقه إلى المناطق المجاورة، في مهمات عسكرية وتبشيرية أصابت كثيراً من النجاح. فشخصية عقبة القيادية وحرارة الحماسة لدى المقاتلين من جانب، وفراغ الساحة من أي تحرك بيزنطي مضاد من جانب آخر، وجدا مناخاً ملائماً للتحرك بحرية وتحقيق مكاسب هامة، سياسية وعسكرية.

وفي غمرة ذلك الشعور بالنجاح في تثبيت إقدام العرب المسلمين في المغرب، وظهور الولاية الإفريقية إلى حيز التنفيذ، تفاجأ القيروان بعزل قائدها المظفر عقبة بقرار من الخليفة الأموي (٥٥/ ٦٧٤)، وتعيين قائد آخر هو أبو المهاجر الأنصاري، وكأن القواد العظام قدرهم أن يصنعوا الانتصارات ويحترقوا بنارها، فيظلون أسرى منجزاتهم التي غالباً ما تعود عليهم بالسوء ونكران التقدير. ويبدو أن تنحية عقبة عن القيادة، كانت له خلفيات سياسية معينة. فمن المؤرخين من رد السبب إلى خلاف بين عقبة وبين رئيسه المباشر والي مصر (مسلمة بن مخلد)، ضمن التفسير التقليدي حول المنافسة بين الرجلين [2]، أو لأن الأخير، الذي حظي بثقة معاوية، آثر أن يكون هذا

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٧ ص ١٩٤.

(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس ص٤٠، عبد الحميد، المغرب العربي ص ١٤٩.

المنصب لمولى الأنصار - وهو أنصاري كذلك - أبي المهاجر دينار[1].

ومن غير اليسير أن ندرك السبب الرئيسي لإبعاد عقبة عن قيادة القيروان، لأن غموضاً يحيط بهذا القرار لم تتمكن من كشفه روايات المؤرخين بشيء من الإقناع، لا سيما وأن عقبة لم يبعد عن هذه الجبهة، أو يتعرض لملاحقة أو اضطهاد، وإنما أبعد عن القيادة فقط. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن وراء العزل قراراً سياسياً، تجاوز الحساسيات والعلاقات الشخصية. فلعل الخلافة لجأت إلى ذلك قبل أن يأخذ عقبة الحجم الذي ترفض أن يبلغه أحد من القواد، بما يتعارض والنزعة الفردية لدى معاوية الذي لا يستسيغ هذا النوع من الشخصيات القيادية القوية[2].

وامتثل عقبة لقرار العزل، وعبّر كعسكري محترف عن انضباطيته الشديدة متعاوناً إلى أقصى الحدود مع القائد الجديد. ولم يكن هذا الأخير بعيداً عن أجواء الحرب، بل كان يجمع بينه وبين عقبة قاسم مشترك بانتمائهما إلى مدرسة واحدة في القتال مع اختلاف في الممارسة. فعقبة كان أميل إلى العنف وحسم المواقف بالسيف بحكم تربيته العسكرية، في حين كان أبو المهاجر بارعاً في المحاورة واعتماد السياسة.

وكانت أبرز أعمال أبي المهاجر أثناء قيادته التي دامت خمس سنوات (٥٥ - ٦٠ هـ)، ذلك الهجوم الذي شنه على معاقل أوربة - إحدى أقوى قبائل البربر من البرانس - الواقعة في جبال أوراس. وقد ظهر دهاء القائد الجديد في اجتذاب زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم والتعاون معه بعد «إيمانه» بالإسلام، مع أن المسيحية كانت قد عرفت طريقها في وقت سابق إلى هذه القبيلة. وإذا صح اعتقاد كسيلة وجماعته آنذاك بالإسلام فإن إيمانهم كان سطحياً، لا يلبث أن يخبو بانقلاب كسيلة على الأمويين في وقت لاحق.

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٢.
(٢) علاقة معاوية مع عمرو بن العاص ومحاولته انتزاع مصر من يده رغم الخدمات الجلى التي قدمها هذا الأخير له.

على أن ذلك لم يخل من أثر إيجابي على العلاقة بين الطرفين، حيث كانت الخطوة الأولى فيها، الغزو المشترك لتلمسان في قلب المغرب الأوسط.

بعد ذلك عاد أبو المهاجر أدراجه نحو القيروان، ليقوم بأعمال عسكرية ضد البيزنطيين، فينعطف شمالاً باتجاه قرطاجنة ويشن عليها هجوماً عنيفاً (٥٩/ ٦٧٩). ويبدو أن تحركه إلى القاعدة البيزنطية لم تكن له أبعاد الاحتلال المنظم، وإنما كان مجرد محاولة لاستكشاف إمكاناتها الدفاعية. فبعد حصار قصير للمدينة، تراجع عنها لقاء مساومة على أحد المواقع القريبة منها[١]، حيث كانت هذه العملية على ما يبدو آخر أعماله العسكرية. غير أن اتصالاته مع البربر لا سيما قبيلة أوربة ظلت قائمة، وسادها الهدوء طوال ولايته، التي استمرت ما بقي معاوية الذي كان معجباً بهذا النوع من الرجال ذوي الحنكة، المتوافقين مع مزاجه.

وبموت هذا الخليفة (٦٠/ ٦٨٠)، يصبح مركز القيادة في القيروان في مهب التغيرات، التي عادة ما تحدث في أعقاب انتقال السلطة من حاكم إلى آخر. وكان يزيد بن معاوية الخليفة الجديد، مقدّراً جهود القائد السابق عقبة وعلى صلة وثيقة به، ربما نتجت عن إقامة هذا الأخير فترة ما في دمشق قريباً من ولي العهد الشاب[٢]. وما كاد يزيد يتربع على سدة الخلافة، حتى أمر بأن يعاد إلى القيروان قائدها السابق، لاستئناف مشاريعه التوسعية التي خطط لها قبل عزله.

وكان عقبة متعطشاً للعودة إلى إفريقية، بعد أن قطع جلّ سنواته من الشباب إلى الكهولة، مقاتلاً على أرضها لصيقاً بأحداثها. ويبدو أنه كان لا يزال يحمل شيئاً في نفسه على سلفه، بعدما قيل عن اتجاه الأخير إلى طمس

(١) شبه جزيرة شريك.
(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧، ابن عذاري ج ١ ص ٢٢.

جهوده [1]، فهناك أخبار عن اضطهاده لأبي المهاجر واعتقاله، وإن كان رواتها قد جنحوا إلى المبالغة في تضخيمها، وربطها بأمور ليست في مصلحة عقبة، خاصة ما ذُكر عن قمع قبيلة أوربة انتقاماً من أبي المهاجر، وهو يعلم أن ذلك سيعود عليه بالضرر الكبير. وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نأخذ في الإعتبار قصة الأصفاد [2] التي وضع فيها أبا المهاجر أثناء غزوته إلى السّوس. فإذا صح ذلك كان الحري به أن يسجنه في القيروان بعيد عودته، دون أن يكون لوجوده أي خطر على عقبة ومعه الجزء الأكبر من الجيش. ثم كيف يكون محكوماً عليه بالسجن في حملة عسكرية، وفي نفس الوقت يكون أحد قوادها المستبسلين حسب الرواية التاريخية[3]؟

وصل عقبة إلى القيروان، وقد منحه الخليفة صلاحيات واسعة، حيث أصبح ارتباطه المباشر به، بعد فصل الولاية الإفريقية مرة أخرى عن مصر، ربما كبادرة لإعادة الاعتبار إليه بعد عزله خلال السنوات الخمس السابقة. وما لبث أن شغل عقبة نفسه بالإعداد لعملية كبرى، في نطاق سياسته التوسعية لاجتياح المغرب. فبعد اجراءات تنظيمية وإدارية سريعة، خرج بحملته نحو المغرب الأقصى، تاركاً زهير بن قيس قائداً للحامية في القيروان ومعه «جند من المسلمين» [4]. ويبدو أن جماعة من قبيلة أوربة قد شاركت في هذه الحملة، كان دورها محصوراً على الأرجح في تزويد الجيش بالمعلومات الجغرافية عن تلك البلاد البعيدة. فلا نستطيع إثبات مشاركتهم كمقاتلين إلى جانب العرب، لأن موقف كسيلة زعيم أوربة، كان غامضاً في تلك الفترة، حتى أن بعض المؤرخين يصفه بأنه كان معادياً لعقبة، منذ أن تحرك الأخير

(١) قيل إن أبا المهاجر رفض النزول في القيروان وقيل إنه أمر بتخريبها. ابن عبد الحكم ٢٦٦، ابن عذاري ج ١ ص ٢٣.
(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٢٣.
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩.
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣.

بحملته [1]، دون ثمة تفسير لذلك سوى أن كسيلة وجد في القائد الجديد شخصية الفاتح المهدد لنفوذ ومصالح البربر.

ولقد حقق عقبة في مسيرته الطويلة انتصارات باهرة، بدءاً بغزو باغاية (بجاية) على الساحل الإفريقي إلى الغرب من قرطاجنة، حيث اشتبك في معركة ضد البيزنطيين وصفت بأنها من أعنف المعارك[2]. ولكن تراجع البيزنطيين إلى داخل المدينة، أدى إلى إطالة أمد الحصار، واضطرار عقبة إلى العزوف عنها نحو الجنوب، متخذاً الطريق المرسوم لحملته، وهو على الأرجح الطريق المحاذي للسفوح الشمالية لجبال أطلس. فاجتاح إقليم الزاب في المغرب الأوسط ودخل المسيلة عاصمة الإقليم، بعد طرد البيزنطيين وحلفائهم من البربر [3]، ثم تابع فلولهم إلى تاهرت (تيهرت) [4] وأوقع بتحالفهم هزيمة عنيفة. وبذلك تمت له السيطرة الكاملة على المغرب الأوسط وأخمد فيه كل تحرك عدائي ضد العرب المسلمين، في الوقت الذي انفتح الطريق أمامه لاختراق المغرب الأقصى. وتجدر الإشارة إلى أن الموقف السياسي العام عند البربر، لم يكن قد تبلور بعد إزاء هذه الموجة التوسعية ، حيث كانوا لا يزالون حتى ذلك الحين يرقبون الأحداث والصراع الأموي ـ البيزنطي. ولم يكن العرب المسلمون من جهتهم، قد توغلوا كثيراً في الداخل أو اصطدموا بنظام القبيلة المتزمت عند البربر، بينما الذين دخلوا طرفاً في الصراع الحربي الدائر بين القوتين الكبيرتين، كانوا في معظمهم من البرانس الذين كانت لهم مصالح في بقاء القواعد البيزنطية حيث يعيشون في مناطق محاذية لها على السواحل،

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٨ .

(٢) ابن الأثير، ج ٤ ص ٥٣ . ابن عذاري ج ١ ص ٢٤ .

(٣) قبائل لواتة وهوارة ومكناسة . ابن عذاري ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤ .

وكان لهم أكثر من هدف في التصدي للجيوش الأموية، دفاعاً عن مصالحهم المتشابكة مع القواعد البيزنطية.

بعد ذلك تابعت حملة عقبة انتشارها في أقاصي المغرب ظافرة متقدمة، فبلغت الثغر الشهير طنجة التي احتلت موقعاً فريداً على المدخل الغربي للبحر المتوسط، واتخذت مركزاً إدارياً للمنطقة الساحلية الممتدة ما بين طنجة وسبتة. غير أن هذه المنطقة تمتعت في ذلك الحين بقدر من الاستقلال، مما أعطى حاكمها حرية الحركة في اتخاذ الموقف المناسب (١). فشاء أن يقيم علاقات ودية وحسن جوار مع الفاتحين، بدل التصدي والمقاومة (٢). وإذ شئنا تعليل هذه الاستقلالية لإقليم طنجة، فمن المرجح أن تكون خاضعة للعامل الجغرافي وتقلص السلطة المركزية التي فقدت كثيراً من تماسكها،خاصة في أقاليم المنطقة الغربية من البحر المتوسط. ويبدو أن عقبة لم يكن في ذهنه حسم الأمر مع المدن الساحلية التي كانت أشبه بقلاع عسكرية حصينة، لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لتصفية هذه المواقع الهامة، ضمن الإمكانات الأموية المحدودة، سواء في مجال البحرية أم في وسائل الحصار التي لم يكن العرب المسلمون قد وقفوا على جانب متطور منها بعد. فهذا ما حدث أثناء حصار باغاية، وتكرر تقريباً مع طنجة، ولكن من دون حاجة إلى الحصار، لأن حاكمها البيزنطي وضع كل طاقاته في خدمة الأمويين تسهيلاً لتحركهم في هذه البلاد النائية.

ولم يتردد عقبة في الاستجابة لعروض حاكم طنجة (٣)، تاركاً وراءه هذا الإقليم، لينعطف جنوباً نحو الداخل، ويصل إلى وليلة أو وليلي، إحدى

(١) تشير المصادر الى أن يوليان كان حاكماً على هذا الاقليم في ذلك الوقت ولا ندري أهو نفسه الذي ارتبط اسمه بحملة الأندلس بعد ثلاثين عاماً ام أنه شخصية اخرى تحمل نفس الاسم؟
(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٣، ابن عذاري ج ١ ص ٢٦.
(٣) المكان نفسه.

المدن القديمة[١] في أطراف المغرب الأقصى. وهناك أنزل بالبربر «المصامدة»[٢] ـ وهم سكان أطلس الوسطى ـ ضربة قوية أرغمتهم على الفرار إلى الصحراء. فاقتفى أثرهم حتى وصل إلى درعة في أقصى الجنوب[٣]، ولكن دون أن يجد ما يشجعه على الاستمرار في هذا الاتجاه الصحراوي، مؤثراً الصعود مجدداً نحو الشواطىء الغربية للمغرب الأقصى، حيث المدن العامرة وحيث المغامرة تهون لدى الجند المقتحمين أغوار المجهول. وهناك في آخر خطوة من المسيرة الطويلة أخضع عدداً من المدن الهامة، تحت أقدام أطلس العظمى، وسارعت صنهاجة القبيلة الكبيرة تعلن ولاءها للقائد الأموي[٤]. ثم خضعت إغمات (إلى الشمال الشرقي من مراكش) بعد حصار قصير، وتبعتها مدينة أخرى إلى الغرب (نفيس) وهي أحد المراكز الهامة في تلك المنطقة. ومن هناك انتهى به المطاف إلى السوس الأقصى، فاجتاحه دون مقاومة، مسيطراً على مدنه الرئيسية حتى أدرك أخيراً «أيغيران يطوف» على ساحل المحيط. وإذ بلغ عقبة هذا الحد من فتوحاته، عبر أضخم مغامرة عسكرية عرفتها دولة الأمويين حتى ذلك الوقت،عادأدراجه إلى القيروان وفي نفسه ظمأإلى الحرب ورغبة ملحة في متابعة الجهاد. والواقع أن الروايات التاريخية تكاد تجمع على وضع هذا القائد في مصاف القواد العظام الذين عرفهم العرب في الإسلام، بل ينفرد أكثر من غيره بنزعته الجهادية البارزة التي أعطت لأعماله بُعداً ربما حمل بعض ملامح الأساطير[٥].

وتشاء المقادير أن تكون رحلة العودة محفوفة بالمخاطر، على خلاف ما

---

(١) تقع على مسافة قريبة من مدينة فاس عاصمة الادارسة في وقت لاحق.

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٢٦.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) ابن عذاري، ج ١ ص ٢٧.

(٥) نسب الى عقبة بعد بلوغه ساحل المحيط أنه نزل بفرسه الى الماء وقال: يا رب، لولا أن منعني هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ابن الأثير ج ٤ ص ٥٤. راجع ابن عذاري ج ١ ص ٢٧.

تـوقعه القـائد الأمـوي. فبعد أن اطمـأن إلى ما أنجـزه في المغـرب الأقصى، ودون أن يشعر بأي تحوّل معاكس في ولاء المـدن والأقاليم بعـد انتهاء مهمتـه وقرار العودة، حيث ترك فيها أصحاباً له يقومون بدورهم التبشيـري والتفقيهي، وبعد أن أدرك ربما عن خطأ في التقدير أن ولاء البربر لن يكون مـوضع ريب، حدث ما قلب كل التوقعات حين أرسل الجانب الأكبر من قواته لمهمات معينة بعد وصولـه إلى إقليم الزاب. ولعلهـا عملية استـدراج من حليف العرب منـذ أيام أبي المهاجر، الزعيم البـربري كسيلة، أقنعت عقبـة باتخـاذ هذا الإجـراء والبقاء مع نفـر قليل من جنـوده لا يتجاوز الخمسـة آلاف، حتى إذا وصل إلى مدينة تهودة (تاهودة) في منطقة الأوراس، فوجىء باعتراض الزعيم البربري له بالاتفاق مع البيزنطيين الذين أحـاطوا بحملتـه من الشمال[1]. ولم يكن هنـاك بدٌ من مواجهة هذا العدد الضخم، في وقت غير مـلائم وبموازين عسكـرية غـير متكافئة. فخـاض الجنود بقيـادة عقبة معـركة بـطولية عنيفـة، قتل فيهـا القائـد الأموي وعدد آخر من القواد كان بينهم أبو المهاجر، بينـما غرق البـاقون في بحـر من الدماء[2].

وقد أسفرت هذه الحادثـة عن نتائـج سيئة للغـاية، فلم تكن مجـرد عملية انتقامية موجهة ضد عقبة بن نافع كما يعتقد جانب كبير من المؤرخين[3]، بل كان لها بُعد على قدر من الخطورة. فلا يمكن أن نسمي ما قام به كسيلة ومعه خمسون ألفاً من البربر وحلفائهم كميناً، حتى لـو كان الـرقم غير دقيق ومبـالغ فيه. ذلك أن حشداً على هذا القـدر يفترض أن يكـون قد سبقـه إعداد منـظم وتخطيط بارع، للقضاء على الـوجود العـربي الإسـلامي في المغـرب. ولا نبالـغ في التصوّر إذا ما اعتبرنا هذه الحادثة، أولى الثورات التي قادها البربر ضد سياسة

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٩.
(٢) المكان نفسـه.
(٣) ابن الأثـير ج ٤ ص ٥٤ وقد اخـذ بهذا الاعتقـاد عدد من المؤرخـين المعاصـرين (مؤنـس) (سعـد زغلول عبد الحميد).

التوسع الأموية في بلادهم، بعد أن رأى هؤلاء في منجزات عقبة بن نافع وانتشار قواته حتى ضفاف المحيط الأطلسي، تهديداً لوجودهم واعتداء على سيادتهم المتوارثة التي لم تمس عبر التاريخ. فما زالوا يعيشون منذ البدء حياتهم ويمارسون تقاليدهم، متحررين من كل القيود حتى في ظل الدول المستعمرة من الرومان إلى الوندال إلى البيزنطيين. فهذه القوى غالباً ما كانت تنتشر سيادتها على السواحل أو المناطق القريبة منها، دون أن تتصادم مع سكان البلاد من البربر في الداخل. وغالباً ما كانت العلاقات تأخذ إطارها غير المتناقض بين الطرفين، وبأن مصالح كل منهما لا تتعارض مع الآخر. ولعل هذا الانفلات من السيطرة غير المباشرة، جعل البربر يمتازون عن غيرهم من الشعوب بنزعتهم الاستقلالية، التي كلفتهم كثيراً قبل التخلي عنها. فتحالف البربر مع البيزنطيين في عدة مواقع أثناء حملة عقبة، جاء عن قناعة بأن الأمويين عدوٌ مشترك للفريقين، حيث البيزنطيون لم يمثلوا في نظر البربر، ذلك الخطر الذي داهمهم على يد العرب المسلمين.

انتهت هذه المغامرة الناجحة إذن، بثورة معاكسة من جانب البربر قضت على كل منجزاتها، دون أن تكتفي بهذا القدر من الانتقام، بل أرادت أن تجتث جذور الأمويين بمتابعة الهجوم إلى القيروان. وهناك حدث خلاف بين عناصر الحامية الأموية، من راغبٍ في القتال إلى عازفٍ عنه، حيث الموقف كان شديد الخطورة، دون أن تكون الحامية قادرة على حسم الموقف، مما حمل قائدها زهير بن قيس على الرضوخ والانسحاب بمن معه إلى برقة [(١)] .فخلت القيروان من الجند، ليدخلها كسيلة ويصبح أميرها المطلق نحو خمس سنوات (٦٤ - ٦٩ هـ)[(٢)].

ولعل طبيعة العلاقة بين البربر وبين عقبة بن نافع كانت في مضمونها

---

(١) كان زهير يرغب في القتال والدفاع عن القيروان حسب ابن عذاري ج ١ ص ٣٠.
(٢) المكان نفسه.

عدائية، بعد أن وجد هؤلاء في سياسة القائد الأموي تصميماً مركَّزاً، استهدف إلغاء شخصيتهم القومية وصهرها في مجتمع جديد تذوب فيه الكيانات ومعها الروح العصبية. فهي أول حملة في إفريقية تأخذ ذلك الطابع والمنظم، بحيث إنها اعتمدت تحقيق هدفين متوازيين: الأول هو الإحاطة بنفوذ البيزنطيين واقتلاع حامياتهم من السواحل المغربية، والثاني وهو الأهمّ، تثبيت الحكم الأموي في أوساط البربر ودعوة قبائلهم إلى الإسلام. ومن هنا كان انحراف عقبة جنوباً إلى معاقل البربر، دون الاهتمام كثيراً بإقليم طنجة المسالم. فشخصية القائد الذي وصف بالعنف لم تكن بالضرورة سبب تلك الغضبة البربرية، بقدر ما كان لحملته المنظمة التي اخترقت لأول مرة الحواجز التاريخية، التي أقامها البربر في وجه الفاتحين، مما سّوغ على الأرجح تلك «الثورة المضادة» التي دبرها كسيلة لضرب هذه السياسة التوسعية.

يبقى أن موقعة تهودة لا زالت محاطة بشيء من الغموض. فهل سبقتها عملية استدراج من الزعيم البربري، جعلت عقبة يوزع الجزء الأكبر من جنوده في مهمات عسكرية ؟ أم أن ذلك مجرد تسويغ أورده المؤرخون العرب، للتقليل من أهمية القوة القتالية لدى البربر وبالتالي تعليل الهزيمة المدمّرة؟ ذلك أن توقيت المعركة في وقت كانت خلافة دمشق تمر في أصعب مراحلها بعد موت يزيد، واستفحال الصراع بين محوري الشام والحجاز، يدفعنا إلى التساؤل عن مدى تأثير ذلك على الجبهة الإفريقية وارتباطه بهزيمة عقبة. فهل كان لهذه الأحداث الدامية من تأثير سلبي على نتائج تهودة وعلى سياسة الأموي في المغرب بصورة عامة؟ وهل كانت الدولة البيزنطية تمتلك تقويماً عن الأوضاع الداخلية المنهارة في عاصمة الخلافة؟

فتوحات العهد المرواني: استئناف الحملات المنظمة والاستقرار النهائي كانت معركة تهودة وانسحاب بقية الجيش الأموي إلى برقة كارثة جسيمة على العرب المسلمين، الذين فقدوا في تلك الضربة الصاعقة كل جهود السنوات الطويلة، وانكفأت سيادتهم إلى نقطة البدء تقريباً، أي أن

محاولات أربعين عاماً لإقامة حكم راسخ في المغرب أصيبت بالفشل. على أن الأمويين إذا فقدوا الأرض وأحبطت مشاريعهم التوسعية، فإنهم لم يفقدوا الإرادة والطموح للعمل من جديد، دون أن يعني لهم الجهد الضائع سوى الإصرار والعزم، برغم ظروف الدولة الأموية الصعبة التي لم تكن مؤهلة في ذلك الوقت للقيام بعمل عسكري، خارج نطاق المشاكل الداخلية، التي هزت دعائمها وأوصلتها إلى حافة النهاية. ففي تلك الأثناء وفي نفس العام الذي سقطت فيه القيروان في قبضة البرانس، كانت أحداث سياسية في منتهى الخطورة تشهدها دمشق ومكة والكوفة ومناطق أخرى من الدولة. فقد توفي الخليفة الأموي يزيد الأول، وما كاد الخبر يأخذ طريقه إلى الانتشار، حتى تمرد العراق وكان أول المتمردين، كتعبير عن عوامل السخط المتفاعلة في نفوس أبنائه منذ انتقال الخلافة إلى الشام الأموية، فانفجرت الثورة ملقية أقنعة الصمت في وجه عمّال الدولة، وأخذت تنتقل من يد إلى أخرى، مربكة الحكم الجديد ومعيقة مشاريعه السياسية.

وفي مكة تأخذ الثورة إطاراً تنظيمياً أكثر براعة، ويفيد زعيمها عبدالله بن الزبير من كل الظروف التي اتجهت حيناً لمصلحته، فتنتشر سيادته على العراق ومصر فضلاً عن الحجاز، ولكن دون أن يحسن اللعبة السياسية جيداً، فسقط من القمة. أما في دمشق فكانت المعركة سياسية بكل ملامحها، وكادت خلافة الأمويين تضيع في الجدل، لاختلاف الأسرة بعد استعفاء معاوية الثاني ـ أو إعفائه ـ على البديل، حتى انتصر أخيراً مؤيدو الشيخ المحنك مروان بن الحكم، الفائز بتأييد الحزب اليمني القوي في تلك المنطقة. فحُسم الموقف في مرج راهط لمصلحة الفرع المرواني، وجيء بشيخه إلى الخلافة (٦٥/ ٦٨٥). ولم يكن في مقدور النظام الجديد أن يقفز فوق هذه العقبات، وأن يعبر حواجز الخطر بهذه السهولة. وإذا ما استطاع مروان إنقاذه من الضياع خلال تلك الفترة الانتقالية القصيرة، فإن ابنه عبد الملك حمل على كتفيه

العبء الأكبر في استعادة عافيته وصلابته مثبتاً أنه رجل المرحلة بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد سياسية وعسكرية.

هكذا كانت أوضاع الدولة الأموية، وهي تلملم نفسها بعد شتات وتغرق في أمواج الثورات والصراعات الحزبية، التي كانت بمجملها محصّلة لسياسة يزيد وقصر نظره، تلك التي قضت بقلة من السنوات على منجزات سلفه. حدث كل ذلك في وقت كان فيه زهير بن قيس قابعاً في برقة بعد انسحابه من القيروان، ينتظر فرصته في إفريقية ويعدُّ نفسه للانتقام من كسيلة. ولكن الخلافة الأموية كانت لديها همومها غير الإفريقية في ذلك الوقت، فانصرفت بكل طاقاتها إلى الداخل، حتى إذا توضحت الصورة ورأى عبد الملك أن خصمه العنيد ابن الزبير فقد جناحيه (العراق ومصر) وتقوقع في مكة، خالجه شعور بالإطمئنان، وبأن الوقت قد حان للاهتمام بسياسة التوسع، لا سيما على جبهة المغرب. ففي سنة (٦٩ هـ/٦٨٨ م)، وقبل أربع سنوات من القضاء نهائياً على ثورة الحجاز، عهد الخليفة الأموي بولاية إفريقية إلى زهير بن قيس، الخبير بشؤون هذه البلاد وزوَّده بعناصر إضافية من الجيش الشامي للاشتراك في الحملة الانتقامية. وكان واسطة العقد أخو الخليفة ووالي مصر آنذاك، عبد العزيز بن مروان [١]. وقد عُرف عن هذا الأخير اهتمامه الزائد في شؤون المغرب، حيث كان ذلك المجهول وراء العمليات المنظمة التي أسفرت عن فتح المغرب نهائياً في وقت لاحق، لا سيما دوره في اختيار القائد الذي ارتبط بهذه المنطقة أكثر من غيره وهو موسى بن نصير، مستشار عبد العزيز وأحد المقربين إليه [٢].

وقد يتساءل الباحث هنا عن الأسباب التي دفعت الخلافة الأموية في تلك الظروف، إلى القيام بهذا العمل العسكري، في وقت كانت تحتاج فيه إلى

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٩.
(٢) أخبار مجموعة ص ٣. العدوي، موسى بن نصير ص ٣١.

كل طاقاتها في الحرب الأهلية الدامية. والجواب على ذلك لا بد أن يتطرق إلى تقويم حملة زهير، التي لم تكن ضمن إمكاناتها المحدودة مؤهلة لتنفيذ خطة توسعية، بقدر ما استهدفت أولاً استرجاع المبادرة من البيزنطيين لإثبات قوة الخلافة وقدرتها على القيام بعمليات عسكرية في الخارج.

وبسرعة نفذ زهير أوامر الخلافة، وسار بجيشه متخذاً الطريق التقليدي إلى القيروان، وعند اقترابه من قونية [1] شعر كسيلة بقدومه، فخرج للتصدي له بكل قواته من البرانس ومعه عدد من البيزنطيين، معسكراً في «ممس»، وهي إحدى الوديان الواقعة على مسافة يوم من القيروان، حيث دارت معركة طاحنة انتهت بانتصار الأمويين وهزيمة البرانس وحلفائهم، ووقوع كسيلة قتيلاً مع عدد كبير من جماعته [2]. وكانت النتائج الأولى المترتبة على هذا الانتصار الباهر، استرجاع القيروان وإعادة تحصينها، ولكن دون أن يمكث فيها الأمويون طويلاً، حيث عادوا أدراجهم إلى برقة. ولا نجد تفسيراً لعودة هذا القائد، سوى أن تكون مهمته قد انتهت عند هذا الحد، انسجاماً مع العوامل المشار إليها. فكانت حملته محدودة القوة ومحدودة الهدف، ولم يكن انصرافه عن الاستقرار في القيروان بعيداً عن الشعور الحذر من البربر، الذين أثبتوا أنهم قوة عسكرية لا يستهان بها. ولكن رحلة زهير في العودة كانت مختصرة جداً، إذ فوجىء هو الآخر بحادث لم يكن في حسابه، عندما قطع عليه البيزنطيون الطريق عند درنة (على مقربة من طبرق) وقضوا عليه[3]، لتنكفىء السيادة العربية الإسلامية مرة أخرى إلى برقة بانتظار فرصة جديدة.

حسان بن النعمان الغساني: ملامح الفتح الأخير (٧٣/ ٦٩٢ - ٨٥/٧٠٤) كان حسان بن النعمان أول قائد من خارج المدرسة التي

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٩.
(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣.

زودت جبهة المغرب بالقادة الكبار. فهو لم يعش حياته العسكرية أو جانباً منها في البلاد أمثال من سبقوه، بل عاش في الشام على مقربة من أحداثها، حيث يبدو من اسمه أنه حفيد للغساسنة أمراء المنطقة قبيل الفتح. ولقد جاء اختيار عبد الملك له ليكون قائد هذه الجبهة ومعه عدد كبير من الجند[1]، مؤشراً إلى أن الخلافة قد انتهت من متاعبها بالقضاء على ثورة ابن الزبير واتجهت جدياً إلى المغرب. ويبدو أن عبد الملك كان على معرفة وثيقة بالقائد الجديد وبقدراته العسكرية، حين منحه تلك الثقة المطلقة، حسب رواية ابن عذاري[2].

وتبدو لنا شخصية هذا القائد من خلال كتابات المؤرخين، متألقة تتسم بالموهبة القيادية العالية وبالمرونة الشديدة، التي كانت متلاصقة مع أعماله الحربية، وهي أعظم صفات لقائد عسكري عليه أن يبدأ من القليل في أرض يسيطر عليها الشعور بالعداء والرفض وحتى بالحقد. فهنالك تجارب مؤلمة ومثيرة، وثلاثة من القادة الكبار دفعوا حياتهم ثمناً لهذه العلاقة الغامضة بين العرب الفاتحين وسكان البلاد، الذين لم يستوعبوا هذه الحركة التوسعية ومضامينها حتى ذلك الوقت. ومن هذا المنظور كانت جبهة المغرب بحاجة إلى هذا النوع من القادة، الذين تجتمع عندهم المقدرة القيادية والسياسية معاً. بحيث تبلور ذلك في الخطة التي وضعها حسان كأساس لتحركه في المغرب، محاولاً الوصول إلى قلوب البربر وعقولهم، ومن ثم اجتذابهم إلى جبهة واحدة مع العرب ضد البيزنطيين حلفاء الأمس القريب. ولا شك أنه أصاب في ذلك كثيراً من النجاح، حيث أصبح هذا النهج تقليداً عاماً للسياسة الأموية في المغرب، منذ ذلك الحين.

غادر حسان مصر، (٧٤/٦٩٤)، متخذاً الطريق المعروف حتى

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٩.

(٢) «إني قد اطلقت يدك في أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك، واخرج الى بلاد افريقية على بركة الله» من قول عبد الملك لحسان بعد تعيينه قائداً عاماً على جبهة المغرب. ابن عذاري ج ١ ص ٣٤.

طرابلس [١]، فالقيروان التي استعادها من غير صعوبة، حيث كانت قرطاجنة القاعدة البيزنطية الشهيرة أبرز أهدافه. ففي معركة طاحنة مع حاميتها البيزنطية، هُزمت الأخيرة وأجبرت على مغادرة المدينة مخلفة وراءها أشلاء عدد كبير من القتلى [٢]. فذهب فريق منهم إلى صقلية وآخر إلى أسبانية [٣]، الواقعة آنذاك تحت سيطرة القوط الغربيين. فكان أن جر ذلك إلى اهتمام الأمويين بهذه البلاد لأول مرة وفي تاريخهم، أثناء حرب التصفية ضد النفوذ البيزنطي في المغرب.

كان سقوط قرطاجنة، بالغ الأثر على مسيرة الفتوحات العربية الإسلامية في المغرب. ومن المستبعد أن يكون الأسطول الأموي قد تدخل في هذه المعركة، التي يبدو أنها جرت ضمن الأسلوب القتالي المعروف. فقد حوصرت المدينة بإحكام واخترق العرب أسوارها بجرأة متناهية، لتسفر هذه العملية عن تدمير القاعدة البيزنطية العريقة وتحويلها إلى أطلال[٥]. وهكذا استطاع حسان أن يمهد الطريق ويتابع مسيرته التوسعية على أرض صلبة في مختلف نواحي المغرب، بعد أن كانت قرطاجنة عقبة كأداء في وجه العرب، ومركزاً غذى باستمرار عوامل الثورة ضدهم والتآمر عليهم.

وتابع حسان عملياته ضد البيزنطيين الذين كُسرت شوكتهم بسقوط قرطاجنة ، فشن سلسلة هجمات على مواقعهم إلى الغرب منها على امتداد الساحل الشمالي. حيث سقطت في يده بنزرت بعد معركة عنيفة شارك فيها البربر، وانسحبت فلولهم مضطربة ،نحو إقليم بونة ،إلى الغرب من هذه المدينة[٦].

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٦٩ .
(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٤.
(٣) سيدة اسماعيل كاشف، الوليد بن عبد الملك ص ١٢٨ .
(٤) ابن الأثير ج ٤ ص ١٨٠ .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٥.
(٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٨٠ .

وبعـد أن ظفر بهـذا الانتصار البـاهر عـاد حسان إلى القيروان، ليأخذ مع جنوده نصيباً من الراحة، قبـل مباشـرة تنفيذ المـرحلة الثانيـة من خطتـه وحسم الموقف مع البربر. ولعل حسان كان مقتنعاً حينـذاك بأن سـلاح المحاورة مـع هؤلاء قـد تكون لـه نتائجـه الممكنة ، ولكنـه ما كـاد يـزمـع على التحـرك من القيروان، حتى داهمته الأخبار عن حشد قوات ضخمة من البربر البتـر، الذين تصدوا هذه المـرة للأمـويين بعد نكبـة البرانس في ممس. وكـان على رأسهم امرأة صلبة من قبيلة جراوة معروفة لدى العرب بالكاهنة [1] ، يبـدو أنها كـانت تعتقد باليهودية وتمارس نفوذاً روحياً على جماعتها، فضلاً عن نفوذها السياسي الـواسع. وهي تختلف عن زعيم البـرانس الذي كـان يدين بـالنصـرانيـة على الأرجح، حيث الديانات السماوية كـانت قد أخـذت طريقهـا إلى المغرب مـع الـدول التي كانت تجتـاحه بين الحين والحين. فـانتشـرت المسيحيـة بصـورة خاصة في المـدن والمناطق الأكثـر قربـاً من السواحـل أي من أماكن استقـرار البرانس، بينما كان اليهودية أكثر توغلاً في الـداخل بعـد أن آمن بها فـريق من البتر. على أنه تجدر الإشارة إلى أن كلاً من الديانتين لم تستطع الثبـات وسط ضروب الجدل ومعارك الاضطهـاد، بحيث ظلت الوثنيـة التي تستمد عبـاداتها من الظاهرات الطبيعية الأكثر شيوعاً بين صفوف البتر [2] .

وعلى الرغم من المفاجأة التي أحدثها تحرك الكـاهنة فـإن القائـد الأموي لم يفقد المبادرة السريعة، بل تحرك بـدوره لاعتراضهـا في باغـاية [3]. ولكن الكاهنة كانت أكثر سرعة بدخولها إلى المدينـة والاعتصام فيهـا، بحيث وقعت معـركة عنيفـة على مقربـة منها[4]، انتهت بهـزيمة الأمـويين وفقدهم عـدداً من

(١) كان اسمها الحقيقي داهية بنت مانية بن تيفان.
(٢) العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ٢٧ .
(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٣٥.
(٤) نهر نيني عند ابن عبد الحكم ص ٢٧٠ ووادي العذارى عند ابن عذاري ج ١ ص ٣٦ .

جنودهم بين قتيل وأسير [1]. غير أن الهزيمة لم تكن ساحقة على غرار الهزائم السابقة، فقد استطاع حسان أن ينجو بنفسه ويقود عملية التراجع والانسحاب إلى برقة للمرة الثالثة منذ معركة تهودة ومقتل عقبة بن نافع.

وتصاب مرة أخرى جهود العرب المسلمين في المغرب بالخيبة وتعجز أقدامهم عن الثبات فيها، ولكن هزيمتهم هذه المرة لم تعن خسارة كل شيء، لأن حملة حسان الأولى استطاعت بدون مجال للشك أن توقع الضربة القاضية بالنفوذ البيزنطي في المغرب، على الرغم من استعادتهم قرطاجنة إثر هزيمة حسان الذي تمكن من ضرب قواعدهم الأساسية قبل ذلك، وفي نفس الوقت لم تنجح الكاهنة بعد انتصارها على الأمويين في إقناع كافة البربر [2] بزعامتها المطلقة. ولعل نظريتها العقيمة في اتباع سياسة الأرض المحروقة، قد أثارت عليها سخط البربر لاعتقادها أن الحملات الأموية إنما كانت تستهدف المدن الكبرى بما فيها من مغانم وعمران. وهكذا كان الوقت حليفاً للقائد الأموي خلال السنوات التي قضاها في برقة، منتظراً جولته الثانية مع الكاهنة، دون أن يفقد ثقة الخليفة الذي منحه فرصة جديدة[3] (٨١/ ٧٠٠)، لاستئناف عملياته التوسعية في المغرب والقضاء على زعيمة البربر. والواقع أن الظروف كانت أكثر ملاءمة هذه المرة، عندما وجد حسان أن حكم الكاهنة قد استنفد نفسه، وأن عدداً غير قليل من البربر لا سيما البرانس، كان توّاقاً إلى الخلاص من تسلط البتر واستبداد الكاهنة الذي جر معه البلاد إلى خراب [4].

سلك حسان بقواته الطريق التقليدي حتى قابس، إلى الجنوب الغربي من صفاقس، ومن هناك انعطف شرقاً عبر الطريق الصحراوي إلى حصون الكاهنة

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٧٠.
(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٦.
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٧.
(٤) ابن عذاري ج ١ ص ٣٦.

في الأوراس. ويبدو أن جانباً كبيراً من قبائل البربر قد وقف موقف الترحيب من حملة حسان، بعد أن أدرك إصرار الأمويين على المضي في عملياتهم العسكرية في المغرب. وهكذا لم تكد تظهر طلائع الحملة الأموية حتى تغيرت الصورة واستُبدل العداء بالترحاب، ودخلت أفواج من البربر تقاتل إلى جانب العرب المسلمين [1]، معلنةً بداية الانقلاب الجذري في تاريخ المغرب وارتباط الفريقين بمصير واحد وقضية مشتركة.

ولا شك أن تعزيز الجيش الأموي وتطعيمه بعناصر من البربر، على معرفة جيدة بطبيعة الأرض ومتقنة أساليب حرب الجبال، قد ترك انعكاسه السلبي على الكاهنة، التي انكفأت على أعقابها بعد أن شعرت باختلال الموازين العسكرية لمصلحة العرب المسلمين. وفي نفس الوقت كان حسان يتابع تقدمه المظفر في أقاليم المغرب الأوسط متعقباً فلول الكاهنة، التي لم تشأ متابعة لعبة الفرار حتى النهاية، عندما أرادت وضع حد لها بالعودة إلى القتال. وتكون معركة حاسمة عند بئر الكاهنة [2] (يعتقد أنه أحد المعاقل في منطقة الأوراس سمي كذلك تيمناً بها)، تنتهي بهزيمتها وقتلها (٨٣/ ٧٠١) [3].

وبهذه المعركة نستطيع القول إن عملية فتح المغرب، قد دخلت آخر مرحلة من مراحلها الصعبة الطويلة، بعد أن أصبح التقدم في شتى الأقاليم سالكاً دونما وجل أو خوف من المفاجآت. صحيح أن الفتح لم يستكمل نهائياً بعد، لأن جيوباً من المقاومة البيزنطية وبعض البربرية لا تزال بحاجة إلى تصفية، إلا أن الموقف العام قد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك متجلياً ذلك في تحرك القائد الأموي والانتقال سريعاً إلى جبهة ثانية ضد البيزنطيين، الذين استعادوا قرطاجنة في أعقاب هزيمته الأخيرة. وكان الامبراطور البيزنطي ليونيتوس Leonitus، قد أرسل حملة بحرية نجحت في السيطرة على المدينة

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٧١.
(٢) المكان نفسه.
(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٣٨.

(٧٧/ ٦٩٧) [١]، في غياب المقاومة الأموية، غير أن حسان تمكن من استردادها وتخريب ما عمر فيها أثناء عودة البيزنطيين إليها، مؤدياً سقوطها هذه المرة إلى زوال كل أثر للسيادة البيزنطية على السواحل الشمالية للمغرب. وكانت الخطة تقضي بتخريب معاقل البيزنطيين للحؤول دون عودتهم إلى هذه البلاد، فضلاً عن الشروع في إنشاء قاعدة عسكرية بحرية على مسافة قريبة من قرطاجنة، حيث اتخذ من تونس [٢] البلدة القديمة مركزاً لها. وكان ذلك إجراء لا بد منه، في وقت انتشرت فيه السيادة الأموية فوق هذه المساحة العظيمة من الأرض، حفاظاً عليها من غزوات البيزنطيين الذين ما انفكوا يحتلون المرتبة الأولى في السلاح البحري. وبذلك تظهر نواة البحرية الأموية في المغرب، لتصبح بعد قليل من السنوات قوة فاعلة وقادرة ـ ليس فقط على حماية شواطئها ـ وإنما على التوغل في عرض البحر وشن غاراتها على جزره المنتشرة هنا وهناك.

بعد تصفية المراكز البيزنطية والقضاء على شوكة البربر، عاد القائد الأموي إلى القيروان، لأن مهمات أخرى على جانب من الأهمية كانت في انتظاره، لتكون آخر مراحل الاستقرار العربي الإسلامي في تلك الأرض. فانصرف وقتاً ما إلى معالجة الشؤون المتعلقة بالدواوين والخراج والجيش والشرطة [٣]، وغيرها من الإجراءات التقليدية التي تتخذ عادة في البلاد المفتوحة، فضلاً عن الاهتمام التبشيري وتجنيد الفقهاء للتوغل بين قبائل البربر، ونشر الإسلام واللغة العربية في صفوفهم [٤]. وقد أعطت هذه السياسة الحكيمة ثمارها السريعة، حيث يعود الفضل في ذلك إلى هذا القائد، الذي استطاع بجرأته وتسامحه، إخراج البربر من عزلتهم التاريخية وإدخالهم في بوتقة

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية. ج ٧ ص ٣٨٧.
(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٤ ـ ٣٥.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٧١.
(٤) ابن عذاري ج ١ ص ٣٨.

الحكم العربي الإسلامي، بعد أن مارسوا دورهم الفعال في استكمال عمليات الفتح بشكلها النهائي في المغرب، ومن ثم استئنافها على الضفة الأخرى من المضيق، حيث كانت طلائع هذه العمليات في غالبيتها من البربر.

ومن الضروري الإشارة إلى أن بعض العوامل التي كان لها دور إيجابي في تغيير الاتجاه العام لحركة التوسع وتحقيق هذه الانتصارات في المغرب، هي أن المقاتل العربي صهرته الحروب في هذه الجبهة واكتسب خبرة بطبيعة البلاد الجبلية، مما يعني استحداث فنون قتالية جديدة في ضوء خبرات البربر في هذا المجال. كما أن شخصية القائد حسان الذي اكتسب بدوره تجارب سابقيه في فهم العقلية البربرية، ساهمت في تعديل الموقف لمصلحة العرب المسلمين. فقد اتبع هذا القائد سياسة جديدة، في التودد إلى البربر واحترام استقلالية قبائلهم، التي لم تعد مصالحها تتنافر مع قدوم هؤلاء، وما يحملوه من عمران وتمدن إلى هذه المنطقة.

وهكذا سطعت القيروان التي اتخذت طابعاً عسكرياً محضاً منذ أيام مؤسسها عقبة بن نافع، لتأخذ دورها السياسي والإداري والثقافي كعاصمة للمغرب أو الولاية الإفريقية[1]، حسب التعبير المتداول في ذلك الزمن. ففي أقل من سنوات ثلاث، دأب حسان بن النعمان على إظهار هذه المدينة بالمظهر اللائق الذي يطمح إليه، ولكن ثمة تغييرات إدارية مفاجئة أدت حينذاك إلى تنحية حسان عن ولاية المغرب وهو بعد في ألق مجده السياسي، فغادر القيروان سنة ٨٥ هـ على الأرجح وغاب في النسيان. وتنطوي بذلك صفحة هامة من تاريخ المغرب، تألق فيها أحد قواده الكبار الذين تابعوا مسيرة الفتح، دون أن يكون لذلك انعكاس ما على هذه الجبهة يتعدى تغيير القائد، بينما ظل نهجه السياسي قائماً، ولم يطرأ عليه تغيير . وحسب المصادر فإن ظل الحاكم الأموي في مصر ـ وأخي الخليفة عبد العزيز بن مروان ـ يقف

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٤.

وراء هذا الإجراء الإداري[1]، انطلاقاً من العلاقة الوثيقة التي شدت الوالي الجديد إلى البيت المرواني، لا سيما عبد العزيز [2]، الذي اختاره لهذه المهمة عن سابق تصميم وثقة كبيرة بأنه رجل المرحلة المناسب.

موسى بن نصير: الفتح الأخير (٨٦/٧٠٧ - ٩٠/٧١١) كان موسى بن نصير قبيل اختياره والياً على المغرب، «مستشاراً» لوالي مصر النافذ والمرشح للخلافة بعد أخيه عبد الملك. وكانت تربط الرجلين ببعضهما علاقات إعجاب متبادلة،حيث استمد الأول هذا الشعور من ولاء أسرته القديم للأمويين، وحفظ الثاني تقديراً ومودة لهذا الرجل الذكي المتحدّر من بكر بن وائل [3]، تلك القبيلة التي أنجبت عدداً من القواد الذين شهدت لهم جبهات الفتوح في كل مكان لا سيما الجبهة العراقية.

وهكذا فإن ولاية المغرب ستعرف قائداً من العسكريين المحترفين الذين مروا في تاريخها منذ أكثر من نصف قرن، ولكنه تميز عن هؤلاء باحترافه الحرب البحرية منذ وقت مبكر إلى جانب إتقانه فنون الحرب البرية، فضلاً عن شخصية جذابة وتجربة طويلة في عالم السياسة ، حيث عاش عن كثب مشاكل الدولة الأموية، واكتسب منها الخبرة والمعرفة. فلا عجب أن وصف موسى، بأنه من أقدر رجالات الدولة الأموية وألمعهم ذكاء في تلك الفترة[4].

اتجه موسى إلى القيروان ومعه أبناؤه الأربعة [5]، الذين سيكونون يده اليمنى في المهمات الصعبة، أما تاريخ ذلك فغير معروف بالتحديد، لأن مصادر المؤرخين ليست متفقة على تحديد السنة التي تمّ فيها انتقال القائد الأموي إلى

---

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٩.
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٠.
(٣) قيل انه من لخم أيضاً. المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩. ابراهيم العدوي، موسى بن نصير ص ٣ - ١٤.
(٤) مؤنس، فجر الأندلس ص ٤٦.
(٥) عبد الله، عبد الملك، عبد العزيز، مروان.

مركزه الجديد[1]، وإن كان من المرجح أن هذه الحادثة تمت في سنة ٨٥هـ، أي قبل وفاة عبد العزيز بن مروان التي صادفت في تلك السنة. وسواءٌ تمّ ذلك قبل وفاة حاكم مصر أم بعده، فإن خليفته عبدالله بن عبد الملك أكّد هذا التعيين دونما اعتراض، لموافقة الخلافة مسبقاً عليه. ولعل هذا التضارب في تحديد السنة التي غادر فيها موسى إلى المغرب، مبعثه أن تلك الحقبة كانت غنية بالأحداث الهامة، من موت عبد العزيز ولحاق أخيه الخليفة به بعد سنة واحدة، ثم مجيء الوليد إلى الخلافة (٨٦/٧٠٥). ومهما كان الاختلاف في هذا السبيل، فإن الخليفة الجديد لم يحدث تغييراً في الإجراءات التي تم اتخاذها في المغرب أثناء خلافة أبيه، بل على عكس ذلك، فقد بادر الوليد إلى تثبيت موسى في مركزه وإعطائه صلاحيات شبه مطلقة، حتى أن البعض يعتقد بأن اختيار موسى قد تم في عهد الوليد، لكثرة ما ارتبط الإسمان ببعضهما، خلال تلك المرحلة المثيرة من تاريخ الدولة الأموية.

وكان موسى وهو في الطريق إلى مركز عمله، تتنازعه أفكار وتصورات، كوّنها عبر معايشة طويلة لفتوح المغرب، لا سيما أثناء عمله في مصر متتبعاً باهتمام نشاط القائد السابق حسان بن النعمان. فلقد رأى موسى أن السبب الرئيسي وراء تعثر محاولات الاستقرار في المغرب إنما يعود إلى ضعف العرب المسلمين في السلاح البحري [2]، مما دفعه إلى سد هذه الثغرة بالسرعة القصوى. كما رأى أن تقصير القواد السابقين في إعطاء القيروان ما تستحقه من اهتمام، بحيث تصبح قلعة حصينة في قلب إفريقية، قد نتجت عنه انتكاسات كثيرة، لافتقارها إلى عدد كاف من الجند وبالتالي إلى غطاء دفاعي جيد، مما جعلها غير مؤهلة للقيام بدورها المطلوب. ومن ناحية أخرى فقد وجد أن أفضل الوسائل في اجتذاب ولاء البربر، هي التعاون معهم ضمن

---

(١) يتأرجح ابن عبد الحكم بين سنتي ٧٩ و ٨٦ هـ. فتوح مصر والمغرب ص ٢٧٤. أما ابن عذاري فيجعلها في حدود ٨٥ هـ. البيان المغرب ج ١ ص ٤١.

(٢) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية ص ١٠٢.

الإطار العام الذي وضع أساسه حسان بن النعمان. لهذا كان في ذهنه العمل على أن تستوعب السلطة قبائل البربر ويتعايش معها العرب سواء في السلم أم في الحرب، محققة هذه العلاقة ذروتها من النجاح في عهده. وثمة أفكار أخرى لعلها راودته في ذلك الحين أو أن الظروف القائمة فرضتها فيما بعد، حيث لا نملك المعطيات الدقيقة لما كان يجول في رأس هذا القائد الكبير عند وصوله إلى القيروان.

والواقع أن المغرب لم يكن قد أسلس الأمر فيه للأمويين بصورة كاملة، فلا زالت في جزئه الأقصى على وجه التحديد، مواقع هامة خارج دائرة السيادة الأموية، كما كان الأمر يتطلب بعض الإجراءات التأديبية ضد الهاربين من البربر والمعتصمين في هذه الجهات. وما كاد يتسلم موسى مهامه حتى باشر فوراً في توزيع قواده تبعاً للحاجة، حيث كانت أول حملة تشق طريقها إلى زغوان[1]، وهي قلعة جبلية بين تونس والقيروان، وقد أسفرت عن إسقاط القلعة والسيرة الكاملة على المنطقة المحيطة بها. وهذه الحملة مع حملات أخرى أمكنها تطهير المغرب الأوسط دون صعوبة، لا سيما تلك التي قادها بنفسه إلى سجوما في المنطقة التي تقع فيها تهودة، حيث سقط عقبة بن نافع قبل نحو ربع قرن، وقد شاركه أبناء هذا الأخير في هذه الموقعة الهامة[2].

وتأخذ عمليات المطاردة للمتمردين البربر في الاتساع حتى إقليم السوس الأقصى ووادي درعة، في أطول امتداد في عمق المغرب. وكانت حملة السوس بقيادة مروان بن موسى قد ضمت لأول مرة عدداً من البربر، وصل إلى أكثر من ألف مقاتل، إلى جانب ألف وسبعماية من العرب[3]. ومن

(١) كانت بقيادة عبد الله الخشيني. ابن عذاري ج ١ ص ٤١. العدوي، موسى بن نصير ص ٣٧.
(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٤١.
(٣) حسين مؤنس، فجر الأندلس ص ٤٩.

السوس الأقصى إلى السوس الأدنى المجاور لإقليم طنجة، قاد موسى حملة بنفسه إلى عاصمته، الواقعة تحت حكم يوليان البيزنطي، الذي تمتع بنفوذ شبه استقلالي في تلك المنطقة الشمالية. ولم يجد موسى عناء في السيطرة على المدينة، التي تحولت إلى مركز عسكري لتموين حملات الأمويين في تلك الجهات، بعد أن عهد بقيادة حاميتها إلى ابنه مروان ثم إلى طارق بن زياد (١)، أحد القواد البربر في جيش موسى (٢)، الذي شارك بدور فعال في عدد من المهمات العسكرية الصعبة في تلك المرحلة. وانتهت عند هذا الحد أعمال موسى بن نصير التوسعية في المغرب، بعد خضوع جميع أقاليمه، باستثناء سبتة عاصمة يوليان. فالحاجة إلى إخضاعها كانت غير ملحة، لأن ظروفاً استجدت بعد سقوط طنجة، ومحاولة اكتشاف المجهول عبر ذلك الحاجز الضيق، الفاصل بينها وبين أسبانية. وسيكون لسبتة دورها المثير في تعديل الخطة الأموية، وتشجيع العرب المسلمين على القيام بأجرأ مغامرة في تاريخهم العسكري.

وقد عاد موسى إلى القيروان، بعد أن حقق الفصل الأخير من أطول مهمة عسكرية خاضها العرب على مدى سبعين من الأعوام، ذاقوا خلالها ألواناً شتى من الهزائم والانتصارات، إلى أن جاء موسى فقطف جهود السابقين وأضاف إليها جهوده الخاصة، ليدخل التاريخ من أوسع أبوابه. وفي عاصمته شرع أمير القيروان ـ وهو اللقب الذي عُرف به ـ بإعادة تنظيم المدينة وتحويلها من قاعدة عسكرية، إلى مركز إداري وسياسي وثقافي، ينافس المراكز الشهيرة في المشرق العربي. ولا ريب أن القيروان اتخذت سماتها الجديدة، التي أعطتها شهرتها الذائعة في التاريخ، على يد موسى بن نصير.

ولكن الهاجس الأكثر إلحاحاً في حياة أمير القيروان في ذلك الحين، كان

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٧٥.
(٢) ينسبه المؤرخون لقبيلة نفزة البربرية. ابن عذاري ج ١ ص ٤٣.

العمل على تنفيذ القوة البحرية التي كانت نقطة ضعف الولاية، المهددة سواحلها بالغزو البيزنطي. وهنا تكمن نظرة موسى البعيدة، عندما بذل أقصى جهوده لصنع قوة بحرية واتخاذ تونس القاعدة العربية الجديدة مركزاً لها، حيث لم يمض سوى قليل من الوقت، حتى ظهر إلى الوجود أسطول حربي من مائة سفينة. وقد ورثت تونس بغير جدال قرطاجنة قاعدة البيزنطيين القديمة وتفوقت عليها، كونها محمية أكثر من الأخيرة، لابتعادها عن الساحل نحو اثني عشر ميلاً[1] واتصالها به عبر قناة تلجأ إليها السفن عند الحاجة. ومن تونس قامت سلسلة من العمليات، استهدفت جزر صقلية وسردينية ومايورقة، حيث الأخيرة تقع على مقربة من الساحل الإسباني الشرقي.

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٤.

الفَتح العَربي لإسبَانيَة

اسبانية القوطية عشية الفتح

تقع اسبانية أو شبه جزيرة ايبرية على مثلث من الأرض (يضيق شرقاً ويتسع غرباً)[1]، في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية مقابل السواحل الشمالية للمغرب، حيث يفصل بينهما ما كان يُعرف قديماً ببحر الزقاق[2] أو مضيق جبل طارق، الاسم الذي غلب عليه منذ الفتح الأموي لاسبانية. أما في الشمال فتتصل بفرنسا (بلاد الفرنجة قديماً) بواسطة سلسلة جبلية تعرف بجبال البرانس (البيرينيه Pyrenaei)، التي تتخللها شعاب ضيقة وممرات قديمة، أشهرها ممر رونسسفال Roncesvale. أما بقية حدودها فتنتشر ما بين البحر المتوسط في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب مع قسم من الشمال. وقد ارتبطت اسبانية تاريخياً، بالاسم الذي عُرفت به في العهود الاسلامية وهو الأندلس، فأصبحت الكلمتان مترادفتين منذ القرن الثامن الميلادي[3]. وعلى الرغم من أن الأندلس لا تعني جغرافياً كل اسبانية لأن سيادة العرب المسلمين، لم تنتشر

(١) الحميري، الروض المعطار ص ٢.
(٢) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨.
(٣) الروض المعطار ج ١ ص ٢.

بصورة مطلقة على جميع أجزائها، فقد ظل التداول بهذا الاسم شائعاً حتى في الوقت الذي تقلصت فيه هذه السيادة وتقوقعت في الجنوب.

أما مدلول الكلمة الحقيقي والمتداول حتى اليوم فيُقصد به جزء فقط من اسبانية، وهو ذلك الجزء الممتد إلى الجنوب منها ويضم المدن التي شغلت أدواراً سياسية بارزة في أيام العرب، مثل قرطبة، واشبيلية، وغرناطة، ومالقة والمرية[1] وغيرها. فلم يكن العرب إذن يتداولون سوى لفظة الأندلس في التعبير عن اسبانية (اشبانية Hispania)- الاسم القديم الذي استعمله الرومان - أو (ايبيرية Iberia) حسب التعبير اليوناني. وقد حملت إلينا كتب التاريخ، معلومات مبهمة أحياناً وأسطورية أحياناً أخرى في تفسيرها لهذه الأسماء. فاشبانية يعتقدون أن لها مدلولاً جغرافياً بمعنى البلاد الواقعة إلى الغرب، أو أنها مشتقة من اشبان الاسم الأول لأحد ملوك الأندلس الأقدمين[2]. أما ايبيرية فيعتقدون أنها اسم لشعب شارك في سكنى هذه البلاد فعرّفت به[3]. وتبقى التسمية العربية (الأندلس) Vandalucia، المأخوذة على الأرجح من الفندال (الوندال) Vendals، اسم القبائل الجرمانية التي حكمت اسبانية وجزءاً من المغرب في مطلع القرن الخامس الميلادي[4].

أما سكان هذه البلاد، فقد اختلفت الاجتهادات في تحديد الأصول العرقية التي ينتمون إليها. فهناك نظرية تقول بأنهم مزيج من شعوب قديمة كلتية وايبيرية، دخلتها تأثيرات يونانية وآسيوية (قرطاجنة) باعتبار أن الأغريق والقرطاجيين، عرفهما البحر المتوسط منذ العصور القديمة، وكانت لهما مستعمرات ومحطات تجارية فيه امتد بعضها إلى اسبانية. على أن ذلك يبدو غامضاً ويجد الباحث صعوبة في تحديد رأي نهائي حوله، وذلك

---

(١) الروض المعطار ص ١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٣٥.

(٣) الروض المعطار ص ٥.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٥٣.

لتعدد النظريات واختلافها. ولكن الصورة تتضح أكثر بعد قيام دولة الرومان، حيث كانت اسبانية إحدى ولاياتها الغربية منذ النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، فارتبطت حضارياً بالرومان، تسود فيها لغتهم وقوانينهم، وديانتهم التي تحولت إلى المسيحية في وقت متأخر. وحتى العنصر اللاتيني السائد في روما انتشر أيضاً في اسبانية، مع أعداد غير قليلة من اليهود، تسربت إليها في تلك الأثناء واتخذت من المدن الكبيرة بصورة خاصة أماكن استقرارها وتجارتها.

وقد ظلت اسبانية إقليماً رومانياً حتى أواخر القرن الرابع الميلادي، الذي كان بداية النهاية للامبراطورية الرومانية بالمفهوم الشامل لهذه الكلمة. فمنذ ذلك الحين أخذت تتعرض لاضطرابات داخلية، بدأت بانتقال امبراطورها قسطنطين الأول إلى الشرق واستقراره في القسطنطينية التي أخذت تنمو وتتسع على حساب روما، وما رافق ذلك من ضغط البرابرة على جميع الأقاليم في الامبراطورية. وإذا كان القسم الشرقي قد صمد أمام موجات البرابرة، فإن القسم الغربي كان عليه أن يدفع الثمن باهظاً، حيث وصل في نهاية الأمر إلى روما نفسها، التي استسلمت نهائياً للجرمان في أواخر القرن الخامس الميلادي.

وإذا كان الوندال، إحدى جماعات المتبربرين من الجرمان، قد اقتنعوا بالولاية الرومانية الغربية (اسبانية) وبعض سواحل المغرب في أفريقية، فإن آخرين أشد جرأة استهدفوا روما نفسها، حيث دخلها القوط الغربيون سنة ٤١٠ م بزعامة «الأريك» ونشروا فيها القتل والخراب. ولكن إقامة هؤلاء لم تطل كثيراً في روما التي ظفروا منها بما أرادوه، قبل أن ينجح الامبراطور هونوريوس في إقناع «أدلفو» Ataulfo خليفة الأريك بالانسحاب منها، لقاء مساومة على الاقليم الغربي (اسبانية وجزء من غالة). غير أن الرحلة إلى هذا الاقليم كانت شاقة أمام القوط الغربيين، لأن صراعاً على السيادة نشب بينهم وبين الوندال استمر لفترة غير قصيرة. ولكن ادولفو استطاع أخيراً، أن يحقق

الانتصار لقومه وأن يدفع الوندال تحت ضغط هجماته إلى مغادرة اسبانية والاستقرار في سواحل المغرب (٤٢٩ م). وفي نهاية الأمر أقام القوط في اسبانية، بعد أن تخلوا عن اقطاعاتهم في غالة تحت ضغط الفرنجة (من الشعوب الجرمانية)، وأقاموا دولة مستقلة جرمانية الطابع اريوسية المذهب[١]. غير أن اللاتينية ظلت اللغة الرسمية في الدولة، التي استمدت قوانينها ونظمها الإدارية والاقتصادية من النظام الروماني.

ولعل الهدف هنا ليس دراسة تاريخ الدولة القوطية وأخبار ملوكها، لأن ذلك خارج عن إطار هذه الدراسة. فالغاية من هذه المقدمة القاء نظرة عامة على أحوال هذه الدولة التي أصبحت هدف الجيوش الأموية منذ سقوط طنجة. ولا بد للناظر حينذاك إلى اللوحة السياسية في اسبانية القوطية، أنه سيجدها مشوشة إلى حد كبير. فملوك القوط برغم تحولهم إلى الاثناسيوسية، مذهب السكان الأصليين، فقد ظل الامتزاج الحضاري مفقوداً، حيث منطق القوة الذي اعتمده القوط في بناء دولتهم، كان هو القانون السائد حتى نهاية هذه الدولة. فهناك تناقضات أصابت شتى جوانب الحياة فيها، العراقية والمذهبية، فضلاً عن الاضطهاد الديني، والصراعات السياسية الأخرى التي كان مسرحها الأسرة المالكة نفسها.

ويستطيع الباحث أن يدرك من غير صعوبة طبيعة المجتمع القوطي في اسبانية في ذلك الوقت، وهو بالضرورة انعكاس واضح لسياسة الملوك القوط، التي فشلت في تحقيق مجتمع موحد المصالح والانتماء. ولعل أكثر الفئات معاناة من جراء هذه السياسة، كانت فئة التجار وصغار الملاكين والمزارعين، الذين كان على عاتقهم وحدهم عبء الضرائب الثقيلة، التي لم تكن في أغلب الأحيان تتكافأ مع انتاجهم الهزيل. على أن أوضاع هذه الفئة كانت

---

(١) تحول مذهب المملكة القوطية في مجمع طليطلة سنة ٥٧٨ م الى الاثناسيوسية (الكاثوليكية فيما بعد).

أفضل بكثير من أوضاع اقنان الأرض، المرتبطين فيها مع عائلاتهم والمنتقلين معها من مالك إلى آخر[1]، فضلاً عن العبيد المعدمين الذين استُغلوا أسوأ أنواع الاستغلال. ومن البديهي أن نشير إلى أن هؤلاء جميعاً كانوا مسخّرين لرفاهية الفئات الرفيعة من النبلاء والأسرة الحاكمة، التي احتكرت في يدها كل المناصب الرسمية والأراضي الزراعية الخصبة، ومعها رجال الدين المشاركين بصورة خاصة في ملكية الأرض، كما تمتعوا بسلطة قوية في أجهزة الدولة ويدور أساسي في اختيار الملوك. وفي وسط هذه اللوحة المضطربة الألوان،كان اليهود المشتغلين بالربا والصيرفة، ترهقهم الضرائب الباهظة وتشتد عليهم قبضة الاضطهاد الديني، فينقمون ويتآمرون.

هكذا كانت تبدو صورة المجتمع الاسباني تحت حكم الملوك القوط، بكل ما فيها من تناقضات سياسية واجتماعية ودينية، حيث يكمن المؤشر الطبيعي لانهيار هذه الدولة، وتعجّل على تنفيذه رياح الأزمة السياسية، التي عصفت بالأسرة الحاكمة عشية الفتح الأموي. ففي تلك الأثناء كان ويتزا[2] Witiza على عرش اسبانية، وهو الملك قبل الأخير من ملوكها، حيث وصفته بعض الروايات، بأنه كان ملكاً سيئاً مشغولاً بأموره الخاصة[3]. ومن المعتقد أن الكنيسة كانت وراء هذه الحملة عليه، بسبب موقفه المتشدد من امتيازات رجال الدين وتدخلهم في شؤون الحكم، وسياسته المتسامحة مع أصحاب الأديان والمذاهب المخالفة لمذهب الدولة[4]. وكان ذلك حافزاً لاستعداء الكنيسة والاطاحة به، بمساعدة روذريق Rodrigo ـ أحد قواد الجيش ـ الذي نجح بصعوبة في إزاحته عن العرش والجلوس مكانه. غير أن ذلك لم ينه الأزمة السياسية في دولة القوط، لأن ولدي الملك السابق[5]،

---

(١) العبادي، المجمل من تاريخ الأندلس ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) يسميه العرب غيطشة.

(٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ١ /٣٢.

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٤.

(٥) إيفا وسيزبوت، أخبار مجموعة ص ٨.

حملا راية المعارضة ضد الملك الجديد، بمساعدة أسقف طليطلة، وبدعم من صغار رجال الدين المؤيدين لسياسة الملك السابق. فاستمر الوضع الداخلي في هذه الدولة ممزقاً تتجاذبه رياح الحرب الأهلية بين وقت وآخر، ويتفاقم فيه غضب الفئات المنهوكة بالضرائب وبصنوف الاضطهاد والقهر.

مراحل الفتح العربي لاسبانية

في ذلك الوقت، حيث دولة القوط تجتاز أعظم المحن، كان العرب المسلمون على الضفة الأخرى من المجاز، مبتهجين بانتصارهم النهائي والسيطرة على جميع المغرب، بعد أطول حرب في تاريخ الفتوحات العربية الاسلامية، كان من آثارها عسكرياً أنها أمّنت الخط الدفاعي لجناح الدولة الأموية من الغرب، وقضت على مراكز النفوذ البيزنطي ومعها أسطورة التفوق في سلاح البحر. كما انها خلقت جيلاً من المقاتلين الذين خبروا كل صنوف القتال، فأصبحت الحرب لديهم احترافاً من الصعب أن يتخلوا عنه أو يركنوا إلى عمل آخر غيره. كانت تلك المشكلة من أصعب المشاكل التي ظهرت في أعقاب الفتح العربي للمغرب، دون أن يكون وارد في تلك الأثناء امتداد حركة التوسع إلى الجنوب والانتشار في مجاهل الصحراء في حرب مكلفة ليس وراءها طائل[1]، مما جعل الاتجاه نحو الشمال هو الاتجاه المقبول والطبيعي. ومن ناحية ثانية فإن هنالك العامل الجغرافي لعب دوره الرئيسي في هذا المجال، وجعل من اسبانية أقرب إلى المغرب وطبيعته، من أوروبة التي تفصلها عنها جبال البرينيه العالية. كذلك لا يمكننا إهمال العامل التاريخي، بما يمثله من ظروف مشتركة ومتشابهة مرّ بها البلدان منذ أقدم العصور.

ومن هنا كان التوجه نحو اسبانية ضرورة حتمية، فرضتها سياسة التوسع، التي كانت طابع الدولة العام أثناء خلافة الوليد. ولا نستبعد أن تكون فكرة الفتح الأموي لأوروبا، مطروحة للمناقشة في بلاط الخليفة، ثم تبلورت بعد

(١) Levi-Provençal. Hist. T 1. PP. 8 — 10.

سقوط طنجة المشرفة على اسبانية. وهكذا فإن الباعث السياسي هو المحرك الأول للعملية الجريئة التي قام بها العرب المسلمون بقيادة موسى وطارق. وإذا كانت هناك بواعث اقتصادية، فهي تأتي مكملة وإضافية، ولا يضير أن تكون كنوز طليطلة حسبما أشير، قد أثارت شهية المقاتلين العرب ونفخت فيهم الحماسة، وهذا ما رجّح التحول إلى الشمال وأسقط فكرة التوغل في افريقية.

وفي هذا الاطار لا بد للباحث أن يجد أمامه شخصية يوليان الغامضة، برغم الاخبار الكثيرة عنه. فالمصادر القديمة توحي بأنه وراء فتح الأندلس لاعتبارات شخصية، وفي بعض الأحيان سياسية. ويلاحق الغموض هوية هذا الرجل، فيختلط الأمر على المؤرخ فيما إذا كان بيزنطياً يمثل آخر سيادة البيزنطيين في أفريقية، أم قوطياً يتبع مملكة القوط في اسبانية، أم بربرياً يجسد سيادة البربر على أرضهم، إلى آخر هذه الافتراضات التي تصل أحياناً إلى حد الطعن بوجوده، واعتباره مجرد أسطورة من صنع المؤرخين.

بيد أن الدراسات التاريخية الحديثة بعد مقارنات دقيقة، أمكنها التثبت من شخصيته وتحديد انتمائه البيزنطي[1]، حيث كان حاكماً شبه مستقل على الشريط الساحلي بين طنجة وسبتة، منتهزاً ضعف السيادة البيزنطية هناك، نتيجة للضغوط العسكرية من جانب العرب المسلمين. ويبدو أن يوليان كانت له علاقات ومصالح مع الحكم القوطي في اسبانية خاصة مع الملك ويتزا، ولهذا سخط على انقلاب روذريق ووقف ضده، مؤثراً التعاون مع فريق الملك السابق في محاولته استرداد العرش لأحد ابنيه[2]. ونحن إذا سلمنا بهذه المعطيات وبدور يوليان في عملية الفتح، وهو دور محسوس، إلا أن حكاية فلورندا Florinda [3] ابنته، ومحاولة الانتقام لشرفه الملوث من الملك

(١) مؤنس، فجر الأندلس ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٣٩.

(٣) تقول الرواية التاريخية إن يوليان أرسل ابنته الى بلاط الملك القوطي على عادة الأسر النبيلة للتأدب =

القوطي، لا تعدو أن تكون سبباً واهياً حتى في حال اثباتها وهو أمر مشكوك فيه. على أن انتفاء أسطورة فلورندا لا يعني غياب دور يوليان في عملية الفتح الأموي لاسبانية، لأن اتصالاته مع خصوم الملك في طليطلة وحملهم على التعاون مع العرب، كان لها صداها النفسي المؤثر، حيث اعتقد هؤلاء أن دخول «حلفائهم» إلى اسبانية لن يكون أكثر من حملة تأديبية سرعان ما تنتهي لمصلحتهم. كما أن المعلومات الدقيقة عن أوضاع اسبانية ومشاكلها السياسية، فضلاً عن المساعدات المادية الهامة، كل ذلك أعطى ثماره في تسهيل عملية الفتح، التي كانت قد اختمرت آنذاك لدى القيادة الأموية في القيروان. ولاريب أن يوليان كان حريصاً من وراء ذلك على انقاذ رأسه، بعد أن أصبح الأمويون أسياد المنطقة بكاملها، فأراد التودد إليهم واكتساب ثقتهم، دون أن يكون لديه خيار آخر أقل صعوبة في ضوء الواقع الجديد.

وهكذا جرى الاتصال بين يوليان والعرب، وقد أصبحوا على أبواب معقله الأخير في سبتة، عندما راسل في هذا الشأن والي طنجة[1] طارق بن زياد. ويبدو أن طارقاً لم يفاجئه الموضوع، ولكنه لم يعط رأياً فيه قبل الرجوع إلى القيروان، حيث رحب القائد الطموح بالفكرة، واستهواه القيام بعملية جريئة تفوق كل العمليات الحربية التي انجزتها الدولة. غير أنه لم يكن متهوراً ولا مغامراً، بل كان ثاقب النظر يحسب لكل شيء حسابه الدقيق. فهو يدرك جيداً حجم العمل الخطير القادم عليه، ويؤثر لذلك دراسة الأمر عن كثب والاطلاع على تفاصيله، على الرغم من موافقة الخلافة التي شاطرته الموقف نفسه. وبالفعل جرت اتصالات مباشرة بين موسى ويوليان، وقيل إن اجتماعاً عُقد بينهما على متن إحدى السفن الراسية على الشاطىء[2]، وقف خلاله

= بآداب البلاط بين وصيفات القصر، فرآها روذريق وكانت تتمتع بحظ وافر من الجمال فاعتدى عليها. أخبار مجموعة ص ٢٠. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤.

(١) ابن عبد الحكم ص٢٧٧.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٦.

موسى على أحوال إسبانية والخدمات التي يمكن أن يقدمها يوليان، قبل أن ينتقل إلى طنجة للإشراف على تنفيذ المهمة الكبرى.

وتجدر الإشارة إلى الدور الذي قامت به القاعدة البحرية في تونس تمهيداً لهذا العمل، مما يؤكد أن مشروع إسبانية لم يكن وليد ظروف سياسية طارئة، بل كانت ملامحه ظاهرة في المشروع التوسعي الذي أخذ موسى في تنفيذه قبل سنوات. ذلك أن تسابق التسلح بين الأمويين والبيزنطيين ومحاولة الفوز بمعركة التفوق البحري، أكسبت العرب ثقة بالنفس ودفعت بأهدافهم إلى مواقع جديدة، دون أن نفصل بين فكرة الفتح لإسبانية ونمو القوة العسكرية الأموية في البحر، لا سيما الحملات البحرية التي شنها العرب من تونس، واستهدفت بعض الجزر القريبة من إسبانية (مايورقة)[1]، في نفس الوقت الذي كان تجري فيه مناقشة العبور إلى هذه البلاد مناقشة جدية.

وسرعان ما استكملت العمليات الاستطلاعية، التي قامت بها السفن الأموية في مهمة دقيقة، عهد بها إلى طريف بن مالك المعافري، حيث قام مع بضع مئات من الجند باستشكاف الطريق أمام العرب المسلمين (رمضان ٩١ هـ/تموز ٧١٠ م)[2]. فعبر المضيق ونزل مع جنوده في جزيرة صغيرة تعرف باسم بالوماس Palomus، بالقرب من البلدة التي تحمل اليوم إسم جزيرة طريف Tarif. ويُعتقد بأنه اجتمع في هذا المكان، إلى جماعة من مؤيدي الملك السابق (ويتزا)، حيث كان يوليان ضابط الارتباط (حسب التعبير المعاصر) بين الطرفين. ومن هذا الموقع قام طريف ببعض العمليات العسكرية السريعة، في نطاق المهمة الموكولة إليه، وعاد إلى طنجة محققاً النجاح المطلوب. وتأتي أهمية هذه الحملة بأنها أول خطوة جدية على طريق

(١) لويس، القوى البحرية والتجارية ص ١٠٢.

(٢) أخبار مجموعة ص ٦.

العبـور إلى إسبانيـة، الذي رسمـه موسى بـدقة وبـراعة، فصـلاً عن امتحانهـا الـدور الذي كـان يوليـان يقوم بـه، ومدى إخـلاصه في التعـاون مـع العرب المسلمين.

مـوقعـة وادي لكـة: الفتـح الكبيـر: بعـد سنـة أو أقـل من حـملة طريف، كان طارق بن زياد القـائد الـذي اختاره مـوسى لهذه المهمـة، يأخـذ طريقه إلى الشاطئ الإسباني (رجب ٩٢/ نيسـان ٧١١). وكان طـارق دائمـاً رجل المهمات الصعبة، منذ أن عـرفته الجبهـة الأفريقيـة مقاتـلاً عنيداً وقـائداً بارزاً. وكان اختيار بربري على رأس حملة جلّ عناصرها من البربـر أيضاً[١] ـ وهي سابقة تحدث لأول مرة في تـاريخ الفتـوحات العـربية الاسـلامية ـ قـراراً مقصـوداً من أمير القيـروان، بعد أن أوتيت ثمـارها سيـاسته المـرنة مـع البربر، ودفعت هؤلاء إلى مشاركة العرب في أعمالهم العسكرية. وكان لهذه السيـاسة مردود إيجابي على الطرفين، حيث رأى موسى أهمية الإستفادة من طاقات البربر العسكـريـة واكتسـاب ولائهم، في الـوقت الـذي أخـذ فيـه هؤلاء يميلون إلى التعايش مع العرب، مقدّرين فيهم ذلك الدور الطليعي على الصعيدين الـديني والسياسي.

غير أن موسى لم يشأ أن تكون للحملة سمـة بربـرية مـطلقة، فـأنشأ مجلسـاً قيادياً معظم عناصره من العرب[٢]، كان له تأثير بارز في قرارات القيـادة. فضلاً عن قائد آخر[٣]، كان يمارس ما يشبه مهام «ضابط الارتباط» بين الخلافة والقيادة العامة. والواقع أن موسى أحسن الاختيار، عندما عينّ طارق بن زيـاد على رأس هذه الحملة، لما عُرف عنه من شجاعة ومهـارة عاليـة في القتال، وغـير ذلك من

---

(١) هناك خلاف حول عدد الجند في الحملة. فمن المؤرخين من يقول انه سار في سبعة آلاف أضيف اليهم خمسة. وآخرين من يقول انهم كانوا اثني عشر ألفاً منذ تحرك الحملة.
(٢) مثل عبد الملك المعافري وعلقمة اللخمي.
(٣) مغيث الرومي.

الصفات التي جذبت موسى إلى هذا القائد، بعد أن أدرك عمق نفسيته المصقولة بالتجربة والإيمان، فراهن عليه بطلاً لهذه المهمة الخطرة.

وهكذا عبر طارق المضيق الذي حمل اسمه حتى اليوم (جبل طارق Gibraltar)، على متن سفن أقلع بها مع جنوده من سبتة[1]، معقل يوليان البيزنطي، الذي ساهم على ما يبدو بتقديم بعض السفن لهذه الغاية[2]. غير أننا نشك في أن تكون عملية العبور قد اقتصرت عليها، كما توحي بذلك معظم المصادر، لأن قاعدة تونس على الأرجح هي التي وفرت السفن اللازمة، ليس لتأمين الانتقال فقط، ولكن أيضاً لتأمين الخطوط الخلفية للحملة. على أن خدمات يوليان لم تكمن في تسهيل العبور إلى الأرض الاسبانية، بقدر ما كان هدفها تحقيق الانتصار للحملة الأموية، حيث كان لمعلوماته القيِّمة عن أوضاع مملكة القوط ومشاغل روذريق ـ الذي لم يكن آنذاك في عاصمته ـ وعن موقف معارضي الملك القوطي، تأثير كبير في النجاح الباهر الذي حققته الحملة. فليست مصادفة أن تتم هذه العملية، في وقت كان الملك القوطي منصرفاً إلى تأديب المتمردين من الباسك في الشمال، وعاصمته تعج بالمتآمرين عليه. وهنا تظهر قيمة الدور الخطير الذي قام به يوليان وجهوده في الوقوف على آخر أخبار الاسبان بالسرعة القصوى، وتوظيفها في خدمة الأمويين الذين تحركوا بدورهم في الوقت المناسب.

ولم يكد طارق يأخذ مواقعه عند أقدام الجبل حيث نزل بجنوده، حتى بادر إلى استكشاف المنطقة بواسطة حملات صغيرة، قبل أن يتخذ مع أصحابه قرار الزحف نحو الشمال. وكانت إحداها بقيادة عبد الملك بن أبي عامر (أحد القادة الكبار في الحملة)، اتخذت حذاء الساحل إلى الشمال الغربي واستولت على قرطاجنة[3] Cartega وهي تعود إلى عهد القرطاجيين، ثم نزلت جنوباً باتجاه

(١) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٥.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٦.

الجزيرة الخضراء[1] Algercia ، الواقعة أمام جبل طارق، فسيطرت عليها أيضاً. وقيل إن هذه الجزيرة كانت من ممتلكات يوليان الذي سلمها بنفسه إلى طارق[2]، فتحولت بذلك إلى منطقة نفوذ للعرب المسلمين، وأول مراكزهم المحصنة في اسبانية.

وكان موسى يراقب باهتمام سير الحملة، ويتتبع أخبارها على الساحل الأفريقي. ومن المعتقد أنه أرسل قوات إضافية، في أعقاب النجاحات الأولى التي حققها طارق. وإذا صح ذلك، فإن فرصاً أفضل أُعطيت لهذا الأخير في مواجهة الملك الاسباني، الذي فوجيء بوجود القوات الأموية في بلاده، وهو منهمك في قتال آخر في الشمال. بيد أنه لم يتهيب الأمر كثيراً، لاعتقاده أنها مجرد غزوة عابرة، لن تأخذ منه وقتاً أكثر من قمع تمرد الباسك. ولكن روذريق حين عاد إلى تقويم الخطر الأموي، صعقته المعلومات الجديدة عن تقدم طارق وصعوده باتجاه قرطبة، حيث عرّج على طليطلة، مستنفراً كل طاقات المملكة، بما فيها خصومه السياسيين، المنهمكين في حبك المؤامرات ضده.

وفي تلك الأثناء كان طارق يحقق أولى انتصاراته العسكرية، حين تصدت له إحدى الفرق القوطية بقيادة بنثيو Bancio، فقضى عليها دون مشقة بالقرب من الجزيرة الخضراء. وسرعان ما تحرك بحملته شمالاً عبر أرض سهلية تتخللها المستنقعات، واستقر بهم المقام حول بحيرة لاخاندا Lago de Janda، حيث نهر برباط الذي يخترق البحيرة. وعلى الضفة اليمنى لهذا النهر الصغير، أطل الملك القوطي بجيشه الضخم الذي وصفته المصادر العربية بأنه بلغ المائة ألف[3]، وإن كان واضحاً أن الرقم مبالغ فيه على عادة هذه المصادر في تقدير جيوش الأعداء، بحيث تعطيها أرقاماً خيالية بصفة عامة. فمن غير السهل على

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٩.
(٢) سيديو، تاريخ العرب العام ص ١٠٢.
(٣) أخبار مجموعة ص ٨.

دولة منهكة كإسبانية القوطية، توفير هذا العدد الكبير من الجند وفي ذلك الوقت بالذات، حيث طاقاتها مبعثرة وجبهتها في الداخل ممزقة ومتصارعة.

وفي وادي لكة، عند نهر برباط الذي غلب عليه اسم الوادي، فعرف بها منذ ذلك التاريخ وأصبح «نهر وادي لكة»، جرت معركة طاحنة، بدأت في مناوشات فردية على مدى سبعة أيام، وانتهت بهزيمة مدمرة للجيش الإسباني وفرار قائده الذي اختفى بعد ذلك، ولم يعرف شيء عنه إلا في الأساطير القومية[1].

ولن يعيقنا البحث طويلاً عن أسباب الهزيمة النكراء التي منيت بها الدولة القوطية، بعد أن نخرتها الحرب الأهلية خلال السنوات السابقة، وشُغل حكامها بانقساماتهم وغرقوا في شؤونهم الخاصة، بعيداً عن الفئات الشعبية المرهقة بفساد النظام وضرائبه الثقيلة. وهكذا فإن ما جرى في وادي لكة لم يعن لها الشيء الكثير، بل على العكس من ذلك فقد سجلت موقفها اللامبالي من هذه الحرب إن لم نقل المتعاطف مع «المنقذ» الآتي من الجنوب. على أن الضربة الشديدة التي أخارت قوى الملك القوطي، تمثلت بانقسام جيشه والتحاق فريق من جماعة الملك السابق ويتزا بالحملة الأموية، تنفيذاً للمؤامرة المحبوكة ببراعة بين ولدي هذا الأخير ويوليان. وفي المقابل كان الجيش الأموي على أتمّ الانسجام، بعناصره المنضبطة وقيادته الجيدة، و«جهاز» المعلومات الذي وقف وراءه يوليان.

ولم يعد ممكناً تغيير سير التاريخ، فالقوط بدوا متعثرين وبدا حكامهم مرتبكين، عاجزين عن اتخاذ قرار إزاء تلك النتائج المذهلة التي أسفرت عنها وادي لكة. ولم يعد ممكناً كذلك ،قيام أية محاولة جديدة على مستوى التصدي الذي قام به روذريق. فقد كانت هذه المعركة الباب الكبير الذي دخل منه العرب المسلمون إلى قلب اسبانية، ورسّخوا أقدامهم فيها خلال تلك القرون. ولكم كان موسى بن نصير معبّراً في تقريره الذي أرسله إلى دمشق، واصفاً عظمة

(١) أخبار مجموعة ص ٩، ابن عذاري ج ٢ ص ١٠.

هذا الانتصار، بقوله أو بما نسب إليه: «انها ليست الفتوح، ولكنها الحشر»[1].
لقد كان مصيباً في تصوراته إلى حد كبير، فالارتباك الذي أصاب مقاتلي القوط، والذعر الذي عم المملكة الاسبانية[2]، أتاحا لطارق أن يعمل بسرعة وأن لا يفقد أية فرصة للتقدم نحو المدن الكبيرة. وباستثناء معركة استجة Astigi[3] ضد فلول الجيش القوطي الذي قُضي عليه، لم يلق هذا القائد مقاومة ذات أهمية في مسيرته نحو الشمال. ثم بدأت حرب المدن، فتسقط قرطبة Gordoba الواقعة على نهر الوادي الكبير، ويدخلها مغيث الرومي في قوة كبيرة، بينما استحث قائد الحملة السير إلى طليطلة Toledo، عاصمة القوط، والمدينة المحصنة التي يقبع فيها كبار رجالات الدولة ونبلائها، وتتجمع كنوز البلاط وذخائر الكنيسة، فسقطت دون مقاومة عنيفة[4] وهرب سكانها باستثناء جماعة الملك السابق، التي حظيت بتقدير الفاتحين ثمناً لمواقفها الإيجابية، وكذلك اليهود وهم أكثر المبتهجين حينذاك بسقوط العاصمة وانهيار مملكة رودريق، فكانوا إلى جانب العرب المسلمين يقدمون لهم الخدمات العسكرية والمدنية. وهذا الدور كان نابعاً من موقف اليهود إزاء النظام القوطي، الذي أضرّ كثيراً بمصالحهم التجارية والمصرفية، فكان هؤلاء حيث كان الفاتحون ينفّذون مهماتهم على أكمل وجه.

ومن طليطلة، حيث ترك حامية عسكرية[5]، صعد طارق نحو الشمال الغربي، متعقباً فلول الهاربين من العاصمة في منطقة عُرفت بوادي الحجارة Guada La Jara. ثم قطع الجبل الذي يليها ليصل أخيراً إلى المائدة كما تسميها المصادر العربية[6]، وهي مدينة صغيرة أدركها في نهاية العام تقريباً (خريف

---

(١) المقري، نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٥.
(٢) ابن القوطية، افتتاح الأندلس ص ٩.
(٣) اخبار مجموعة ص ٩.
(٤) المصدر نفسه ص ١٤ ـ ١٥.
(٥) اخبار مجموعة ص ١٤. ابن عذاري ج ٢ ص ١٢.
(٦) نفسه ص ١٤.

٧١٢/٩٣). بعد ذلك عاد إلى طليطلة ليدرس خطة المرحلة التالية من الفتح، في ضوء ما يستجد من تعليمات أمير القيروان. وهكذا في أقل من سنة واحدة، كانت السيادة الأموية تزرع أقدامها بثبات وعمق في الأرض الاسبانية، وتطيح بنظام القوطيين المتداعي.

وكان خروج طارق من طليطلة واستئناف العمليات العسكرية، مؤشراً إلى أن استقرار المسلمين في هذه البلاد لم يعد مثار جدل، على عكس ما انتظره حزب الملك الاسباني المخلوع، الذي كان لا يزال على اعتقاده بأن طارقاً سيعيد له العرش، ويعود من حيث أتى بعد الظفر بما يريد. ولكن هذا الحلم ما لبث أن تبدد، بعد أن تبلورت الأهداف التوسعية للحملة. ولم يجد ابنا ويتزا في نهاية الأمر، بدّاً من الرضوخ ومساومة الفاتحين، والاقتناع بنصيب من الأرض، وربما من الإدارة التي خبرا شؤونها.

ويبدو أن أخبار الانتصارات في اسبانية، وقد وقعت الموقع الحسن عند أمير القيروان، شجعته على الانتقال إلى تلك البلاد للوقوف شخصياً على أوضاعها ومراقبة سير العمليات الحربية عن كثب، خاصة بعد الانتشار العسكري الذي امتد في مختلف الجهات، وتدفق القوات الأموية الإضافية على اسبانية بعد سقوط طليطلة، مما دفع موسى لأن يكون على أرض المعركة ويتخذ قراراته الحاسمة في الوقت الملائم. ولم تكن هي انتفاضة حسد كما تشير الرواية العربية الساذجة[١]، أو حالة غرور أعمت هذا الرجل حسب تعبير أحد المؤرخين المعاصرين[٢]، الذي يرى فيه قائداً مغروراً وجشعاً، على الرغم من نفيه بأن يكون ذهابه إلى اسبانية مدفوعاً بهذا الشعور[٣]. والواقع أن الكتابات التاريخية أسهبت وأفاضت في هذا الموضوع، لا سيما وصفها القصصي للقاء الرجلين فيما بعد[٤]. ولا

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٠٧، ابن عذاري ج ٢ ص ١٦.
(٢) مؤنس، فجر الأندلس ص ٨٤.
(٣) المكان نفسه.
(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ ـ ٣٦. المراكشي، المعجب ص ٣٤. الضبي، بغية الملتمس ص ٨.

شك أنها أساءت كثيراً إلى موسى، كما اسيء إليه في أواخر حياته، حيث مات مضطهداً كغيره من كبار الفاتحين في تلك الفترة. ولعل هذا القائد العظيم يُظلم كثيراً عندما يتهم بالحسد أو الطمع، لأن تاريخه العسكري الطويل، لا سيما في المغرب التصق بإنجازات لا تمحى، سواء في اجتثاث مقاومة البربر العنيفة واستكمال أطول فتح في تاريخ العرب العسكري، أو في إرساء روح التلاحم بين العرب والبربر في إطار الإسلام، فتكون أعظم تجربة لذلك في حملة الأندلس. فأن يمتلىء أمير القيروان بالحسد أمام انتصارات حققها أحد رجاله الموثوقين، فذلك أمر لا مسوّغ له، وهو العريق بأمجاده السياسية والعسكرية، وأن ينتقل كمسؤول أول وكقائد عام للجبهة الغربية إلى اسبانية، حيث تدور رحى حرب خطّط لها بنفسه وتتبع كل مراحلها وخطواتها، فهو أمر طبيعي ومتوقع[1]. فقد عهد إلى طارق - وهو الأثير عنده - بمهمة عسكرية لا تختلف عن مهمات غيرها إلا من حيث الحجم، كالتي تولاها هذا الأخير في طنجة أو في غيرها من بلاد المغرب، وفي كلتا الحالتين نفّذ طارق طائعاً أوامر سيده. ولو خالج موسى أي شعور بالارتياب إزاء قائده، لاستبدله بواحد من أبنائه الأربعة الذين برزوا إلى جانب طارق في حرب المغرب الأخيرة. ولو صحّ أن طارقاً استقل برأيه ونزع إلى التفرد، بعد انتصاره في وادي لكة كما توحي بعض المراجع[2]، لما استمر في منصبه يمارس مهامه بصورة طبيعية. فعلى العكس من ذلك كانت انضباطية طارق أوضح خلاله العسكرية، تلك التي تجلّت مع ابني الملك ويتزا وإحالتهما على أمير القيروان، للاتفاق معه بشأن نصيبهما من الحملة، مما يعبّر عن حالة الانسجام والتنسيق التي سادت بين القائدين.

لقد أدرك موسى على ما يبدو خطورة الانتشار الواسع لقواته في اسبانية،

---

(١) الضبي، بغية الملتمس «فلذلك نسب الفتح الى موسى بن نصير لأن طارقاً من قبله ولأنه استزاد في الفتح ما بقي على طارق» ص ٨.
(٢) مؤنس، فجر الأندلس ص ٧٦.

دون تغطية عسكرية كافية، فأبحر بقوات جديدة ربما بلغت ثمانية عشر ألفاً[1] (رمضان ٩٣/ حزيران ٧١٢). ولعل الحاجة الملحة استدعت الحضور بهذا العدد الكبير من الجند، بناء على تقرير من طارق، الذي شعر بضرورة تكثيف القوة المقاتلة في حملته[2]. وفي الجزيرة الخضراء قام ببعض الإجراءات التنظيمية، حيث وزع المهمات على قواده وعقد اجتماعاً مع يوليان ـ الذي اتخذ من هذا المكان مقراً له ـ وناقش معه تطورات الحرب وتقويم النتائج الأخيرة لحملة طارق، والظروف المستجدة بعد دخول الحملة الثانية. ولعل يوليان زوّده بالمعلومات الجغرافية، عن الطريق الذي تقرر أن يسلكه بقواته وعن المعاقل الهامة التي لا تزال خارج إطار سيادة العرب المسلمين[3]. ومن هنا جاء تحرك الحملة الجديدة من الجزيرة الخضراء، عبر طريق آخر[4] يفضي إلى إشبيلية Sevilla إحدى أكبر مدن الأندلس.

ولقد أبرزت بعض هذه المصادر التاريخية، بأن اتخاذ موسى هذا الاتجاه في غربي الأندلس، كان أنفة منه في السير وراء طارق وعلى طريقه[5]. وهو تعليل غير واقعي، لأن الجزء الأكبر من اسبانية لم تصل إليه جيوش الأمويين، بعد أن اقتصرت أعمال طارق على الاقليم المتوسط، بينما ظلت مناطق هامة في الغرب والشرق، فضلاً عن الجنوب الشرقي، غير محسومة من الناحية العسكرية. وهنا يكمن الدور الكبير، الذي كان على الحملة الجديدة أن تقوم به في إحكام السيطرة على هذه المناطق. فليس من المنطق أن يجتاز موسى الطريق المفتوح، حيث النفوذ للعرب المسلمين، إلا إذا صح الزعم بأن أمير القيروان قدم في مهمة تأديبية، لقمع قائده الذي خرج على الأوامر وتجاوز

---

(١) يقال إن عشرة آلاف منهم كانوا من العرب والباقين من البربر. أخبار مجموعة ص ١٥.

(٢) Levi-Provençal: Hist. T1 P24.

(٣) العذوي، موسى بن نصير ص ٩٢.

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥.

(٥) المكان نفسه.

التعليمات[1] حسب الرواية التاريخية. ولكن موسى - ومن المفترض أنه لم ينـدفع بهذا الدافع - آثر السير في طريق لم تمر عليها أقـدام عربيـة، وهو القـرار البديهي من وجهة النظر العسكرية. وهذا يجرنـا إلى مناقشـة الزعم الآخـر بأن «شـراهة» موسى إلى الغنائم، كانت دافعه الأهم لاجتياز مدن غنية تفوق قيمـة وثراء المـدن التي سقطت بيد طارق[2]. ولعل تهمـة الشراهـة ليس لها مـا يسوغهـا، خاصـة عندما تُلصق بشخصية من نوع موسى بن نصير، الحاكم المطلق على كل المغـرب وبعض الأندلس في ذلك الحين، حيث تعود إليه مبـاشرة كـل غنائم طـارق أو سواه من قواده دون ثمة مجال للنقاش.

استهل موسى عملياته الحربية، بالسيطرة عـلى مدينـة شذونـة Sedona (إلى الشمال الغربي من الجزيرة الخضراء) بعد مقـاومة من أهلهـا[3]، وانعطف شـرقاً إلى قرمونة وهي قاعدة عسكرية محصنة، فاستغرق حصـارها وقتـاً قبل أن تضـع سلاحها وتستسـلم[4]. ثم سار إلى اشبيلية الهـدف الرئيسي في خـطته وهي تقـع عـلى نهر الوادي الكبـير Guadal Quivir شأن قـرطبـة، وتـوصف بـأنها مـدينـة عريقة، ذاعت شهرتها حتى قبل دولة القـوط[5]. ولم تؤخذ اشبيلية بسهولة، فقد قـاومت بعنف حصار الأمـويين الـذي استمر بضعـة شهـور[6]، دون أن ينجـح موسى في أخذ المدينة إلا بعد مسـاعدات من الداخل، حيث قام اليهـود بدورهم المتفق عليـه لمصلحة العـرب. وكان نصيبهم المشـاركة في حـامية عسكـرية أكـثر عناصرها من البربر، وذلك بعد القضاء عـلى القوط وتـطهير المـدينة من جيـوب المقاومة (٧١٣/٩٤). وتـابع مـوسى طريقـه نحو مـاردة Marida (على نهر وادي

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦.
(٢) مؤنس، فجر الأندلس ص ٧٦.
(٣) اخبار مجموعة ص ١٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٥ - ١٦.
(٥) أخبار مجموعة ص ١٦. الروض المعطار ص ١٨.
(٦) Levi Provençal: Hist. T 1. p 25.

آنة)، وكانت مدينة حصينة محاطة بالأسوار[1]، مما أدى إلى فقدان الأمويين عدد غير قليل من القتلى أثناء حصارها، ولكنها ما لبثت أن استسلمت بعد هجمات سريعة انتهت باختراق أسوارها وفتحها (شوال ٩٤/ حزيران ٧١٣)[2]. وبعد سقوط ماردة نظّم موسى حاميتها العسكرية من العرب والبربر، دون اللجوء إلى جاليتها اليهودية الكبيرة. وقد شعر موسى بعد سقوط هذه المدينة بأن الوقت حان لاتخاذ قرارات تنظيمية، بإعلان الحكم العربي والقوانين الإسلامية في المدن المفتوحة. وبعد قليل من الوقت غادرها منعطفاً إلى الشمال الشرقي نحو طليطلة، حيث استقر بها طارق منذ الشتاء الماضي. وفي الوقت نفسه بلغته أنباء ثورة في اشبيلية فأرسل ابنه عبد العزيز للقضاء عليها، وهي أول ردة فعل ضد الفتح، تقوم بها فلول القوط المهزومة، مستغلة ضعف الحامية الأموية. ولكن هذه المحاولة لقيت الفشل الذريع، عندما قضى عبد العزيز على الثورة وأعاد الأمور إلى نصابها[3]. أما طارق بن زياد ـ وكان متتبعاً لأخبار سيده ـ فما كاد يعلم باقترابه من طليطلة حتى غادر المدينة للترحيب به، فنزل في وادي تاجة Tago والتقى بموسى أخيراً في طلبيرة Talavera[4]، على بعد سبعين ميلاً إلى الغرب من طليطلة[5].

ولن نعرض هنا لكتابات المؤرخين المسهبة بشأن اللقاء بين القائدين، وهي إجمالاً مكتوبة بلغة مسرحية تدور حول الخلاف بينهما وتأنيب موسى لمولاه طارق، ربما ضرباً أو سجناً إلى آخر ما بلغه خيال المؤرخين[6]. كذلك لن نعقب عليها لافتقارها إلى الروح الموضوعية، وقد جرت مناقشتها في

(١) الروض المعطار ص ١٧٦.
(٢) أخبار مجموعة ص ١٧.
(٣) أخبار مجموعة ص ١٨ Levi Provençal Hist T 1 P 25.
(٤) نفسه ١٨ Op. Cit T 1 P 25.
(٥) الروض المعطار ص ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٦) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦.

مكان آخر من هذا البحث. على أن ما يتبادر إلى الذهن حول اللقاء الذي تم بين موسى وطارق، هو أن القائدين عقدا مجلساً حربياً، لبحث الموقف العسكري العام ومناقشة المرحلة التالية من الفتح. وهذا ما جرى فعلاً عندما انفض المجلس، وقاد موسى حملة واحدة مع طارق نحو الشمال الشرقي وُفق خطة مرسومة. وهنا تسقط ادعاءات المنافسة بين الرجلين[1] التي كثر حولها الجدل، وتسود عليها فكرة التنسيق والتعاون. وعلى الأرجح أن موسى قضى شتاء (٧١٣ ـ ٧١٤) في طليطلة قبل استئناف مهماته، حيث أرسل من هناك تقريراً إلى دمشق، لوضع الخلافة في آخر تطورات الموقف في اسبانية[2]. وكانت سرقسطة Zaragoza في إقليم اراغون Aragone أول عمل مشترك لهما، تلك المدينة الهامة التي سماها العرب «المدينة البيضاء»[3]. قبل أن يفترق القائدان، ليزحف موسى شرقاً إلى لاردة Larida وطركونة (على البحر المتوسط) وبعض المعاقل الأخرى باتجاه البرينيه. وهنا تختلف الآراء بشأن التوسع في هذه الجهات، فيذكر البعض أن برشلونة عاصمة الاقليم قد سقطت في يد موسى[4]، ولكن ليفي بروفنسال لم يُشر إلى ذلك، دون أن يستبعد عزم القائد الأموي على اقتحام هذه المدينة، لولا انتهاء المدّ التوسعي استجابة لقرار الخليفة[5]. على أنه من المرجح أن قوات موسى لم تصل إليها، حيث تم فتحها في وقت لاحق. أما طارق فقد اجتاز وادي الأبرو Val de lebro إلى ليون Leon واستورقة (استورياس) Astorga، وتوغل في أقصى الشمال الغربي لمطاردة آخر فلول المقاومة القوطية، المتجمعة في جيليقية Galicia ـ وهي منطقة جبلية وعرة كانت تعرف ببلاد الصخر ـ بقيادة بلاي الذي اعتصم في أحد كهوفها ومعه نحو ثلاثمائة رجل وامرأة. وقد انزل بهم طارق ضربته الأخيرة في اسبانية معتقداً أنها

---

(١) ابن الاثير ج ١ ص ١٢٣.

(٢) Levi-Provençal Hist. T 1. PP. 26 — 27

(٣) يبدو ان الاسم مأخوذ من لون حجارتها البيضاء، الروض المعطار ٩٦.

(٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٥٣.

(٥) Levi-Provençal: Hist. T 1. P. 27.

كانت قاضية لن تقوم بعدها للاسبان قائمة[1].

وفي تلك الأثناء كان «ضابط الارتباط» بين الخلافة وقيادة الأندلس مغيث الرومي، قد عاد من مهمة في دمشق يحمل أمراً من الوليد بوقف العمليات العسكرية في أوروبة (٩٥/٧١٤). ولا يستطيع أحد تفسير دوافع الخلافة إذا ما كانت نتيجة لإجراء خاص بالوليد، الذي أراد الوقوف مباشرة على إنجازاته في الأندلس في وقت ربما شعر باقتراب نهايته؟ أم أن المسألة كانت أبعد من ذلك ولها ارتباط بسياسة الدولة، التي خشيت من انتشار المسلمين في بلاد بعيدة؟ ولعل هذا القرار كان في غير محله، وأضاع فرصة التاريخ التي لن تتكرر من أيدي العرب، باجتياح القارة الأوروبية. وكان آخر إجراء منحه موسى لنفسه - برغم إلحاح موفد الخليفة - التقدم في إقليم قشتالة Castilla لتأمين الحدود الشمالية للولاية الأموية الجديدة. غير أن ذلك لم يتحقق إلا بصورة جزئية، وظل هذا الإقليم وأقاليم أخرى في الشمال الغربي، نافذة للحركات القومية في اسبانية، ينطلق منها تيار «الاسترداد» مع تراجع النفوذ العربي والإسلامي وضعفه.

وهكذا أنجزت إحدى أضخم عمليات الفتح في الدولة الأموية في مدة لم تتجاوز الأربع سنوات[2]، استطاع خلالها موسى بن نصير وطارق بن زياد أن يرفعا راية الحكم الأموي في القارة الأوروبية، التي بدأت همومها الإسلامية تأخذ طابعها الجدي منذ ذلك الحين، خاصة وأن طموح القادة الأمويين في هذا الاقليم لم يقف عند شبه الجزيرة الايبيرية، بل كان هذا الطموح كثيراً ما يقفز وراء البرينيه التي تفصلها عن مملكة الفرنجة. وهناك تحت أقدام هذه الجبال، ربما تكون فكرة التوغل في أوروبة وتطويق الدولة البيزنطية، قد داعبت خيال القائد الأموي كما يشير ابن خلدون[3]. ولكن ذلك يبقى في إطار الاستنتاج على

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩.

(٢) العدوي، موسى بن نصير ص ١٢١.

(٣) يقول ابن خلدون: وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخصص ما بينها من بلاد الأعاجم أمماً نصرانية مجاهداً مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة. كتاب العبر ج ٤ ص ١٧٤.

الرغم من أن تحقيقه في تلك الظروف لم يكن مستحيلاً، إلا أن الدولة اكتفت بهذا القدر من الفتح، وأمرت القائدين بوقف العمليات العسكرية في أوروبة والعودة إلى دمشق.

ومع بدء رحلة العودة (ذو القعدة ٩٥/ أيلول ٧١٤)، عرج موسى قليلاً من الوقت على طليطلة التي انتهى بريقها السياسي مع نهاية دولة القوط، وأجرى بما سمحت له الظروف بعض الترتيبات الإدارية، لإعطاء المدينة هويتها العربية الجديدة ونزع ثوبها القوطي القديم. ثم غادرها إلى قرطبة، فإشبيلية متخذاً إجراءات مشابهة، حيث اتفق على أن تكون عاصمة الولاية الأموية، في الوقت الذي انهمك فيه بإعداد موكب النصر، بما يليق وعظمة الإنجازات التي تمت على يديه. وقد أسهب المؤرخون في وصف هذا الموكب وفخامة مظهره وكثافة الجواري والأسرى من القوط[1]، إلى آخر ذلك بما لا يتوافق وإمكانات النقل في ذلك الحين، خاصة وأن رحلة العودة كانت برية عبر أفريقية ومصر.

وغادر موسى أخيراً اشبيلية، مصحوباً بطارق وعدد من القواد ومعهم الأسرى والكنوز، تاركاً لابنه عبد العزيز شؤون الحكم في اسبانية، على أن يساعده كـ «وزير»[2] حبيب بن أبي عبيدة أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهري. وفي الطريق كانت القيروان محطته الأولى، حيث كان ابنه الأكبر عبد الله يدير شؤونها بالنيابة عنه[3]، ومنها إلى مصر فالشام عبر فلسطين، حيث كان عمّال تلك الأقاليم يهرعون للترحيب بموكبه الظافر. ولعلها سابقة في تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية، انفرد فيها موسى بإعطاء انتصاراته في أفريقية واسبانية هذا الصدى الكبير من الدعاية، الأمر الذي ينسجم ونزعته إلى الترف، وميله إلى مظاهر الفخامة. وقد بلغ أخيراً عاصمة الخلافة في مطلع سنة ٧١٥ م، في وقت

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٠ - ٢١١.
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٣.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٠٧.

كان «صديقه» الخليفة على عتبات الموت، حيث توفي بعد أربعين يوماً من دخول موكب النصر الأندلسي إلى دمشق.

وكان سوء الحظ بانتظاره مع مجيء سليمان بن عبد الملك، ذلك الخليفة المزاجي، الحاقد على أخيه الوليد وسياسته، وحتى رجالاته الذين عرفتهم الجبهات الحربية كأعظم القادة الأمويين دون سبب ذي قيمة. ذلك أن سليمان كان يحكم بعواطفه القبلية، مسخراً كل أجهزة الدولة في خدمة مزاجه المتقلب. كما القرارات الجدية التي يُمتدح من خلالها حكمه، كحملة القسطنطينية، لم تكن تتجاوز على الأرجح الإطار الشخصي، في محاولة منه لطمس منجزات الوليد العظيمة، وأن يكون له شرف الدخول إلى هذه المدينة التي امتنعت على الخلفاء السابقين.

ولعل موقف سليمان كان نابعاً من قناعة، بأن أخاه الوليد قد تآمر عليه لإبعاده عن ولاية العهد، حيث كان بطل المؤامرة الحجاج بن يوسف الثقفي، والي المشرق وأبرز شخصيات «الحزب» القيسي في ذلك الحين[1]. ومن هنا كانت متاعب هذا «الحزب»، ونكبة عدد من رجالاته أثناء خلافة سليمان. وعلى الرغم من أن موسى بن نصير وهو من أقطاب الحزب اليمني[2]، لم يلق نهاية القادة القيسيين[3]، إلا أنه ـ وربما شفع فيه صديق سليمان وصديقه، يزيد بن المهلب[4] أحد زعماء اليمنية الكبار ـ نال نصيبه الكافي من سياسة الخليفة الأموي، وانتهى به الأمر فقيراً منسياً في الشام[5]. وفي غمرة البحث عن سبب مقنع لإبعاد هذا القائد الكبير واضطهاده، نرى في مقدمة الأسباب التي ذكرناها، خوف الخلافة من طموحه، بعدما ظهر من بوادر سياسته الناجحة في المغرب

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٦١١.
(٢) ينسبه المؤرخون إلى لخم أو بكر بن وائل.ابن عذاري ج ١ ص ٣٩.
(٣) قتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح بلاد وراء النهر ومحمد بن القاسم الثقفي، فاتح السند.
(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٣.
(٥) المكان نفسه.

واسبانية وسيطرة أبنائه على أجهزة الحكم هناك، لا سيما عبد العزيز أول حكام الولاية الجديدة، والمتأثر إلى حد كبير بشخصية والده القيادية، وبراعته في اكتساب ولاء الناس ومودتهم، دون أن ينجو بدوره من تآمر السلطة على حياته، فاغتيل في نفس السنة التي مات فيها أبوه فاتح الأندلس (٧١٨/٩٧)[1]. ومهما كان الأمر، فإنها النهاية شبه الطبيعية للقادة العظام صانعي الانتصارات المجيدة في ذلك الوقت، حيث انتهى دور موسى كما انتهت أدوار غيره، ممن كانت أعمالهم العسكرية في الغالب شراً عليهم وليس العكس، شأن طارق بن زياد الذي لقي هو الآخر على ما يبدو مصيراً لا يختلف كثيراً عن مصير موسى، حتى القائد مغيث الرومي الذي قيل إنه المتآمر عليهما، افتقده بلاط الخلافة وعاش حياة عادية في الأندلس[2].

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٣. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٥. دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص ٢٠٤.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٠ . Levi-Provençal: Hist. T I. P. 29

عصر الولاة الأمويين في الأندلس

عبد العزيز بن موسى واستكمال الفتح : استلم عبد العزيز إدارة البلاد المفتوحة في الأندلس بتكليف من والده موسى، ثم أصبح أول حاكم عليها بعد المحنة التي عصفت بهذا الأخير وقضت على حياته السياسية. وكان عبد العزيز نموذجاً جيداً للوالي الناجح، حيث رافق والده في كثير من الحملات العسكرية وتتبع ممارساته في الإدارة والحكم، فورث عنه الشجاعة كما ورث المرونة والنظرة البعيدة في السياسة.

وكان الوالد قد ترك لابنه مهمات لا تخلو من الخطورة، فتصدى لها بجدية وحزم، وفي أولويتها استكمال العمليات الحربية في المناطق، التي لم تكن قد أدركتها بعد جيوش موسى وطارق. وسرعان ما تحرك باتجاه الأقاليم الغربية من اسبانية، أو ما يقصد حالياً بالبرتغال، وإن كان بعض المؤرخين يعتقد بأن عبد العزيز، قام في وقت سابق بحملة منفردة وفتح مدن هذا الإقليم. والواقع أن أخبار هذه الحملة غير واضحة تماماً في المصادر العربية، ولكن المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال[1]، يرى أن حملة الغرب تمت بعد استلام عبد العزيز شؤون الحكم في أسبانية العربية، حيث نجح في

(1) Levi-Provençal: Hist. T 1. P. 30.

السيطرة على المدن الهامة في هذا الإقليم، مثل يابرة Evora على مقربة من ليشبونة وشنترين Santaren على نهر تاجة Tago وقلمرية Coimbra قرب ساحل المحيط ، وأخيراً استورقة Astorga المجاورة لجيليقية[١]. وتوقف عبد العزيز عند حدود هذه المنطقة الصخرية ، لينعطف نحو الجنوب ، حيث لا زالت بعض المواقع الهامة خارج دائرة السيطرة الاموية . فبدأ بمالقة Malaga التي سقطت بدون مشقة ، ويعتقد أن الجالية اليهودية قد استولت على المدينة في وقت سابق وسلمتها لوالي الأندلس[٢] . ثم صعد شمالاً وأخضع البيرة Elvira، ومنها إلى إقليم مرسية[٣] Murcia في الشرق ، حيث كانت السيطرة العملية هناك لأحد الزعماء المحليين من القوط ، الموالين للملك الاسباني قبل الأخير، يعرف باسم تدمير Teadomira [٤] وتصفه الكتابات التاريخية بأنه كان صديقاً للعرب ، إذ من المرجح أن يكون أحد أطراف القوى التي فاوضت الأمويين بشأن الدخول الى اسبانية ، مع يوليان وبقية الحزب المناوىء لروذريق . ويقال إن تفاهماً جرى بينه وبين عبد العزيز ، على أن يبقى حاكماً لهذا الاقليم باسم العرب ، لقاء شروط مكتوبة وردت في وثيقة الاتفاق بين الطرفين[٥] .

وباستسلام هذا الاقليم يكون القسم الجنوبي الشرقي من أسبانية ، قد آلت السيادة فيه إلى الأمويين ، شأن الأقاليم الأخرى . وهناك افتراض بأن قادة هؤلاء قاموا في تلك الفترة بحملات عسكرية ، إجتاحت طركونة في الشمال

---

(١) Levi-Provençal Hist. T 1. P 30.

(٢) Op. Cit. P. 1. 31.

(٣) أنشئت مدينة تحمل هذا الأسم في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني.

(٤) مؤنس، فجر الأندلس ١١٢ .

(٥) جاء في كتاب الاتفاق: أن يسلم تدمير للعرب سبع قلاع، وأن لا يأوي عدواً ولا يخون أمناً ولا يكتم خبراً علمه. وفرض عليه وعلى كل من أصحابه دينار كل سنة وأربعة أمداد قمح ومثلها شعير، بالإضافة إلى أربعة أقساط خل وقسط زيت وآخر عسل.
عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٥٥ - ٥٦ Levi-Provençal T 1. PP. 32 — 33.

حتى برشلونة عاصمة أراغوان، وبنبلونة Panpeluna عاصمة الباسك (البشكنس) في جبال البرينيه . وتكون بذلك عملية الفتح في أسبانية (التي سيغلب عليها الأندلس منذ ذلك الحين) ، قد استكملت نهائياً في عهد عبد العزيز بن موسى (٧١٤ـ٧١٦م) دون أن يبقى خارج السيادة الأموية سوى بضعة جيوب ، كان من السهل جداً تصفيتها لو اتخذت الأمور مسارها الطبيعي في هذه الولاية ، التي كان لها النصيب الوافر من المشاكل الداخلية ، حيث أصبحت أبرز سماتها في وقت لاحق. ذلك أن عبد العزيز وقع ضحية إغتيال[١] أعدّته دمشق، يفترض أن له علاقة بموقف الخلافة من أبيه، والقضاء على طموح أسرته في تلك البلاد النائية . واتُهم والي الأندلس الذي تزوج من أرملة الملك القوطي روذريق (أجيلون Egilona) [٢] بأنه وقع تحت تأثير زوجته ، بحيث أصابت طريقة حياته التي انعكست عليها سمات الملوك القوط . غير أن ذلك لا يعدو أن يكون أحد جوانب حملة الخلافة عليه، لاجئة إلى الطعن بإيمانه وخروجه على عادات العرب المسلمين، لتسويغ قتله دون أية ضجة . وكان اللجوء إلى التصفيات بهذا الأسلوب أمراً شائعاً في مجتمع ينعكس عليه الإسلام ، كعامل من أبرز العوامل المؤثرة فيه . وهكذا انتهت حياة أول حكام الأندلس والشخصية الثالثة التي اقترنت بحركة الفتوح في هذه البلاد . ولم يكن مقتله بهذه الطريقة ، ليزيل الاسم البارز لأسرته في تاريخ المغرب وأسبانية ، أو ليمر دون إثارة هزات واضطرابات عنيفة ، ستجر ذيولها السلبية على الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية في دمشق.

الولاة الامويون بعد عبد العزيز

كان اغتيال عبد العزيز بن موسى (٧١٦م)، فاتحة عهد مضطرب في تاريخ

---

(١) ابن عبد الحكم، ص ٢١٣ .

(٢) يذكر ابن عبد الحكم بأنها «ابنة ملك أهل الأندلس» ص ٢١٢ . أما ابن عذاري فيذكر أنها «امرأة روذريق واسمها أيله» ج ٢ ص ٢٣ . راجع أيضاً:

Levi-Provençal: Hist. T 1, P.33.

الولاية الأموية البعيدة على مدى اثنين وأربعين عاماً ، أبرز سماته عدم الاستقرار السياسي والتناقضات القبلية والعنصرية ، التي وجدت طريقها إلى الانفجار بعد فراغ السلطة من كبار المؤسسين ، صانعي تلك الانتصارات الباهرة . وقد جر ذلك الأندلس إلى منعطف خطير ، طرح مشكلة الحكم منذ وقت مبكر جداً، حيث القوى السياسية النافذة هناك تشابكت أطرافها وتداخلت ، على نحو لم يجر في أية مقاطعة أموية أخرى، مما جعل الأندلس تمثل ظاهرة خاصة وفريدة . ففي المشرق وبقية الأقطار كانت مشكلة الحكم محسومة لصالح العرب الحاكمين ، في الوقت الذي غلب الطابع الاجتماعي ـ الاقتصادي على المشكلات الأخرى ، سواء كانت ناتجة عن سوء إستعمال السلطة لدى بعض الولاة ، بفعل رؤية خاصة في الإدارة أو بفعل جنوح إلى الاستغلال وتسلط فئة على أخرى .

أما في الأندلس فكانت الأمور تأخذ اتجاهاً آخر ، وكانت المشكلة السياسية أعمق مشاكلها جذوراً ، حيث الأحزاب والتكتلات القبلية متعددة الانتماءات ، لا يجمع بينها سوى التنافس على الحكم . فالعرب كان بينهم من شارك في طلائع الحملات والمعارك الأولى ، وإن كانت نسبتهم العددية منخفضة ، إلا أنها ارتفعت مع حملة موسى بن نصير التي كان العنصر العربي هو الغالب عليها . يضاف إلى ذلك أن الانتصارات العظيمة وتحقيق السيطرة على بلاد عرف عنها الثراء ، كان سبباً في اجتذاب أعداد كبيرة من العرب من مختلف الاتجاهات . ولم تكن المشكلة القبلية مطروحة في ذلك الوقت ، لأن الجميع كانوا يقاتلون تحت راية واحدة ، وهي غالباً لا تطرح أثناء الحرب ، حتى إذا استقرت الأحوال انفجرت الصراعات وظهرت المحاور ، وهذا ما حدث فعلاً عندما أخذ كل والٍ يصطحب معه أو يستقدم إلى الأندلس جماعته من ذات الانتماء القبلي . وكان من الطبيعي أن تستفحل حرب القبائل في الولاية الجديدة ، يغذيها بشكل مباشر الولاة أنفسهم . ولو أن الصراع اتخذ بعداً قبلياً فحسب لربما أمكن تخفيف حدة الأزمة السياسية المستفحلة ، ولكن الصراع اتخذ

كذلك طابعاً إقليمياً تعدى كل أطر الصراعات التقليدية المعروفة . فالعرب الأوائل (المحليون) ـ وهم بواكير الجماعات التي جاءت مع الفتح أو في اثره مباشرة ـ استوطنوا الأندلس وأصبحوا من أهلها ، بعد أن استقروا في المدن الكبرى والسهول الزراعية الخصبة . وقد عاش هؤلاء في ترف وسعة ، وكانوا يتململون من جماعات العرب الأخرى الوافدة الى الأندلس ، خوفاً على مستواهم الحياتي المرتفع ، حيث كانت أخطرها بالنسبة للعرب المحليين ، الفئات الشامية التي فرضت نفسها إبان الحرب الأهلية بين العرب والبربر[1] .

وامتد الصراع الداخلي ليشمل البربر أيضاً ، تلك الفئة التي شاركت بدور فعال في حروب الأندلس ، وكانت تمثل غالبية الحملة الأولى التي قادها طارق ، طارحة نفسها من هذا الموقع ، وليس من موقع التبعية للعرب . فإذا هم سكان الأرض الجدباء والمناطق الباردة في الشمال ، والعرب منتشرون على ضفاف الأنهار في شرقي الأندلس وجنوبها[2] . وتراكمت الأسباب وراء سخط البربر وحقدهم على العرب الحاكمين ، فإذا لاحت فرصة مناسبة للثورة ابتهلوها ، وفجروا ما يضطرم في نفوسهم ضد السيادة العربية ، حتى وصل الأمر الى افتراق حلفاء الأمس والمقاتلين في خندق واحد ، والانتهاء إلى جبهتين متناقضتين في الأهداف والمصالح .

هكذا كانت الملامح العامة للأندلس بعد مقتل عبد العزيز بن موسى ، حيث الاضطراب السياسي ، هو العنوان الرئيسي في هذه الولاية ، منعكساً هذا الوضع على جهاز الحكم ، الذي كان بدوره مضطرباً ونتيجة حتمية لتركيبة المجتمع ، ذات الخطوط الملتوية وغير المتجانسة . فخلال هذه المدة القصيرة التي امتدت حتى سقوط خلافة الأمويين ، مرّ في تاريخ الأندلس نحو عشرين من الولاة ، بعضهم لم يحتفظ بالحكم أكثر من أشهر قصيرة . والسبب في ذلك أنهم

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠ ـ ٣١ .

كانوا جزءاً من اللعبة السياسية في هذه البلاد ، فلم يستطع أحد منهم استيعابها واحتواء المتناقضات فيها ، بل كانوا أطرافاً مكشوفة في الصراع على الحكم ، كرؤساء قبائل في المقام الأول، وذلك باستثناء الغافقي الذي كان على سد هذا الفراغ ،لو أتيحت له فرصة أطول في السلطة .غير أن الفوضى السياسية ليست كل عناوين هذا العهد ، فقد اتسع المجال أمام بعض الولاة للنهوض بأعمال قيمة في بدايات هذه المرحلة . ولا يستطيع الباحث أن يتجاهل تلك الحملات العسكرية الجريئة وراء البرينية، برغم الظروف العصيبة ، تلك التي مثلت آخر خطوط المدّ التوسعي للعرب المسلمين في القارة الأوروبية .

فلدينا صورتان إذن لفترة الأربعين عاماً ، بين الفتح ودولة عبد الرحمن (الداخل) : الأولى بسلبياتها، حيث اضطرمت أزمة سياسية عنيفة ، لم تجد لها حلاً جذرياً مناسباً ، والثانية بإيجابياتها المتمثلة باختراق الجيوش الأموية، لأول مرة جبال البرينية وانتشارها حتى اللوار في «فرنسا» .

التوسع في أوروبة (٩٩ - ١١٤/٧١٨ - ٧٣٢)

كان أول ولاة الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى ، أيوب بن حبيب اللخمي ، الذي يبدو أنه كان متورطاً في مقتل سلفه ، برغم صلة القربى بين الرجلين(١) . وهو مدين بتعيينه على ما يبدو لقادة الجيش ، الذين نفّذوا مؤامرة الاغتيال(٢) . وكانت أولى أعمال الوالي الجديد ، نقل العاصمة الادارية من أشبيلية ، معقل الوالي السابق ، إلى قرطبة المدينة الأكثر توسطاً في الأندلس ، حيث أخذ مجدها السياسي في التألق منذ ذلك الحين ، حتى بلغ ذروته في عهد الخلافة، خلافاً للوالي الذي سرعان ما انطفأ نجمه بعد ستة أشهر فقط من تعيينه ، لم يكد خلالها ينجز ترتيبات الادارة المنقولة . فاختار والي القيروان(٣)ـ وقد كانت الأندلس تابعة له ـ أحد أعوانه وهو الحرّ بن عبد

---

(١) هو ابن اخت موسى بن نصير. ابن عبد الحكم ص ٢١٢ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) محمد بن يزيد . وكان سليمان قد عينه بعد عزل عبد الله بن موسى بن نصير. أخبار مجموعة ص٢٢ .

الرحمن الثقفي ، الذي وصل الى قرطبة ومعه قوة عسكرية معظمها من اليمنيين، على الرغم من قيسيته ، حيث احتلت القبائل اليمنية منذالبدء، مركز الثقل بين القوى المتصارعة في الأندلس . ويعتقد بعض المؤرخين أن الوالي الجديد ، لم يستبعد مجابهة أيوب بن حبيب الذي استمد قوته من الجيش ، فآثر أن يأتي مصحوباً بهذه القوة التي قُدّرت بأربعمائة رجل[١] . وقد يكون هذا الاعتقاد في محله ، إلا أن عدداً ضئيلاً من المقاتلين ، لم يكن قادراً على التصدي للوالي السابق المهيمن على الجيش، إذا ما حاول التمرد على قرار أمير القيروان. ولا ريب أن الوالي الجديد كان حذراً في خطواته، فلم يشأ الدخول منفرداً إلى بلاد تجتاز ظروفاً غير عادية، دون قوة ما، تقف إلى جانبه ويثق بولائها لضمان نجاحه.

ولكن الحرّ الثقفي ، في ضوء ما تذكره المصادر ، لم يأت بعمل يستحق الاهتمام خلال السنتين والثمانية أشهر التي قضاها في الحكم، مقتصرة على إجراءات تقليدية أكثر ما تتعلق بأمور الضرائب وتنظيم رواتب الجنود . وفي عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي كان كما هو معروف ، نسيجاً وحده بين الخلفاء الأمويين ، خاصة في النظرة إلى علاقة السلطة بإدارات البلاد المفتوحة ، استبدل الحر بن عبد الرحمن ، بالسمح بن مالك الخولاني (رمضان ١٠٠ / آذار ٧١٩)[٢]، مستقلاً لأول مرة عن القيروان[٣]، حيث كانت حادثة ما قد وضعت هذا الرجل موضع الثقة من الخليفة[٤] . فجاء إلى مركز عمله في قرطبة وهو مندفع حماسة ، لتقويم الأوضاع في هذه الولاية ، التي كان غموضها يزداد لدى خلفاء دمشق . وما لبث أن كتب تقريره الأول إلى الخليفة ، وقد حوى تفصيلاً عن طبيعة الأندلس وإمكاناتها ومشاكلها السياسية والاقتصادية .

---

(١) مؤنس، فجر الأندلس ص١٣٥ . Levi-Provençal: Hist. T 1, P 39.
(٢) أخبار مجموعة ص ٢٣ .
(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦ .
(٤) المكان نفسه .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز لم يكن متحمساً لبقاء العرب المسلمين في الأندلس[1] ، وإن إرساله السمح أحد رجاله الموثوقين إليها كان ضمن هذا الهدف ، ولكن هذا الاعتقاد يسقطه السمح نفسه الذي كان رائد الحملات العسكرية التوسعية في أوروبة .

وإذا تخطينا الجانب العسكري في ولاية السمح بن مالك ، وهو جانب في غاية الأهمية سنأتي على ذكره بالتفصيل فيها بعد، يمكننا القول أيضاً إنه كان رائداً في تنظيم جهاز الحكم على أسس جديدة ومتطورة، وكانت سياسته الإصلاحية في الإدارة والاقتصاد والعمران، نقطة تحول في تاريخ الأندلس، بحيث أعطتها تلك الشخصية العربية المتميزة . ومن الأعمال البارزة التي أقترنت بالسمح ، إعادة بناء القنطرة الرومانية[2] على نهر الوادي الكبير ، التي امتدت كجسر بين الضفة الشمالية حيث العاصمة قرطبة، وبين الضفة الجنوبية المعروفة بالربض[3]. ولكم كانت الأندلس الفتية ، بحاجة إلى جهود هذا الوالي الذي حكمها بمنطق إصلاحي وبسياسة حازمة ، ولكن السمح لم يعش طويلاً في منصبه ، إذ قتل في إحدى الغزوات في فرنسا (غالة) (١٠٢/٧٢١)[4] .

بين استشهاد السمح في موقعة طلوشة Toulouse في أول محاولة جدية لاختراق البرينية إلى أوروبة ، وبين استشهاد الغافقي قائد آخر هذه المحاولات وأكثرها شهرة، مسافة سنوات عشر طبعت المرحلة بطابع جهادي خاص ، نستطيع أن نطلق عليها سنوات المدّ العربي الإسلامي في أوروبة . فقد بلغت الجيوش الأموية آخر انتشار لها في ذلك الحين ، ومن ثم أخذت تتراجع وتفقد ما أنجزته وراء هذه الجبال . وكان عبد الرحمن الغافقي الذي قاد عملية الانسحاب ببراعة إثر هزيمة طلوشة ، الرجل البارز في الجيش والأوفر حظاً في خلافة

---

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٢٠٦ . ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٤ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦ .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦ . Levi-Provençal: Hist. T 1, PP. 39-40.

السمح، بعد أن مارس فعلياً هذا المنصب نحو شهر من الزمن. غير أن السياسات القبلية أبعدته عن ولاية الأندلس، باختيار والي أفريقية (بشر بن صفوان الكلبي) أحد أقاربه الكلبيين، هو عنبسة بن سحيم (١٠٣/ ٧٢٢)[١]. وكانت مهمته دقيقة إلى حد ما، حين جاء إلى قرطبة وعرب الأندلس خارجين من هزيمة قاسية، هي الأولى في تاريخهم العسكري الأوروبي، تاركة آثارها الواضحة على بنية السلطة القائمة على التوازن القبلي، فإذا الكلبيون يجتاحون الولاية ويقبضون على ناصيتها سحابة من الزمن، وفي المقابل كان القيسيون يتلاعب في نفوسهم الحقد بانتظار الفرصة المناسبة.

وعلى الرغم من أن سياسة القبيلة هي التي جاءت بعنبسة إلى السلطة، فإنه عمل قدر المستطاع على خلق توازن مقبول بين العرب في الأندلس. ففي خلال السنوات الخمس التي قضاها في الحكم، أمضى أربعاً منها متفرغاً لشؤون الولاية وتنظيم إدارتها، بينما كرّس السنة الأخيرة للسياسة التوسعية متعقباً، آثار الوالي السابق ونهايته أيضاً، حيث لقي نفس المصير وفي ظروف متشابهة (١٠٧/ ٧٢٦)[٢].

ومرت فترة من الجمود العسكري بعد مقتل عنبسة، كانت حافلة بالأزمات الداخلية العنيفة وفقدان الاستقرار السياسي إلى حد كبير. ففي أقل من سبع سنوات تعاقب على الحكم سبعة من الولاة[٣]، معظمهم فرضته العصبية القبلية، دون أن يتمكن أحدهم من الاحتفاظ بضعة شهور في منصبه. ولم يترك جلّ هؤلاء أثراً يذكر في تاريخ الأندلس، إذا استثنينا الهيثم بن عبيد الكلابي (١١١/ ٧٢٩ ـ ٧٣٠)، في جهوده المحدودة على الجبهة الخارجية، حيث قام

(١) أخبار مجموعة ص ٧٤.
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٧.
(٣) عذرة بن عبد الله الفهري، يحيى بن سلمة الكلبي، حذيفة بن الأحوص القيسي، عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، الهيثم بن عبيد الكلابي أو الكناني، محمد بن عبد الله الاشجعي، عبد الرحمن الغافقي. أخبار مجموعة ص ٢٤. ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨.

بحملة عسكرية إلى بورغونية Borgone ، ولكن سياسته في الداخل كانت فاشلة وقائمة على التحدي والعصبية الضيقة . ولا نستغرب ذلك عندما نعرف أن الهيثم فُرض على ولاية الأندلس، إثر استلام القيسيين السلطة في القيروان بقيادة عبيدة بن الرحمن السلمي الشديد التعصب لقيسيته[1] ، وامتداد تأثير هذه الحركة إلى الأندلس، فارضةً عليها سنوات من الحكم القيسي المتطرف ، وكذلك إذا استثنينا من هذه اللائحة عبد الرحمن الغافقي (١١٣ـ ١١٤/ ٧٣١ـ٧٣٢) ، ذلك القائد الكبير وأعظم ولاة الأندلس على الاطلاق . والواقع أن السياسة القبلية التي كان مصدرها غالباً القيروان ، تحكمت في أحداث الأندلس وانعكست على ما يجري فيها من تطورات محلية وخارجية . وقد عانى الغافقي ، الرجل البارز في الجيش والمرشح للولاية منذ مقتل السمح بن مالك ، من هذه السياسة التي وقفت عائقاً في طريقه إلى الحكم طوال هذه السنوات، حتى نجح أخيراً في تحقيق طموحه، حيث كان للجيش دور على الأرجح وراء تعيينه أو فرضه والياً على الأندلس.

والغافقي[2] ،كان بلا شك طرازاً آخر بين الولاة العرب في الأندلس ، والرجل الوحيد الذي بدا قادراً حينذاك على تجميد الصراعات الحزبية وتعبئة كل الأطراف في خدمة السلطة ، ومن ثم تجنيدها في مشاريع التوسع التي كان لها الأولوية . ففي خلال عام أو أقل قام بمنجزات تتطلب أعواماً طويلة ، حيث كانت سياسته القبلية الحكيمة أحد أهم أسباب النجاح الذي حققه في تلك الفترة ، فارضاً على الجميع إحترامه والالتزام بالطاعة له[3]. وبعبارة موجزة نستطيع القول إن الغافقي إجتمعت في شخصيته مقدرة المسؤول المنظم المتحرر من عصبياته ، وشجاعة القائد الموهوب ، المتوهج اندفاعاً وحماسة . وإذا كان قد عُرف بصفاته الأخيرة ، فلأنها كانت الهاجس الذي كرس له كل الجهد ،

(١) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٣٤ـ١٣٥ . سالم، المغرب الكبير ص ٢٩٦ .
(٢) ينسب إلى غافق احدى القبائل اليمنية .
(٣) مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلس ص ٢٩٣ .

قبـل أن يتخلى الحظ عنـه ، دون أن يجد من الـوقت متسعاً لتحقيق مـا يـريـد . فاستشهد في مـطلع ولايته التي انتـظرها طـويلاً ، بعـد أن بلغ ذروة التوسـع في أوروبة واجتازت جيـوشه وادي الـرون ، الى عمق فرنسـا حتى اللوار ، قبل أن يسقط أخيراً في بواتييه Poitiers أمام أول تكتل صليبي في تلك القارة .

إشتداد الصراع القبلي وثورة البربر (١١٤ - ١٢٤ هـ):

كـان لمعركـة بواتييـه صداهـا المؤثر في مختلف أرجـاء الدولـة الأمـويـة، مما حدا بالخليفة هشام بن عبد الملك أن يعيد النظر في سياستـه الأندلسيـة ويعطيهـا جانباً من اهتمامه ، ولكن خلافة دمشق تـورطت فعلاً بسيـاسة التعصب القبـلي وغرقت فيها بكل مؤسساتها وأجهزتها ، حتى الخليفة نفسه وهو المعروف بأنه أكثر اعتدالاً في هذا المجال ، كان يضطر إلى المشاركـة في مساومـات ، يظن أنها ذات فائدة ، بينما هي في الواقـع ليست أكثر من محـاولات سطحيـة للتهدئـة ولتجميد الأوضاع .

ولندع الأندلس قليلاً مع عبد الملك بن قطن الفهـري أحد غـلاة القيسية ، الـذي تولى الحكم بعـد مقتل الغافقي[1]، لننتقل إلى القيـروان عاصمـة المغرب باعتبارها المصدر الذي تتأثر به الأندلس وتتفاعـل بما يستجـد فيهـا من متغيرات الى حـد كبير . ففي سنـة ١١٤ هـ وفي الوقت نفسـه الذي قضى فيـه الغافقي ، كانت القيروان تشهد تغييرات إدارية هامة، عندما أطاح الخليفـة هشام بعـاملها القيسي المتعصب عبيدة بن عبد الـرحمن[2] الذي أذاق خصـومـه الكلبيـين مـرارة تعصبـه الأعمى ، كما أذاق البـربر لـوناً من سيـاسته الفئوية، متأثراً بـأسلوب الحجـاج بن يوسف في العـراق مـع الموالي، فيـما يتعلق بـالضـرائب والاضـطهـاد والملاحقة والقتل ، الأمر الذي زرع بذرة النفور لدى البـربر من الحكم الأموي، وأخـذت تستوعب الكثيـرين منهم آراء متطرفـة وثـوريـة ، حيث قـاد ذلـك إلى انتفاضة البربر الشهيرة في المغرب ومن ثم الأندلس .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦ .

وكان هشام بن عبد الملك يثق بوالي مصر عبيد الله بن الحبحاب ، الذي عين على أفريقية والأندلس (ربيع الأول ١١٦)[١] وأظهر ميلاً إلى تهدئة الأمور في ولايته وتقليص دائرة التشنج التي اتسعت في زمن سلفه . ولكن الوالي الجديد على الرغم من نجاحه في مصر ، إلا أن سياسته الأفريقية منيت بالفشل ، نتيجة الاختلاف البنيوي بين كل من الولايتين . فاخفق وهو المتعصب أيضاً لقيسيته ، في معالجة المشاكل الخطيرة في أفريقية، والتي كان معظمها نتاج الفترة التي أمضاها سلفه في الحكم . وبدا ابن الحبحاب رجلاً قصير النظر ، عندما اعتقد أن باستطاعته ضرب كل الحركات المعارضة في المغرب بجماعته من الحزب القيسي ، مما أدى إلى زيادة نفور البربر وابتعادهم، في وقت كانت بذور الثورة تتفشى في صفوفهم وتنذر بانفجار الوضع في المغرب. وامتدت سياسة التعصب لتتناول العرب من القبائل اليمنية وتشتد عليهم ، وتصل إلى الأندلس فتصيب كل من هو غير قيسي . ومن سلبيات هذا الوالي أيضاً، إفساح المجال أمام أبنائه لتولي مراكز هامة في إدارته[٢]حيث كانوا مع بقية مساعديه من كبار الموظفين ، يمثلون شخصيته بكل نزعاتها خير تمثيل . وكانت الأندلس من نصيب أحد أعوانه عقبة بن الحجاج السلولي[٣]، الذي كان برغم انتمائه للحزب القيسي خلفاً للوالي القيسي أيضاً عبد الملك بن قطن الفهري، يتصف بجدية وموضوعية ، وبأن فيه من ملامح الغافقي ، لا سيما في نزعته الجهادية وميله إلى التوسع في أوروبة[٤]. وقد ارتبط اسمه بإحدى الحملات الهامة في تاريخ العلاقات بين الأمويين والفرنجة ، الدولة المجاورة لهم خلف البرينية . ولكن عقبة كغيره من القادة لم يحالفه الحظ في مهمته، عندما حلت بجيشه هزيمة قاسية ، بعد عدة هجمات على منطقة الرون ، ومحاولته رفع الحصار عن ناربون[٥]

---

(١) ابن عبد الحكم ٢١٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٧ .

(٣) اخبار مجموعة ص ٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨ .

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩ .

(أربونــة) التي كانت لا تزال تحت السيطرة الأموية . ولم يغب عن عقبة ذلـك المـوقع المحصن الـذي لجأت الهي بقـايا القـوط في جيليقية[1] ، فشن عليهم في وقت سـابق حـربـاً ضاريـة بعثـرت قـواهم وشلت جهـودهم لمـدة طـويلة من الزمن[2].

ويحيط الغمـوض بمصير عقبة، بُعَيْد الهـزيمة التي لقيتهـا جيوشـه أمام شـارل مارتل في سبتمانية Septemanie. وإذا كانت لا توجد إشارة ما إلى قتله في هذه المعـركة ، فـإن أصابـع الاتهام تشـير إلى عبد الملك بن قـطن الفهري الـذي قام بانقلاب في قرطبة واستلم الحكم (١٢١ هـ)، ثم لجأ على الأرجح إلى تصفيته أو زجه في السجن، مستعيداً السيطرة مرة ثانية على الحكم في الأندلس[3].

كـانت ولاية عبـد الملك بن قطن، الطاعن في السن وفي التعصب ، حـافلة بالأحداث الجسام والتطورات السياسية الخطيرة. ففيهـا تتجسد مـأساة النـظام الأموي بعصيانه التي تبناها الخلفاء ، منذ معاوية واعتماده في حساباته السياسيـة على تطاحن القبـائل لابقـائها ضعيفـة حتى لا تقوى عليـ ، مع تعـاطف هادىء نحو الحزب اليمني ومصاهرته الكلبيين أقوى قبائل هذا الحـزب . ولكن معاويـة بدهائه الحاد، كان يتقن جيداً لعبة التوازن بين الحزبين، حيث كان على الرغم من اعتمـاده عـلى اليمنيـين واعـطائهم الأولـويـة في منـاصب الجيش والإدارة، لا يتردد أحياناً في التعامل مع القيسيين من خلال الرؤيـة ذاتها ، حتى أن والي دمشق في عهده كان قيسياً هو الضحاك بن قيس الفهري ، دون أن ننسى مـا كان لهـذا المركز من أهمية خاصة، بالمقارنة مع الأقاليم الشامية الأخرى. غير أن اللعبـة تفقد قدرتها على الاستمرار بعد غيابه ، وتتحول الدولة تدريجياً إلى خط واحد هو الخط اليمني . فيزيد بن معاوية سخّر كل أجهزة الحكم لمصلحة أخواله الكلبيين، قبل أن يتخذ الصراع القبلي أبعاده الخطيرة بعد موته وتنازل ابنه معاويـة . فقد شعـر

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩ .
(٢) المكان نفسه .
(٣) أخبار مجموعة ص ٢٩ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠ .

منصب الخلافة في دمشق وساد الخلاف بين الأمويين وقتاً ، قبل أن يوحّدوا موقفهم من مرشح للخلافة ، ولكن دون أن يفقدوا دعم القبائل اليمنية حتى في أحلك الظروف . وفي المقابل كانت القيسية تقف بكل ثقلها مع عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في مكة . وفي مرج راهط انفجر الصراع في معركة ضارية ، انتهت بهزيمة ساحقة للقيسيين ، الذين فقدوا عدداً من كبار زعمائهم على رأسهم الضحاك[1] .

وهكذا خسر ابن الزبير الرهان على حلفائه القيسيين ، في الوقت الذي حفظ الخليفة الأموي الجديد مروان بن الحكم مشاعر الودّ والتقدير للقبائل اليمنية وللكلبيين بصورة خاصة . وأصبح هذا الشعور ديناً على عاتق الخلفاء المروانيين الذين مالوا عموماً إلى جانب الحزب اليمني، باستثناء يزيد بن عبد الملك القيسي النزعة ، وابنه الوليد الذي دفع حياته ثمناً لتعصبه ، وكذلك مال إلى القيسية آخر الخلفاء الأمويين مروان الثاني . ولم يتحرر من سياسة الارتهان القبلي هذا ، سوى الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي كان له مفهومه الخاص في الحكم والقضايا الاساسية الأخرى في الدولة .

لقد تطورت الدولة الأموية في سياستها القبلية ، دون أن تقدر أبعادها المستقبلية على مؤسسات الحكم . وتفشت بذرة العصبية في مختلف الأقاليم ، دون أن تتمكن من كبح جماحها ، أو يستطيع الخليفة حينذاك (هشام بن عبد الملك) آخر الكبار الذين عرفتهم دولة الأمويين ، أن يوقف هذا النزف برغم جهوده المخلصة . فهو أيضاً متأثر بهذه العصبية ولكن باعتدال ، وكل ما فعله هذا الخليفة، لم يؤد إلى أكثر من تجميد الأوضاع وتأخير عملية السقوط لهذه الدولة بضعة أعوام فقط .

وكانت الأندلس الصورة المشوهة لنظام الأمويين هذا ، حيث انصبت فيها كل تناقضاته ومختلف مشاكله ، ولم يكن عبد الملك بن قطن الحجازي العتيق ،

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٧١ ـ ٧٤ .

يحفظ كثيراً من المودة لخلافة الشام ، لهذا فإن حركته الانقلابية كانت موجهة ضد السلطة الأموية ، في وقت كانت الضربات تنهال عليها من كل صوب ، لا سيما في الولاية الأفريقية ، بحيث لا نستطيع أن ننفي عن هذه الحركة ، بُعدها الاستقلالي في هذه الظروف العصيبة بالذات . ولكن والي الأندلس برغم تقدمه في السن كانت تعوزه الخبرة السياسية والمقدرة على اصطناع الفئات الأخرى الساخطة على الحكم العربي بصورة عامة ، مثبتاً بذلك جهله السياسي ، الذي تحكم في موقفه من الدولة الأموية ، ومن الفئات غير القيسية سواء من اليمنيين أم البربر .

وإذا كان الحكم الأموي في المشرق قد استطاع أو كاد ، حسم مشاكل الصراع الاجتماعي والقبلي في محيط غير متعدد الجنسيات نسبياً ، فالصورة تختلف في ولايتي المغرب والأندلس ، حيث تتكاثر الشعوب والقبائل وتتنوع الأهواء والمصالح . فإذا كان للعرب هنا السيادة المطلقة ، فذلك يعني للبربر فقدان الاستقلالية القبلية والفردية . ففي عهد موسى بن نصير تحالف البربر والعرب في صورة متكافئة لتحقيق أهداف عسكرية واضحة ، على عكس ما ساد هذه العلاقات بين الطرفين فيما بعد، من اختلال وابتعاد كل منهما عن الأخر.

ثورة البربر في المغرب (١٢٢/٧٤٠)

تمتد جذور ثورة البربر في المغرب إلى خلافة يزيد بن عبد الملك ، أول خليفة أموي يُعلن تأييده الصريح والمطلق للحزب القيسي ، خلافاً لمن سبقه من الخلفاء الذين اكتفوا بالتعاطف الضمني والتأييد المبطن في مواقفهم من الأحزاب القبلية ، التي كانت حتى هذا ـ الخليفة ـ تتجه لمصلحة «الحزب» اليمني . أما يزيدالذي ارتبط بمصاهرة مع أسرة الحجاج بن يوسف الزعيم القيسي الشهير، فقد تخطى كل الحدود في تعصبه للقيسية . فاختار كل مساعديه من كبار الموظفين وحكام الولايات من الحزب القيسي، بينما اضطهد اليمنيين ولاحق

زعمـاءهم[1]. ولعل الحـزب القيسي كـان أكـثر جنـوحـاً إلى التـطرف[2] من الحـزب اليمني ، لأسباب تتعلق بـالبيئة والحيـاة الاجتماعيـة والاقتصـاديـة ، حيث كان أكثر تحرراً من تقاليده القبلية ، بعد إدراكه مفهوم الدولـة والعلاقـات السيـاسية في وقت متقـدم على الحـزب القيـسي ، الذي لم يخـرج من دائرة نـظام القبلية إلى نظام الدولة إلا في إطار الإسلام . وهذه العزلة السياسية التي عاشهـا عرب الشمال ، بالمقارنة مع انفتـاح العرب الجنـوبيين ، كـانت تتحكم في ذهنية القيسي المغلقـة وتقف وراء تعصبه الشـديد للعنصر العـربي ، دون أن نلغي من هذه الأسباب بقاء القيسية خارج الحكم طوال الخلافة الأموية ، باستثناء حالات محدودة وعابرة .

ومن ولاة يـزيـد بن عبـد الملك الـذين تشبّعـوا بهـذه الـرواسب القـديمـة ، يـزيد بن أبي مسلم أحـد تلامـذة المـدرسـة الحجـاجية، المعـروفـة بخـطهـا العنصري والفئوي، حيـث عمـل زمناً في خـدمةَ الحجـاج، مساعـداً له وأمينـاً لـسـره[3] وتشرب أفكـاره وذهنيته في السـلطة ممـا يرجّـح اختيـار الخليفـة لـه، والياً على المغرب (١٠١/ ٧٢٠). وتحدثنا المصادر التاريخيـة عن ممارسـات يزيد بن أبي مسلم، وهي لا تعدو أن تكون مسخاً لممارسـات الحجاج مـع ميل إلى المبـالغة. فكـان البربـر أكثـر النـاس تضـرراً من سيـاستـه[4]، كمـا كـان المـوالي الفـرس متضـررين من سياســة سيـده الحجــاج في العـراق. ولئن استطاع هذا الأخير، الخروج سالماً من الثـورات العديـدة التي استهدفت رأسـه أولاً، فإن يزيد بن أبي مسلم ما لبث أن دفـع حساب أخـطائه وسقط قتيـلاً على عتبـة المسجـد (١٠٢/ ٧٢١). وتنـاقلت الأخبـار هـذا الحـادث إلى بـلاط

(١) راجع ثورة يزيد بن ملهب. ابن الأثيرج ٤ ص ١٧١ - ١٧٢.
(٢) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٣٩.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢١٣.
(٤) تقول المصادر إن يزيداً كان يأخذ الجزية من البربر والمسلمين ويرسم اسم حرسه على ايديهم لتمييزهم عن بقية الناس. ابن عبد الحكم ص ٢١٤. ابن عذاري ج ١ ص ٤٨.

الخليفة في دمشق، فارتعدت فرائصه وتنصل من أعمال واليه المقتول[١]. ولكي يقرن القول بالفعل، لجأ إلى تعيين يمني من الأسرة الكلبية خلفاً له على المغرب هو بُشر بن صفوان[٢].

ولكن سياسة العداء نحو البربر لم تتوقف عند تغيير الوالي ، بل استمرت تأخذ اتجاهاً تصاعدياً يوماً بعد آخر . ولعل أبرز أخطاء بُشر بن صفوان بالاضافة إلى معاداته للبربر واضطهادهم ، كانت حملته على جماعة موسى بن نصير ـ حيث بقي لهم موطىء قدم في المغرب ومودة في قلوب البربر ، تعود جذورها إلى سياسة التعايش التي كان موسى من روادها الأوائل ـ التي كان من ضحاياها عبد الله بن موسى والي القيروان الأسبق وعدد من أنصاره[٣]. وعلى الرغم من تحدره من قبيلة يمنية عريقة، فإنبُشر بن صفوان كان يتمتع بمقدرة على استغلال المواقف لمصلحته ، حيث كان ولاؤه الرئيسي لها . فهو قيسي الهوى في عهد يزيد بن عبد الملك، لا يخالف له أمراً ولو كان على حساب قبيلته ، ثم يعود إلى يمنيته في عهد هشام ذي الاتجاه اليمني . ولعل دوزي أصاب الموضوعية في وصفه هذا الرجل واقرانه الانتهازيين حين قال : «إن بشراً الكلبي خير من يمثل رجال هذا الفريق الحريصين على ما بيدهم من الوظائف ، مدفوعين إلى خدمة مولاهم ـ يمنياً كان أم قيسياً ـ فأخذ عددهم يزداد شيئاً فشيئاً كلما فسدت الأخلاق وكلما تغلب الطمع والرغبة في جمع المال على حب القبيلة في نفوسهم »[٤] . هذا وقد مات بُشر بن صفوان (١٠٩/٧٢٧)[٥] دون أن يترك أثراً وراءه ، سوى نقمة البربر وحقدهم الكبير.

وتولى أمر المغرب قيسيٌ متطرف هو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي[٦] ،

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٥ .
(٣) المكان نفسه .
(٤) دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٣٩ .
(٥) ابن عبد الحكم ص ٢١٦ .
(٦) المصدر نفسه ص ٢١٧ .

الذي تبلورت معه مرحلة عصبية في العلاقات بين العرب والبربر ، وأخذت الثغرة تتسع بين الطرفين ، في وقت أعاد فيه ذكريات الصراع المسلح بين الطرفين الذي ساد قبل نصف قرن من الزمن . ففي خلال أربعة أعوام أو أكثر قضاها في ولاية المغرب كان السيف بنظره هو العلاج الوحيد لتسوية المشاكل معهم ، ولاجبارهم على التزام السكينة . ولكن ردة الفعل لم تكن كما اشتهى الوالي ، حيث ساد التململ وعمّت النقمة في صفوف البربر ولاحت تباشير التحرك تلوح في الأفق . عندها أدرك السلمي خطأ سياسته وشعر بالمأزق الحرج الذي وجد نفسه فيه ، دون أن ينقذه سوى الاستعفاء في اللحظة المناسبة[1] ، مغادراً القيروان إلى الشرق وظلّ يزيد بن أبي مسلم[2] يلاحقه .

ومرت فترة قصيرة تولى خلالها عقبة بن قدامة شؤون المغرب بتكليف من الوالي المستعفي[3] ، قبل أن يرسل الخليفة هشام واليه على مصر عبيد الله بن الحبحاب (١١٦/٧٣٤) ، مع الابقاء على مركزه في الأخيرة[4] ، وهي صلاحيات واسعة لم يسبق لأحد أن تقلدها في ذلك الوقت . وكان عبيد الله كما يبدو حائزاً على ثقة الخليفة رغم افتراقهما في الهوى القبلي ، إذ إن سياسته في مصر نالت إعجاب هشام ونزلت منه منزل التقدير . ولكن والي القيروان الجديد ، وقد قبض بيده على نفوذ تجاوز طموحه بكثير ، أطلق لقيسيته العنان وأوقع نفسه في أخطاء فادحة بدافع من عصبيته ، التي استهدفت ليس فقط اليمنيين ، بل صبّت كل حقدها الموتور على قبائل البربر[5] ، دون أن يحفظ تجربة من التجارب التي كان على معرفة تامة بها .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ .

(٢) قتله البربر سنة ١٠٢ هـ . ابن عبد الحكم ص ٢١٤ .

(٣) عقبة بن قدامة التجيبي . ابن عبد الحكم ص ٢١٧ .

(٤) المكان نفسه .

(٥) اعتبر عبيد الله ان البربر فيء للمسلمين أو عبيد لهم . النويري ، نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤ . دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٤٣-١٤٥ .

وفي تلك الأثناء وعلى جبهة البربر ، كانت فكرة الثورة تأخذ طريقها إلى النضج ، كلما اشتدت عليهم وطأة الحاكم الجديد وأبنائه وأعوانه[1] . غير أننا نقع في سذاجة التعليل ، إذا اعتبرنا أن سياسة القمع العنصرية التي التزم بها ابن الحبحاب وأسلافه من الولاة المتزمتين ، كانت المحرك المباشر لثورة البربر . فهنالك ظلال اجتماعية أورثتها هذه السياسة وخلقت هوة عميقة وفروقات شاسعة ، حيث كان على البربر أن يغطّوا دائماً طلبات الحكام الشرهة ، الذين كانوا بدورهم لا يبتغون سوى رضى الخلافة عبر تزويدها بالأموال[2] . فانعكس ذلك على أوضاع البربر ، بعد استلاب الجزء الأكبر من مواردهم الحياتية وتدّني مستواهم الاجتماعي إلى حد كبير[3] . حدث هذا الاختلال الاقتصادي في وقت كانت أفكار من نوع جديد ، يقوم بتصديرها الخوارج من الاباضيين والصفريين[4] ، وتشق طريقها بين صفوف المسحوقين من البربر . فاستهوت نظرياتهم الجريئة الفقراء منهم ، لا سيما نظرية الحكم التي تبيح لذوي الكفاءة أن يتقلدوا الخلافة ، بصرف النظر عن العنصر الذي ينتمون اليه . وهي تخالف طبعاً المبدأ السائد في المغرب، الذي مثّل فيه العرب فئة حاكمة واستبد بعض ولاتهم بالأمر. وغالباً ما تجد الأفكار المتطرفة أرضاً خصبة في مثل تلك الظروف، حيث وجد البربر متنفساً من خلالها يعبّرون عن سخطهم على سياسة الولاة في المغرب.

وهكذا في مدة لا تتجاوز الخمس سنوات ، قام الخوارج بـ « انقلابهم » الجريء في المغرب ، بعدما زرعوا الأرض بأفكارهم الثورية ومذهبهم

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٤٤ .

(٤) انتشر المذهب الاباضي في القسم الشمالي من المغرب الأقصى والأوسط. بينما انتشر المذهب الصفري وهو مذهب متطرف نوعاً ما في القسم الجنوبي من الغرب الأقصى. سالم، المغرب الكبير ص ٣٠١ .

المتطرف[1]. وقد تحرك هؤلاء الخوارج بذكاء، مستفيدين من تجاربهم العديدة والفاشلة في المشرق، ومنتهزين فرصة تاريخية في وقت كانت عوامل النقمة قد ملأت نفوس البربر،على طغيان الحكم القيسي الذي بلغ مداه في ولاية عبيد الله بن الحبحاب[2] .

وبعد أن هيأ الخوارج المناخ المناسب للثورة، انفجر الموقف أخيراً في طنجة. وكان حاكمها عمر بن عبد الله المرادي[3]، خير منفذ لسياسة سيده الاقتصادية، وربما كان أكثر تشدداً منه في هذا السبيل. وصادف آنذاك أن حملة بحرية ومعها قسم كبير من الجيش، قد أرسلت لشن غزوة على صقلية[4] (١٢٢/٧٣٩) بقيادة حبيب بن أبي عبيدة، فإذا المناسبة أفضل للتحرك وتحديد ساعة الصفر[5]. وكانت طنجة بموقعها المتطرف وكذلك أقليم السويس في المغرب الأقصى، ملتقى الناقمين على السلطة وتجمّع الدعاة الخوارج، الذين تمكنوا من التحرك عبر ظروف أفضل بكثير من ظروف المغرب الأوسط، حيث المراقبة شديدة وشرطة الوالي المتغطرس منبثة تنشر وراءها الأرهاب.

وكانت طليعة الثورة من قبائل زناتة، لا سيما مكناسة وبرغواطة ومطغرة[6]، وعلى رأسها زعيم القبيلة الأخير ميسرة المطغري أو المدغري[7] من البربر البُتر. ويبدو أن ميسرة كان على جانب من الثقافة الدينية التي اكتسبها في القيروان، قبل أن يتشرّب الأفكار الصفرية ويتحمس لها. ولم يكن يضيره أن يعمل سقّاءً في مطلع حياته أو أن يكون فقيراً معدماً كما تصفه المصادر

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٥٢.
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢١٧.
(٤) ابن عذاري ج ١ ص ٥١.
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢.
(٦) ابن عبد الحكم ص ٢١٨، حركات، تاريخ المغرب ص ٢٥ - ٢٦، ابن عذاري ج ١ ص ٥٢.
(٧) المكان نفسه.

العربية [1] ، حيث كان من الذكاء وقوة الشخصية الى الحد الذي جعله يستقطب جانباً عريضاً من البربر الذين اعترفوا به أميراً ، أو خليفة[2] . وقد ضاعف من أحقاد زعيم البربر بشكل خاص ، أنه في محاولات سابقة لم يوفر جهداً من أجل تسوية الأمور مع السلطات الأموية . فلما فشل مع والي القيروان ذهب إلى دمشق،لطرح مشكلته مع الخليفة هشام ولمعرفة رأيه في سياسة عماله في المغرب . ولكن هذا الأخير رفض مقابلته ، ومما جعل نقمته تشتد على الحكم الأموي ويتحفز للثورة عليه، متجهاً بأنظاره إلى طنجة حيث كانت بوادر النقمة ظاهرة جلية ، يؤجج نارها بصورة غير مباشرة حاكمها المرادي .

كانت الثورة قد اختمرت واستكملت خيوطها،عندما قام ميسرة ومعه عدد هائل من البربر المتطرفين بالهجوم على طنجة ، حيث كانت دعوته قد امتدت إليها وتفشت بين سكانها في وقت سابق. وبسرعة نجح الثوار في إحكام قبضتهم على المدينة وقتل المرادي [3] ، ومن ثم القيام بترتيبات استهدفت مظاهر السيادة العربية،وتعيين أحد رجال ميسرة (عبد الأعلى بن جريج) حاكماً عليها . ويصفه ابن عبد الحكم بأنه من بقايا البيزنطيين هناك، كان قد دخل في خدمة موسى بن نصير[4] وعاش في طنجة، إلى أن جذبته الثورة فانضم إليها . ثم تابع ميسرة طريقه إلى إقليم السوس ، وكانت الأوضاع لا تختلف عن طنجة من مختلف الجوانب ، فتكررت العملية ذاتها في السوس وقُتل عامل الاقليم اسماعيل بن عبيد الله أحد أبناء والي المغرب [5] .

وفي القيروان ارتاع الوالي لهذه الأخبار واستبد به الغضب الشديد على مقتل ابنه وأحد أعوانه . ولم يكن في موقع يُحْسَدُ عليه لأن قسماً كبيراً من الجيش كان

---

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٥٢ .
(٢) المكان نفسه .
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢ .
(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٨ .
(٥) المكان نفسه .

يقوم بمهمة حربية في البحر المتوسط ، ولأن ما تبقى من قواته في المغرب ، لا تستطيع وحدها المجابهة مع قوات ميسرة الكثيفة ، خاصة بعد النكبة التي تعرض لها العرب في المغرب الأقصى ، وأدت إلى تدمير قوتهم العسكرية في هذه المنطقة. وأدرك والي القيروان حراجة الموقف، فأرسل إلى حبيب بن أبي عبيدة يستحثه على العودة ، وفي نفس الوقت كان قد أعد حملة عسكرية بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري لقمع الثورة في طنجة[1] . وعلى الرغم من المبادرة السريعة التي اتخذها والي القيروان ، فإن التكافؤ كان مفقوداً بعد وصول الحملة الأموية إلى وادي شلف بالقرب من طنجة ، حيث هرع إليها ميسرة بقواته وألحق بها هزيمة ساحقة ، أودت بمعظم عناصرها بمن فيهم قائدها خالد بن أبي حبيب[2]. وتعرف هذه الموقعة في التاريخ بغزوة الأشراف[3]، تعبيراً عن التضحية الجماعية التي نُكب بها العرب المسلمون (١٢٣/٧٤١) . أما حبيب بن عبيدة فإنه على الأرجح لم يشارك في هذه الموقعة، لوصوله في وقت متأخر، بعدما حال تأخره دون ذلك، مما جعله يتوقف في مكانه بانتظار امدادات كافية[4].

ولقد أسفرت هذه الحادثة عن نتائج في غاية الخطورة،كان لها صداها المؤثر في بلاط الخلافة الأموية،حيث انتفض الخليفة هشام و«غضب غضبته الشهيرة»[5]، كما ارتعدت فرائص عبيد الله بن الحبحاب الذي أدرك أن نهايته السياسية باتت وشيكة . ولكي يوجد تسويغاً لما حدث ، اتهم جماعة من العرب اليمنين بزعامة والي تلمسان (موسى بن أبي خالد)، بأنهم وراء تحريض البربر، فانتقم منهم شر انتقام[6]. وزاده حرجاً ما نقلته الأخبار عن انقلاب عبد الملك بن قطن ضد عامله

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٨ .

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) ابن عذاري ج ١ ص ٥٣ .

(٥) «والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي» القول المنسوب لهشام. ابن عذاري ج ١ ص ٥٤ .

(٦) ابن عبد الحكم ص ٢١٨ .

على الأندلس عقبة بن الحجاج[1]، في محاولة لم تخل من بُعد استقلالي في تلك الظروف الصعبة . أما على جبهة البربر فقد شهدت طنجة انقلاباً أطاح بزعامة ميسرة بعداتهامه بالجنوح إلى الاستبداد، والخروج على الخط السياسي الذي التزمت به الثورة . وكان قائد الانقلاب خارجياً متطرفاً هو خالد بن حميد الزناتي[2]، الذي دخلت ثورة البربر في عهده مرحلة جديدة، كان على الأمويين أن يبذلوا مزيداً من الجهد لوقف خطرها.

وفي دمشق وعت الخلافة خطأ الثقة التي منحتها لعبيد الله بن الحبحاب، المسؤول المباشر عن تردي الأوضاع في المغرب، فصدر قرار بعزله وتعيين كلثوم بن عياض القشيري[3] (جمادي الآخرة ١٢٣)، الذي لم يختلف كثيراً عن الوالي السابق من حيث تطرفه القيسي، ولكنه يحمل بالإضافة إلى ذلك شعوراً إقليمياً، من خلال عصبيته الشامية، التي كانت وراء النفور من القائد «المغربي» حبيب بن أبي عبيدة[4]. وكانت المهمة الرئيسية التي ألقيت على كاهل الوالي الجديد، هي القضاء على ثورة البربر بأي ثمن. فجاء على رأس جيش كبير، قدّرته المصادر العربية بثلاثين ألفاً، غالبيتهم المطلقة من المقاتلين الشاميين[5]. أي أنهم أُرسلوا من جيش الخلافة الرئيسي، وهو دليل على تهيب هشام خطورة الموقف في الولاية الإفريقية بصورة عامة. وفي نفس الوقت خشي الخليفة أن لا يكون في مقدور واليه المسنّ تحمل أعباء القيادة بكفاءة مطلوبة، فأرسل معه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، الذي كان قائد المقدمة في الحملة[6]. ويبدو أن عوامل سياسية تدخلت في اختيار والي المغرب الجديد،

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠.
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٥.
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٤.
(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٢١٨. أخبار مجموعة ص ٣.
(٦) ابن عبد الحكم ص ٢١٩.

بحيث فرضته التوازنات القبلية، وليست الكفاءة القيادية التي تتطلب مواصفات وشروط لم تتوفر كثيراً فيه.

ولقد أراد كلثوم بن عياض اختصار الطريق إلى المهمة المكلف بها، فلم يعرج على عاصمته، بل عين عليها نائباً هو عبد الرحمن بن عقبة الغفاري[1]، متابعاً سيره بقواته التي تعززت كثيراً باتجاه طنجة. غير أن الجبهة الأموية لم تكن موحدة الاتجاه، وما لبثت الخلافات أن استحكمت فيها منذرة بأزمة خطيرة. ذلك أن طغيان الجند الشامي في حملة كلثوم، طرح مشكلة إقليمية بين العرب الشاميين والعرب الأفارقة، الذين تأقلموا في المغرب واعتبروا أنفسهم مواطنين من أهل البلاد كان من نتائجها الأولى، اختلاف قائدهم حبيب بن أبي عبيدة مع بلج بن بشر وتأزم العلاقة بين الطرفين[2].

وهكذا سارت الحملة الأموية بجناحيها الشامي والإفريقي، لإخضاع ثورة البربر في طنجة، دون أن تغيب الحساسيات حتى في أحلك الظروف، مما جعلها متعثرة فاقدة التنظيم برغم كثافة العدد. وسرعان ما ظهرت النتائج السلبية عند قرية بقدورة الواقعة على نهر سبو (سيبية)[3]، حين احتدمت معركة ضارية بين البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي وبين العرب بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، أسفرت عن هزيمة كبرى للجيش الأموي ومقتل قائده مع عدد من مساعديه، بينهم زعيم الأفارقة حبيب بن أبي عبيدة الفهري[4]. بينما نجا بلج بفرقة من الجند تقدر بسبعة آلاف واعتصم في ثغر سبتة[5] على ساحل المتوسط. فكانت خسارة العرب جسيمة، فاقت هزيمتهم في موقعة الاشراف، حيث فقدوا أكثر من نصف قواتهم بين قتيل وأسير، كما كانت فرصة نادرة أضاعوها

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٩. ابن عذاري ج ١ ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠. ابن عذاري ج ١ ص ٥٥.
(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠.
(٤) المكان نفسه.
(٥) ابن عذاري ج ١ ص ٥٥.

من أيديهم، نتيجة لغياب الانسجام بين عناصرهم المقاتلة وافتقارها إلى التنظيم والموقف الموحد.

وبذلك انتزع البربر زمام الموقف من أيدي العرب، وانتشرت قواتهم في مختلف أنحاء المغرب. فطاردت قوات من بربر طنجة بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري[1] فلول العرب المعتصمين في سبتة، وفرضت عليهم حصاراً شديداً. ولكن بلج ثبت في الدفاع عن موقعه، دون أن يتمكن البربر من اختراق الحصار ودون أن ينجح بدوره في الإفلات منه. فبقي الوضع مجمداً حتى لاحت للعرب فرصة الدخول إلى الأندلس، بعد قليل من الوقت. كما هاجمت قوات أخرى بقيادة عكاشة بن أيوب النفزاوي في عملية جريئة أقليم الزاب مهددة القيروان. وكانت خطة البربر تستهدف القضاء نهائياً على السيادة العربية في المغرب، ولكن هذه الخطة لم يكتب لها النجاح، برغم الانتصارات الباهرة التي حققوها ضد الجيوش الأموية. ذلك أن هشام بن عبد الملك، وهو في آخر أيامه آنذاك، كان شديد الاهتمام بقضية المغرب التي غدت شغله الشاغل، حيث أعد حملة جديدة انتقاها من المقاتلين المحترفين، وأرسلها إلى أفريقية بقيادة واليه على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي، بعد دراسة شاملة لدقائق الوضع على الجبهة. ووصل القائد الجديد إلى القيروان (١٢٤ هـ)[2] وتحرك على جناح السرعة، حيث خدمته الظروف بتوزيع البربر قواتهم إلى عدة مهمات. فهناك قسم رئيسي من الجيش في الزاب، وقسم آخر في طنجة، عدا بعض القوات الأخرى المبعثرة في عدد من المدن والمواقع. فاشتبك مع جيش الزاب بقيادة عكاشة النفزاوي عند (القرن)[3]. في معركة طاحنة خسر البربر فيها عدداً كبيراً من قواتهم، بينما تمكن الأخير من الهرب، لينضم في وقت لاحق إلى الهواري في حصار القيروان.

وبعد هذا الانتصار الكبير عاد حنظلة إلى القيروان لحمايتها من هجوم

---

(١) أخبار مجموعة ص ٣٣. أنظر دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا ص ١٥٢.
(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١.
(٣) المصدر نفسه ص٢٢٢-٢٢٣.

مفاجيء، خاصة من جانب عبد الواحد الهواري زعيم البربر في طنجة. والواقع أن سرعة الضربة التي أنزلها حنظلـــة بجيش عكاشة، قد فاجأت البربر إلى حد كبير. ذلك أنهم اعتقدوا بعد هزيمة سبو، أنه سيمضي وقت أطول قبل أن يستعيد العرب أنفاسهم ويستأنفوا القتال، لهذا أربكتهم المفاجأة وأثقلت خطواتهم، في وقت كان الهواري بجيش كثيف يأخذ طريقه إلى القيروان ويعسكر بجوارها(١).

ولم يكن أمام العرب المعتصمين في هذه المدينة إلا الصمود والصبر، ولم يدخل اليأس إلى قلوبهم لأن معركة «القرن» تركت صداها الطيب على معنويات المقاتلين. وكانت شخصية حنظلة القيادية تمارس دورها الرئيسي في عملية الصمود، بعد استنفاره كل طاقات المدينة من أجل الحرب، دون أن يخيب العرب هذه المرة جهود قائدهم، ولا آمال خليفتهم الذي كان يتحرق شوقاً لأنباء المعارك في المغرب. غير أن الأخير لم يتمتع على الأرجح بسماع أخبار النصر، لأن هشاماً كان قد فارق الحياة (١٢٥/٧٤٣)، بينما كان الدفاع مستميتاً عن القيروان، ونجح الأمويون ليس في صد الهجوم فقط، ولكن في إنزال ضربة من أشد الضربات بالبربر.

وبانتصار العرب في القيروان ومقتل قادة البربر في المغرب، انتهت تلك الثورة الدامية بعد سنوات ثلاث من المعارك الطاحنة، وعاد المغرب بكامله إلى دائرة النفوذ الأموي. ولكن الصفحة لم تنطو نهائياً، فالثورة امتدت إلى الأندلس، بعد أن وجدت ظروفها المناسبة هناك، ومات هشام بن عبد الملك آخر الخلفاء القادرين على تهدئة الأوضاع، التي ساءت كثيراً في عهد خليفته الوليد الثاني وغيره من الخلفاء الذين انعكست سياستهم الارتجالية على كل مؤسسات الدولة وأساءت إليها كثيراً في ذلك الحين. فقد جاء النصر الأموي صعباً، بعد أن سبقته هزائم قاسية، دون أن يعني ذلك سوى أن مواقع النفوذ الأموي في المغرب

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٥٢.

أخذت في الاهتزاز، ومن ثم العجز عن استعادة أوضاعها السابقة في ظل السلطة المركزية المتراجعة. وسيكون من أبرز نتائج هذه الثورة في الأعوام اللاحقة، أن المغرب أخذ يجنح فعلاً إلى الخروج من دائرة هذه السلطة، ليكون السباق في هذا المضمار، عندما شهد قيام دويلات مستقلة في وقت مبكر من الدولة العباسية.

ثورة البربر في الأندلس كانت الأندلس مرتبطة عضوياً بولاية المغرب، ومعنية بكل ما يجري على أرضها من أحداث وتطورات. فهناك ظروف سياسية واحدة أوجدت تشابهاً كبيراً بين الاقليمين، تبدأ بعمليات الفتح وتنتهي بالصراعات القبلية والعنصرية العنيفة. وبعبارة موجزة فإن الأندلس ليست اقليماً تابعاً لإدارة المغرب فقط، وإنما هي جزء من تاريخه السياسي والاجتماعي في ذلك الوقت، تتأثر به وينعكس عليها بجميع مشاكله وأحداثه.

وفي تلك الأثناء انتقلت عدوى الثورة من المغرب إلى الأندلس وانتشرت بصورة خاصة في الجهات الشمالية، حيث مناطق استقرار البربر، فأعلنوها مناطق نفوذ لهم باستثناء مدينة سرقسطة التي كانت السيطرة فيها للعرب[1]. وتأخذ الثورة هنا طابعاً اجتماعياً قريب الشبه بطابع الثورة في المغرب ولكن أكثر حدة، حيث الأوضاع الاقتصادية البائسة لعبت دورها في انفجار عوامل السخط، دون أن نغفل الدور التحريضي البارز الذي قام به دعاة الخوارج في صفوف بربر المغرب. أما في الأندلس فكانت ثورة البربر تحمل ملامحها الاجتماعية، تحت تأثير الظرف الاقتصادي والمناخي غير الملائم في مواطن تجمعاتهم السكنية، وتتفجر سياسياً بشحنات الغضب على نظام شاركوا في إرساء بنيانه وكانوا الطلائع الأولى على أرضه.

ولقد أحسن بربر الأندلس توقيت ثورتهم، حيث السلطة المحلية في ضياع وتمزق، تحت حكم القيسي العجوز والمتفرد بالأمر عبد الملك بن قطن الفهري.

---

(١) انظر دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص١٥٨.

فلا سلطة لوالي المغرب المثقل بشجون ولايته التعبة، ولا الخليفة الضعيف (الوليد الثاني) في دمشق ، يعنيه ما يجري في الأندلس . ونستطيع القول إن هذه الأخيرة، جنحت عن دائرة الحكم المركزي بصورة فعلية بعد موت هشام، وكان عليها أن تعالج مشاكلها المستعصية بنفسها.

وكانت أولى هذه المشاكل، انتفاضة البربر في شمالي الأندلس كما سبق أن أشرنا. وإذا كنا نمتلك من تفاصيل هذه الحركة ما يتعلق بأبعادها السياسية والاجتماعية، إلا أن غموضاً يحيط بها من الناحية التنظيمية على وجه الخصوص. فليس هنالك ما يشير بوضوح إلى شخصية قائد الثورة وانتماءاته الفكرية، وهل كان متأثراً بالتيار الخوارجي الذي سبق لثورة المغرب أن تأثرت به، أم أن دوافعه تحكمت فيها ظروف محلية خاصة؟ ففي «أخبار مجموعة» اسم غامض لزعيم بربر الأندلس يعتقد أنه (ابن هدين)[1]، وفي «افتتاح الأندلس» اسم آخر لزعيم هو (زقطرنق) الذي قاد البربر في معركة شذونة[2]. وفي «البيان المغرب» إشارة إلى رجل زناتي يقود الثورة في هذه الأخيره[3]. ولعل الحركة تولت أمرها عدة قيادات، نسقت مواقفها ضمن هدف واحد وهو القضاء على السلطة العربية في الأندلس، بعد تحرك جيوش ثلاثة في وقت واحد نحو اتجاهات محددة. ويتجاهل دوزي اسم قائد الثورة، ربما لافتقاده المعطيات الكافية، لأن ما ذكره في هذا السبيل اقتصر على معاصر لطارق بن زياد يدعى «منوسة»، كان قد ثار على العرب في وقت سابق، مدفوعاً بالنقمة على السياسة الفئوية التي كان يمارسها هؤلاء مع إخوانه البربر. وقد أورد دوزي هذه الحادثة ليعطي ثورة البربر في الأندلس أبعادها الخاصة بها، كثورة لها جذور اجتماعية بعيدة[4].

والواقع أن الدعوة إلى الثورة في الأندلس ، استقطبت جموعاً ضخمة تدفقت

---

(١) أخبار مجموعة ص ٣٩.

(٢) ابن القوطية ص ٣١.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٣١.

(٤) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٥٨.

من المناطق الشمالية (ماردة، قورية، كلبيرة)[1]، وانتظمت في ثلاثة جيوش مهمتها الهجوم على المراكز العربية الرئيسية وفق خطة مدروسة[2]: الأول مستهدفاً طليطلة والثاني قرطبة ، أما الثالث فكان عليه أن يتوغل جنوباً باتجاه الجزيرة الخضراء، لتنسيق الجهود مع بربر المغرب من جهة ، وفرض حصار على المساعدات العربية ومنع الاتصال مع عرب المغرب ، لا سيما الشاميين المحاصرين في سبتة، من جهة ثانية.

كانت خطة ذكية بدون شك ، أدركت كل مواطن الضعف في الولاية الأندلسية وعملت على استغلالها، منتهزة كل الفرص التي كانت حتى ذلك الحين تخدم مصلحة أي تحرك منظم يمتلك من القوة حظاً ما ، لأن حكومة قرطبة كانت مضطربة ، لا يظهر لها من الأمور سوى ما تراه بمنظارها الضيق . فإذا أحست أن خطراً اقترب منها ـ يفترض أن لا يكون ساقطاً من حسابها ـ فوجئت وارتعبت ، وتصدى واليها العجوز للخطر بما لديه من قوات ، أظهرت المصادمات الأولى أنها غير كافية، وشعر آنذاك بخطورة وضع تجاهله حينذاك، بالانصراف إلى مقارعاته القبلية التي كانت شغله الدائب.

ولنعد قليلاً الى الوراء لمتابعة أخبار القائد الأموي بلج بن بشر المعتصم في سبتة، منذ أن لحقت الهزيمة بجيش عمه في معركة سبو . فقد مرت أيام عصيبة على هذا القائد وجنوده السبعة آلاف المحاصرين من كل الجهات ما عدا البحر ، حيث كان أشد ألوان الحصار فتكاً بهم هو الحصار الاقتصادي . فحاولوا عبثاً الحصول على مساعدات غذائية من الأندلس ، وقيل إن عبد الرحمن بن حبيب ـ ابن زعيم عرب الأفارقة الذي قتل في المعركة المذكورة وفرّ مع بلج إلى سبتة ـ قد عبر المضيق إلى الأندلس وقابل عبد الملك بن قطن، موغراً صدره إزاء

---

(١) أخبار مجموعة ص ٣٩-٤٠ .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠-٣١.

الشاميين[1] منذ الخلافات التي نشبت بين والده وبين كلثوم بن عياض، قائد الحملة الشامية، التي سبق أن أشرنا إليها.

ولم يكن عبد الملك بن قطن بحاجة إلى أحد يستثير حقده ضد الشاميين، فهي مسألة لا تحتاج إلى نقاش بالنسبة إليه، عندما رفض بإصرار كل نداءات بلج لمد يد المساعدة إليه، والقى جانباً كل شروط القائد الشامي واستعداده لأي حل يرتأيه والي الأندلس، مقابل تخليصه من براثن الجوع والموت[2]. حتى أن عربياً من بني لخم[3] استفزته حالة هؤلاء الشاميين، فأمدهم سراً بكمية من الدقيق، إلا أنه دفع حياته ثمناً لهذه البادرة[4]، والواقع أن عبد الملك بن قطن كان أسير عصبيته المتطرفة، وتتجاذبه الشكوك في نوايا بلج وصحبه من الشاميين الذين يشكلون جبهة متماسكة، ويملكون تجربة هامة في القتال.

وفي وقت كاد اليأس أن يستحوذ على تفكير هؤلاء ويلغي كل آمالهم في الحياة، إذا بالطريق إلى الأندلس تصبح ممهدة بعد انفجار ثورة البربر في الأندلس، والهزائم المتلاحقة التي نزلت بجيوش عبد الملك بن قطن، لاسيما وأن الضغط على قرطبة مركز الحكم الأموي، كان يتزايد مع إحتشاد البربر حولها. فالدعوة إذن لم تأت للشاميين من أجل الاستقرار في الأندلس والتعايش مع عربها المخضرمين، بل كانت دعوة للحرب فقط، وهي مشروطة بمغادرة البلاد فور القضاء على ثورة البربر[5]. وعلى الرغم من ذلك لم تجد جماعة سبتة بداً من الاستجابة لشروط والي الأندلس، لأن بغيتها الوحيدة كانت في تحرير نفسها من مأزق الحصار المميت.

(١) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠.
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠.
(٣) عبد الرحمن بن زياد اللخمي. أخبار مجموعة ص ٣٨.
(٤) المكان نفسه.
(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠.

وبسرعة حملت السفن بلج ورفاقه الى الجزيرة الخضراء ، لنجدة عرب الأندلس في حربهم مع البربر . وعلى الرغم من قلة عددهم ـ وهم سبعة آلاف[1] كما ذكرنا ـ إلا أن تجربة سبتة كانت عظيمة الفائدة بالنسبة إليهم، حيث صهرت خبرتهم العسكرية وحوّلتهم إلى نخبة من المقاتلين الأشداء، ولكن عبد الملك بن قطن لم يتخل عن حذره نحوهم ، عندما عقد معهم اتفاقاً مكتوباً ، على أن يغادروا الأندلس بعد انتهاء مهمتهم إلى أي بلد يختارونه في المشرق . وحتى لا يكون الاتفاق حبراً على ورق، فرض على كل فرقة تسليم عشرة رجال منها كرهائن ، يحتفظ بها في إحدى الجزر حتى يضمن تنفيذ هذه الشروط[2] .

وهكذا تعزز الموقف العربي بتوحيد الجهود بين عرب الشام وعرب الأندلس تحت قيادة واحدة، في وقت كان الجميع مندفعين بإخلاص إلى القتال بعدما دوهموا بانتشار ثورة البربر ذلك الانتشار الواسع . وكانت الجولة الأولى التي فرضت عليهم مع الجيش الثالث ، لمنع استيلائه على الجزيرة الخضراء والحؤول دون قيام اتصالات مع بربر المغرب . ووقعت معركة في شذونة تجلّت فيها روح التعاون والتنسيق في صفوف العرب ، حيث أنزلوا بالبربر هزيمة مدمرة[3] ، أضاعت عليهم كل الآمال في تحقيق عون خارجي لثورتهم، بينما خرج الشاميون من المعركة بروح عالية، بعد أن أظهروا من الشجاعة ما يثير الاعجاب[4].

وكانت قرطبة حينذاك تصد بيأس هجمات البربر المتكررة ، حيث أحكم الجيش الثاني حصاره حول المدينة . فتحرك عبد الملك بن قطن على جناح السرعة ووراءه العرب الشاميون لانقاذ عاصمته المنهكة، دون أن يجد صعوبة في إنجاح مهمته وإنزال ضربة جديدة بالبربر . فتمزق الجيش الثاني شر تمزيق ، وجنحت فلول منه باتجاه طليطلة حيث الموقع الأخير الذي يحاربون عليه. وكان

---

(١) جاء في البيان المغرب أن عددهم عشرة آلاف ج ١ ص ٣١.
(٢) أخبار مجموعة ص ٣٨-٣٩. ابن عذاري ج ٢ ص ٣١.
(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٣١.
(٤) المكان نفسه.

جيشهم الأول سبّاقاً إلى محاصرة المدينة وإذاقتها شهوراً من الشدة دون أن ينال منها . وفي تلك الأثناء كانت القوات العربية الموحدة تتابع مهماتها في القضاء على ما تبقى من جيوب الثورة. فبعد معركة قرطبة، تابعت المسير نحو طليطلة، والتقت بالثوار على مقربة منها في وادي السليط Wadi Salit ، عند رافد صغير لنهر التاج (تاجة)[1]. فجرت معركة طاحنة أظهر الشاميون خلالها مهارتهم العسكرية التي ظهرت في المعركتين السابقتين، وما لبثوا أن حققوا النصر هذه المرة أيضاً وسحقوا ثورة البربر[2]، مقدمين للعرب الحاكمين في الأندلس خدمة جليلة (مطلع سنة ١٢٤ هـ ومنتصف سنة ٧٤١ م) .

غياب السلطة المركزية (١٢٤ ـ ١٣٨/٧٤٢ ـ ٧٥٦) مرت الأزمة الصعبة بسلام وسُحقت الثورة، قبل أن تأخذ حجم جارتها في المغرب، وتقوقع البربر في مزارعهم يلوذون بالصمت، وفوق رؤوسهم سيوف العرب مسلطة، لا تنفك تهددهم وتلاحق تحركاتهم . وإذا بشبح المجاعة يطل برأسه بعد بضع سنوات، فلا العرب اهتموا بالأرض، ولا البربر ثابروا عليها، حيث استهوتهم الثورة طمعاً بتحسين أوضاعهم، وإذا بالفشل قد لحق بهم، أخذوا يتواكبون في جماعات متلاحقة، قافلين بالعودة الى المغرب .

ولكن هموم الأندلس لم تقف حدودها عند غياب البربر عن لعبة التنافس على السلطة، لأن الكرة انتقلت إلى أيدي العرب، يعبثون بها أو تعبث بهم حتى الاستنزاف . فهواجس الحاكم العجوز عبد الملك بن قطن لم تكن مجرد خواطر سوداء في غير مكانها، عندما ظن الظنون بجماعة بلج الشاميين ورفض استقبالهم على أرض الأندلس، إلا بعد أن شعر بالمأزق يسد عليه كل النوافذ، ولا يجد مناصاً من اتخاذ هذا القرار وهو كاره له في أعماقه .

وحدث ما كان متوقعاً، فلا الشروط المكتوبة ولا الرهائن والمواثيق غيرت

---

(١) Levi-Provençal: Hist 1, 36.

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٠. ابن عذاري ج ٢ ص ٣١.

ما بنفوس الشاميين ، الـذين استطاب لهم البقـاء في هذه البـلاد التـي كان لهم الـدور الكبـير في انقـاذهـا، وأصمُّـوا آذانهم أمـام إلحـاح عبـد الملك عليهم بالعودة . وفعلت الحساسيات فعلها لدى الفريقين، حيث الكراهية متبادلة والحقد متوارث محموم . وحالت عقد الحاكم المترسبـة فيه دون اتخـاذ قرار حكيم بـوقف الجـدل ومنع الصـدام الحتمي، بينـما تكتـل الـزعمـاء المحليـون بـدورهم حـول عبد الملك، رافضين التعايش مع هؤلاء «الدخلاء».

وكان لا بد من حسم الموقف ، فانتفض الشـاميون بسـرعـة وهـاجموا قصر الإمارة في قرطبة[1]، حيث اعتقلوا حاكمها التسعيني عبد الملك وأجلسـوا زعيمهم بلج مكانه . وكانت الضربة سريعة إلى درجة أنها أفقـدت توازن جمـاعة الحـاكم المخلوع ، فولّوا هاربين وكـان على رأسهم أميـة وقطن ابنـا عبد الملك ، إذ لجأ الأول إلى سرقسطة والآخر إلى ماردة[2] . وبينـما التزم أبـوهما الصمت في دار لـه بقرطبة ، سعى ولداه إلى استقطاب الأنصار والمؤيدين للانتقام من بلج ، فوجدا استجابة عند حاكم اربونة Narbonne عبـد الرحمن بن علقمـة اللخمي ، وعبد الـرحمن بن حبيب الفهري الـزعيم الأفريقي الـذي كان لا يـزال مع جمـاعتـه في الأندلس ، وهو المعروف بخصومتـه العنيفة لبلج كـما مرّ معنـا . وقد عمـل هذا الأخير في خدمة عبد الملك بن قطن ، حتى قيام خصمه بانقلاب في قرطبة ، ففرَّ مع الفارين من أنصـار الحاكم المخلوع . وأصبحت سـرقسطة مـركز استقـطاب لجماعة عبد الملك بن قطن ومن واكبهـا من عرب الأندلس، المتأثرين بعصبيتهم الاقليمية ، شاعرين بعمق الخطر الذي يستهدف كيانهم المرتبط أساساً مع تاريخ هذه البلاد . وإذا بأجواء الحـرب الساخنـة تلوح في الأفق ، ويزيـد في تسعيرهـا غياب السلطة المركزية التي كـانت تعيش بدورهـا حالـة من الجمود السيـاسي في أواخر عهد هشام بن عبد الملك ، حيث تفاقم الصراع في الـولايات الأمـوية لا سيما البعيدة منها مفقداً الخلافة بـريقها المـركـزي ونفوذها السيـاسي ، مما جعل

---

(١) أخبار مجموعة ص ٤١ .

(٢) المكان نفسه .

الخليفة بعد هشام، وكأنه حاكم لولاية الشام فقط ، قانع بهذا الجزء اليسير من المسؤولية .

وكانت الأندلس الولاية الأشد تأثراً بانهيار منصب الخلافة ، وما جرى فيها آنذاك لم يكن غير صورة مكررة لما كان يجري في دمشق . فهناك تكتلان بكل ما تعنيه هذه الكلمة، تكتل الشاميين الذين سيطروا على الحكم وحشدوا طاقاتهم في قرطبة بزعامة بلج ، وتكتل الأندلسيين في سرقسطة بزعامة أمية وقطن ابني عبد الملك، ومعهما عدد من الزعماء المحليين وحدَّت بينهم المصلحة السياسية ضد التكتل الأول . وكان هؤلاء أكثر عدداً بطبيعة الحال ، حيث قدّرت قوتهم النهائية التي شاركت في المعركة بأربعين ألفاً[1] ، في الوقت الذي لم يتمكن الشاميون من اضافة سوى بضعة آلاف على قوتهم الأساسية التي عبروا بها من سبتة[2] . ولذلك لم يكن في مصلحة هؤلاء الذين أمسكوا بزمام السلطة ، الاندفاع في حرب ليست مضمونة النتائج . فالإختلال كان واضحاً بين القوتين ، فضلاً عن عزوف حاكم قرطبة الشامي عن ركوب هذا المركب الخشن ، حيث كان أكثر جماعته اعتدالاً وأقلهم جنوحاً نحو العصبية .

ولكن ما حدث في ذلك الوقت - في «جزيرة أم حكيم»[3] معتقل الرهائن الشاميين - فجَّر الموقف في قرطبة، حيث كان الشرارة التي ألهبت نيران الحرب . ففي أعقاب سيطرة عرب الشام على الحكم ، تعرض هؤلاء المعتقلون لاضطهاد شديد بأمر من حاكم الجزيرة الخضراء أذاقهم طعم الموت ، حتى إذا تسلم بلج بن بشر زمام الأمر وأنقذهم مما هم فيه ، كان أحدهم قد فارق الحياة . وهو كما تصفه المصادر من أحفاد غساسنة الشام[4] ويتمتع على ما يبدو بمكانة

---

(١) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٦٢ . جاء في «أخبار مجموعة» أن قوات عبد الرحمن بن علقمة وحدها بلغت مائة ألف ولا شك انه رقم غير دقيق. أخبار مجموعة ص ٤٣ .

(٢) قدرت قوات الشاميين باثني عشر ألفاً. أخبار مجموعة ص ٤٣

(٣) على مقربة من الجزيرة الخضراء. ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٤١ .

عـالية بـين قومـه ، يستدل عـلى ذلك من حـالـة الغضب التي أطـاحت بعقـول أصحابه الشاميين الذين حمّلوا عبد الملك بن قطن مسؤولية موته تحت التعذيب . وعبثاً حاول زعيمهم بلج أن يلجم غضبهم الجامح ولكن دون جـدوى، مدركـاً ببعد نظرته، أن الشاميين محاطون بحصار من العداء والكراهيـة، وأن أي تدبـير انفعالي لا مسوّغ له، لأنه سيختصر حتماً المسافة إلى الحرب وهـذا ما كـان يخشاه ويؤثر الابتعاد عنه وهو لم يثبت أقدامه بعد في الحكم.

غير أن الهوة كانت عميقة بين موضوعية الحـاكم الحريص عـلى مكتسباتـه ، وبين جماعته المهتاجين بلوثة العصبية ، مما أدى الى انتصار فريق المتطرفين الـذين هـاجموا عبـد الملك بن قطن في داره وقتلوه ، حيث كـان الانتقـام وحشيـاً[1]، دون أي اعتبار لشيخوخته أو لانتمائه العربي . وهكذا تورط بلج في جريمة لم يشأ تحمّل تبعاتها ، ولكنه غُلب على أمره وكان عليه تسـديد حسـاب ذلك التصرف الأرعن ، الذي ارتكبه أصحابه دونما تقدير للنتائج التي ستسفر عنه .

وكما توقع بلج ،فقد كان لهذه الحادثة صداها المؤلم في الأندلس، عندما الهبت الحقـد في نفوس ابني الفهـري والمتحالفـين معهما ، وكـان أشـدهـم انفعـالاً ، أو تظاهراً به ، عبد الـرحمن بن حبيب الذي كـان يتربص الفـرص ليكون لـه دوره الذي يطمح اليه ، فإذا بخصمه اللدود (بلج) ينتزع منه هذا الدور ويتربع على كرسي الامارة . وما لبثت طلائع المتحالفين أن أخذت طريقها الى قرطبة للقضاء عـلى حكم الشاميـين ، وكـانت تتـألف من قـوات أميـة وقـطن ومعهـما قـوة من البربر ، جمعها الحقد ضد الشاميـين أصحاب السلطة ، وقـوات عبد الـرحمن بن حبيب من العـرب الأفارقـة ، فضلاً عن قـوات عبد الـرحمن بن علقمة اللخمي حاكم أربونـة ، التي كانت حجـر الرحى في الجيش المهاجم، لكثافة عددهـا من جهة ، ولشجاعة قائدها وفروسيته[2] التي عُـرف بها من جهـة ثانيـة . ولو شئنـا

---

(١) أخبار مجموعة ص ٤٢ . ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢.
(٢) أخبار مجموعة ص ٤٣ .

تحديداً أكثر لوجدنا أن المتحالفين هؤلاء لم يجمع بينهم شعور العداء ضد الدخلاء الشاميين فقط ، بل كان لكل طرف من هذه الأطراف الثلاثة طموحه الخفيّ لأن يكون المرشح المطلوب بعد انحسام المعركة .

واحتدم القتال ضارياً بين الفريقين (شوال ١٢٤/ آب ٧٤٢) في نواحي قرطبة[١]، وأظهر الشاميون من البسالة ما أظهروه في المعارك السابقة ضد البربر ، فكان صمودهم بطولياً وكانت المفاجأة أن التفوق العددي لم يكن له تأثير كبير على سير المعركة ، وكذلك هجمات عبد الرحمن اللخمي العنيفة أظهرت فشلها في اختراق صفوف الشاميين الثابتة[٢] . وعندما شعر هذا الأخير بأنه غير قادر على اجتذاب الأضواء وأن يكون فارس المعركة المجلي ،بما يترتب على ذلك من نتائج سياسية ، ركّز هجماته نحو قائد الشاميين مصمماً على قتله ، لاعتقاده أن ذلك يؤدي إلى ارتباك أعدائه وهزيمتهم . ونفّذ ما صمم عليه في عملية انتحارية أدت إلى تقهقر الشاميين ، وأوصلته الى خصمه وإصابته بعدة طعنات ، ولكن قائد سلاح الفرسان الشامي[٣] التف عليه ، فاضطر إلى الهرب والنجاة بنفسه مكتفياً بالمهمة التي أنجزها . وانتهى الأمر بهزيمة المتحالفين من عرب الأندلس، تاركين وراءهم أشلاء آلاف من القتلى[٤] ، بينما لم تتجاوز خسارة الشاميين الألف قتيل ، ولكن خسارتهم الجسيمة كانت في قائدهم بلج الذي مات بعد قليل متأثراً بجراحه[٥] .

وعاد الشاميون إلى قرطبة ظافرين من دون أميرهم ، فاختاروا واحداً منهم هو ثعلبة بن سلامة العاملي[٦] (اليمني) حاكماً على الأندلس خلفاً لبلج . وقد

---

(١) جرت المعركة في موضع يقال له (أقوه برطورة) Aqua Partarer .
أخبار مجموعة ص ٤٣ . Levi-Provençal: Hist 1, 47 .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٣) هو الحصين بن الدجن العقيلي قائد قوات قنسرين. أخبار مجموعة ص ٤٣ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢.

(٦) احد كبار قادة الشاميين بعد بلج . ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢.

سار ثعلبة بالأمور سيراً حسناً ، تساعده على ذلك شخصية حازمة واعتدال في الرأي ، ولكن نفوذه كان محدوداً لا يتعدى عاصمته إلى المناطق الجنوبية ، بينما ظل الخارجون وأصحاب النفوذ منتشرين إلى الشمال من قرطبة ، دون أن تحدث الهزيمة التي حلت بهم أي تغيير في المواقف ، مما أدى الى استمرار كل فريق شاهراً سلاحه في وجه الآخر بانتظار الجولة الحاسمة .

وما لبثت حشود المتحالفين من عرب الأندلس ان أنقضّت مجدداً نحو قرطبة ، في محاولة جديدة لاستعادة السلطة من أيدي الشاميين . وخرج ثعلبة ، وقد فرضت عليه الحرب ، ليصطدم في معركة حامية (بالقرب من ماردة)[1] مع العرب الأندلسيين استمرت أياماً عصيبة ، حقق قائد الشاميين بداية انتصار سريع، ولكنه عاد فانهزم ، وانسحب بقواته الى مدينة ماردة Merida ، وأرسل في الوقت نفسه إلى نائبه في قرطبة أن يوافيه بقوات إضافية لرفع الحصار عن قواته . ولعبت الظروف دوراً إلى جانب عرب الشام ، حيث صادف عيد الأضحى وهم محصورون في ماردة، فحين وصلت حملة قرطبة تعززت أوضاعهم وبدوا اكثر أستعداداً للقتال ، بينما كان في المقابل عرب الأندلس وحلفاؤهم من البربر مبتهجين بالنصر وبالعيد معاً . ففاجأهم الشاميون بهجوم جريء ، أفقدهم مبادرة التحرك (١٢٥/٧٤٣)، حيث كانت مذبحة رهيبة دفع فيها الأندلسيون ثمناً باهظاً من القتلى والأسرى . وتجلّت قساوة الشاميين هذه المرة، دون أن يتورعوا عن استرقاق أسراهم بمن فيهم النساء والأطفال ، كسابقة لم تحدث من قبل في صفوف العرب المسلمين[2] .

ومرة أخرى لم يتحسن الموقف المأساوي في الأندلس ، فالحاكم الشامي تورط في حرب الاستنزاف بين العرب وقبع معتكفاً في قصره . أما جماعته وقد أسكرتهم لعبة الدم وأتخمتهم الأسلاب ، فقدوا بدورهم القدرة على التصرف

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٥ . راجع دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٦٤ .

واهتزت قرطبة تحت أقدامهم تعاني الفوضى ويسودها الارهاب. وفي غمار ذلك كان لا بد من البحث عن مخرج ما يزيح شبح المحنة الأسود ، وإذا بفريق لم يتلوث بالدماء دفعته نزعة واقعية معتدلة إلى القيام بهذا الدور المسؤول[1] . فينتدب وفداً إلى القيروان لوضع واليها حنظلة بن صفوان في أجواء الحرب الأهلية التي تهيمن على الأندلس ، ويناشده العمل على إنقاذ البلاد من محنتها الدموية . فيسارع حنظلة إلى تعيين شخصية كلبية من أقربائه بعد استمزاج رأي الخليفة هشام، الذي كان شديد الاهتمام بما يجري على أرض تلك الولاية من أحداث ، لم يستطع بنفوذ الخلافة المتقلص أن يحدّ من استفحالها . وكان أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي - الحاكم المعين - على صلة قديمة وعلاقة ودية مع الخليفة، منذ أن عمل في المغرب في عهد واليها القيسي عبيدة السلمي، حيث نال كثيراً من الأذى على يده مرسلاً حينذاك إلى هشام قصيدة ألمح فيها إلى ما أصابه من اضطهاد الوالي، ومنبهاً إلى أخطار سياسته الفئوية المتزمتة[2] . ونمت علاقة ثقة حينذاك بين هشام وأبي الخطار ، جعلت هذا الأخير الرجل المناسب والمطلوب في نطاق البحث عن حاكم معتدل وبعيد النظر .

وما لبث أبو الخطار أن دخل قرطبة (رجب ١٢٥ / أيار ٧٤٣)[3] ،قبيل وفاة هشام بأشهر قليلة . وكان دخوله مفاجأة لم ينتظرها الكثيرون ، ممن كانوا مستفيدين من الفوضى ويتطلعون من خلالها الى السلطة . غير أنه لم يصادف متاعباً تذكر في الاستيلاء على الحكم، بعد أن غلب الرأي المائل إلى السلام والتوق إلى إنهاء تلك المحنة ، في وقت كانت القوى الأسبانية في معاقل الشمال تجد فرصتها الذهبية في هذا الاستنزاف الذاتي ، وتمد نفوذها إلى الجنوب على

(١) أخبار مجموعة ص ٤٥ .
(٢) راجع ابن القوطية ص ١٨ .
(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٣ .

حساب العرب[1] . فالشاميون خضعوا للأمر الواقع ، ولم يجدوا مانعاً من الاعتراف بولاية أبي الخطار لاعتبارات سياسية وقبلية ، فهو شامي مثلهم لهذا رحبوا به ، كما أن زعماءهم اقتنعوا أخيراً أن الطريق إلى حكم الأندلس ليست مفروشة بالورد، وقد آن لهم أن يفسحوا المجال لغيرهم، بعدما فشلوا في تحقيق الاستقرار وتجميد الصراع الدموي العنيف . والأندلسيون كان عليهم أن يذعنوا بدورهم لأي حاكم يرفع عنهم كابوس الشاميين المتطفّلين ، كمطلب أساسي ومبدئي بالنسبة اليهم ، فرحبوا بدورهم بالوالي الجديد من هذا المنطلق .

كانت بداية جيدة لولاية أبي الخطار ، حيث أذعن له الجميع واعترفوا به . وكانت أولى قراراته إعلان العفو العام عن كل أسرى الحرب ، وهي خطوة ابتهج لها عرب الأندلس ، لا تقل عنها بهجتهم بالقرار التالي الذي قضى بتوزيع الشاميين على عدد من المدن والقرى[2] ، في محاولة لبعثرة طاقاتهم ، بعد أن كانت قوتهم الأساسية تكمن في تلاحمهم كتلة واحدة . كما أبعد بعض الزعماء الذين أُدينوا بالتحريض على الحرب الأهلية ، وفي طليعتهم زعيم العرب الأفارقة عبد الرحمن بن حبيب ، الذي أُمر بالعودة إلى أفريقية ومعه ثعلبة بن سلامة الحاكم السابق للأندلس[3] . واستُثني أمية وقطن ابنا عبد الملك الحاكم الأسبق من النفي ، بعدما أظهراه من الاستعداد للتعاون مع السلطة ، فأعطيت لهما مسؤوليات ادارية في الشمال ، وبذلك عادت الأمور تأخذ طابعها الاعتيادي من الهدوء والاستقرار[4] ، بعد أن استقطبت شخصية الوالي الجديد ثقة الأطراف المتصارعة . وكان مؤملاً فتح صفحة جديدة في الأندلس ، وأن تأخذ عجلة

---

(١) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ١٦٤ .

(٢) قام أبو الخطار باخراج الشاميين من قرطبة وتوزيعهم على اشبيلية والبيرة ولبلة وشذونة والجزيرة . . . أخبار مجموعة ص ٤٦ . ابن عذاري ج ٢ ص ٣٣ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٣ . عنان، دولة الاسلام في الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٤٦ .

الحياة طريقها إلى الازدهار والانتعاش الاقتصادي ، مستمدة حيويتها من جدية أبي الخطار وسياسته الحكيمة. ولكن ذلك الاستقرار كان مجرد محطة قصيرة وعابرة ، بقيت ما بقي الحاكم اليمني متحرراً من عقده العصبية ، حتى إذا طغت الغريزة على العقل انتسفت الجهود الإيجابية وضاعت الاصلاحات هباء ، وكأن الاندلس وهي بؤرة العصبيات في ذلك الحين ، تلوث كل وافد اليها وتستدرجه الى ركوب الموجة ، مهما بلغ منه التجرد والاعتدال .

وكان هذا شأن أبي الخطار الذي جاء الى الأندلس ، لينقذها من مهاوي الصراعات الحزبية والاقليمية ، فإذا به لفترة وجيزة يخلع ثوب الاعتدال ليأخذ موقفاً له بين الأطراف المتنازعة . وكان مؤشر ذلك كما يروي المؤرخون ، أن حادثة ما قلبت سياسة الحاكم وغيّرت أفكاره التي استهل بها ولايته في الأندلس . ذلك أنه فُجع بمقتل يمني من أصدقائه المقربين (سعيد بن جواس) ، واتهم القيسيين من عرب الشام بأنهم وراء الحادثة[١] . فغلت مراجل الحقد في رأس الوالي الذي فقد السيطرة على أعصابه وجمحت جذور العصبية في نفسه ، وكانت خفية حتى ذلك الحين ، لتصب نقمة الغضب على القيسية . وتحملت هذه بمرارة ما أصابها حيث تشتت قواها بعد افتقاد السلطة، بينما الوالي الذي انفجرت فيه العصبية اليمنية لا ينفك ماضياً في التطرف ، لاغياً كل اصلاحياته بلحظة غضب شديد . حتى كانت حادثة ثانية عندما اختلف اليه رجلان متخاصمان (قيسي ويمني) ليحكم بينهما ، فإذا عواطف أبي الخطار وقوانينه مسخّرة كلها لمصلحة الأخير . أما القيسي فلم يجد غير زعيمه ملاذاً يلتجىء اليه ، فذهب الى الصميل بن حاتم أحد شيوخ الحزب القيسي[٢] ، والرجل البارز فيه بعد موت بلج بن بشر .

---

(١) راجع الضبي ، بغية الملتمس ص ٢٦١ ، وقد ورد رثاء لأبي الخطار في صديقه :

فليت ابن جواس يخبر انني ... سعيت به سعي امرىء غير غافل

قتلت به تسعين يحسب انهم ... جذوع نخيل صرعت بالمسائل

(٢) ينتسب الصميل إلى قبيلة كلاب وهو حفيد شمر بن ذي الجوشن أحد المشاركين بقتل الحسين في =

ولما جاء الصميل لمقابلة الوالي في قصره لم يكن اللقاء ودياً ، حيث كان هذا الأخير جافياً إلى أبعد الحدود ، بعد اتهامه بمحاباة اليمني على حساب نده القيسي . وتطورت الملاسنة بين الرجلين إلى حد قيام أبي الخطار بشتم الشيخ القيسي وطرده ، وقيل ضربه[1] . فخرج الصميل من مجلس الوالي كاتماً غيظه وفي رأسه صورة واحدة هي الانتقام . وكانت شخصية هذا الرجل في الواقع مثيرة إلى حد كبير ، فهو مجموعة أمزجة مختلفة في شخص واحد ، تحركه الغرائز ما استطاعت وتتلاعب به الانفعالات ما شاء لها ، إلا أنه في النهاية فارس شجاع ، كريم حتى التبذير[2] ، وهي صفات تقرب حاملها كثيراً من الناس . . . وهنا كانت تكمن قوة الصميل التي خشيها أبو الخطار وأراد تحطيمها .

وأخذت اجتماعات الصميل واتصالاته بأركان الحزب القيسي تتكرر ، ضارباً حولها نطاقاً من السرية حتى لا يفاجئه الوالي اليمني بضربة قاضية، منتهزاً قلة أنصاره القيسيين وبعشرتهم ، ولم يدع فرصة تمر دون استثمارها لتقوية مركزه، بما في ذلك الاتصال بزعماء يمنيين، لاحظ فتور العلاقة بينهم وبين القبيلة الكلبية المستأثرة بالنفوذ والسلطان. ومن هؤلاء ثوابة بن سلامة الجذامي الذي تكتل مع الصميل، بعد أن أخذ وعداً منه بالولاية إذا ما كتب لهما الانتصار. وهنا تسقط الروابط القبلية وصلات الدم، تحت تأثير المصالح الموحدة للتيارات المتناقضة. ولا شك أن اختيار مرشح يمني للولاية، يدل على ذكاء الصميل وبُعد نظرته في العمل على تحييد القبائل وعدم نفورها، بالابقاء على السلطة في يدها، ومن ثمَّ حصر المعركة مع أبي الخطار بصورة خاصة .

وإذا كان الصميل قد سُهل عليه اجتذاب بعض الشخصيات اليمنية

= كربلاء. وكان أبوه قد فر من ملاحقة المختار الثقفي إلى قنسرين، قبل أن ينتقل منها الصميل إلى الأندلس مع بلج بن بشر. أخبار مجموعة ص ٥٦ . ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤ .

(١) أخبار مجموعة ص ٥٦، ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص١٦٩ .

الساخطة على طغيان الكلبيين، فإن الجبهة القيسية لم تكن موحدة وخالية من المشاكل، حيث احتاج إلى بعض الوقت لاقناع من لم يقتنع بزعامته. وكانت العقبة الأخيرة في الموقف الغامض الذي أحاط بشيخ عطفان في إستجة، أبي العطاء، وهو من المنافسين للصميل في زعامة الحزب القيسي. ولعله بحكم ثقافته ومكانته العالية كزعيم لقبيلة كبيرة، رأى في نفسه كفاءة قيادية أكثر من الصميل، الأمي المتغطرس والمزاجي العبثي[1]. ولكن الصميل لا يتردد في الذهاب بنفسه إلى استجة، والتفاهم مع ندّه الشيخ الغطفاني أبي العطاء، منقذاً الجبهة القيسية من الانقسام.

وهكذا تحولت الورقة الرابحة إلى يد الصميل وحلفائه، وكانت شذونة Sidona المركز الذي تنادى الثوار للاجتماع فيه واتخاذ القرار الحاسم (رجب ١٢٧ / نيسان ٧٤٥). غير أن أبا الخطار لم يكن في معزل عن نشاط القيسيين، بل كان مستعداً للأمر حين خرج من عاصمته قبل مداهمة قوات الصميل. وما لبث الاشتباك أن وقع بالقرب من شذونة، في نفس المكان تقريباً الذي جرى فيه المزيد من المعارك، سواء بين العرب والاسبان أم بينهم وبين البربر أم بين بعضهم البعض. ولم تكن النتيجة في صالح أبي الخطار كما اعتقد، حيث جاء إلى المعركة بروح عالية، فالهزيمة حلّت به وأركن للفرار والمعركة لم يمض منها غير نزر يسير[2]. ولكن رجال الصميل ساروا في أعقابه وألقوا القبض عليه وحملوه إلى قرطبة، التي أصبحت تحت سيطرتهم والحكم فيها لثوابة اليمني حسب الاتفاق السابق. بيد أن أبا الخطار لم يمكث طويلاً في سجنه، فسرعان ما تسربت قوة من المسلحين الكلبيين[3] ليلاً إلى قرطبة وأنقذته من سجنه في عملية متقنة وسريعة.

---

(١) ابن القوطية ص ٧١، وقد جاء أن الصميل رجل خمر يدمن عليها لا يكاد يبيت ليلة إلا سكران.

(٢) أخبار مجموعة ص ٥٧. Levi-Provençal: Hist. 1, 50.

(٣) قدر عددهم بثلاثين من الفرسان ومائتين من المشاة بقيادة عبد الرحمن بن نعيم أو (حسان) الكلبي أخبار مجموعة ص ٥٧.

وفي خلال سنة تقريباً وهي المدة التي قضاها ثوابة في الحكم (توفي في مطلع ١٢٩/ أيلول ٧٤٦)[1]، شهدت الأندلس هدوءاً نسبياً لم تعكره سوى محاولة أبي الخطار استرداد ولايته، فشن هجوماً على قرطبة ولكنه لم يسفر عن أي اشتباك مع القيسيين. ولقد كان للصميل دوره الذكي في إبطال المعركة وتخذيل اليمنيين عن نصرة قائدهم، الذي وجد عبث الاستمرار في المعركة بعد انسلال معظم رجاله مع الفجر[2]. وعدا هذه المحاولة لم يحدث ما يخرق صفاء الأجواء النسبي، لأن الحزب اليمني عزف عن إثارة المتاعب في وجه السلطة ورضي بحظه منها، أن يكون أحد رجاله في الواجهة فقط. أما القيسية فقد عاشت في تلك السنة أبهج أيامها منذ دخولها إلى الأندلس، بعد أن استحوذت فعلياً على شؤون الحكم وأمسكت بيدها كل مقدراته. وإذ البهجة تعمّ أكثر بشعور القيسية انها ملكت الأرض، فالحكم في المغرب انتقل أيضاً إليها وتربّع عبد الرحمن بن حبيب زعيم العرب الأفارقة على سدة الولاية، إثر انقلابه على حنظلة بن صفوان[3]، وفي دمشق عاصمة الخلافة برغم بُعد العلاقة بينها وبين قرطبة، إلا أن استيلاء مروان الثاني في ثورة قيسية، كان له من التأثير أيضاً على اتجاه الحكم في كل الولايات ومنها الأندلس. ولكن إلى متى يستمر الحزب القيسي يمارس الفرح الذي خانه كثيراً وهو بعيد عن السلطة؟ ففي غمرة النشوة القصوى التي لم تتعد السنة الواحدة، مات ثوابة تاركاً وراءه أزمة سياسية عنيفة جرّت البلاد معها إلى الكارثة أو «الفتنة العظمى» حسب تعبير أحد المؤرخين[4].

ومن جديد عادت قرطبة إلى غليانها السياسي، ترتمي في أحضان الحرب الأهلية، ويتنافس على منصب الامارة فيها المتنافسون. فالوالي الغائب جاء

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٧.
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٥.
(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٦٠
(٤) أخبار مجموعة ص ٥٩.

من يطالب بحق وراثته من مبدأ ضمان الاستمرارية لبني جذام في الحكم، وكان ابنه الأكبر عمرو بن ثوابة [1] أول المرشحين لهذا المنصب. وما لبث جذاميٌ آخر هو يحيى بن حريث أن طرح نفسه من خلال هذا المبدأ أيضاً، تتدافعه موجة من الكراهية لتكتل القيسيين من أهل الشام الذين لا يزالون القوة الرئيسية والفاعلة. ولكن أين الصميل، الرجل القوي في قرطبة من هذا التسابق على عرش الامارة؟ فالمناسبة تتكرر أمامه للقفز إلى واجهة السلطة بدون مشقة أو عناء، ولكنه مرة أخرى يعزف عن ذلك ويبقى في المكان الذي اختاره لنفسه. ولعل الصميل كان ميالاً إلى ممارسة لعبة الحكم من وراء «الكواليس»، بما يتلاءم وشخصيته المزاجية، المتمردة على القواعد والاجتماعيات وشتى القيود. ولا ندري إذا كان الصميل قد تجاوز بتفكيره تلك المعطيات إلى تقويم أشمل لهذه المسألة، إذ لم يرَ ما يشجعه على اقتحام واجهة الحكم في تلك الظروف حيث يحترق المحترقون. من هنا كان البحث مرة أخرى عن مرشح في نفس حجم الوالي السابق، إن لم يكن أكثر ضعفاً، لتبقى يده الأداة الخفية التي تسوس الأمور وتحرك المقادير.

وما لبث الصميل أن وجد ضالته في رجل، أبرز سماته الورع ووقار هادىء ينسجم مع سنواته الستين، وأصالة اجتماعية تتمتع بتقدير خاص، كونه حفيداً لعقبة بن نافع رائد الفتوحات المنظمة في المغرب، كان ذلك يوسف بن الرحمن الفهري [2]، الذي وقع عليه اختيار الصميل لولاية الأندلس. فتمّ تعيينه دون مشقة، ونُصِّب في (جمادي الأول ١٢٩/كانون الثاني ٧٤٧)، مدعوماً من تكتل القيسيين ورجلهم القوي. بيد أن تثبيت هذا التعيين كان بحاجة إلى دعم الأطراف الأخرى، التي كان لها مرشحوها أيضاً، ولم تستغ بسهولة هذا الاجراء الذي خطف منها ما اعتبرته من حقوقها الشرعية. ولكن الصميل بذكائه استطاع أن يجرّ خصومه اليمنيين إلى مساومات كان لها حظ

(١) اخبار مجموعة ص ٥٧.
(٢) المكان نفسه. بغية الملتمس ص١٢.

من النجاح، حيث أدت إلى تكريس خلافاتهم السياسية التي انفجرت بعد موت ثوابة زعيمهم السابق وانتهت إلى إضعافهم، في وقت كانوا يمثلون القوة الأكثر كثافة في الأندلس. فابن حريث، أشد زعماء اليمنيين تطرفاً، وبصورة خاصة في علاقاته مع القيسيين من عرب الشام، اختصر طموحه السياسي بولاية صغيرة في مقاطعة ريّة Reiyo إلى الجنوب من قرطبة[1]، نزل فيها مع جماعته الأردنيين[2]. أما المنافس الآخر من جذام، فلم يكن له على ما يبدو شأو ابن حريث، فسقط اسمه من حلبة المساومات، ولاذ بالصمت بعد أن أدرك كغيره من الزعماء اليمنيين، أن الصميل يعرف جيداً ماذا يريد، وفي يده دون غيرها مفتاح الحكم في الأندلس.

وهكذا صعد يوسف الفهري إلى عرش الامارة في قرطبة بفضل حليفه الصميل، الذي مهد له الصعوبات وروّض الخصوم، ليحكم زهاء عشر سنوات، وهي أطول مدة قضاها حاكم خلال تلك الفترة القلقة التي سميناها عصر الولاة. أي أن الفهري عاصر سقوط الخلافة الأموية التي كانت منخورة بالمرض يوم رفعه الصميل إلى السلطة، حتى مجيء عبد الرحمن (الداخل) وتأسيسه امارة أموية مستقلة في الأندلس بعد استلام العباسيين زمام السلطة في الإسلام. فولاية الفهري تمثل إذن مرحلة انتقالية، من حكم الفوضى المرتبط اسمياً بالمركزية الأموية في دمشق، وبين الاستقرار السياسي في ظل دولة مستقلة أموية الطابع، تلك التي أعطت الأندلس شخصيتها الحضارية المميزة وبريقها العالمي في العصور الوسطى.

ولكن الحاكم الهادىء، كانت أمامه جولات أخرى، في معركة تثبيت المنصب الذي سعى إليه وجاءه بالمصادفة. فإذا الاحتفاظ به دونه الصعوبات، وإذا بشخصيته تتأقلم تدريجياً في ظل المناخ السياسي المشحون بالأحداث،

---

(١) الروض المعطار ص ٧٩. Voir: Levi-Provençal I.51.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٧.

فيكتسب التجربة ومعها الشهية إلى السلطة، فتستهويه وتبدأ معركته المتشعبة الطويلة، حيث كانت طلائعها مع ذات الخصم الذي قبض ثمن ابتعاده عن إحدى المقاطعات قبل أن يتخذ قراراً بعزله[1]. وكان لهذا دلالة واضحة أن الحكم بات قيسياً محضاً، ليس فيه محل للخصوم اليمنيين، خاصة إذا كان يحيى بن حريث المعروف بعدائه لأهل الحكم في قرطبة. ولا بد أن نلمس بصمات الصميل على هذا القرار، حيث كان يبادل الزعيم اليمني حقداً أشد وكراهية أعمق. غير أن الانفعالات العصبية لم تكن وحدها وراء ذلك، فالصميل وجد في شخصية ابن حريث تحدياً لزعامته، إن لم نقل خطراً عليها، لأن «ريّة» التي اعترفت بالسلطة القيسية، كان يخشى أن تتحول إلى قاعدة لنشاط الحزب اليمني واستقطاب زعمائه للانقضاض على قرطبة. ولم يكن ذلك مستبعداً لأن يحيى بن حريث سرعان ما تمرد على القرار، حتى بدا وكأنه متأهب للحرب. فاتصل بالوالي الأسبق أبي الخطار زعيم الكلبية، وجرى تنسيق بينهما أدى إلى تحالف أكبر قوتين في الحزب اليمني وهما: جذام وكلب، وذلك بعد تنازل أبي الخطار لحليفه الجذامي عن زعامة الحزب تحت ضغط التفوق العددي في القبيلة الأولى[2].

وهكذا نشبت الحرب مجدداً، وفوجىء الصميل زعيم القيسية باتحاد الفرعين الكبيرين في الحزب اليمني، وكان لا يزال يلعب ورقة الخلاف بينهما، لتعديل التفاوت العددي بين «حزبه» و«حزب» خصومه، ولكن ظاهرة ما خفّفت من الاختلال في موازين القوى، هي أن الاستجابة للحرب كانت جزئية واقتصرت على قبائل الجنوب[3] دون الشمال، حيث لليمنيين قوة ذات شأن. ولعل هؤلاء أنفوا ذلك الصراع الطويل الذي أنهك العرب وفرق جهودهم، فآثروا الابتعاد هذه المرة، مبعدين الفرصة أمام ابن حريث لتحقيق

(١) أخبار مجموعة ص ٥٨.
(٢) المكان نفسه، ابن عذاري ج٢ ص٣٦.
(٣) مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٣٠.

طموحه في الحكم. ولكن ذلك لم يمنع الحرب حيث خاض غمارها الحزب اليمني بزعيميه ابن حريث وأبي الخطار، المتفقين في العداء للصميل والحقد على قيسية الشام الحاكمة. وفي شقندة Secunda [١] الواقعة أمام قرطبة على الضفة الشمالية لوادي النهر الكبير[٢]، نشبت المعركة بين الطرفين (١٣٠/٧٤٧) في أجواء مشحونة بالتوتر والحماسة. وقد خرق أسلوبها نظام الحرب التقليدي عند العرب، بعد أن تحول إلى مشاجرة اختلطت فيها كل أنواع الأسلحة والقتال حتى البدائية منها[٣]. فالقوى المتصارعة كانت متكافئة نوعاً ما، مع تفوق بسيط في صفوف اليمنيين. لهذا ظلت الصورة غامضة لبعض الوقت، دون أن يتحقق حسم لأحد من الفريقين. ولكن الصميل زعيم القيسيين كان يحتفظ دائماً بالمبادرات في جعبته يتخذها في الوقت المناسب، فإذا ما شعر بأن القوة في يده غير كافية لتحقيق نصر سريع، لجأ إلى الاستفادة من كل الطاقات في قرطبة وتعبئة قدراتها القتالية، حيث أضاف إلى جيشه نحو أربعمائة رجل من العمال والحرفيين، لم تكن لهم من خبرة الحرب إلا القليل ومن السلاح إلا وسائله البدائية[٤]. وهي مبادرة لا تخلو من الطرافة في ذلك الوقت، حيث كانت للحرب تقاليدها العسكرية الصارمة، ولكنها استطاعت حسم المعركة، بعد أن اجتاح هؤلاء المجندون طليعة الصفوف وليس في رؤوسهم غير فكرة القتل. فدب الذعر في قوات اليمنيين المنهكة وضاقت بهم السبل بعد أن خسروا من الضحايا الكثير، بينما أسر زعيما اليمنية ابن حريث وأبو الخطار وقتلا على الفور[٥].

وبعد انجلاء المعركة وعودة الظافرين إلى قرطبة، لم يكن الفصل الأخير

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص٣٧. Levi-Provençal Hist. 151.

(٢) الروض المعطار ص١٠٤، أخبار مجموعة ص٥٩.

(٣) جاء في أخبار مجموعة: تداعوا إلى البراز فتنازلوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت ثم تقابضوا بالأيدي والشعور حتى أعيا بعضهم بعضاً. ص٥٩.

(٤) أخبار مجموعة ص٦٠.

(٥) المكان نفسه.

منها قد استكمل بعد. فقد جمع الصميل بقية الأسرى في كنيسة قديمة وأعمل في رقابهم السيف، وكأنه لم يرو عطشه من الدماء. . حتى إذا قتل نحو السبعين تصدى له غاضباً أبو العطاء (شيخ غطفان)[1]، فلم يشأ الصميل استفزاز حليفه القوي، فأغمد السيف وأوقف القتل.

ومرة أخرى صُدمَ الحزب اليمني في حرب الصراع على الحكم في الأندلس، بعد الضربة التي نزلت به في شقندة. ولكن متاعب الحكم القيسي لم تتوقف عند هزيمة اليمنيين، فهناك مشاكل عديدة تحتاج إلى حلول حاسمة وسريعة، وفي طليعتها تلك المعركة الخفية داخل الحزب القيسي الحاكم بين الوالي الضعيف يوسف (الفهري) وبين شريكه القوي (الصميل). وكان لا بد لهذه المعركة أن تنفجر في أي وقت، خاصة وأن الأول برغم طبيعته الهادئة، رفض أن يكون نسخة مكررة عن ثوابة الوالي السابق، وبدأ يتململ من هذا الارتهان لزعيم القيسية الشامية ووصايته الثقيلة. ولكن الصميل تحاشى الصدام مع الرجل الذي أتى به إلى سدة الولاية، ولا زال باستطاعته أن يطيح به متى شاء، كونه القوة الفاعلة والمؤثرة في السلطة. ففاجأ يوسف الفهري بقبوله العرض الذي قدمه هذا الأخير إليه، بأن يكون حاكماً على مدينة سرقسطة الغنية (١٣٢/ ٧٥٠)، فخرج إليها طائعاً ومعه أنصاره ورجاله[2]. ويعتقد المؤرخون أن وراء ذلك قهراً آخر لليمنيين، لأن المدينة التي ارتضاها ولاية له، كان سوادها الأعظم منهم[3]. وقد يكون ذلك التصور واقعياً ومقبولاً، حين يكون الأمر متعلقاً بشخصية مزاجية وذات شراسة واحتمال للحقد كشخصية الصميل، الذي لم يكن يعرف الاعتدال مطلقاً في علاقاته العامة والخاصة. غير أن بعض الدلالات لا بد أن يكون لها محل، في محاولة تعليل

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦١.
(٢) المصدر نفسه ص٦٢-٦٣. ابن عذاري ج٢ ص٣٧.
(٣) جاء في أخبار مجموعة: وكان الثغر لليمن فأراد أن يذلهم. ص ٦٣، دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص١٧٧، مؤنس، فجر الأندلس ص٢٣٣.

الأسباب التي دفعت الصميل للقبول بما أقدم عليه. لقد كانت سرقسطة أو «المدينة البيضاء» عاصمة الاقليم الشرقي وواحدة من أهم مدن الأندلس وأكثرها خصوبة وثراء[1]، في الوقت الذي عصفت بالبلاد مجاعة رهيبة وموجة عامة من القحط[2]. وقد ألمحنا سابقاً إلى أسباب هذه المجاعة، التي كانت محصلة لسنوات طويلة من الفوضى والحروب الأهلية، مما أدى إلى إهمال الزراعة والعناية بالأرض. فغرقت قرطبة بسيول الجائعين الذين جاءوا يبحثون عن الفُتات في عاصمة الولاية، وشُغل الحاكم بتوفير المستطاع من الغذاء، دون أن تكون له قدرة الحل الجذري لهذه الأزمة التي طالت بضعة أعوام. ولم تجد الأفواج الجائعة سبيلاً غير سبيل الهرب والهجرة إلى الجنوب لتستقر في المغرب. في تلك الأثناء كانت سرقسطة مدينة الصميل تنعم بحظ من الاكتفاء الاقتصادي وتجتذب الجائعين من كل صوب، فيغدق عليهم حاكمها بسخاء، غير مميز بين هوية قيسي أو يمني، حيث الجوع أذاب عنده الفوارق الحزبية وقضى على أحقاد العصبية المجذرة في أعماقه. وهذه الحادثة لا بد أن تعطي صورة أخرى للصميل، هي صورة الانسان المتحرر من عقده المترسبة والمتحفز للخير والإغاثة. ومن خلال ذلك فإن الاعتقاد الأصح أن بريق الزعامة والجاه[3]، هو الذي خطف أنظاره إلى المدينة الغنية، وليس فقط الاعتبارات القبلية المتحكمة فيه، حتى أن «دوزي» الذي زعم أن الصميل إنما ذهب إلى هذه المدينة الآهلة باليمنيين لإرضاء أحقاده ضد هؤلاء، يعود في نفس الوقت إلى التركيز على عامل الخير في شخصية الصميل وتناسيه الانفعالات العصبية. وقد اعتمد «دوزي» على تحليل خاص في إظهار ازدواجية الرجل التي فيها من الخير كما فيها من الشر[4]. والواقع أننا نميل إلى المبالغة

---

(١) الروض المعطار ص ٩٦-٩٧.

(٢) أخبار مجموعة ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٣.

(٤) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص١٧٧.

إذا اعتقدنا مع هذا المؤرخ وغيره بأن الصميل، لم يكن يعنيه من شرف السياسة والحكم سوى الجموح باتجاه غزائزه القبلية، لأن سرقسطة لم تشهد في تلك الفترة أي لون من ألوان العقاب الجماعي أو الفردي ضد سكانها اليمنيين. فالدلالات على عكس ذلك تشير إلى أن العلاقة بين الحاكم القيسي وبين هؤلاء كانت غير عدائية إذا لم نقل ودية، بعد أن عوّل الصميل الذكي على احتوائهم واكتساب محبتهم وأن تكون مدينته المترفة التي ابتعد عنها شبح المجاعة، أهم مراكز الاستقطاب وأكثر المدن تألقاً في الأندلس، حيث يتهافت أمام بابه أصحاب الحاجات ويتغنى بكرمه المادحون، فتستهويه عظمة الأمير الفارس «ويزداد سؤدداً» كما جاء في «الأخبار المجموعة». [٣]

وعلى خلاف سرقسطة المترفة، كانت قرطبة البائسة غارقة بهمومها الاقتصادية ومشاكلها السياسية، لا يكاد واليها الذي انفرد بتقرير مصيرها يخلد إلى الراحة قسطاً من الوقت. فقد أثبتت الأيام أن حجمه السياسي لم يكن في مستوى المرحلة الدقيقة، وأنه لا زال بأمسّ الحاجة إلى قدرات الرجل الذي أوصله إلى السلطة. ولكن ذلك لا يعني أن الفهري كان قابعاً في قصره منصرفاً عن الاهتمام بشؤون إمارته، فهو لم يعدم وسيلة من أجل التصدي لهذه الأخطار التي أحاطت به من كل جانب. وكانت جهوده المخلصة عبر الفترات الخاطفة من الهدوء، تعكس سياسته الاصلاحية التي تناولت الجهاز الإداري وتحريره من الفساد المترسب، ليس فقط في العاصمة وإنما في جميع الأقاليم التابعة لها. وفي محاولة للحد من حركات التمرد التي كانت تتخذ مسارحها غالباً في المقاطعات البعيدة، أعاد النظر في التقسيمات الإدارية باتجاه تقوية النظام المركزي في قرطبة. وكان حريصاً على أن تكون هذه الأخيرة مستوعبة لكل شؤون الولاية، ولديها الاداة التنفيذية التي تحقق لها هذه المكانة المنشودة. ومن هنا تناولت إصلاحاته أيضاً الجيش، فأولاه كثيراً من

(١) أخبار مجموعة ص ٦٣.

الاهتمام، لاتخاذ دوره المطلوب في قمع الحركات الداخلية، وحماية الثغور الشمالية من هجمات الاسبان التي أخذت تضغط على تلك المنطقة بصورة متكررة[1].

ولكن إصلاحات الفهري لم تأتِ في وقتها المناسب، لأن الوالي القيسي كان غير قادر على انتزاع الدور الأول في الحزب الذي ينتمي إليه، فكيف بالزعامة الشاملة والفعلية للأندلس الغاصة بالمشاكل المستعصية، حتى هو نفسه كان يشعر بضعفه وانصراف الناس عن قصره، فلا يكاد يكون أكثر من مجرد حاكم عادي لمدينة عادية[2]. وما لبثت همومه اليمنية أن عادت إليه، حين تحرك خصومه مستغلين ابتعاد الصميل عدوّهم الألد عن قرطبة. وإذا بمعطيات جديدة تقلب موازين القوى في تلك الفترة، بقيام تحالف غير متوقع بين قائد قرشي الأصل من الحزب القيسي وبين فريق من القبائل اليمنية المعارضة، التي كانت لا تزال أكثر كثافة، كما أن موقعها من الحكم القيسي بات معروفاً، ولكنها آثرت الاخلاد إلى السكينة بعد الضربات المؤلمة التي حلّت بها على يد الصميل. وكان وراء الانقلاب السياسي رجل عسكري عمل قائداً للجيش في حملات الشمال قبل أن يعزله الفهري، نتيجة حساسيات بينهما، يدعى عامر بن عمرو القرشي[3] قائد الحامية في قرطبة. فهذا الأخير كان يشعر بقوته إلى جانب الوالي الضعيف، فتطلّع إلى أن يحلّ مكانه، ومن جانبٍ شعر الفهري بالخطر الذي يمثله عامر في قيادة الجيش فأبعده عنها.

وكان عامر يدرك صعوبة اقناع الحزب القيسي بزعامته، حيث الصميل لا زال يستقطبها وينفرد بها، ففكّر باللجوء إلى اليمنيين الساخطين ولعب ورقتهم في مناجزة «الحزب» الحاكم. فهو مضري[4] إذن من أقطاب السلطة في قرطبة،

---

(١) عنان، دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ١٣٢-١٣٣.
(٢) أخبار مجموعة ص ٦٣-٦٤.
(٣) أخبار مجموعة ص ٦٣. دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٧٨.
(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢.

وليس يمنياً كما أشار أحد المؤرخين المعاصرين[١]. ولا ندري كيف بنى اعتقاده على يمنية عامر، مع أن المصدر الذي اعتمد عليه يؤكد الانتهاء المشار إليه، دون أن تكفي الاشارة إلى أن عامراً «ساءه ما صنع يوسف بأهل اليمن»[٢]، على حد تعبير صاحب المصدر، بأن يكون يمنياً، حيث كان من الصعوبة، وصول يمني في تلك الظروف إلى قيادة الجيش، في ظل حكم قيسي متعصب.

ولقد كان عامر الطموح يسعى بكل وسائله المبتكرة لوضع قدمه في السلطة، فبدأ بانشاء قلعة محصّنة إلى الغرب من قرطبة على أرض عُرفت باسمه (قناة عامر)[٣]، لتكون مركزاً لتجمع الأنصار والحلفاء. وأخذت أجهزته تشيع أن الخليفة العباسي المنصور، قد بعث إليه عهداً بولاية الأندلس (كانت الخلافة قد انتقلت للعباسيين)، ويواصل اتصالاته مع الفئات المعارضة لا سيما اليمنية[٤]. وكان مطّلعاً في نفس الوقت على إمكانات الفهري المحدودة، من خلال معرفته الوثيقة في السابق بكل خفايا القصر، وبراعة جواسيسه المنبثين في أروقته يمدّونه بآخر الأخبار. ولكن الفهري لم يكن معدوم الذكاء أو الملاحظة، فما كاد يشعر بتحركات عامر المريبة، حتى أطلع الصميل عليها، فنصحه بتدبير شرك له وقتله، أو المماطلة في الوقت حتى يأتي إليه[٥]. ولعل عامراً شعر بأن فرص النجاح غير ميسورة تماماً في هذه الوسط القيسي حيث أقام معسكره[٦]، فخشي من تطويق الصميل له في قرطبة إذا ما قُدِّر له انتزاعها من الفهري، متهيباً عواقب ذلك[٧] ولمّا نسي بعد

(١) مؤنس، فجر الأسلام ص ٢٣٦.
(٢) أخبار مجموعة ص ٦٣.
(٣) المكان نفسه.
(٤) أخبار مجموعة ص ٦٤.
(٥) المكان نفسه.
(٦) المكان نفسه.
(٧) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢.

انتقامات الصميل ومجزرة الكنيسة. فصرف النظر عن مهاجمة قرطبة، واتخذ الطريق إلى سرقسطة اليمنية السكان لاستفراد الصميل، القوة الفعلية التي تقف أمام طموحه. وكان عامر قد مهّد لذلك ببعض المكاسب السياسية من موقعه في القلعة، حيث انضمت إليه يمنية اشبيلية وجماعة من بربر الشمال، كما عقد تحالفاً مع زعيم قيسي من كلاب في سرقسطة يمتّ إليه بصلة من القربى هو الحبحاب بن رواحة[1]، وكان على غراره يعدُّ لانقلاب ضد الصميل، معتمداً على الأكثرية اليمنية في المدينة. فاتفق الحليفان على مهاجمة سرقسطة وأوقعا الهزيمة بقوات الصميل وفرضا على المدينة حصاراً شديداً (١٣٦ - ١٣٧/ ٧٥٣ - ٧٥٤). وكانت تلك أول محنة تحلّ بالصميل الذي استبدّ به الغضب، في الوقت الذي بدأت الثورة تجتذب المزيد من اليمنيين والبربر[2]، بينما يتحرج موقف الصميل كثيراً ويزداد خوفاً على مصيره.

ولكن الصميل برغم خطورة الموقف، لا يفقد شجاعته وقدرته على التصرف. وإذا كان صنيعته الفهري قد خيّب أمله بالمساعدة، مسوّغاً ذلك بظروف اقتصادية صعبة أورثتها أعوام المجاعة، فهو يعرف جيداً أن والي قرطبة لا يكنّ له من المودة الكثير، وأنه لا بد سعيد بالمأزق الذي يمر به للإفلات من وصايته الثقيلة، إلا أنه لم يوفر جهداً في استنفار كل الطاقات القيسية، بما له من موهبة خاصة في تحريك العواطف وشحنها عند الحاجة. وما لبثت نفسه أن اطمأنت عندما جاءته الأخبار عن تحرك القيسيين نحو مدينته، وفي طليعتهم حليفه القوي عبيد الله بن علي الكلابي[3]. وأثناء الطريق لم يكونوا جميعاً في نفس المستوى من الحماسة، خاصة جماعة غطفان التي كانت مشتتة المواقف، بسبب افتقارها إلى الزعامة القوية بعد موت

(٥) أخبار مجموعة ص ٦٤، ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢.
(١) أخبار مجموعة ص ٦٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٥. ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢.

أبي العطاء[1]، غير أنهم في طليطلة وكانت على ما يبدو نقطة التجمع للمقاتلين من القيسية، تخلّوا عن ثوب التردد وغلبتهم الحماسة بعد الأخبار المقلقة عن الصميل، والتأموا في جيش واحد عهدوا بقيادته إلى ابن شهاب شيخ بني عامر[2] حيث كان وراء هذا الاختيار الرجل الأقوى في الحملة عبيد الله الكلابي، حين رأى تقاعساً من جانب ابن شهاب، فحرص على إرضائه بالقيادة.

وهكذا نجح الصميل في استنهاض القوى القيسية، ولم يدّخر جهداً للاستفادة من كل الظروف، حتى أجهزته الدعائية لم تسكت أمام زعم خصومه بأنهم يمثلون الخلافة العباسية، فنشطت تضرب على وتر الولاء الأموي، وإن كان رمزياً لعدة سنوات مضت، فهو الولاء الوحيد ولا مكان لغيره لدى الصميل. وتحدثنا المصادر[3] عن وجود عدد من رجالات الأمويين في هذه الحملة، يُعتقد أن عبد الرحمن بن معاوية، الهارب آنذاك من بطش العباسيين، قد أرسلهم إلى الأندلس للاتصال بالصميل الزعيم القيسي، ذي النزعة الأموية المجذّرة. وبعد سبعة أشهر من الحصار الصعب، وصلت الحملة القيسية إلى أسوار سرقسطة (١٣٧/ ٧٥٥)، وما كادت تلمحها القوات المتحالفة حتى شعرت بالجزع، ورفعت الحصار عن المدينة منصرفة دون أي اشتباك. ولكن الزعيم القيسي (الصميل) برغم خروجه سالماً من تلك المحنة، فإن زعامته السياسية التي هيمنت لعشر سنوات خلت على الأندلس لم تخرج سالمة، حيث تضاءل حجمه أمام ضغط الأحداث المستجدة التي انتشلت هذه البلاد لأول مرة من خضم الفوضى، أبرز سماتها في عصر الولاة.

الخطر الأموي على أوروبة

كان استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق وهو على عتبة جبال البرينيه

(١) أخبار مجموعة ص ٦٥.
(٢) : المصدر نفسه ص ٦٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٩.

الفاصلة بين اسبانية وبين الغال (غالة La Gaule)[1] التي عُرفت حينذاك بمملكة الفرنجة[2]، قد جمّد حركة الفتح التي كان القائد الأموي كما يبدو مصمماً على المضي بها وراء الجبال. وسواء أراد تحقيق مشروعه العسكري الكبير - كما يعتقد بعض المؤرخين - في اجتياح القارة الأوروبية والوصول إلى ضفاف البوسفور، حيث القسطنطينية[3]، أم أنه أراد تأمين الخطوط الدفاعية لاماراته الجديدة من الشرق والشمال، فإن هذا القائد بما تمتع به من عبقرية عسكرية كان مستمراً في تقدمه وانتصاراته حتى دعوة الخلافة له بالتوقف. على أن ثمة حقيقة يجب إدراكها، أن الحدود الشمالية لاسبانية القديمة لم تكن تنتهي عند البرينيه، بل كانت تقفز وراءها لتمتد حتى الشمال الشرقي من إقليم سبتمانية الفرنسية Septimanie[4]. لهذا كان على موسى أن يأخذ لنفسه مزيداً من الوقت حتى يستكمل أعماله التوسعية في هذه المنطقة، قبل الامتثال للأوامر المشدّدة التي حملها مغيث الرومي. ولكن الفرصة الكافية لم تتح له من أجل تحقيق هذا الهدف، فتوقفت جيوشه عند برشلونة في تقدمها الأخير، حتى إن سقوط هذه المدينة في يده ليس أمراً مؤكداً[5]، لأن الاعتقاد السائد أن توغل العربي في هذه الجهات تمّ في وقت لاحق على يد عبد العزيز بن موسى (أول ولاة الأندلس) أو بعده بقليل.

ولم يكن غياب القيادات العسكرية، صانعة الانتصارات الباهرة في اسبانية، يؤدي بالضرورة إلى تجميد الطموح الأموي وراء البرينيه في قلب مملكة الفرنجة المجاورة. فعلى العكس من ذلك كانت الظروف ملائمة

---

(١) Levi-Provençal Hist. 1, 54

(٢) الاسم مشتق من FRANCE أحد زعمائهم، ومن هذه الكلمة اشتق الاسم المتداول حالياً (فرنسا).

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٤، سيديو تاريخ العرب العام ص ١٦٦. لين بول، العرب في اسبانية ص ٤٧. العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ٤٧.

(٤) Levi-Provençal Hist. 1, 55

(٥) Ibid. 1,55.

للمضي في المخطط التوسعي، ولم يكن من سبب ـ كما يشير أحد المؤرخين ـ يدعو العرب إلى التوقف عند هذا الحد[1]. كذلك فإن ممارسات القواد العرب في الأندلس لم تكن نابعة من قرارات الخليفة، بقدر ما ارتبطت بحتميات الواقع الجديد الذي فرض ظروفاً ربما لا يدركها الخليفة الأموي في عاصمته البعيدة. ولكن أمراً لا يمكن تجاهله في معرض المناقشة لرأي الدولة في اجتياح القارة الأوروبية، خاصة بعد موت الوليد بن عبد الملك (٩٦/٧١٦)[2]، إن الخلفاء الأمويين كان عليهم أن يعطوا وقتاً أكثر للشؤون الداخلية التي بدا أنها لم تكن على مستوى متكافىء مع السياسة التوسعية، مما أغرق الدولة في هموم ومشاكل ما بعد الفتوحات، تعود طبعاً إلى اعتماد سياسة الحلول المؤقتة، دون الالتفات إلى وضع برامج مستقبلية لحماية انتصاراتها من الضياع.

وللباحث هنا أن يتساءل فيما لو أُتيحت الفرصة لموسى بن نصير، أن يتابع عملياته العسكرية بعد وصوله إلى إقليم اراغون في الشمال الشرقي من اسبانية، إذا كانت فرنسا ستصمد أمام جيوشه أم أنها ستلاقي مصير دولة القوط؟ سؤال لا يمكن الإجابة عليه بصورة قاطعة، ولكن الناظر إلى أوضاع تلك الدولة المجاورة في تلك الفترة، لا يجد كثيراً من الاختلاف بينها وبين اسبانية القوطية عشية فتح العرب لها. فالغاليون أو الفرنجة سكان تلك المنطقة الواسعة، الممتدة بين اللوار غرباً وبين ألمانيا الحالية شرقاً، هم في الأصل كالقوط الغربيين إحدى الموجات الجرمانية التي اجتاحت امبراطورية الرومان وأسست دولة بزعامة كلوفيلس Clovis، من الأسرة الميروفنجية، وذلك في أواخر القرن الخامس الميلادي. وإلى هذا الأخير يعود الفضل في انتشار المسيحية بين أتباعه الوثنيين، حيث بات من أثقل الأعباء على أحفادهم، حماية أوروبه المسيحية من هجمات العرب المسلمين وصدّ الأخطار عنها.

---

(١) لين بول، العرب في اسبانية ص ٢٧.

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٧.

ولكن النظام الميروفنجي وهو في طبيعته نظام اقطاعي متخلف، كان عاجزاً عن تثبيت أقدامه وممارسة دوره التاريخي المطلوب. وكان أسوأ ما فيه مبدأ الوراثة في السلطة الملكية[1] التي توزعت بين أبناء الملك، حيث تجزأت الدولة في وقت لاحق إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أوستراسيا Austrasia، نوستريا Naustria، برغندية Bargundia، عدا الاقطاعات الصغيرة الأخرى التابعة لها. وكثيراً ما جرّ ذلك إلى صراع على النفوذ بين الأخوة المتناحرين وظهور زعامات اقطاعية جديدة تابعة لهم، ما لبثت أن انتزعت لنفسها السلطة الفعلية واحتكرت كافة المسؤوليات، بينما انهارت سلطة الملوك بصورة تامة. وكل ما تبقى لهؤلاء من هيبة الحكم، انتقل تدريجياً إلى محافظي القصر Maires du Palais من الأمراء الاقطاعيين، الذين دخلوا بدورهم حلبة الصراع على السلطة، حتى إذا أطلّ القرن السابع أصبح هذا المنصب (محافظ القصر)، يتخذ أهمية سياسية كبرى بعد أن كان منصباً ينحصر في تشريفات البلاط وخدمة الملوك.

وفي مثل هذه الظروف التي مرّت بها دولة الفرنجة، كان العرب بقيادة موسى بن نصير يطرقون أبوابها ويتحفّزون للوثوب عليها. ومن المؤكد أن قرار التوقف العسكري، أتاح لدولة الفرنجة أن تعي أبعاد الطموح العربي الإسلامي في غزو القارة الأوروبية، وأن تدرس بدقة كافة الاحتمالات للمواجهة الحتمية التي فرضتها هذه التغييرات المفاجئة في خارطة المنطقة. ولا نعجب حينذاك عن سماع اصلاحات جذرية في نظام الحكم الميروفنجي، عندما قام أحد الارستقراطيين من أسرة هرستال (ببّان Pepin de Herstal)[2] في أوستراسيا، أكبر أقاليم المملكة الميروفنجية La Monarchie Merovingienne، بأول خطوة جريئة في عملية استعادة الأجزاء المبعثرة من دولة كلوفيس المنهارة، وذلك بعد سنة واحدة من رجوع موسى إلى المشرق. فبعد تسميته محافظاً للقصر

---

(١) عاشور، أوروبة في العصور الوسطى ص١٨٨.

(٢) Levi-Provençal: Hist,55.

بدعم من الكنيسة والأمراء الاقطاعيين، تحوّل بيّان إلى الرجل النافذ والشخصية الأقوى في بلاد الفرنجة، التي أصبحت موحدة تحت حكمه لأول مرة منذ انقسامها[(١)].

وكان لابد أن تتخذ العلاقات بين الأمويين والفرنجة، إتجاهاً خاصاً منذ ذلك الحين، حيث قُدّر لبيّان أن يضع لبنة السياسة المستقبلية لدولته مع جيرانها الأعداء، وأن يكون مؤسس أسرة ملكية في وقت لاحق هي الأسرة الكارولنجية، التي ساهمت بنصيب رئيسي في شحن التحركات الصليبية في الغرب، وفي مجابهة المد العربي الاسلامي الذي بلغ مداه في مطلع القرن الثامن الميلادي. وإذا كان بيّان بعد موته (٧١٤م) نهاية[(٢)]، قد ترك فراغاً في السلطة إمتد نحو خمسة أعوام، بسبب اختيار حفيده (تحت ضغط ظروف خاصة) لوراثته في محافظة القصر، فإن ابنه المبعد شارل Charls الذي كان يعرف باسم كارل Karlo[(٣)] أو (قارلة) حسب التعبير العربي، تمكن من حسم الأزمة لمصلحته، وأصبح الرجل القوي في مملكة الفرنجة، حيث صارت له سلطة مطلقة على كل ولاياتها. وسيكون لمحافظة القصر الجديد، اسم بارز في سجلات الحروب المقدسة، التي خاضتها أوروبة ضد أعدائها المسلمين.

وهكذا فإن مجيء شارل إلى السلطة في تلك الظروف، كان حدثاً غير عادي في تاريخ العلاقات بين أسبانية العربية وبين الدولة الفرنجية، التي كان ملوكها الميروفنجيون لا يحفظون من السلطة الملكية غير ألقابها. ولم يكن من المستطاع أمام هذه الدولة المتداعية، أن تجتاز عقدة الخطر الذي اقترب من أبوابها قبل مجيء بيّان وابنه شارل. ذلك أن عرب الأندلس كما أشرنا لم توقف سيرهم قرارات الخلافة وإبعاد قادة الفتح، فهناك ضرورات أمنية اقتضتها الظروف

---

(١) عنان، دولة الاسلام في الأندلس ج١/ص٧٥.

(٢) Levi-Provençal: Hist. 1.55.

(٣) Levi-Provençal, Ibid.

لحماية حدودهم الشمالية الشرقية، فضلاً عن الطموح الكبير إلى اجتياز ذلك الحاجز الجبلي والتوغل في «الأرض الكبيرة» Grande terre[1]، مبشّرين بالمعتقد الذي يحملون.

والواقع أن المصادر العربية لا تذكر لنا أي نشاط جدي في مضمار السياسة التوسعية، حتى السمح بن مالك الخولاني (الوالي الرابع في الأندلس)[2]، لأن الولاة الذين سبقوه اقتصرت أعمالهم على استكمال السيطرة على أسبانية وإجراء بعض الاصلاحات الأدارية، وإن كان هنالك من ينسب إلى الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي غزوات خاطفة في جنوب فرنسا[3]، ولكن ذلك يحتاج إلى تأكيد، خاصة وأن جميع المصادر تجاهلت ذلك باستثناء أحد المؤرخين الأسبان[4]. فقد جاء السمح إلى الأندلس (١٠٠/ ٧٢٠)، في نفس العام تقريباً الذي ارتقى فيه شارل منصب محافظ القصر. وكان هذا الوالي قائداً شجاعاً، لم يتردد بعد استلام مهماته في المضي بأول حملة عسكرية ذات طابع توسعي إلى ما وراء البرينيه. فاجتاح أقليم سبتمانيه في جنوب فرنسا، بما فيه المدينة المهمة أربونة[5]، ذات الموقع الاستراتيجي الفريد على ساحل المتوسط، التي أصبحت منذ ذلك الوقت تحت سيطرة العرب المسلمين التامة، ومركزاً حيوياً تتجه منه العمليات الحربية نحو برغندية وأكيتانية التي كان يحكمها رجل عنيد هو الدوق أوديس Eudes[6]. وتابع السمح تقدمه الظافر حتى أسوار طلوشة Toulouse عاصمة الأقليم وضرب حولها الحصار. ولكن تطوراً معاكساً أوقف تصعيد الزحف الأموي وردّ قوات السمح عن أسوار المدينة، في أعقاب هجوم مفاجىء قام به أوديس، تبعته معركة عنيفة إستبسل فيها العرب المسلمون، الذين حلت بهم الهزيمة وافتقدوا

---

(١) Levi-Provençal: Hist 1,56-57

(٢) سبقه إلى الحكم عبد العزيز بن موسى وأيوب بن حبيب اللخمي والحر بن عبد الرحمن الثقفي.

(٣) مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٤٤.

(٤) ايزيدور الباجي. راجع مؤنس ص ٢٤٤.

(٥) Levi-Provençal Hist. 1.58.

(٦) من أسرة كلوفيس .Ibid. 1,58

قائدهم السمح (١٠ تموز ٧٢١م)[1]. ولم يكن من السهل تفادي النتيجة التي وقعت، وذلك لاختلال التوازن العسكري بين القوتين، كما أن مقتل السمح أثناء المعركة قضى نهائياً على معنويات المقاتلين وبعثر صفوفهم، دون أن يستطيع عبد الرحمن الغافقي - نائب القائد - أن يفعل شيئاً، سوى تنظيم الانسحاب وإنقاذ البقية الباقية من الجيش المهزوم والتراجع بهم إلى أربونة ومنها إلى الأندلس.

لم يُكتب للغافقي، الذي سيكون اسمه بعد وقت قصير من أكثر الأسماء شهرة في تاريخ العلاقات بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي، أن يكون خليفة السمح في القيادة، لأن والي أفريقية[2]، المسؤول إدارياً عن الأندلس، ما لبث أن عين قريبه عنبسة بن سحيم الكلبي والياً عليها. فجاء إلى قرطبة (١٠٢/ ٧٢٤) ليتسلم مهامه من الغافقي، الذي كان يدير شؤونها بالنيابة منذ مقتل السمح. وبعد أعوام أربعة قضاها الوالي الجديد في تنظيم ولايته وتهدئة مشاكلها الداخلية التي أسفرت عن تعيينه، عبر مع جيوشه البرينيه، لاستئناف النشاط التوسعي في غالة (١٠٥/٧٢٥)[3]. وكان عنبسة برغم الاعتبارات التي فرضته والياً على الأندلس على غرار سلفه، ميّالاً إلى الحرب وذا نزعة جهادية واضحة، غير أنه تفادى إلى حد ما الطريق الذي اتخذه سلفه، مُركّزاً إهتمامه على سبتمانية، حيث بدأ بـ قرقشونة Carcassonne (جنوب غربي اربونة) التي استسلمت له بعد حصار قصير. ثم نيمة Nimes (إلى الشرق منها) دون مقاومة تذكر[4]، مما أتاح له التحرك في وادي الرون Vallée du Rhône والسيطرة عليها بأقل قدر من الجهد والخسائر. على أن هذه الانتصارات محاطة بشيء من التشويش لدى بعض المؤرخين الأوربيين، الذين تحدثوا عن أعمال إنتقامية

---

(١) Levi-Provençal, Hist 1,58

(٢) بشر بن صفوان الكلبي.

(٣) Levi-Provençal Hist. 1,58.

(٤) Levi-Provençal, Ibid 1,58-59

وانتهاك للمقدسات في مدن الرون، قام بها العرب المسلمون أثناء إخضاعهم لها. ولكن هذا الاتهام أسقطه نفي الأوروبيين أنفسهم، الذين أشادوا بروح الاعتدال لدى العرب أثناء فتوحاتهم، حيث كانت أبرز سماتهم الانسانية[1]. ثم تقدم عنبسة نحو برغندية قاطعاً نهر الساءون La Saône إلى اوتان Autun في أعالي الرون (آب ٧٢٥)[2]، حتى أن بعض المؤرخين يشير إلى تغلغله حتى سانس Sans، الواقعة على مسافة ثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب من باريس[3].

وبفضل هذه الانجازات المذهلة التي لم تستغرق سوى قليل من الوقت، بسط العرب نفوذهم على جنوبي فرنسا، حتى أن أوديس زعيم أكيتانية لم يجد مفراً من التودد إلى القائد الأموي الظافر[4]. ولكن التصعيد الحربي يُكتب له التوقف مرة أخرى، وتصاب جهود عنبسة بانتكاسه عظمى غير متوقعة، حيث يلاقي مصير القائد السابق، ولكن في ظل ظروف محاطة بالغموض. فلعله لقي حتفه أثناء إحدى المعارك، أو تعرض لكمين قضى عليه في طريق العودة إلى عاصمته[5]. وعلى الرغم من جرأة المحاولة التي قام بها هذا القائد الشجاع واختراقه أبعد مسافة وصل إليها قائد عربي في قلب أوروبا، فإن أعماله العسكرية هذه كانت أقرب إلى المحاولة منها إلى الفتح المنظم، حيث إننا لم نلحظ أية إجراءات خاصة، متماشية مع توسع العرب في هذه الجهات. فكانت تتساقط أمامه المدن ولا يلبث أن يغادرها، دون حامية عسكرية أو ترتيب ما يشير إلى هدفه في الاستقرار بهذه المدينة أو تلك. ولهذا فقد خسر الأمويون بعد مقتل عنبسة، منجزات على جانب كبير من الأهمية، وتراجعوا إلى قاعدتهم الوحيدة الباقية في فرنسا (اربونة).

---

(١) سيديو، تاريخ العرب العام ص ٢٢٧.

(٢) Levi-Provençal, Hist. 1,59

(٣) مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٤٧.

(٤) عنان، دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ٧٨.

(٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٨٣.

وفي قرطبة تنحصر جهود السلطة الأموية في نطاق محلي، حيث كان التوقف عند اختيار خلف لعنبسة من أبرز مشاكل تلك الفترة، التي امتدت نحو خمس سنوات تعاقب خلالها على الحكم خمسة من الولاة[1]. ومن البديهي أن تتجمد كل نشاطات التوسع خلال أزمة سياسية كهذه، كانت التيارات الحزبية وأهواء الولاة في أفريقية تزيدها حدة واشتعالا. وعلى ذلك لم تشهد الجبهة مع دولة الفرنجة أي تحرك عسكري ملحوظ، سوى محاولة قام بها الهيثم بن عبيد الكلابي آخر هؤلاء الخمسة في برغندية الجنوبية، حتى إذا جاء عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي[2] إلى الأمارة (١١٢/ ٧٣٠)، بعد أن أبعدته التيارات القبلية نحو عشر سنوات عن المنصب، الذي كان أكثر الذين سبقوه جدارة لحمل مسؤولياته، تحركت شرايين الحكم المتعثر بمشاكله الداخلية، ولاحت فرصة جديدة ملحة لاجتياح أوروبة بخطة منظمة وروح متوثبة عالية. والغافقي طراز آخر من القادة الأمويين، وتصفه الروايات بأنه على درجة كبيرة من الشجاعة والكفاءة العسكرية. والواقع أن المتتبع لحياة هذا القائد برغم ضآلة المعلومات، لابد أن تستهويه تلك الشخصية المتصوفة في الجهاد والمترفعة عن الحساسيات الذاتية. فمنذ أن سطع نجمه بعد انسحابه بفلول جيش السمح لم نسمع ما يخدّش تلك الصورة النقية التي التصقت به، ووضعت لها بواتييه لمساتها الأخيرة، برغم المشاحنات القبلية التي اجتاحت يومذاك الأندلس، دون أن يكون لطرف ما أي حظ في اجتذابه أو إخراجه عن وقاره السياسي والعسكري.

وهكذا فإن الغافقي حسب المؤشرات تلك، كان في انتظار هذه المناسبة بصبر وشوق، وكان مندفعاً لتكون فرنسا المحطة الثانية للعرب المسلمين في أوروبة بعد إسبانية، ليس بحملة عادية أو جامحة، ولكن ببرنامج مرسوم وخطة ذكية. ولقد دلّت على ذلك الاعدادات السريعة وكثافة الجند في حملته

---

(١) هم: عذرة بن عبد الله الفهري. يحيى بن سلمة الكلبي، عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، حذيفة بن الأحوص القيسي، الهيثم بن عبيد الكلابي. أخبار مجموعة ص٢٤.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٤-٢٥.

الضخمة[1]، التي بادر إلى تشكيلها وعبر بها ممر الرونسسفال Roncesvalles في البرينيه[2]، وهدفه أولاً تحطيم قوة أكيتانية وإخضاع أوديس (٧٣٢/١١٤). أي أن الغافقي صعد مباشرة نحو هذا الأقليم، مهملاً الطريق التقليدي إلى سبتمانية، حيث سار القواد الآخرون. وبسرعة أخذت المدن تتساقط أمامه في أكيتانية. . فبعد القضاء على المقاومة في آرل Arlatum الواقعة على مصب نهر ردونة دخلت جيوشه تولوز (طلوشة) وبوردو (بردال) Bordaux أكبر مدن الأقليم، قبل أن يتصدى له الدوق وهو في طريقه إلى تور Tours، حيث دير سان مارتان St. Martin الشهير. وهناك على ضفاف الدوردوني Dordogne، أحد روافد نهر الجارون Garonne[3]، جرت معركة عنيفة بين الغافقي ودوق أكيتانية، هُزم فيها هذا الأخير وتحطّم جيشه شر تحطيم. ولكن الدوق تمكن من النجاة بنفسه والانسحاب إلى الشمال، ملتجئاً لدى محافظة القصر شارل، الذي كان أقوى شخصيات مملكة الفرنجة في ذلك الحين. أما الغافقي فقد تابع هجماته السريعة، وتقدم شمالاً إلى بواتييه Poitiers، لتنتشر قواته في السهل الخصيب الممتد بينها وبين تور، على الضفة اليسرى لنهر اللوار Loire. وكان لهذه المدينة شهرة خاصة في الثراء المحيط بكنائسها، خاصة سان مارتان الأنفة الذكر، فاجتاحها الغافقي بجيوشه حيث نفائس الكنوز[4] التي تسهب في وصفها المصادر الأوروبية.

غير أن ما حدث بعد هذه الانتصارات الساطعة التي استغرقت أشهراً قليلة، لم يكن في مصلحة سياسة التوسع في أوروبة. فالسيادة الأموية قدّر لها أن

(١) تزعم المصادر الأوروبية أن عدد المقاتلين في الحملة بلغ أربعمائة ألف، ولكن هذا الرقم كما هو واضح يظل مجرد رقم خيالي في مجال المقارنة مع الإمكانات المتوفرة في ذلك الزمن. وربما كان العدد لا يتجاوز الخمسين ألفاً، وهو يقترب من الرقم الوارد في الروايات العربية، راجع مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٦٣.

(٢) Voir: Levi-Provençal I,60

(٣) Levi-Provençal, Op. Cit I,60-61

(٤) Ibid.

تقف عند مدينة تور في أقصى امتداد منظّم إلى عمق فرنسا، وقدّر للطموح الأموي في اجتياح القارة الأوروبية، أن يصبح مجرد حلم قصير بلغ ذروته وانتهى عند هذا الحد. ذلك أن أوديس بعد فراره إلى بلاط شارل وضع الفرنجة أمام الكارثة المرتقبة التي تتهدد وجودهم، إذا لم يبادر الأخير في التصدي للزحف العربي الاسلامي بقيادة الغافقي[1].

وكان من حسن حظ الفرنجة، بل من حسن حظ أوروبة أن يكون شارل حينذاك على رأس السلطة الفعلية في هذه الدولة. فهو على جانب كبير من الشجاعة والثقة بالنفس، فضلاً عن ذلك أنه وجد الفرصة الذهبية لتوحيد كل أقاليم الدولة تحت سيطرته المطلقة، لا سيما دوقية أكيتانية الواسعة التي نزع فيها أوديس نحو الاستقلال[2]، حتى إذا جاء هذا الأخير يستغيث به، لم يجد ما يحمله على التردد أو تجاهل ذلك الخطر الذي داهم أبواب دولته. وهكذا بادر شارل إلى القيام بعملية التصدي، التي وضعت فيها أوروبا كل آمالها، حاشداً لها أقصى ما عنده من طاقات[3]. وكانت الملامح الصليبية ظاهرة بوضوح على جيشه الضخم، بعناصره التي لم تقتصر على الفرنجة وحدهم، بل تعدتهم إلى شعوب أوروبية أخرى[4].

وتحركت هذه القوة الهائلة نحو اللوار، حيث بلغتها أنباء حشود القوات العربية هناك. ولكن الغافقي كان قد تراجع إلى سهول بواتييه لاتخاذ مواقعه فيها، بعد أن وصلته معلومات عن كثافة الجيش الفرنجي. بيد أن تحركات هذا الأخير برغم كثافته كانت سريعة، وما لبث شارل أن دفع به جنوباً ليدرك مقدمة الجيش الأموي، عند طريق روماني يفضي إلى بلدة شاتلرو Chatellerault،

---

(١) Levi-Provençal, Hist. 1, 161

(٢) راجع مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٦٧.

(٣) Levi-Provençal, Hist I, 161.

(٤) ألمان وبلغار... مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٦٧.

الواقعة على نحو عشرين كيلو متراً من مدينة بواتييه Poitiers[1]. وكـان واضحاً أن الجيش الفرنجي مؤهل بما لديه من إمكانـات لاكتساب الحـرب، حيث كفاءة القيادة وضخامة العدد، بالإضافـة إلى الشعور بـالخطر عـلى المصير. فـظهر هـذا الجيش كتلة واحدة، قليلاً ما تؤثر فيـه خطط الأمـويين العسكـرية، التي تعتمـد أسـاساً عـلى الهجمات الخـاطفة والسـريعة. ولا يعني ذلـك أن جيش الغافقي لم يكن مؤهلاً في هذا الاطار من المستوى القتالي الجيد، بل كانت لديه طاقات غـير قليلة تهيء له سبل الانتصار، حيث القيادة الفـذة والجند المحتـرفون، والعـوامل النفسية المشجعة، التي ولّـدتها مـوجة الانتصـارات الباهـرة في أكيتانيـة واللوار. ولكن هـذا الجيش لم يكن يخلو من بعض نقاط الضعف، التي كـان من الصعب تفاديها أو عـلاجها بتلك السهـولة. فـالمسافـات البعيدة، الفـاصلة بين القـوات الأموية وبين قواعـدها التي يمكن أن تغـذيها بـالامدادات، كـانت من أبرز هـذه النقـاط. هذا إذا وضعنـا في الاعتبار أن الغـافقي، حشـد النسبـة القصـوى من قوات الأندلس في حملته إلى أكيتانية. ومعنى ذلك أن قـاعدتـه في قرطبـة، كانت غير قادرة على إمداده بالمزيد منها، إذا تجاوزنا بعد المسافة بين هذه الأخيرة وبـين معسكـره في حقول بـواتييه، فكيف للقـواعـد العسكـريـة الأخـرى كـالقيـروان والفسـطاط ودمشق أن تلبي حاجـاته في هـذا المجال؟ أمـا نقطة الضعف التالية، فكانت تكمن في الانسجام المبتور بين عناصره المقاتلة، فهذا الجيش كـان في كل الظروف نتاج المجتمع الأندلسي، المنخـور بالعصبيـات الحزبيـة، فالمقـاتلون من البربر إفتقدوا ذلك الاندفاع المتهوّر الذي تجلّى في معارك الفتح في أسبانية، حيث كانت بذور النقمة على التسلّط العربي تأخذ طريقها إلى نفوسهم، وإذا كان ذلك لم يتعدَ إطار الحسـاسيات ولم يصـل إلى المجاهـرة بالنقمـة، فلا سبيـل إلى إهمال ذلـك التنافس المكبـوت بين الفـريقين، أو تجـاوز تلك التناقضـات في المـواقف. صحيح أن الغافقي إستطاع بشخصيته القوية المتحررة من رواسب العصبية، أن

(١) Levi-Provençal: Hist. 1, 61-62.

يستقطب هذا العدد الكبير من المقاتلين، وأن يمتص حساسيتهم إلى حد كبير، إلا أن الثغرة التي أصابت حينذاك إنسجام الجيش، هي أن البربر بغالبيتهم لم يتحمسوا كثيراً للمعركة، وتطلعوا إلى حسنات الانسحاب بما حملوه من الغنائم، أكثر من سلبيات الصمود وخسارة كل شيء[1].

ولكن الغافقي ومعه النخبة المقاتلة من العرب، لم يعرض فكرة الانسحاب في معرض المناقشة، لأن ذلك يعني الاستهانة بكل الانجازات العظيمة التي تحققت في فرنسا والعودة إلى نقطة البدء. ولو أن هذه الحملة كانت مجرد غزوة تستهدف إرضاء شهوات الجند بالغنائم فقط، لكانت فكرة الانسحاب راقت له وتخلى عن تلك المدن والأقاليم التي سقطت في يده، ولكنه آثر أن يمضي في المعركة حتى النهاية، دون أن يفقد الايمان باكتسابها وتثبيت رايات العرب المسلمين في قلب فرنسا.

ودارت المعركة الخالدة بين الغافقي وشارل (أواخر شعبان ١١٤/تشرين الأول٧٣٢)، التي حقق الأمويون خلالها إنتصارات أولية، ولكن النتيجة الحاسمة أسفرت عن هزيمة مدمرة لهم، وسقوط قائدهم بعد قتال بطولي. وقد سميت هذه المعركة في المصادر العربية بـ «بلاط الشهداء»[2]، حيث للتسمية علاقة على الأرجح بالمكان الذي كان اطلالاً لقصر قديم. فكلمة بلاط هنا مرادفة للقصر، وليس لاشتقاق آخر بمعنى الطريق «المبلط» أو المرصوف[3].

وكانت معركة «البلاط» في غاية الأهمية، حيث ظلت لها أصداء خاصة في تاريخ العلاقات بين العرب والأوروبيين، وحولها تمحور الصراع العسكري والعقائدي بين الطرفين خلال الأجيال اللاحقة. وإذا اعتُبرت خسارة العرب المسلمين جسيمة في معركة بواتييه Poitiers، بعد أن قضت على تصميمهم في اجتياح

---

(١) عنان، دولة الاسلام في الأندلس ج ١ ص ١٠٠.

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦.

(٣) راجع مؤنس، الأندلس ص ٢٧١. يحمل المكان حالياً اسم «موسيه لاباتاي».

Mousaais-La bataille. Levi-Provençal, Hist 1,26.

القارة الأوربية واقتناعهم بما وصلت إليه أيديهم من مواقع على السفوح الشمالية لجبال البرينيه، فإن نتائجها في الطرف الآخر كانت منعطفاً تاريخياً على قدر كبير من الأهمية. فقد تمّ إنقاذ أوروبة المسيحية إلى الأبد من خطر الإسلام على يد شارل محافظ القصر في مملكة الفرنجة، الذي استحق عن جدارة لقب «المطرقة» (التي سحقت قوة العرب المسلمين في فرنسا)، وهو الاسم الذي أطلقه عليه البابا غريغوري الثالث، فأصبح يُعرف بشارل مارتل Charls Martel، بما يحمله ذلك من ملامح صليبية ظاهرة. ولئن جنحت كتب المؤرخين في الغرب إلى تضخيم التصورات حول مستقبل القارة الأوروبية، إذا ما كتب لبواتييه أن تنتهي إلى غير ما انتهت إليه، فإن كثيراً من تصوراتهم قد تبدو واقعية وفي محلها إلى حدّ كبير. ذلك أن المدّ العربي الاسلامي في أوروبا المسيحية، قد وصل إلى ذروته في معركة بواتييه، ولم يكن هنالك من سبب يدعو العرب إلى التوقف لو حالفهم النجاح، حيث الدلالات كلها كانت تشير إلى إصرارهم على المضي في الخطة التوسعية إلى النهاية.

ولنا أن نتساءل كما يتساءل كثير من الكتاب الأوروبيين عن مصير قارتهم، اليوم لو كان حظ الغافقي في بواتييه كحظ سلفه طارق في وادي لكّة. ولعل أدق إجابة في هذا المجال ما قاله أحدهم: «إن بواتييه أنقذت آباءنا الانكليز وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال روما وأخّرت إستعباد القسطنطينية، وشدّت بأزر المسيحية وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفشل»(١).

وإذا كانت هذه الكلمات تصيب الحقيقة بكل جوانبها، فإن أصدق ما فيها تجسيد الواقع العربي في أوروبة، بما فيه من تمزّق وخلافات ستؤثر أيما تأثير في الصراع العربي ـ الأوروبي الذي أخذ منحى تراجعياً منذ ذلك الحين. فبعد ثلاث سنوات من هزيمة بواتييه، أُرغم العرب على الانسحاب من أفينيون

(١) Gibbon: Roman Empire Ch L II.

Avignon [1]، تحت ضغط الهجمات التي قام بها شارل مارتل. ثم أعقبت ذلك سلسلة من الهزائم على يد خلفائه الكارولنجيين، ستجعل من العسير جداً على العرب المسلمين التوغل بعد ذلك وراء البرينيه [2]. فقد نُكب هؤلاء خلال السنوات التالية بالواقع المرير الذي اوجده التكوين غير المتجانس للمجتمع الجديد في الأندلس، والذي تألف من مجموعات متنافرة من النواحي القبلية والعنصرية. وكما هو معروف فإن الهزائم تعكس ظلالها السلبية على بنية المجتمع في الداخل، وتفجّر الصراعات بين مختلف الفئات التي تجد في ضعف الحكم ثغرة تتسلل منها إلى مصالحها الخاصة. وزاد في ذلك أن دولة الأمويين في المشرق، بدأت تعيش أحلك أيامها في ذلك الحين، حيث الخلافات الحزبية التي انجرّ إليها خلفاؤها، أغرقت الدولة وولاياتها في أجواء التطاحن السياسي، ولم تعد قادرة على الخروج من هذه الدوامة التي أودت بها آخر الأمر. وكان حال الأندلس لا يختلف عن حال الولايات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ولكن أمراضها السياسية كانت أشد فتكاً، ومأساتها كانت فريدة الطابع، ليس لها ما يماثلها في مكان آخر.

وهكذا أصبحت المراهنة على اتخاذ مبادرات توسعية جديدة في أوروبة، أمراً يحيط به الكثير من الشك. وإذا كان قد تمّ المحافظة حيناً على بعض مكتسباتهم فيما وراء السفوح الشمالية لجبال البرينيه لا سيما أربونة التي ظلت لفترة ما، قاعدة الغزوات الأموية في وادي الرون، فإن موجة الحرب المنظمة أخذت في الانحسار لتتحول إلى نظام تقليدي يشبه كثيراً نظام الصوائف الذي عرفته الحروب الأموية ـ البيزنطية. فقد أحاط بالتحركات العسكرية في تلك الفترة شيء من الغموض، والمعلومات التي في متناولنا عنها تكاد تقتصر على المصادر الأوروبية، وتأتي في طليعتها بُعَيْدَ هزيمة البلاط تلك الغزوة التي قام بها حاكم

---

(١) إلى الشمال الشرقي من Norbonne وقد لمع اسمها فيما بعد عندها أصبحت لفترة ما مركزاً للبلبونية راجع Levi-Provençal. Hist. 1,65 سيديو: تاريخ العرب العام ١٧.

(٢) Levi-Provençal. Ibid. 1-25

أربونة يوسف بن عبد الرحمن (٧٣٤م)[١] في وادي الرون، وتقدّمه في أقليم البروفانس Provence حتى أعالي الوادي في ديورانس Durance. ويبدو - حسب هذه المصادر - أن توغل الأمويين في هذه المنطقة إستمر نحو أربع سنوات، قبل أن يقفلوا عائدين إلى قاعدتهم الأخيرة (أربونة)[٢]. ومن المعتقد أن تراجعهم جاء في أعقاب هجوم معاكس قام به شارل مارتل، الذي كان منهمكاً حينذاك بإعادة الترتيبات العسكرية في الأقاليم المستعادة من الأمويين وتحسين وضعها الدفاعي، ومن ثم القيام بمحاولة لحصار قاعدتهم السالفة الذكر. ولكن والي الأندلس أرسل فرقة لانقاذ المدينة، ما لبثت أن اصطدمت مع الفرنجة في معركة عند Berre وهو مجرى ماء صغير إلى الجنوب من أربونة[٣]، إلا أنها منيت بالهزيمة (٧٣٧م). فعاد شارل إلى حصار هذه الأخيرة، التي دافعت على نفسها بشراسة وابطلت المحاولة، مما اضطره إلى الانسحاب، تاركاً هذه المهمة لمناسبة أخرى، وهو مقتنع بأن خطر العرب المسلمين - رغم بقائهم في هذه القاعدة - فقد الكثير من جديته القديمة.

ولعل آخر تلك المحاولات الأموية لغزو أوروبة، حدثت في ولاية عقبة بن الحجاج السلولي[٤]، وهو فيه من ألمعية القواد الكبار، لما اتّسم به من ميل جهادي وإصرار على مواصلة السياسة التوسعية. ففي خلال السنوات الست التي قضاها في الحكم، لم يتخل عن هذا الاتجاه الذي كان له حظ ما من النجاح. وكانت أهم عملياته العسكرية، في أقاليم برغندية والبروفانس والدوفينيه Dauphiné (٧٣٩م)[٥]. ولكن هذه الجهود كانت عديمة الفائدة، ولم

---

(١) لا يشير ليفي بروفنسال إلى قبيلته، بينما يعتقد مؤنس أنه يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي ستؤول إليه ولاية الأندلس فيما بعد.

(٢) فجر الأندلس ص٢٧٨ — Levi- Provençal. Hist 1,65

(٣) Levi-Provençal 1,65

(٤) أخبار مجموعة ص ٢٥ .

(٥) الاقليم الذي تقع فيه مدينة غرينوبل Grénoble إلى الجنوب الشرقي من فرنسا.

تصب أي تغيير جذري في الموقع الأموي وراء البرينيه، حيث كان شارل يترصد باهتمام أخبار هذا القائد، وما لبث أن أرسل في إثره أخاه (شلدبراند) Childebrand أحد البارزين بين قواده، واستنفر من جديد كل طاقات حلفائه الأوروبيين[1]، في إجراء يشبه إلى حد كبير، ما جرى بعيد انتصارات الغافقي السابقة، بعد أن عزم شارل على وضع حد لهمومه العربية الإسلامية والقضاء على كل أثر لأعدائه في غالة.

وفي خضمّ هذه الأحداث يضيع اسم عقبة، فلا نكاد نتلمس طرفاً واضحاً لنهايته بعد غزوته الآنفة الذكر. فقد غاب عن المسرح السياسي في قرطبة بتدبير - على الأرجح - من عبد الملك بن قطن الذي قام بانقلاب عليه واستولى على السلطة. وبوفاة السلولي، تنطوي آخر الصفحات المثيرة في علاقات اسبانية العربية مع اوروبة، ذلك أن خليفته المعروف بعصبيته المتطرفة، ومن جاء بعده من الولاة كانوا أعجز من أن يحافظوا على تراث موسى وطارق والغافقي وبقية القواد الكبار. فقد تبددت تلك المساحات الواسعة التي خضعت للعرب المسلمين في فرنسا، ولم تعد لهم غير رقعة صغيرة ظلوا متمسكين فيها حيناً من الزمن هي أربونة Narbonne التي صمدت أمام هجمات شارل العنيفة[2]. وكان هذا الأخير قد أصبح أقوى شخصية في أوروبة، بعد انتصاره على العرب المسلمين وعلى القبائل الوثنية وراء الراين. ولم يعد «بطل المسيحية» ومنقذها في الغرب يقف وراء الملك بلباس محافظ القصر، بل كان هو الملك الفعلي بنظر الفرنجة، ولو لم يتخذ اللقب بصورة رسمية. وسرعان ما حالفته الظروف حين مات الملك الميروفنجي (تيودوريك الرابع)، فأمسك بيده كل أطراف السلطة وجمّد منصب الملك، ليتاح له أو لأبنائه أن يكونوا ملوك المستقبل.

وظلت أربونة (قاعدة الأمويين في سبتمانية) ثغرة في دولة شارل، وأحبطت

---

(١) مؤنس، فجر الأندلس ص ٢٨١.

(٢) Levi. Provençal. Hist 1,64-65

كل محاولاته التي استهدفت ما لديها من تحصينات قوية وموقع بحري ممتاز، يسهّل لها عمليات المساعدة، حيث كان الأمويون يرون فيها محطة طموحهم الأخير لاستعادة ما فقدوه في فرنسا. ولكن هذه المدينة كان عليها أن تلقي أخيراً سلاحها على يد خليفة شارل وابنه ببّان القصير Pepin le Bref (١٣٣/ ٧٥١)، بعد أربع سنوات من الدفاع المستميت. وكان ذلك ايذان للعرب، بأن أحلامهم التوسعية في أوروبة وراء البرينيه مكتوب عليها الفشل، مقتنعين منذ سقوط أربونة بالانصراف إلى أسبانية ومعالجة شؤونها الداخلية. وهي لم تكن بعيدة عن الخطر في مطلق الأحوال، لأن أوروبة في عهد خلفاء شارل من الأسرة الكارلونجية، لم تعد تمارس ذلك الدور الدفاعي ضد غزوات العرب المسلمين، وإنما انتقلت إلى الهجوم على أسبانية نفسها، معلنة حرب «الاسترداد» المقدسة التي أخذت بداية طابعها الجدي منذ عهد شارلمان. وكان على أسبانية العربية أن تغرق في الدفاع عن نفسها بدأب وصبر، وسط هذه التيارات المعادية والمحيطة بها من كل الجهات.

الباب الثاني

دولة الأمويين المستقلة في الأندلس

١ ـ الإمارة

٢ ـ الخلافة .

٣ ـ الدولة العامرية .

الإمَـــارة

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الأوَّلُ «الداخل»

«. . . عبد الرحمن بن معاوية الـذي تخلص بكيده من سنن الأسنة وظبأة السيوف، يعبر القفـر ويركب البحـر، حتى دخـل بلداً أعجميـاً فمصّر الأمصـار وجنّـد الأجنـاد وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه».

أبو جعفر المنصور

(أخبار مجموعة ١١٨ ـ ١١٩).

دور التأسيس (١٣٨ ـ ١٧٢ / ٧٥٦ ـ ٨٨٧)

. . . وانهارت خلافة الأمويين وهي لا تكاد تبلغ منتصف الطريق إلى مجدها الأثيل، أو تجتني سوى النذر من ثمرات الجهـود التي رافقت ظهورهـا ونشأتهـا. فالدولة التي أقامت صرحها على السيف، متجاوزة في كثير من الأحايـين الذهنيـة التي انعكست عـلى ممـارسـات الأوائـل من الخلفـاء، المتشـددين حتى العنف في تـأثرهم الإسـلامي العميق، كان عليهـا منذ تـأسيسهـا ومنـذ أن اختط معـاويـة ركـائزهـا «المكيافيليـة»، أن تتأرجـح في عباب التيـارات المتنـاقضـة وليـدة هـذا الأسلوب السفيـاني، الذي أصبـح عرفـاً يتبناه الخلفـاء الأمويـون من الآبـاء إلى الأحفاد. وكان واضحاً ـ كقاعدة لا تتغير لا في المكان ولا في الزمان ـ أن الدولـة التي تبني شهـرتها عـلى أسماء ملوكهـا ولا تأخـذ بمفهوم الحكم في إطـار المؤسسـة

الدائمة، المنفصلة تماماً عن الأشخاص، لا بد أن تتأقلم عضوياً مع المتربعين على عرشها، تعاني نقائصهم وتضعف بضعفهم، ثم تغيب مع غيابهم. ولعل دولة الأمويين كانت أكثر الدول شذوذاً في التاريخ عن القواعد العامة للسلطة، بحيث أنها لم تتحرر إلا قليلاً من نظام القبيلة التقليدي، مع تأثيرات خارجية طفيفة لا تلامس مطلقاً الجوهر. فالدولة بكل أجهزتها كانت مسخّرة لفئة محدودة في المجتمع وهي الأقلية في كل الظروف، متجاهلة الفئات العريضة التي كان ينبغي أن تتناولها اهتمامات الدولة من قريب أو بعيد، ولا تدفعها كرهاً إلى معاداتها وحبك المؤمرات ضدها، بعد أن فقدت أبسط الحقوق في هذا المجتمع. ولا نشك مطلقاً من خلال هذه المعطيات أن جوهر المشكلة كان اجتماعياً، أساسه شعور الأكثرية بالحرمان الاقتصادي ومعاناتها صنوف الاضطهاد والملاحقة والقهر، جاءت كلها محصلة لذلك الاختلال، بين ضخامة الدولة وطاقتها البشرية الهائلة، وبين ضعف الأجهزة الإدارية وعدم نموها مع نمو الدولة المضطرد. وبدأ التقصير واضحاً في هذا المجال بالذات، بعد أن ظلت قدرة العرب التقنية محدودة، وعاجزة أحياناً عن الاحتفاظ بالمنجزات العسكرية الهامة[1]، حيث تجلت هذه الثغرة بصورة خاصة في سياسة التوسع وراء البرينيه.

ولو شئنا الإحاطة بالعوامل التي أدت إلى انهيار دولة الأمويين في غير أوانها الطبيعي، لما أعيانا البحث طويلاً عن إدراك تلك الظروف التي فجرت الغضب الاجتماعي في شتى الأقاليم، لا سيما التي حلّت عليها نقمة الخلفاء وعانت اضطهاد الولاة. ونظرة أفقية عابرة إلى الأوضاع السياسية العامة في هذه الدولة، حتى في دور القوة كما يسميه المؤرخون[2]، نلاحظ تلك الصورة القاتمة التي عكست محتوى النظام الأموي، وكشفت أبرز الأخطاء فيه. فلم تكن السلطة المركزية حينذاك موجودة بصورة فعلية، إلا في العاصمة والأقاليم المجاورة لها.

---

(١) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ٦٢.
(٢) بيضون، زكار، تاريخ العرب السياسي ص ١٤٩ وما بعدها.

وكان الكلبيون ـ أقوى فروع الحزب اليمني المؤيد للنظام ـ يشكلون مع بني أمية أرقى «الارستقراطيات» العربية المترفة، بينما الأقاليم الأخرى تزداد الهوة معها، وهي تؤدي من شقائها ثمن الرفاهية في دمشق. فإذا أخذنا الحجاز مثلاً، الذي انبثقت منه تيارات التغيير الجذري في العقلية العربية، فقلبتها رأساً على عقب، لوجدناه معتكفاً يعيش في العزلة منذ قيام الدولة الأموية. ولقد تقبّل الحجاز مكرهاً عزلته السياسية، وحذفه من واجهة الأحداث إلى غياهب النسيان، فإذا لاحت فرصة، ثار على واقعه ورفع راية العصيان وشعار التصحيح. ولو كان قائد الثورة الحجازية، أكثر جرأة في طرح المشكلات الاجتماعية، وانفتاحاً على فئات المتذمرين المرهقين بضرائب الولاة[1]، لانفتح أمامه باب السلطة على مصراعيه وأصبحت الخلافة «زبيرية» قاعدتها مرة أخرى في الحجاز.

وإذا انتقلنا إلى العراق ومعه المشرق الإسلامي، لوجدنا نموذجاً آخر لفشل السياسة الأموية التي كانت لها ملامحها المنفردة في هذا الاقليم. فالعراق اختارته الظروف كي يكون مركز المعارضة الأول في دولة الأمويين، انطلاقاً من طبيعته البشرية والتيارات المختلفة التي انعكست عليه، وجعلت منه الأرض الخصبة للتحرك الثوري الدائم. فهذا الاقليم الذي قدّر له استيعاب أغلبية ضخمة من غير العرب أو من عناصر امبراطورية الفرس المنهارة، كان أسبق الأقاليم إلى التأثر برواسب الأفكار المتوارثة ذات البعد الاجتماعي، والمستمدة من تلك الحركات الاصلاحية في هذه الأمبراطورية التي شهدتها منذ زمن ليس ببعيد. ولم يكن مدهشاً أن تكون الكوفة، إحدى المعسكرات الجديدة في دولة الإسلام، أول من يثور على واقع الظلم وتتصدى للوالي المستأثر مع بطانته بالأرض وما عليها[2]، في مطلع العقد الرابع من عمر هذه الدولة. وقدّر للعراق أيضاً أن يرتبط فترة ما بخلافة آخر الراشدين علي، وهي على قصرها واضطرابها لم تعدم

(١) راجع ضياء الدين الريس، الخراج في الدولة الإسلامية ص ٢٠٨ وما بعدها.
(٢) هو سعيد بن العاص والي الكوفة في عهد عثمان، وكانت له عبارته الشهيرة «هذا السواد قطين لقريش» الطبري ج ٥ ص ٨٨.

متغيـرات تركت بصمـاتها الـواضحة عـلى المجتمع العـراقي، لتعطيـه شخصيته الخاصة ومكانته الشاذة في الدولة الأموية.

فـالعراق إذن كـان العضو المـريض في جسم دولة الأمـويـين، ومنـه راجت الأفكار الثورية، وعلى أرضه انتشرت «خلايا» المعارضة السياسية تتوسل لها فرصاً للتحـرك. فهنـاك «الحـزب» الشيعي أخـطر هـذه الأحـزاب وأثقلهـا وطـأة عـلى النظام، وهناك «حـزب» الخوارج المتسلح بمنـطق الرفض لكـل مظاهـر الواقـع، والـطامح إلى تغيير شـامـل في مفهـوم الحكم وبعض أطـراف العقيـدة[١]. أمـا «الحزب» الأخير فلم تكن لـه شخصيته المستقلة، بـل كان أقرب إلى التكتـل منه إلى الحزب، وهو الذي يضم الموالي، حيث المدلول اللغوي لهذه التسميـة يقصد بـه كما هـو معروف، الـذين دخلوا في دائرة الحكم العـربي الإسلامي، وتحـديداً تلك الفئات العريضة من الفرس التي التحمت أكثر من غيرها بالـواقع الجـديد، وتقبلت الإسـلام بعقلية منفتحـة وروح إيجـابيـة. ويعـود التصـاق هـذا التكتـل الضخم مبدئياً بالحزب الشيعي لاعتبارات، تأتي في طليعتها السياسة الاقتصاديـة التي انتهجها علي في العـراق، مركـز استقطاب المـوالي، ومن ناحيـة أخرى فـإن الإحساس المشترك بالمعاناة بين الموالي وبين «الحزب» الشيعي، أدى إلى ارتباطهم المصيـري بهـذا الأخـير وتعـاطفهم مـع زعمـائـه. ولكن المـوالي كـانـوا بفعـل انسحاقهم اقتصاديـاً، أكثر الفئـات في المجتمع العـراقي[٢] تجاوبـاً مع الحـركات الثورية المعادية للأمويين بصرف النظر عن خطها العقائدي أو السياسي. فسـواء كان ابن الزبير أو كان المختار أو ابن الأشعث، فهم وراء كل رافع لرايـة الثورة على الواقع وإن كانت الشعـارات براقـة، أو خاليـة من المحتوى الاجتمـاعي في بعض الأحيان.

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفِرق ص ٥٦، ابن الأثيرج ٣ ص ٢٥٥.

(٢) بلغت ذروة ذلك في عهد الحجاج بن يوسف. راجع الخربـوطلي، العـراق في ظل الحكم الأمـوي ص ١٦٨.

وهكذا فإن غضبة الموالي الفرس، لم تختلف كثيراً عن غضبة الموالي البربر في المغرب أو في الأندلس، مع فارق واحد هو أن البربر كانوا أكثر جرأة في التصدي المباشر لقضاياهم المصيرية، دون التستر تحت أجنحة الحركات الأخرى، حيث القبضة الحديدية التي أحكمتها السلطة في العراق،لم يكن ما يماثلها في أي مكان آخر. ولكن الموالي لن يطل بهم الزمن، وقد صهرتهم التجارب، حتى يأخذوا بأيديهم زمام المبادرة ويقرروا ماذا يريدون. ولا يلبث أن يتجلى ذلك في الثورة الكبرى، التي أطاحت بدولة الأمويين نهائياً في الشرق وأقامت صرحاً جديداً للأسرة العباسية في بغداد. وإذا كانت قيادة الثورة عربية والخلافة من بعدها قرشية، دون مخالفة للأعراف السائدة، فإن الثورة اختمرت في الكوفة[1] حيث الأغلبية من الموالي الساخطين، قبل أن تنتقل إلى مرو (خراسان)، لتأخذ طريقها إلى التنفيذ[2] على يد فارسي كان الرجل الثاني في الدعوة، هو أبو مسلم الخراساني، من موالي الكوفة. وتدفق التأييد للدعوة من جانب الموالي هناك، الذين أذاقتهم عصبيات الولاة الأمويين من الاضطهاد الكثير، وتاقوا إلى تحسين أوضاعهم المعيشية وتحرير أنفسهم من أعباء الضرائب الثقيلة، واجدين في شعارات الدعوة العباسية، لا سيما المتعلقة بالمساواة، بريقاً جذاباً يحمل إليهم الوعد بغد أفضل.

وكان وراء النجاحات التي أدركتها الثورة ـ سواء في استقطاب المسحوقين من الموالي، وامتصاص نقمتهم بشعاراتها الاصلاحية، أم في استغلال التناقضات القبلية والسياسية في صفوف العرب ـ جهاز تنظيمي على جانب كبير من الدقة والبراعة، على نحو لم تكتشفه الدولة الأموية إلا بعد سنوات عديدة، برغم ضخامة هذا الجهاز وانتشار أتباعه ومندوبيه في مختلف الأقاليم الشرقية من الدولة.

وفي سنة (١٢٩/٧٤٧) أعلن الخراساني الثورة في مرو، بالاتفاق مع زعيم

(١) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ٧٠.
(٢) فاروق عمر، طبيعة الثورة العباسية ص ١٥٣.

الدعوة المقيم في الشام (الحميمة). فأزال الحكم الأموي في خراسان، وانهمر الأنصار نحو الغرب لينقضوا على جيش الوالي الأموي (ابن هبيرة) عند شاطىء الفرات[1]. ثم تستسلم حامية الكوفة وتفتح المدينة الساخطة على الحكم الأموي أبوابها للثورة، ويدخلها الزعماء العباسيون ومعهم «الوزير الفارسي» أبو سلمة الخلال. وهناك جرت عملية البيعة لأبي العباس[2]، الذي أصبح زعيم الدولة بعد مقتل أخيه ابراهيم في دمشق على يد الخليفة الأموي. وفي الوقت نفسه كانت قوات الثورة العباسية تأخذ طريقها إلى الشام بعد سقوط العراق وعلى رأسها عم الخليفة المُعلن عبد الله بن علي، فيلتقي بمروان الثاني عند الزاب - وكان حينذاك في مهمة حربية في الجزيرة - فأذهلته المفاجأة ولكنه لم يفقد القدرة على التصرف، بل وكان في منتهى الشجاعة حين خاض معركة عنيفة مع القائد العباسي لمدة عشرة أيام، كادت تنتهي لمصلحته لولا أن أخطأ التقدير في توزيع قواته، فأصيب بهزيمة قضت على كل آمال الخلافة الأموية في التصدي للمدّ العباسي الجارف، حيث كانت معركة الزاب الضربة الأخيرة التي قضت عليها بصورة نهائية[3].

وتعرض «الحزب» الأموي وأنصاره في الشام لهجمة شرسة من القائد العباسي المنتصر، الذي أراد اجتثاث الأسرة الأموية من الوجود. فكانت تلك المجزرة الشهيرة عند أبي فطرس[4]، التي توّجت أحقاد العباسيين بالقضاء على بقية الناجين من هذه الأسرة في معركة الزاب الفاصلة. ولكن واحداً كان على موعد مع الحظ - الذي تخلى عن أخيه - [5] لم تدركه سيوف العباسيين، واستطاع أن ينجو بنفسه ومعه ابنه الصغير (سليمان) وخادمه المخلص (بدر). ويعد لأي

(١) معركة الفلوجة، راجع طبيعة الثورة العباسية ص ٢٠٧.
(٢) الطبري ج ٩ ص ١٢٨.
(٣) جمادي الآخرة (سنة ١٣٢/كانون الثاني ٧٥٠) الطبري ج ٩ ص ١٣٠.
(٤) نهر قرب الرملة في فلسطين حيث قتل عبد الله بن علي اثنين وسبعين من الأمويين كانوا قد استأمنوا له. الطبري ج ٩ ص ١٣٧. أخبار مجموعة ص ٤٨-٤٩.
(٥) يحيى بن معاوية أخبار مجموعة ص ٤٨.

حملته الطريق إلى المغرب، حيث كانت السيطرة لحاكم شبه مستقل هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري، الذي عرفته أحداث أفريقية والأندلس شخصية طموحة لا تخلد إلى هدوء، حتى انتهى به الأمر حاكماً على المغرب إثر انقلاب قام به ضد حنظلة بن صفوان الكلبي. فاستقر الأموي الهارب هناك بين أخواله من قبيلة نفزة البربرية[1]، ملتقطاً أنفاسه إلى حين، ليقرر بعدها أي طريق يفضي إليه.

كان ذلك عبد الرحمن بن معاوية، حفيد الخليفة الأسبق هشام بن عبد الملك، شاباً ممتلئاً بالعافية مشعاً بالذكاء، طموحاً بلا حدود، وتلك صفات تؤهل حاملها لجسام المسؤوليات. وهذا ما حصل لذلك الطريد الذي نجا بأعجوبة من القتل، فهو لم يفر من أجل السلامة فقط كأي شخص عادي، وإنما تحركت فيه أحلام السلطة ونازعته شهوة الملك. وما كانت ولاية المغرب على بعدها عن مركز الحكم العباسي لتكفي طموحه الكبير، حتى لو أراد ذلك ما كان بالأمر اليسير، لأن هذه الولاية التي نالت حينذاك بعض الاستقلال، لم تكن مؤهلة للقبول بهذا المغامر الشاب، ولم يكن حاكمها الفهري يستسيغ وجود منافسين له في مكان ناضل كثيراً قبل الوصول إليه، خاصة إذا كانوا متحدّرين من أسرة ملكية. وتجلى هذا الشعور العدائي بتصفية اثنين من الأمويين[2]، كانا قد لجآ إلى المغرب شأن عبد الرحمن، فما كان من هذا الأخير إلا أن تجنّب الظهور واختفى لحين ما في الظلام حتى ينجلي الموقف.

مضت أربع سنوات والأمير الأموي يتنقل بين قبائل البربر في المغربين الأقصى والأوسط، دون أن يثير غباراً وراء تنقلاته الخفية. وكانت الأندلس على مقربة منه تمزقها الحرب الأهلية في ذلك الوقت - كما أسلفنا - وكان من العسير جداً الاتفاق على زعيم واحد يلتئم حوله الجميع، فتوجه عبد الرحمن بطموحه إلى هذا الاقليم حيث كانت أخباره المثيرة تصل إليه تباعاً، واجداً فيه الفرصة الأكثر منالاً

(١) العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ٦٠.
(٢) هما ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨.

من المغرب. وفي نهاية (١٣٦/ منتصف ٧٥٤) كان مرافقه بدر يشق طريقه عبر المضيق إلى الأندلس في مهمة سرية[١]، للإطلاع على الأجواء السياسية هناك ودراسة السبل التي تمهد العبور لسيده، واتخاذ ركائز في هذا الأقليم، حيث الفرص كثيرة والمتخاصمون ليس فيهم من له صفات القيادة أو مواهب الحكم.

كانت أولى مهمات بدر بعد أن وصل إلى ساحل البيرة Elvira، الاتصال بأنصار الأسرة الأموية وهم في معظمهم من بقايا الفرقة الشامية التي حوصرت في سبتة إبان ثورة البربر، قبل انتقالها إلى الأندلس بقيادة بلج بن بشر في أعقاب محاولات مستميتة مع واليها «الحجازي» المتصلب عبد الملك بن قطن[٢]. فأرسل بدر إلى اثنين من زعمائهم برغبته في الاجتماع إليهما[٣]، في الوقت الذي كانت فيه رسالة سيده المكتوبة بعبارات أنيقة تمهد الطريق إلى لقاء إيجابي. وفي الاجتماع المتفق عليه أسهب بدر في عرض مأساة الأمويين والكارثة المفجعة التي حلت بهم، كما عرض المطاردة الصعبة التي عاناها سيده الأموي حتى أدرك النجاة بأعجوبة، دون أن ينسى التركيز على الموضوع الأساسي من المهمة، مشيداً بصفات عبد الرحمن ومؤهلاته كحفيد لهشام، ومقدرته على رد الاعتبار لجماعته الأمويين إذا ما اتيحت له فرص المساعدة. وكان اللقاء ودياً إلى حد كبير، ولم يتردد الزعيمان الشاميان من البدء فوراً بالعمل على تنفيذ رغبة الأمير المرواني، فاتصلا بحليف لهما من جند قنسرين (يوسف بن بخت)[٤]، فراقت له الفكرة وضم جهوده إلى زعيمي الجند الشامي. فأتاح ذلك نجاحاً أولياً لمهمة بدر، حين أسفرت اتصالاته عن قيام نواة لفريق مؤيد للأمير القابع في سبتة.

ولعلنا نذكر أن السلطة الفعلية في الأندلس يومذاك كانت في قبضة

(١) Levi-Provençal: Hist. 1,99

(٢) Levi-Provençal Ibid. 1.98

(٣) هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبيد الله بن خالد. أخبار مجموعة ص ٧٥. ابن عذاري ج ٢ ص ٤١.

(٤) أخبار مجموعة ص ٦٩.

الصميل، الذي جاء بيوسف بن عبد الرحمن الفهري إلى الإمارة ليكون ستاراً يختفي وراءه شخصيته القوية ويسوس الأمور كما يريد، ولكن يوسف كان يتململ من هذا الوضع ويتوق إلى تحرير نفسه من وصاية الصميل. وما لبثت العلاقات ـ كما رأينا ـ أن فترت بين الرجلين، خاصة إبّان المحنة التي وجد الصميل نفسه فيها، وهو محاصر في سرقسطة بقوة ضئيلة، دون أن يلبي الفهري نداء المساعدة. ولكن الصميل يخرج سالماً بعد استنفاره كل القوى القيسية الحليفة، دون أن يسعف الحظ حاكم قرطبة بالتخلص منه، إلا أن خروجه كان مرتهناً للذين أنقذوه، فلم يعد الرجل القوي منذ ذلك الحين. وفي تلك الأثناء كانت الاتصالات ناشطة في أوساط «الحزب» الشامي وحلفائه من الذين استهوتهم زعامة الأمير الأموي وتلمسوا بها طريق الخلاص من فوضى الحروب الأهلية، التي استنفدت كل طاقاتهم البشرية والمادية دونما طائل، أو من الذين فقدوا فرصهم السياسية في غمار هذه الأحداث، فحذفتهم الخصومات إلى هامش الحياة لينتظروا أدواراً جديدة ربما تتاح لهم مرة أخرى.

وفي هذه الأثناء اعتقد الزعيم الشامي أبو عثمان، المحاور الرئيسي حتى ذلك الحين لعبد الرحمن بن معاوية، أن صداقته مع الصميل ستفتح له آفاقاً واسعة في المهمة التي تبنّى تنفيذها في الأندلس. ولكن الصميل لم يتحمس كثيراً لهذا الأمر، ولعله شغل تفكيره حينذاك بشريكه في الحكم يوسف الفهري وموقفه المتخاذل ابّان محنته في سرقسطة، طالباً من صاحبه بعض الوقت قبل إعطاء رأيه الأخير[1]. ذلك أن الصميل لم يكن محاوراً سهلاً يفصح عن مخبوء شعوره بهذه السرعة، حتى لو كان الطرف الآخر صديقاً حميماً، فكيف إذا كانت المسألة موضوع الحوار، مصيرية تتناول مستقبله السياسي؟ فهو لا زال برغم كل شيء الرجل النافذ والمهيمن على السلطة، وهو يفضّل في كل الحالات استمرار الوضع الراهن، على أن يكون رجلاً عادياً وربما غامض المصير في ظل شخصية كعبد الرحمن لا يملك من مقومات منافستها إلا القليل.

(١) أخبار مجموعة ص ٧٠.

وإذ فشلت المحاولة مع الصميل، توجه فريق الأمير الأموي إلى «الحزب» المعارض من القبائل اليمنية وهو لا زال يستأثر بالكثافة البشرية في الأندلس، ويتخذ مواقعه العدائية الثابتة من الحكم القيسي الموزع بين الصميل والفهري. ولم تكن هنالك عوائق في الاتصال بهذا «الحزب»، المرتبط عضوياً بالأسرة المروانية منذ أن استعاد مؤسسها الخلافة في مرج راهط حتى خلافة هشام بن عبد الملك، حيث يُدعى الآن لحفيده بإمارة الأندلس. وكانت بداية طيبة عندما استجاب اليمنيون للفكرة وتحمسوا لها (وكان معظمهم من زعماء لخم ويحصب وجذام)[1]، فضلاً عن تأييد أحد الزعماء القيسيين[2] من خصوم الصميل. والواقع أنه لم يكن هناك ما يدفع الحزب اليمني إلى التردد في القبول بهذا العرض، ففيه الفرصة التاريخية للتحرر من قيود القيسيين الثقيلة، الذين أذاقوهم الموت والهوان في شقندة وغيرها من الهزائم.

أما عن الصميل فعلى الأرجح أنه ظل على رأيه الرافض بشأن الأمير الأموي، دون أن تفعل معه شيئاً محاولات الزعماء الشاميين من أنصار هذا الأخير، وقيل إنه في لحظة انتشاء تحت وطأة الخمر وافق على دعوة عبد الرحمن[3]، ولكن ذلك كان مجرد حديث عابر - إن صح زعمه - لم يلبث أن تبدد وبقي الصميل رهين قناعاته الثابتة. ومن المؤكد أن أبا عثمان حليف الأمير الأموي كان في منتهى الذكاء مع صديقه الزعيم القيسي، فهو لم يشأ تجاهله مع مغبة ذلك، في اتصالاته المستهدفة دعوة عبد الرحمن إلى الأندلس. بيد أن الزعيم الشامي لم يعد بأمس الحاجة إلى موافقة الصميل، بعد الانتصار السياسي الذي حققه بالاتفاق مع «الحزب» اليمني. وبات يمتلك من المعطيات ما يشجعه

---

(١) كانت الاستجابة بصورة خاصة في غرب الأندلس. ومن أبرز الذين انضموا للأمير الأموي أبو الصباح اليحصبي وعلقمة بن غياث اللخمي وزياد بن عمرو الجذامي.

(٢) الحصين بن الدجن العقيلي.

(٣) ابن عذاري، ج ٢ ص ٤٥.

على دعوة عبد الرحمن، خاصة وأن الظروف بدت مواتية إلى حد ما، في وقت غاب فيه عن عاصمة الإمارة كل من الحاكمين (الصميل والفهري) في مهمة حربية إلى الشمال[1]. وكان على بدر أن يضع سيده في الأجواء المشجعة للموقف السياسي هناك. حيث لاحت بشائر الفرصة التاريخية أمام عبد الرحمن الذي ضاقت بطموحه رمال الشاطىء الأفريقي وهو يذرعها تسكعاً في انتظار الخبر الموعود. وسرعان ما قفز بذلك الطموح إلى الضفة الأخرى من المضيق، لينزل ضيفاً على أبي عثمان الذي كان يستقبله في قرية طرش Torrox[2] على ساحل البيرة (ربيع الآخر ١٣٨ / أيلول ٧٥٥). وسرى خبر وصوله كالبرق والتمّ حوله الأنصار يتدافعون وراء بعضهم، مأخوذين بشخصيته القوية وجرأته النادرة، بعد أن وجدوا فيه طرازاً جديداً في الزعامة السياسية.

ولندع عبد الرحمن يغرس في الأرض الأسبانية قواعد سلطانه بثبات وعزم، ونلاحق أخبار الصميل والفهري في مطاردتهما ثوار سرقسطة من اليمنيين والبربر بزعامة عامر والحبحاب. فقد جرت مفاوضات بين جيش السلطة وبين الثوار الذين ترددوا في اتخاذ قرار الحرب، بعد تقلص قوتهم وانخفاض عدد المقاتلين بينهم بالمقارنة مع الجيش الآخر. ومن جهته قبل الصميل القائد الفعلي لهذا الجيش بالمهادنة، شرط تسليم قادة الثوار الثلاثة عامر ووهب ابنه والحبحاب، ويبدو أنهم كانوا على ثقة بالفهري دون أن يخامرهم أدنى شك على مصيرهم، فسلموا أنفسهم إليه حيث أودعوا السجن[3].

وفي تلك الأثناء كان الباسك (البشكنس) سكان البرينيه، قد أعلنوا عصيانهم أيضاً في بنبلونةPanpulona[4]، فارتأى الصميل - وقد وجدها فرصة

---

(١) راجع دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ١٩٤.
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٦.
(٣) أخبار مجموعة ص ٧٩.
(٤) Levi-Provençal: Hist, 1,102

مناسبة للتخلص من خصومه - إرسال حملة عسكرية[1] لتأديب المتمردين، على أن تضم القواد الأسرى. واستجاب يوسف لرغبات الصميل طائعاً، غير أن القاء هذه الفرقة الصغيرة في شعاب البرينيه الوعرة، كان ضرباً من المغامرة والاستخفاف. فلم تلبث أن ارتدت مذعورة بعد اشتباك سريع مع عصابات البشكنس، فاقدة قائدها وعدداً آخر من القتلى، ولكن كان من الناجين الذي عادوا إلى سرقسطة عامر والحبحاب على خلاف ما اشتهى الصميل، الذي كان قد اتخذ بشأنهما القرار الأخير، عندما أمر باعدامهما دون تردد. ومرة أخرى يجد الفهري نفسه في مأزق الموافقة[2]، ولكن على حساب ضميره التعب، المثقل بجرائم حليفه المفروض عليه.

بهذه النفسية المنقبضة، تلقى يوسف الفهري أخباراً من زوجته في قرطبة، عن تحركات الأمير الأموي في منطقة البيرة[3]، فازداد انقباضاً ودخل هلعاً على الصميل الذي لا يزال تحت تأثير نشوة الانتقام من خصميه اللدودين. فظهر كعادته غير منفعل رغم خطورة النبأ، ولكنه في نفس الوقت لم يتأخر في التصرف واتخاذ القرار الحاسم: «فإما قتلناه وإما شرّدناه»[4]. هكذا كان رأيه في الأمر وقد بتّ به سريعاً، ولكن الصميل نسي أن ثقته الكبيرة في نفسه قد تخونه هذه المرة، بعدما أوشكت تتخلى عنه وهو محاصر في سرقسطة. ولعله غاب عن باله أيضاً أن عشرة أعوام من الحرب والقتل، كافية لتحطيم القدرات المادية والمعنوية على كل الجبهات، فما بالنا بالجبهة الرئيسية التي كان يجرّها الصميل وراء قراراته المزاجية، فإذا بها أشد تعباً وإذا بالجنود مرهقون ملولون.

وشاءت الظروف أن تلعب دورها لمصلحة الأمير الأموي، فلا القوة

---

(١) كانت الحملة بقيادة سليمان بن شهاب، أخبار مجموعة ص ٧٦.
(٢) أخبار مجموعة ص ٧٧.
(٣) المكان نفسه.
(٤) المصدر نفسه ص٧٨.

العسكرية في يد السلطة جديرة بالقتال في حرب مضمونة، ولا الطبيعة سهّلت عمليات التحرك والمواصلات بعد شتاء قارس وأمطار غزيرة غير مألوفة[1].

وفي طريق العودة بهذا العدد الضئيل من المقاتلين إلى قرطبة، ظهرت بوادر الوهن في موقف يوسف الفهري، عندما أبدى استعداده لمفاوضة الأمير الأموي بعد أن تناهى إلى أسماعه ـ ضمن مخطط دعائي هادف ومركز ـ أنه لا يبغي من دخوله سوى الأمان والابتعاد عن ملاحقة العباسيين، فدخل في روع الفهري صحة هذا الزعم، ومضى في تفاؤله إلى حد الاستعداد لإصهاره[2]، موفداً ثلاثة من كبار الحزب القيسي[3] يحملون أفكار سيدهم إلى طرش Torrox، حيث معسكر الأمير الأموي. وفي الطريق أظهر عناصر الوفد ذكاء لم يتوفر لسيدهم المتفائل، فتوقفوا حيناً في «أرش» على أطراف منطقة ريّة Reiyo السفلى، إلى الجنوب من قرطبة[4]. وهناك أودعوا أحمالهم من الأموال والهدايا النفيسة، قبل أن يتابعوا المسير إلى معسكر الأمير، فيكون تسليمها إليه مرهوناً بالموافقة على شروط الفهري[5].

وفي معسكر عبد الرحمن كانت الحركة ناشطة، من تجمعات للجند إلى وفود مبايعة، «والحزب» اليمني سيد الموقف يعيش لحظات ما قبل الانتقام. وإذا كانت مبادرة قرطبة التي حملها الوفد القيسي قد لقيت الموقع الحسن لدى عبد الرحمن، لرؤيته لها من جانب واحد فقط هو اكتساب الوقت وإعطاء مهمته فرصاً أفضل، فإن «الحزب» اليمني كان يرى غير هذا الموقف ويستعجل معركة الانتقام بكل ما تعني إليه. ومن الواضح أن شبح الصميل ماثل بمكره وراء هذه

---

(١) أخبار مجموعة ص ٧٩، لين بول، العرب في اسبانية ص ٥٤.

(٢) عرض عليه الزواج من ابنته الصغرى (أم موسى) وكانت أرملة قطن ابن الحاكم الأسبق. أخبار مجموعة ص٧٩

(٣) عبيد بن علي، خالد بن زيد، عيسى بن عبد الرحمن. المكان نفسه.

(٤) أخبار مجموعة ص ٨٠. الروض المعطار ص ٧٩.

(٥) المكان نفسه.

المحاولة الاستدراجية، التي خبر الحزب اليمني مثيلاتها منذ زمن غير قصير. فإن صدقت نوايا الفهري، فمن الغباء عدم التشكيك بطوية الصميل، الذي يمتلك قدرة عجيبة على إخفاء ما يريد. وكان لا بد أن تتعثر المفاوضات، بعد أن فشل الوفد في الوصول إلى الغاية المطلوبة. وقيل إن تلاسناً[1] وقع بين المتحدث باسم الوفد (خالد بن زيد) وبين أبي عثمان عبيد الله مساعد عبد الرحمن وزعيم طرش، أدى إلى مثل هذه النتيجة. غير أن ذلك لا يعدو أن يكون سبباً جانبياً لا قيمة له، في التأثير على مجرى المفاوضات التي كانت محاطة منذ البدء بأسوار الفشل.

وهكذا انتهت محاولة الفهري الساذجة إلى الإخفاق، ليكون بديلها الحرب، ومثلها كانت محاولة الصميل الذي اعتقد أنه بإعطاء الأمير الأموي قطاعين من الجند[2]، ينهي الأزمة ويحمل هذا الأخير على الرضى. ويبدو أن الصميل، كان لا يزال غير مأخوذ بحجم الخطر الذي بدأ يقتحم جذور سلطته الممتدة لعشر سنوات خلت. ولم يشأ أن يتخلى عن ثقته بنفسه التي أصبحت مظهراً من المكابرة، كلما شعر بأن الظروف لم تعد كما في الماضي، وأن رياح التغيير العاتية متجهة من الجنوب.

ومع بداية الربيع (١٣٨/٧٥٦)، كانت طلائع الجيش الذي التف حول عبد الرحمن، تغادر معسكره إلى أرشذونة[3] Archidona، وقد بلغت نحو ألفي فارس، حيث كانت أول مدينة تجهر بتأييدها العلني للأمير الأموي[4]. وخرج منها ليلقى الترحاب في المدن الأخرى ويستقطب أجنادها (جند فلسطين في شذونة وجند حمص في أشبيلية)[5]، حتى أدرك الضفة الجنوبية من نهر الوادي

---

(١) أخبار مجموعة ص ٨١، ابن عذاري ج ٢ ص ٤٦.
(٢) جند الأردن ودمشق، ابن عذاري ج ٢ ص ٤٦ - ٤٧.
(٣) Levi-Provençal, Hist 1.103
(٤) قاعدة أقليم (رية) Reiyo أخبار مجموعة ص ٨٥.
(٥) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ٢١٠.

الكبير في حركة سريعة لبلوغ قرطبة، وذلك بعد أن وصلته معلومات عن خروج الفهري والصميل باتجاه اشبيلية لمقاومة زحفه. وكانت مبادرة ذكية من عبد الرحمن، الذي لم يشأ انتظار خصومه في أشبيلية، بل غادرها فوراً إلى قرطبة الفارغة تقريباً من قوتها الدفاعية، في عملية مداهمة سريعة نفّذها تحت ستار الليل. فاضطرب الصميل والفهري لخطة الأمير وقد وقفا على أسرارها[1]، وتراجعا مضطربين، ليكونا طرف السباق الآخر في الوصول إلى العاصمة. وهكذا امتد الجيشان على ضفة النهر، إلى الشمال عسكر جيش الصميل والفهري في المصارة[2] Musara، وإلى الجنوب اتخذ عبد الرحمن معسكره في بابش[3]. ومضت أيام يراقب أحدهما الآخر، وقرطبة عن كثب تراقب بدورها من يكون له الحظ في امتلاكها والسيطرة من خلالها على الأندلس. وفي الثالث عشر من أيار ٧٥٦/ التاسع من ذي الحجة ١٣٨ عشية عيد الأضحى[4]، دعا عبد الرحمن إلى مجلس حربي قبل أن يحسم الأمر، فإذا بأركانه يجمعون على القتال رافضين لأي حل آخر، برغم أن المهمة لم تخل من المخاطرة. لقد كانت محاولةً من القائد لامتحان كفاءة المقاتلين معه: «إن يكن فيكم جنوح إلى السلم فاعلموني»[5]، فلا يجد غير الجنوح إلى الحرب والاندفاع نحو القتال. ولكن القائد البارع لا يحتاج إلى الشجاعة فقط، بل يجب أن يتمتع بذهن وقّاد لاختطاف كل الفرص التي تساعده على تحقيق النصر. وإذا كان عبد الرحمن قد أوهم خصمه الفهري برغبته في المصالحة كمظهر من مظاهر الخدعة، فإن ذلك جائز في الحرب ولا يتنافى مع أخلاقيات الفروسية كما هي بنظر بعض المؤرخين[6]. وهي لم تكن أكثر من عملية استدراج لخصمه، كان أولى أن لا يقع في شراكها لو كان يملك التقدير الجيد لقوة الأمير الأموي.

---

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦.

(٢) (٣) المكان نفسه

(٤) أخبار مجموعة ص ٨٧.

(٥) المكان نفسه.

(٦) لين بول، العرب في اسبانية ص ٥٤.

وفي صباح اليوم التالي، كانت الظروف مؤاتية للهجوم، ولم يكن النهر في هذا الوقت، وقد انخفضت مياهه، يعيق الهجوم الذي قرره عبد الرحمن ذلك اليوم. وبسرعة تحولت المعركة إلى المصارة معسكر الفهري ورفيقه الصميل. وبنفس السرعة تمزق جيش الولاية المنهارة[1] وألقى الفهري بقدمية، رغم الشيخوخة، للريح ولاذ بطليطلة، بينما الصميل وقد سقط كل غروره في المعركة، أخذ طريق الهرب إلى جيّان (إلى الشمال من غرناطة). ودخل عبد الرحمن قرطبة بعد القضاء على أسطورة الصميل، الذي طبع البلاد هذه السنوات بطابعه المزاجي وأغرقها في جحيم الاضطرابات، لتطلّ على الأندلس إشراقة أمل تمدها بحياة هادئة وتغذي شرايينها بدم جديد.

وإذا كانت المُصَارة قد فتحت أبواب الحظ أمام الأمير الأموي الشاب، ليحتل عرش الإمارة في قرطبة، فإن الطريق إلى ذلك كان طويلاً وشاقاً. فهذا الرجل الذي سيعرف بـ «الداخل» في صفحات التاريخ، عبر إلى الأندلس مغامراً، لا يمتلك من الأعوان إلا القليل ومن السلاح غير الطموح والجرأة، ولذلك كان عليه منذ أن اقتحم قرطبة ظافراً، أن يبني لإمارته جهازاً بشرياً مطلق الولاء له على الصعيدين السياسي والعسكري. ومن هنا كان تركيزه الأساسي على الجيش، كونه الدعامة الأولى لتكريس حكمه وإعطائه الهيبة المفقودة في عصر الولاة. أما نواة هذا الجيش، فكانت تلك الفئة التي أوصلته إلى قرطبة حيث هو، ولكن في إطار خطة منظمة استصفى خلالها العناصر المخلصة واستبعد الانتهازيين المشكوك بولائهم. ولكي يكون أكثر حذراً نحو الأجهزة المحيطة به، والحذر طبيعته على كل حال، أعلن أن الأندلس مشرعة الأبواب أمام الملاحقين من الحكم العباسي. فتدفق المئات منهم حيث وجدوا الأمان المنشود، ووجد فيهم الصخرة التي يتكىء عليها وسط هذا العباب. وكانت لديه الفرصة الطيبة ليبدأ عهداً جديداً بكل ملامحه، وهو السياسي الذكي والمتحرر من

(١) أخبار مجموعة ص ٨٩ـ٩٠.

عقد التعصب إلى حد كبير. واقترن ذلك بأفعاله حين فشل الحزب اليمني في استدراجه لإشباع رغباته الانتقامية، وأصر على عدم التعرض لجماعة المصارة لا سيما عائلة الوالي المهزوم، وهي ممارسة جديدة لم تكن مألوفة في حروب الأندلس الداخلية(1). لقد أراد عبد الرحمن إعلان عهد جديد بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وذلك لا يتمّ كما رأى إلا بالقضاء على رواسب التعصب وانتزاع عوامل البغضاء من المجتمع الأندلسي، الذي أراده متلاحماً وأن يكون هو الحاكم لجميع فئاته وليس لفئة واحدة.

فهناك إذن عدة قضايا لا بد من معالجتها، مع الإنتقال إلى دار الإمارة (2). الأولى كانت تنظيمية بحتة تتناول إصلاح الإدارة وتوحيد المجتمع الممزق وخلق جيش جديد تذوب فيه التناقضات القبلية، وقد أعطى هذا الأخير الأولية الأولى في بناء الدولة كما سبق أن أشرنا. والثانية كانت داخلية أيضاً وهي مطاردة فلول الحاكم السابق الذي اعتصم في طليطلة، حيث كان يحكمها باسمه أحد الفهريين من أقاربه (هشام بن عروة الفهري) (3). ومن هناك اتصل بالصميل، الذي لم يعترف بعد بالهزيمة، وكان بدوره يخطط للعودة مجدداً إلى السلطة بمساعدة حزبه القيسي. أما الثالثة فهي خارجية تتمثل بعلاقته مع الخلافة العباسية، صاحبة النفوذ المبدئي في الأندلس، باعتبار أن ممتلكات دولة الأمويين الزائلة آلت إليها، ولا بد أن تحدد موقفها عاجلاً أم آجلاً من حركة الأمير الأموي الشاب الذي أفلت من سيفها. وهناك قضية أخيرة وهي العلاقة مع المسيحيين الفرنجة والأسبان، غير أنها لم تكن مطروحة حتى ذلك الحين بالحاح، فالخطر الحقيقي كان محلياً في المقام الأول وعباسياً في المقام الثاني.

وهكذا فإن سيادة عبد الرحمن بعد معركة المصارة، لم تكن أبعد من قرطبة

(1) أخبار مجموعة ص ٩٠.

(2) Levi-Provençal Hist 1,105

(3) أخبار مجموعة ص ٩٢.

وبعض المدن القليلة الأخرى التي أعلنت تأييدها واعترفت بـأمارتـه، بينما الجـزء الأكبـر من الأندلس لا زال في قبضـة القيسيين أو في مـوقف المتردد الـذي لم ينته بعد إلى اقتناع نهائي بشأن المتغيرات المستجدة. وما لبث الفهري الذي كان لا يزال متعلقاً بأمل العودة إلى الإمارة، أن تحرك مـع أنصاره القيسيـين إلى جيّان لمـوافاة الصميل، الذي كان قد استنفر حلفاءه وحشدهم من مختلف المعسكرات المواليـة له حتى ذلك الوقت، حيث كانت جيّان على ما يبدو ترتبط بولاء خاص نحو الصميل، لذلك اختارها مركزاً لثورته المضادة. وتعزز هذا المركز بوصول الفهري وجماعته، حيث قام الاثنان بهجوم على حامية المدينة، وكان قائدها (الحصين بن الدجن)[1] أول زعيم قيسي من عـرب الأندلس يقف إلى جـانـب عبد الـرحمن، يـوم كـانـت دولتـه مجرد مشـروع لم يخرج إلى النـور، قبل تعيينـه في وقت لاحق حـاكـماً عـلى جيّان[2]. وبعد التئام القيسيين فيها من جماعة الصميل والفهري، أرغم الحصين على الانسحاب دون أي اشتبـاك[3]، لتصبح السيـادة التامـة في هذه المـدينة إلى الزعيمين القيسيين، كما أرغم قائد الحامية[4] في البيرة على الفرار منها إلى الجبـال المجاورة، تحت ضغط هذه الحركة.

ولم يعد من مجال للاستهانة بقوة الفهري وحليفه، والتهديد الـذي يستهدف عاصمة الإمارة الغضة. فبـادر عبد الـرحمن إلى التحرك نحو معقل الثائرين في البيرة، قبل أن تضغط عليه عوامل أخرى من الخطر لم تغب عن بالـه، وقبل أن تتسـع دائرة التمـرد القيسي كلما ازداد اقتراباً من العـاصمـة. ولعـل الـزعيمـين القيسيين راهنا على خروجه لاستعادة المدينة، فما كاد عبد الرحمن يغـادر قرطبـة، بعد أن عين مساعده أبا عثمان[5] قائداً لحاميتها، حتى تحرك من البيرة أحد أبناء

(١) أخبار مجموعة ص ٩٢.
(٢) المكان نفسه.
(٣) المكان نفسه.
(٤) جابر بن العلاء بن شهاب، أخبار مجموعة ص ٩٢.
(٥) أخبار مجموعة ص ٩٢.

الفهري (أبو زيد) نحو قرطبة، متحاشياً سلوك الطريق نفسه المتوقع أن يفد منه الأمير الأموي. وكانت الخطة متقنة إلى حد ما، فحامية المدينة ضعيفة وغير قادرة على المقاومة الجدية، ولم يكن بدّ من الاستسلام ودخول أبي زيد إلى دار الإمارة واعتقال قائد الحامية أبي عثمان. ولكن القائد الفهري لم يمكث طويلاً هناك لخوفه من مداهمة عبد الرحمن له، وهو لم يكن على مسافة بعيدة كثيراً عن قرطبة. وتناهى إلى هذا الأخير ما صنعه الفهري الابن في عاصمته من انتهاك لحرمة القصر وتصفيد لمعاونه الأثير[1]، فاستبد به الغضب ولكنه لم يعدّل خطته، بل تابع سيره إلى البيرة حيث الخطر الحقيقي، حتى إذا بلغ قرية صغيرة تسمى أرملة Armilla[2]، على مقربة من معسكر القيسيين، غاب فجأة شبح الحرب وحلت مكانه مفاوضات سلمية، بعد تقدير الصميل بأن الحظ سيخونه مرة أخرى وذلك لافتقاد التوازن بينه وبين خصمه القوي. فانتهى الأمر إلى الإتفاق بين الطرفين (١٤٠/٧٥٧)[3]، تعهّد فيه الأمير الحاكم بأن يمنح خصومه العفو وعدم التعرض لأسرهم أو ممتلكاتهم بسوء، مع اشتراط واحد أن يأخذ معه إلى قرطبة اثنين من أبناء يوسف الفهري كرهينتين لضمان حسن النوايا لدى الطرف الآخر[4]. كما عاد معه الزعيمان القيسيان يوسف والصميل ليكونا تحت مراقبته، بعد ارفضاض المقاتلين كل في سبيله[5]. وكان عبد الرحمن وفياً لما تعهد بتنفيذه، فلم يخرج في تعامله مع خصومه عن الخط العام الذي رسمه لسياسته، في تقريب المسافة بين التيارات المختلفة إلى أقصى حدود التقارب.

ودخلت سياسة الوفاق إلى قلوب الناس التي أدمتها مسلسلات الحروب الطويلة، فآن لها أن تأخذ قسطها من الاستقرار بعد أن حُرمت طويلاً هادئي

---

(١) أخبار مجموعة ص ٩٢ - ٩٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٣.
(٣) المكان نفسه. Levi-Provençal I,108
(٤) المصدر نفسه ص٩٤.
(٥) المصدر نفسه ص ٩٥.

العيش. ولكن لوثة الزعامة تطارد الفهري العجوز، فيتململ من واقعه الذي لم يألفه منذ زمن بعيد ويرفض هذا النمط من الحياة، برغم إغداق الأمير عليه ما يوفر له سبل العيش الكريم والمقام الذي يليق به كحاكم سابق. وفجأة يفتقده البيت الذي أنزل فيه بعد عام من ثورته الأخيرة (١٤١/٧٥٨)، ويجري البحث عنه، فإذا هو في ماردة Marida[١]، مدفوعاً إلى محاولة جديدة، تحت تحريض عدد من أنصاره المغامرين. ومن هناك ـ لأول مرة دون الصميل ـ يخوض معركة النهاية مع الرجل الذي سحب من تحته كرسي الإمارة. وتشير المصادر إلى أن تأييداً كبيراً لقيه في هذه المدينة وجوارها، قبل أن ينتهي إلى محاصرة اشبيلية[٢]، ويناجز من هناك أمير قرطبة الأموي. وكانت ردة الفعل لدى هذا الأخير عنيفة جداً، فثار لخبر اختفاء الفهري وخرقه لشروط المعاهدة. وانعكست حالته النفسية بعيد ذلك على قراراته السريعة، بقتل ابني يوسف المرتهنين لديه، والتضييق على الصميل لاتهامه بأن له طرفاً في حركة الفهري، فألقاه في السجن[٣]، ليرى ما بشأنه بعد الفراغ من رفيقه الذي كظم له في صدره كل الغيظ.

وكان الفهري حينذاك قد تخلى عن حصار اشبيلية، ليمضي مباشرة إلى قرطبة. فهو لم يشأ تبديد الوقت ـ حسب اعتقاده ـ في حصار مدينة ليس في حاميتها إلا القليل من الجند[٤]. ولكن هذه المدينة قدّر لها أن تمارس دورها الخطير في إحباط عصيان الفهري، حيث أتيح لحاكمها[٥]، وهو أموي من أسرة عبد الرحمن، أن يستقبل قوات جديدة[٦] بعيد ارتفاع الحصار عنها، وأن يضع الفهري العجوز بين فكي الذئب. فسار في أعقابه، في وقت كان عبد الرحمن

(١) أخبار مجموعة ص ٩٦.
(٢) جاء في أخبار مجموعة ان ما يزيد على عشرين ألفاً قد اجتمعوا إلى الفهري ص ٩٦ ـ ٩٧.
(٣) المصدر نفسه ص٩٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٩٧.
(٥) عبد الملك بن عمر المرواني المصدر نفسه ص٩٦.
(٦) عبد الله بن عبد الملك، أخبار مجموعة ص ٨٧، Levi-Provençal 1,108.

ينتظره في مكان غير بعيد عن العاصمة (برج أسامة)[1]. فاضطرب يوسف حين رأى الغبار يرتفع وراء فرسان حاكم أشبيلية المرواني وتثاقلت قدماه، ولم يجرؤ على متابعة الطريق إلى قرطبة. ثم انكفأ إلى الوراء للتخلص من مطاردة المرواني، وكان واثقاً من النصر لتفوق جيشه، قبل أن يتفرغ إلى جيش قرطبة الرئيسي، وحتى لا يقع فريسة الجيشين معاً. غير أن المعركة اقتصرت على مشهد استعراضي قصير من الفروسية، انتهى بفرار الجيش الفهري الكثيف العدد وتبعثره في عدة اتجاهات، دون أن تكون مقدمة الجيش الذي قاده عبد الرحمن قد ابتعدت كثيراً عن قرطبة. ولعل افتقاد القيسيين لتلك الفرص العديدة كان من أسبابه، الإنهاك الشديد الذي أصاب عناصرهم القتالية خلال فترة طويلة مشحونة بالحروب المتواصلة. فكانوا ينجرّون إليها طائعين أو كارهين، وكانت مصائرهم معلقة بيد رجلين: أحدهما (الصميل) مزاجي غامض، والآخر (الفهري) مريض بالسلطة لم يملك منها سوى الاسم، ولكنهما متفقان في النزعة إلى الحكم، غير عابئين بأهواله ولا بالدماء المهرقة على عتباته. إنه مفهوم «الحزب» القيسي للسلطة، الحزب المضطهد في أغلب مراحل الخلافة الأموية، حيث يبقى أسير ذهنيته العصبية المغلقة، ويعيش على الدوام ذكريات «مرج راهط» رمز الصراع على النفوذ ضد القبائل اليمنية.

وعاد الفهري يبحث عن مأمن يتوارى فيه، فلم يجد غير طليطلة التي اعتاد الهروب إليها، دون أن يكتب له بلوغ غايته هذه المرة. وإذا هو على مشارفها، وصلت أخباره إلى أحد رجال الأمير الأموي[2] وهو في قرية مجاورة، فطارده مع جماعة مسلحة وتمكن من قتله، وذلك على مسافة أميال قليلة من المدينة، وأرسل رأسه إلى الأمير في قرطبة، الذي كان هو الآخر يقضي على الصميل خنقاً، ويقوم بتصفية من هادنهم من رجال الحكم السابق (١٤٢/٧٥٩ - ٧٦٠)[3].

---

(١) أخبار مجموعة ص ٩٧.

(٢) عبد الله بن عمر الأنصاري، المصدر نفسه ص٩٩.

(٣) Levi-Provençal: Hist, 1,108

وتكررت عملية قطع الرؤوس، وأخذت سياسة الحاكم الجديد تصطبغ بلون الدم، بعد أن عزف عن خطه السياسي الذي بدأ به مسيرته في الأندلس. فقد أدرك أن إمارته السابحة في محيط من الخصوم والعداوات، لن يُكتب لها البقاء وسيفه في الغمد لا يتحرك، فاستل هذا السيف وقليلاً ما أعاده، وإن أسرف في القتل فقد وُجد من المؤرخين من سوّغ له ذلك كسبيل لا مفر منه. ذلك أن الأخطار التي داهمته منذ أن عبر إلى السلطة في قرطبة، كانت أقوى بكثير من أن يحمل ثقلها رجل واحد، مهما بلغت به القدرة والشجاعة، فكان على الأمير الأموي أن يثبت في وجه العواصف ولا يلين.

وما كاد يلتقط أنفاسه بعد مصرع الفهري والصميل ويقضي على أخطر عدوين في الداخل، حتى وجد أن الانتقال من مرحلة السلطة المحلية في قرطبة إلى السيادة الكاملة على الأندلس، ما زال يحاط بالألغام، وان سنوات أخرى شاقة تنتظره قبل أن يبلغ الهدف الذي يريد. فبعد هدوء لم يتجاوز العام كثيراً منذ القضاء على ثورة القيسيين الأخيرة، أعلن الثورة في طليطلة أحد زعماء القيسية من الفرع الفهري نفسه، هو هشام بن عروة[1]، حيث كانت المدينة رغم تعيين حاكم لها، تعج بالأنصار الفهريين وفئات أخرى من الحزب القيسي. ويبدو أن هشاماً حاول الاستفادة من الظروف السياسية، في وقت بدأت خلافة العباسيين تتجه بأنظارها إلى الأندلس، بعد أن ظلت وحدها خارج دائرة نفوذ الخلافة. ولكن أمير قرطبة الأموي، كان يُحسن دائماً توقيت المعارك مع خصومه، ويكون لعامل المفاجأة المحل الأول فيها. فما كادت أخبار طليطلة تتناهى إليه حتى كان الأمير يشق نحوها الطريق، ويأخذ الفهري المتمرد على حين غرة، فلا يجد الأخير غير الاستسلام مفراً، وعرض الصلح على الأمير مقابل رهينة من أولاده[2]. وقبل عبد الرحمن ذلك دون مناقشة، حيث كان يستعجل العودة إلى قرطبة في تلك الأجواء المنذرة بشيء ما تعده الخلافة العباسية، فكان عليه أن

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١: ورد اسم أبيه في عدة أشكال أخرى (غزره وعذره وعبد ربه).
(٢) المكان نفسه.

يترقب الأمور بحيطة وحذر. ولكن الثائر الفهري لا يقنع بالمغامرة الفاشلة التي أجهضت في طليطلة ودفع ثمنها ارتهان أحد أبنائه، فارتكب بعد رجوع الأمير إلى قرطبة غلطة يوسف الفهري زعيم أسرته المقتول، حيث عاد إلى عصيانه دون أن يأبه للتجربة المرة. وبنفس السرعة، إنكفأ عبد الرحمن إلى طليطلة لينهي حساب الفهري العنيد، فحاصر مجدداً المدينة وأعدم الابن الرهينة، وقيل إنه قذف رأسه المقطوع بمنجنيق إليها(١). ولكن اشتداد القلق بشأن التحركات العباسية، دعاه إلى عدم الإطالة في الحصار،والإنسحاب إلى قرطبة دون أن ينال من الثائر المعتصم في طليطلة.

وكانت انتفاضات أخرى في وجه عبد الرحمن قد شهدتها الأندلس في ذلك الحين، كتلك التي انفجرت في اشبيلية حيث انتهت إليها فلول القيسيين بعد مقتل يوسف الفهري، وأعلنت الثورة ضد أمير قرطبة. ولحقتها بعد حين ثورة أخرى، ولكنها بزعامة اليمنيين هذه المرة(٢)، فكان ذلك بداية الافتراق بين هؤلاء وبين الأمير الأموي. غير أن خلافه مع الحزب اليمني، الذي ربما اعتقد أن باستطاعته احتواء هذا الأمير وتسخيره لمصلحته السياسية والقبلية، لم يكن له تأثير كبير على موقع الأمير الذي استطاع خلال السنوات القليلة الماضية انشاء قوة ذاتية، كانت تملك القدرة على احباط كل الحركات المحلية. كذلك وضع في حسابه أن معارضة الحزبين القيسي واليمني لنظامه لن يؤدي، ضمن أجواء العداوة المستحكمة بينهما، إلى أي نوع من أنواع التحالف الجدّي ضد قرطبة، تلك هي نقطة الضعف التي استفاد منها عبد الرحمن وأحسن استغلالها إلى حد كبير.

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١.

(٢) كانت الثورة بزعامة القاسم بن يوسف أحد زعماء طليطلة القيسيين ورزق بن النعمان زعيم الجزيرة الخضراء وهو قيسي أيضاً، كما قامت ثورة في اشبيلية بقيادة زغيم اليمنية عبد الغافر اليماني.

راجع عنان، دولة الإسلام في الأندلس ص ١٦.

غير أن رياح الخطر المقلقة لا تهب فقط على أمير قرطبة من الداخل، حيث استوعب كل التيارات فيها، ولكن هبوبها الشديد يأتي من بغداد عاصمة الخلافة العباسية. فهناك القوة العظمى - إذا توفرت الظروف - التي يمكن أن تطيح به وتنسف كل جهوده. وكان في بغداد يومذاك أخطر الخلفاء العباسيين قاطبة وأشدهم دهاءً وعناداً في تسويغ الوسيلة من أجل الغاية، دون أن يعبأ بالمثاليات في السياسة أو يهتم بالعلاقات الخاصة[1]. إنه الخليفة «المنصور» الذي اعتبر أن حسابه مع «الداخل» قد حان وقته، بعد أن أنجز تصفية خصومه السياسيين في المشرق[2]. ولكن المهمة - مع تحفّز المنصور لها - كانت عسيرة إلى حد كبير، فخصمه الأموي كان يتمتع بحصانة البُعد الجغرافي عن مركز الخلافة، التي ابتعدت بدورها إلى الشرق، إلا أن الخليفة الذي تخلّص من رجل الثورة العباسية الخطر أبي مسلم الخراساني، بطريقة مبتكرة وفريدة[3]، لم يعدم وسيلة في أخذ الأمير الأموي المتمرد[4] على خلافة بغداد بالشدة نفسها. فاتصل سراً بأحد الزعماء العرب وكان قائداً لحامية باجة Beja[5]، هو العلاء بن مغيث اليحصبي، من قبيلة جذام اليمنية[6]، من أجل تصفية خصمه البعيد (١٤٦/٧٦٣). وكانت مهمته دقيقة للغاية، وهي لا تختلف كثيراً في إطارها السياسي عن المهمة التي كان بطلها أبو مسلم في خراسان عشية سقوط الدولة الأموية، من حيث تركيزه على حزب الأغلبية من اليمنيين الذين بدأوا يضيقون بـ «الداخل» بعد أن خذلهم في تحقيق ما يريدون من السيادة. كما أن العلاء، لم يكن بانزوائه في تلك المدينة البعيدة، ليُثير شكوك أحد في تحركاته التآمرية، لقلب

---

(١) أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون ج ١ ص ٩٢-٩٣.

(٢) راجع فاروق عمر، العباسيون الأوائل ج ١ ص ١٧٨ وما بعدها.

(٣) عصر المأمون ج ١ ص ٩٨-٩٩.

(٤) Levi-Provençal, Hist 1,108

(٥) إلى الجنوب الغربي من الأندلس (في البرتغال حالياً).

(٦) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٣.

النظام الأموي في الأندلس والجلوس على كرسي الإمارة باسم العباسيين، وهو الثمن الذي وُعد به[1].

وبعد نحو عام من الاتصالات الخفية، مع اليمنيين بصورة خاصة، ارتفعت الأعلام السوداء[2] في باجة معلنةً الثورة على أمير قرطبة (١٤٧ هـ). فكان الفهريون (الحزب القيسي) وهم أكثر المتضررين من الحكم الجديد، أول من تعاطف مع ثورة العلاء، الذي غادر منطقة باجة وهي تضطرم بالثورة، واتجه نحو اشبيلية، لتصبح مركز الثوار اليمنيين ومن اجتمع اليهم من الفهريين، موحِّدة بينهم العداوة المشتركة للأمير الأموي. وكانت هذه المدينة منذ افتتاح الأندلس، تحتل دائماً دور المنافس لقرطبة، حيث ساعدها موقعها الوسطي على أن تكون مسرحاً لمعظم الحركات الثورية التي شهدتها هذه البلاد.

وكان عبد الرحمن قد عاد لتوه من طليطلة، حيث كانت بدورها مسرحاً آخر لثورة قيسية بزعامة الفهريين كما سبقت الإشارة. فما كادت تصله أخبار العلاء - ولم يكن بعيداً عن مراقبته قبل ذلك - حتى أمر مساعده بدر بالخروج إلى شذونة، التي انضمت في وقت سابق إلى العلاء[3]، لاستدراج الثوار إلى معركة جانبية يكون خلالها الأمير الأموي قد أنجز ترتيباته وانقضَّ عليهم من الخلف. ونجح بدر في مهمته نسبياً، فأخضع المدينة وعقد صلحاً مع قائدها المتمرد[4]، ولكن من دون صدام مع جيش الثورة الرئيسي، تاركاً هذه المهمة لسيده. وكان الأخير قد غادر قرطبة بمن جمعه من مقاتلين أشداء، أعدّهم لهذه العملية الخطيرة، غير أن كثافتهم لم تصل إلى مستوى الثوار المتفوقين في العدد، مما اضطره إلى التراجع أمامهم إلى قرمونة Carmona، إحدى المدن الحصينة الواقعة إلى الشرق من اشبيلية[5]، حيث بقي محاصراً نحو الشهرين، تضغط

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٤.
(٢) شعار الثورة العباسية. أخبار مجموعة ص ١٠٢.
(٣) المكان نفسه.
(٤) غياث بن علقمة، أخبار مجموعة ص ١٠٢.
(٥) الروض المعطار ص ١٥٨.

عليه هجمات العلاء العنيفة والمتكررة. وكانت محنة قاسية، لم يتعرض لمثلها الأمير الأموي منذ قيام دولته في الأندلس وكذلك جنوده الذين عانوا الكثير، ولكن دون أن يدعهم يفقدون الشجاعة أو يستسلمون إلى اليأس. وهنا تظهر موهبة القائد الفذ في أصعب المحن، محتفظاً بأعصابه الفولاذية ومالكاً حدة الرؤية وسرعة المبادرة. فيقرر أخيراً ساعة الحسم، بعد أن وضع جنوده في جو العملية «الانتحارية» التي آن أوان تنفيذها[1] والخروج من الحصار. فإذا بالمدينة ينفتح بابها فجأة على سبعمائة رجل، على رأسهم عبد الرحمن، متدفقين كسيل مجنون، لا يرون أمامهم سوى لمعة السيوف، ويمزّقون الثوار شر تمزيق[2]، ويقتلون العلاء الذي أدركته سيوف الأمويين بالقرب من اشبيلية، وهو يحاول الفرار ومعه عدد كبير من أصحابه[3].

ولكن «المسرحية» لم تنته بانتهاء البطل، الذي اختارته الدولة العباسية لانتزاع الأندلس من الأمويين وادخالها في عصمتها. فثمة فصل مثير لا يخلو رغم المأساة من طرافة وسخرية، تفتق عنه ذهن الأمير الوقّاد، عندما أمر بجمع رؤوس القتلى من البارزين في الثورة المجهضة وبينهم العلاء بن مغيث، وتعليق بطاقة في أذن كل منها تحمل اسم المقتول وإرسالها في كيس، تمّ طرحه ليلاً في إحدى طرقات القيروان[4]، حتى إذا وصل الخبر إلى مسامع المنصور، ذهل من جرأة الأمير الأموي وصرخ بعد أن بلغ به الغضب حداً: «الحمد لله الذي جعل بيني وبين هذا الشيطان بحراً»[5]، حسب الرواية التاريخية. وسواء تفوّه المنصور بهذه العبارة، أم أنها من صنع المؤرخين، فلا شك أن العملية كانت أكثر ابتكاراً من عمليات المنصور وتفوقاً عليها، منقلباً عليه ما خطط له. وكانت طريقة قطع

---

(١) راجع دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ٢٢٢.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠٣.

(٣) المكان نفسه.

(٤) أخبار مجموعة ص ١٠٣، كانت ولاية أفريقية قد آلت إلى الدولة العباسية.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٣ ـ ٥٥.

الرؤوس وارسالها إلى الخلفاء، معروفة في عهد الأمويين، غير أنها كانت رؤوس الأعداء المهزومين وليس العكس. ولعل حادثة العلاء المأساوية قد أفهمت الخليفة العباسي العنيد، أن أمير الأندلس الأموي طراز آخر من الرجال، ليس من السهولة أخذه. وكانت هذه التجربة كافية ـ بالنسبة إليه على الأقل ـ لأن يطوي مشروع الأندلس ويقنع بالمحاولة الأولى، فلا يعود إلى تكرارها. ويظفر منه الأمير الأموي حسب ما يذكره ابن الخطيب، باللقب الذي غلب عليه، وهو «صقر قريش» تقديراً منه لكفاءة خصمه وشجاعته النادرة[١].

وبانتهاء عبد الرحمن من تصفية جيوب الانقلاب العباسي في الأندلس، بادر إلى ارسال معاونه (بدر) على رأس قوة إلى طليطلة للقضاء على ثورة الفهريين فيها. ولم تكن المهمة صعبة هذه المرة، حيث كان لدى السلطة من القوة ومن الوقت ما يجعلانها تسحق الثورة في غاية السهولة، وتحمل زعيمها الفهري على الاستسلام، ليلقى مع أصحابه في قرطبة المصير المنتظر، الذي لم يعد مصير غيره ينتظر هؤلاء المتمردين[٢].

ومضى شريط العصيان دون توقف، وعاد اليمنيون المتحفزون دائماً إلى أن تكون السلطة في يدهم، إلى إضرام نار الثورة في مدينة لبلة[٣] Liebla (٧٦٦/٤٩)، بعد سنتين من انقلابهم الفاشل الذي قاموا به تحت غطاء التأييد العباسي. وذلك بزعامة سعيد اليحصبي الملقب بالمطرّي[٤]. وكانت اشبيلية كعادتها المحطة المباشرة للثورة، فاستولى عليها المطرّي وطرد حاكمها المرواني عبد الملك بن عمر، الذي لم يستطع بحاميته المتواضعة ردّ الثائر عن مدينته. فخرج منها طالباً الامدادات من قرطبة. بينما غادر المطري اشبيلية إلى قلعة[٥]

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٩. أخبار مجموعة ص ١١٨.
(٢) قتلوا وصلبوا بأمر من عبد الرحمن، أخبار مجموعة ص ١٠٥.
(٣) تقع في غرب الأندلس، الروض المعطار ص ١٦٨، أخبار مجموعة ص ١٠٥.
(٤) أخبار مجموعة ص ١٠٥.
(٥) قلعة رغواق، المكان نفسه.

مجاورة لها واتخذها معسكراً يعتصم فيه. وفي تلك الأثناء كان حاكم شذونة قد انتهز المناسبة وخلع سيادة قرطبة، فجاء عبد الرحمن لإحباط ثورة المطرّي واستعادة اشبيلية، حيث لم يصمد هذا الأخير طويلاً، وما لبث أن سقط في معركة عنيفة انتهت بسحق الثورة ومقتل قائدها، لينضمّ رأسه إلى مجموعة الرؤوس المقطوعة التي أصبحت تقليداً متبعاً في ذلك الحين. وعلى الرغم من تدحرج الرؤوس، لا تتوقف الحركات المعادية لحكم الأمير الأموي الشاب، حيث الجشع إلى السلطة كان يبتلع الخوف من العقاب. فثمة يمني آخر ويحصبي[1] أيضاً يدعى أبو الصبّاح، يشق عصا الطاعة في نفس السنة التي ثار فيها قريبه المطرّي. وكانت اشبيلية مسرحاً لهذه الثورة وسبباً لها في نفس الوقت، تلك المدينة التي ارتبط اسمها بأبي الصباح الذي كان حاكماً عليها[2]، قبل أن يعزله عبد الرحمن ويعيّن قريبه المرواني مكانه. ولعلنا نذكر موقف أبي الصبّاح المؤيد للحاكم الأموي، منذ أن قدِمَ إلى الأندلس، لذلك لم يغفر للأخير هذا القرار فثار عليه. ولا بدّ أن يكون عزل الأمير الأموي لحليفه أبي الصبّاح مظهراً من مظاهر عدم الثقة والتشكيك بإخلاص عرب الأندلس بصورة عامة واليمنيين على الأخص، إذ لم يطل الوقت حتى اكتشف عبد الرحمن أبعاد تحالفهم الانتهازي معه. وكانت الشكوك قد أحاطت بالحليف اليمني السابق منذ موقعة المصارة، مما حمل عبد الرحمن على النفور من سلوكه وعدم التعاون معه في وقت لاحق[3].

والواقع أن أبا الصبّاح كزعيم يمني بارز، كان أكبر حجماً من قريبه (المطرّي) وأشد خطراً منه، تساعده على ذلك شجاعة وقوة بدنية نادرة. وكان مركزه القوي وراء تردد عبد الرحمن في مجابهته، قبل أن تتهيأ له فرصة مناسبة. غير أن هذا الواقع لم يطل كثيراً لأن الأمير الأموي كان يمتلك دائماً المبادرة الذكية والسريعة، عازماً على التخلص من خصمه بطريقة جديدة وسهلة، حين أخذ

---

(١) يحيى اليحصبي، أخبار مجموعة ص ١٠٥، Levi-Provençal: Hist 1.111.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠٥.

(٣) ابن القوطية ص ٣٠. نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦.

يراوغه ويستحثه على القدوم إلى قرطبة ليلقاه على السعة والترحاب، موحياً لـه بأن العلاقة الحميمة بينهما ثابتة راسخة. وبعد لأي استجاب الزعيم اليمني لدعوة الأمير، ولكن دون أن يتخلى عن شكوكه بما ينتظره وراء هذه الزيارة، عندما اصطحب أربعمائة من فرسانه كإجراء احتياطي [١]. غير أن الحذر والاحتراز، لم يمنعاه من الانزلاق أخيراً إلى الموقف الذي تمناه عبد الرحمن بفارغ الصبر. فما كاد يدخل إليه وكان وحيداً، بعد أن ظلّ فرسانه خارج القصر، حتى انقض عليه بكل حقده، ملتمساً طريقة الخليفة المنصور مع أبي مسلم الخراساني، حيث تخلص من زعيم خطير، دون أدنى ضجة وبأقل الجهود[٢].

هل انتهى ذلك المسلسل الدموي من حركات التمرد في إمارة عبد الرحمن، بالقضاء على عصيان أبي الصباح؟ أم أن فصولاً أخرى تنتظر دورها فوق هذا المسرح الساخن؟. ذلك أن قدر هذه الأرض منذ أن ارتبطت بالسيادة العربية، أن تنبت الثورات المحمومة وتستسقي أنهر الدماء وتغرق بجنون الحقد حتى الإفناء. فلم تمر سوى أعوام ثلاثة على آخر ثورة يمنية ـ وكان عبد الرحمن قد حقق نجاحاً في تطويع القبائل العربية من الحزبين، بعد اعترافها بالفشل والهزيمة ـ دخل البربر دائرة الصراع على السلطة، لأول مرة منذ الضربة الأليمة التي نزلت بهم في معركة طليطلة (٧٤١ م)، قبل نحو ربع قرن تقريباً. فأعلنوا الثورة على نظام قرطبة الأموي (١٥٢ هـ) في مقاطعة (شنتبرية)[٣] Santaver أو Santebria اسمها الحالي، وهي تقع إلى الشرق من وادي الحجارة في إقليم أراغون[٤]. ومن المعروف أن أغلبية من قبائل البربر، كانت تقيم في هذه النواحي الشمالية، خاصة مكناسة التي تصدرت الثورة، وكان منها القائد

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٠٥ـ١٠٦.

(٢) قيل أن عبد الرحمن أراد قتل أبي الصباح بيده ولكنه اكتشف أنه أكثر قوة منه فاستعان بحرسه الذين انقضوا عليه بالخناجر. أخبار مجموعة ص١٠٦ـ١٠٧.

(٣) وردت سنتمرية في الروض المعطار ص ١٤٤.

(٤) الروض المعطار ص ١١٤.

(شقيـا) Shakaya[1] الـذي تحيـطه الـروايـات التـاريخيـة بـإطـار من الشعـوذة والمراوغة. وكان قد عرف معلماً للصبيان وبثقافته القرآنية، قبـل أن يستغل ذلـك لأهدافه الشخصية، فيزعم أنه فاطمي من أسرة النبي. وغلب عليه هـذا الاسم بين جماعته البسطاء الذين أقنعوا بزعمه وأصبـح «الفاطمي» اسمـه المتداول[2]. فبعد استيلائه على شنتبريـة هجم على ماردة والمدن الأخرى الواقعة إلى الغـرب منها[3]، ومدَّ سيطرته جنوباً حتى نهر تاجة Tago. وتناهت أخبار ثورة الفاطمي إلى مسـامع الأمير الأموي في قرطبة، فأرسل أحد قواده[4] لقمعها، ولكنه تـراجع مهزوماً، ممـا دفعه إلى القيـام بنفسه لإيقـاف هذه الحـركة الخـطيرة واجتياح تلك المناطق التي حملت لواء العصيان، مطارداً الفاطمي المزعـوم. غير أن الأمـور مع هـذا الأخير لا تسـير في اتجـاه الحسم، وذلـك لتغلغله في شعـاب تلك المنـطقـة ووديانها الوعرة، وللحاجة الملحَّة أن يكون في عاصمته، بعد أن وصله تقرير من مسـاعده بـدر، بأن ثـورة أخرى قـد انفجرت في أشبيليـة تحت شعار الثـأر لأبي الصباح[5]. فعاد إلى قرطبة في الوقت الذي غـادرها بـدر لمتابعـة القتال، ولكنـه فشل أيضاً في النيـل من الفاطمي وجمـاعته المحصنـين في تلك المنطقـة الصعبة. فاستأنف المهمة قائد آخر (عبيد الله بن عثمان) كان أسوأ حـظاً من سلفه، حيث أوقع به الفاطمي هزيمة كادت تقضي عليه (١٥٥ هـ).

ولم يجد عبد الرحمن بداً من العـودة بنفسه لقمـع ثورة شنتبـرية، بعـد فشل قواده في تحقيق ذلك، وكـان قد انتهى من ثـورة أشبيلية[6]، فجـاء بقوة كبيـرة، ولكن دون أن يهمـل مناوراتـه التي برع فيهـا، مستهدفـاً تمزيق وحـدة البربـر في الـوقت الذي يشن عليهم الحـرب. وقد حـالفه النجـاح عنـدمـا اجتـذب أحـد

---

(١) Levi — Provençal Hist 1.111 أخبار مجموعة ص ١٠٧.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٠٧.

(٣) قورية ومدلين. أخبار مجموعة ص ١٠٧ : Levi — Provençal Hist: 1.113

(٤) سليمان بن عثمان.

(٥) قامت الثورة بقيادة حيوة بن ملامس الحضرمي وعبد الغافر اليحصبي. أخبار مجموعة ص ١٠٧.

(٦) أخبار مجموعة ص ١٠٨.

زعمائهم (هلال الميديوني)[1]، ليضعه في موضع الندّ للفاطمي، بعد أن وعده بولاية شنتبرية. ولكن الظروف ـ رغم ذلك ـ حالت مرة ثانية دون إخماد ثورة البربر، بسبب هموم الأمير في قرطبة. والواقع أن الثائر الفاطمي كان على جانب من المهارة القيادية وإتقان لـ «حرب العصابات»، بحيث كان يتحاشى الصدام المباشر مع قوات السلطة، مؤثراً استعمال الهجمات السريعة ثم الاختفاء في كهوف الجبال. وظل الفاطمي بثورته الخطيرة هاجس الإمارة الأموية في الأندلس حتى سنة (١٦٠/٧٧٦)، عندما تفرغت لقتاله حملة عسكرية ضخمة بقيادة عبيد الله بن عثمان وتمام بن علقمة، ونجحت أخيراً في سحق حركته بعد تدبير اغتيال متقن للفاطمي، كان لها من النتائج السلبية على جماعته ما أرادت، منهيةً بذلك أخطر ثورة في تاريخ الأندلس حتى ذلك الحين[2].

العلاقات مع الإسبان بعد إخماد ثورة شنتبرية التي كلفت عشر سنوات من الكفاح والحملات المتواصلة، كان الأمير الأموي عبد الرحمن قد سلخ من حياته الأندلسية أكثر من عشرين عاماً (٧٥٥ ـ ٧٧٦) في حروب داخلية، لم تدع له من الفرص إلا قليلها للاهتمام بشؤون ما يتخطى هذه الدائرة، وما يتطلبه بناء دولة فتية خارجة من بين وميض السيوف، حتى غدت الحرب صفته الأولى، تُفرض عليه وتطبعه بالقسوة والعنف، والتشكيك بكل الناس حتى أقرب المخلصين. وإذا كانت الثورات الداخلية التي استهدفته من عرب الأندلس بمختلف انتماءاتهم القبلية، قد أخذت من وقته هذه السنوات الطويلة، حتى فاز بالتحدي وانتزع النصر من خصومه المحليين، فإن الثمن كان باهظاً لم يتناول فقط سياسته الإصلاحية التي اختصر منها الكثير، ولكنه انعكس بشكل خاص على السياسة الخارجية التي لقيت الإهمال، مما أُتيح لأعدائه المجاورين من بقايا الدولة القوطية، الذين اعتصموا في المناطق الصخرية في الشمال الغربي من إسبانية، أن يصنعوا من هناك نواة الفكرة الوطنية لاستعادة الأرض وتحريرها من

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) أخبار مجموعة ص ١١١.

العرب المسلمين. فإذا بهم قوة تأخذ طريقها إلى النمو في زحمة التطاحن السياسي بين العرب، وتزداد توسعاً على حساب حكومة قرطبة الأموية المنهكة.

وكانت مملكة استورياس أو أستورقة المجاورة لجيليقية، أخطر هذه التجمعات الإسبانية المناوئة للعرب، وكان ملكها فرويلة Fruela[1] معاصراً لعبد الرحمن الأول، ويوصف بأنه قوي الشكيمة ورائد سياسة التوسع الجدية في تلك المنطقة. ولا يستبعد أن يكون فرويلة قد قام بسلسلة من الهجمات في المنطقة الشمالية الغربية، لا سيما في كورونيا Coruna[2]، حيث ينفرد المؤرخون الأوروبيون بالإسهاب في وصف هذه الهجمات وما نتج عنها من خسائر جسيمة في صفوف العرب المسلمين، وربما كان الأمير عمر أحد أبناء عبد الرحمن، بين آلاف القتلى حسب تعبيرهم[3]. ولكن المستغرب أن لا تشير مصادر العرب إلى هذه الحادثة التي تبدو عرضة للشك، بينما أشارت إلى حملة تأديبية أرسلها الأمير الأموي إلى أستورياس وانتدب لقيادتها مساعده بدر (١٥٠/ ٧٦٧)، أي قبل عام واحد من قيام ثورة الفاطمي في شنتبرية. فتوغلت في هذه المناطق حتى ألبة Alava وحققت قدراً من النجاح، بفرض السيادة العربية عليها وإلزام سكانها بدفع الضرائب المطلوبة[4].

ويبدو أن حملة بدر كانت ذات أثر بعيد على العلاقة بين إمارة قرطبة ومملكة أستورياس، التي لم تجد فائدة من مقاومة حكم الأمير القوي، القادر على التحرك بسرعة وسحق الحركات المعارضة. كما كانت كافية لإبعاد هذه المملكة عن مواجهة العرب وتوقيف نشاطها التوسعي إلى حين. فسادت فترة خيم فيها السلام على الدولتين الأموية والاسبانية، لا سيما في عهد الملوك الثلاثة

---

(١) Levi-Provençal I,115

(٢) Ibid.

(٣) Op. Cit. I,115-116.

(٤) Op. Cit. I,116

الذين تعاقبوا على الثانية خلال العشرين عاماً بعد موت فرويلة[1]. وبلغ الأمر بالعرب إلى حد التدخل في شؤون المملكة الخاصة وخلافاتها على العرش، حيث يدين أحد هؤلاء الملوك (Mauregato) للإمارة الأموية بوصوله إلى الحكم.

ومن البديهي أن النشاط المسيحي الأسباني، لم يكن قد وصل بعد إلى المرحلة التي تؤهله بأن يكون خطراً على حكم العرب المسلمين في عهد عبد الرحمن الأول. فقد كانت هنالك محاولات تتعثر وتُستعاد دون كلل، فترسم للاسبان طريق التحرر وتحمل أمامهم مشعل الاسترداد، الذي كان يزداد سطوعاً، كلما انطفأت شمعة في قرية عربية هناك عبر تلك القرون الطويلة.

العلاقة مع شارلمان من المصادفات المثيرة في تاريخ العلاقات بين الأندلس وبين مملكة الفرنجة، ذلك النِّد الأوروبي الرئيسي للعرب المسلمين، أن يتقلد زمام الأمر في كل منهما وبصورة متكررة تقريباً، رجلان تجمع بينهما كل مواصفات الزعامة السياسية، وتلك الحماسة الملتهبة في الدفاع عن الوجود وعن العقيدة. فكما أحبط مارتل مشاريع الغافقي في أوروبا ووقف كالجدار الحديدي أمام اكتساح العرب لفرنسا، قُدر لعبد الرحمن الداخل أن يناجزه من لا تقل قدراته عن شارل المطرقة، وهو حفيده شارلمان Charlemagne، أعظم شخصيات الأسرة الكارولنجية، الذي أخذ الحكم من أبيه بيّان القصير (٧٧١ م)[2]، أول محافظ للقصر يتخذ اللقب الملكي، كما أخذ عنه تلك العلاقة الودية مع الكنيسة التي حفظت بإعجاب، مواقف الكارولنجيين في إنقاذ المسيحية من خطر الإسلام في أوروبة، وكذلك جهودهم التبشيرية بين قبائل السكسون وغيرهم من الوثنيين. ولقد أفادت هذه العلاقة شارلمان بوجه خاص، فاستثمرها في تحقيق أهدافه السياسية في السيطرة على أوروبة ومحاولة بعث الأمبراطورية الرومانية الزائلة من جديد. ومن هنا كانت حملاته في إيطالية حيث مهد الأمبراطورية،

---

(١) هم أورليو Aureleo، سلو Silo، موريغاتو Mauregato Levi — Provençal, Hist 1. 117

(٢) عاشور، أوروبا في العصور الوسطى ص ٢٩١.

والقضاء على اللومبارديين أصحاب النفوذ هناك، دون أن ننسى مشاعر العداوة التي أظهرها ضد العرب المسلمين في اسبانية والمجاهرة بوجوب طردهم منها، وهي جهود وظفها أخيراً في بلوغ الهدف الذي يتطلع إليه منذ صعود نجمه السياسي، بأنه الحامي للبابوية والمدافع عن اسمها، دون أن تجد هذه الأخيرة ما يمنعها من الاعتراف بفضله ومباركته امبراطوراً رومانياً «مقدساً» في وقت لاحق (٨٠٠ م).

ولا بد من الاعتراف أن دولة الفرنجة في عهد شارلمان أصبحت حينذاك القوة الرئيسية للمسيحية، خاصة بعد انهيار العلاقة بين البابوية وبين الامبراطورية البيزنطية التي تمادت في ابتعادها عن الخط البابوي في ذلك الحين. وهذا الموقع الذي أكسبه شارلمان لدولته، اقترن بالتزامات كان لا بد أن يؤديها للبابوية، التي كان أشد ما يثيرها نمو القوة العربية الإسلامية في عهد عبد الرحمن الأول، بعد النجاح الباهر ضد كافة المؤامرات التي تربصت به.

واقترن اسم شارلمان في تاريخ أسبانية الأموية وفي التاريخ الصليبي العام، بالحملة الشهيرة التي اخترق بها البرينيه إلى سرقسطة [١]. وهي تكتسب أهميتها من جانبين: الأول أوروبي مسيحي، كونها أول مبادرة هجومية قام بها الكارولنجيون ضد العرب، بعد سلسلة الحملات العسكرية التي قام بها هؤلاء إلى عمق فرنسا واقترابهم من عاصمتها الحالية، والثاني دولي حيث يرى فيها المؤرخون لا سيما في الغرب، تآمراً بين دولتين حليفتين: الكارولنجية والعباسية، أو على وجه التحديد بين شارلمان والمنصور. ولعل هذا الجانب الأخير بحاجة إلى معطيات أكثر دقة للأخذ به، ولا زال عرضة للتشكيك حتى من بعض الكتاب الأوروبيين. ذلك أن أصحاب هذا الرأي بنوا اقتناعهم على ما أصاب حركة العلاء بن مغيث التي كان وراءها المنصور من فشل ذريع، والحقد الذي نازع

(١) Levi — Provençal, Hist 1. 118

هـذا الأخير ضـد الأمير الأمـوي، فمهد ذلـك بنظرهم لتلك العـلاقـة الحميمـة والمصلحية بين الدولتين العباسية والكارولنجية(١).

ومهما كانت الدوافع، فإن شارلمـان لم يكن متلهفاً لأي تحـالف أو اتفاق مـع الخلافة العباسية بشأن إمارة الأمويين في الأندلس، بعد أن جـاءته الفـرصة عـلى طبق ذهبي للقيـام بحملته تلك، مـوفّرة لـه البابـوية الـدعم المـادي والمعنـوي، وعـاقدة الآمـال الكبيرة لاستـرداد هـذه البـلاد من أيـدي المسلمين. ففي سنة (١٦١/ ٧٧٨)، امتـدت المؤامرات المستهـدفة نـظام عبد الـرحمن إلى الشمـال، لتتخذ مسرحاً جديداً لها في سرقسطة، عنـدما قـام تحالف سيـاسي بين اثنـين من زعماء العرب وهما سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بالأعرابي(٢) والحسـين بن يحيى الأنصـاري، بالإضـافة إلى ثـالث هو عبـد الرحمن بن حبيب الفهـري(٣)، الذي غلب عليه لقب الصقلبي(٤)، لاختـلاف ملامحـه عن العرب واقتـرابه من الصقـالبة المتميـزين بلونهم الأشقر وعيـونهم الزرق. فهـذا الأخير وإن كـان على صلة مع الحليفين المذكورين لا سيـما الأعرابي، إلا أن دوره في المؤامـرة التي كان بطلها لم يكن على جانب من الـوضوح. ومن المؤرخـين من يعتقد بـأن الصقلبي كـان صلـة الـوصـل بين بغداد والأعرابي، موحيـاً بأن عمليـة جديـدة دبَّرهـا المنصور بالاتفاق مع شارلمان(٥)، مع العلم أن الخليفة العبـاسي كان قـد مات في وقت سابق على هذه الأحداث(٦). والتفسـير المعطى لهـذا الاعتقاد أن الصقلبي كان قد استعان بقوات مسلحة من أفريقية، عبر بها إلى الشاطىء قرب مرسيـة، حيث اتصل بالأعرابي وفقاً للخطة المدبَّـرة. ولا نكاد في الـواقع نلمـح فيما روتـه

---

(١) دايفز، شارلمان ص٩٥.

(٢) يبدو أنه كان حاكماً على سرقسطة في حوالي سنة ١٦٠هـ /٧٧٦م. أخبار مجموعة ص١١٠.

(٣) هو من المؤكد غير عبد الرحمن بن حبيب الذي انتهى حاكماً عـلى المغرب وقتـل سنة ١٣٨. تـاريخ خليفة بن خياط ج ٢ ص ٦٧٩.

(٤) ورد (السقلابي) في أخبار مجموعة ص ١١٠.

(٥) العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ٦٩.

(٦) توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ. خليفة بن خياط ج ٢ ص ٦٦٧.

المصادر، ما يحملنا على الأخذ بهذا الرأي، لافتقاره إلى المادة الواضحة والمنسجمة. فقد جاء في «الأخبار المجموعة» أن الصقلبي أعلن ثورته ضد أمير قرطبة في تدمير واتصل بالأعرابي في هذا السبيل ولكن دون أي اتفاق، حتى أن الخلاف وقع بين الرجلين وتطور إلى اشتباك مسلح، انتهى بهزيمة الصقلبي حسب المصدر نفسه[1]. ومن المرجَّح أن لا يكون الصقلبي هذا غير دعيّ من الدعاة المتحلين لدورٍ ما تحت ستار الخلافة العباسية، من أجل إعطاء تحركه السياسي صبغة شرعية وحمل الناس على الإلتفاف حوله. ولكنه كما هو واضح لقي الفشل، لأن العباسيين أوقفوا اهتمامهم بالأندلس منذ حملة المغيث لاعتبارات عدة، في طليعتها أن دولتهم وقد غمرتها مشاكل سياسية لا تخلو من الخطورة، كانت بحاجة إلى حلول سريعة ربما كان الاهتمام بها أوجب من الأندلس البعيدة. فقضية الصقلبي إذن منفصلة عن الحلف الذي جمع بين الأعرابي والأنصاري في الشمال وانتهى إلى الثورة في تدمير، حيث قضى عليه الأمير الأموي وأرسل من اغتاله في وقت لاحق[2].

أما في الشمال فإن الثورة كانت قد انفجرت منذ سنة (١٥٧ / ٧٧٤) وبدأت تأخذ بعداً تآمرياً خطيراً، حين عمد الحليفان إلى الاتصال بالملك الكارولنجي شارلمان والاتفاق معه على غزو الإمارة الأموية في اسبانية، في وقت لم يكن عبد الرحمن قد انتهى من ثورة البربر بقيادة الفاطمي. ولا يوجد تفسير لهذا الاتجاه الخياني في التعاون مع أشد الأعداء كراهية للوجود العربي الإسلامي، سوى اعتقاد هذين الرجلين بأن طموح كل منهما متعارض مع ذلك الحاكم القوي، الذي أزاح من طريقه كل ذوي النفوذ والسلطة من زعماء العرب في الأندلس، كذلك الاعتقاد بأن القوة الوحيدة التي تضمن استمرارهما في مواجهة الحاكم الأموي، تلك القوة المجاورة والممثلة بشارلمان، المتحفّز بدوره لاهتبال أية فرصة من أجل القيام بدوره التاريخي. وقصة الحليفين مهما ظهر من استغراب لتصرفهما

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٠ ـ ١١١.

المنحرف والمحزن في وقت معاً، قد تبدو شاذة إلى حد كبير، حيث تنهار أمام لوثة السلطة حواجز المبادىء وأسوار المثاليات، وهي قصة لها مثيلاتها في التاريخ الأندلسي دون أن تتقيد بحدود المكان أو الزمان.

ومن غير المستبعد أن تكون هزيمة القائد (ثعلبة بن عبيد الجذامي) الذي أرسله الأمير الأموي لقمع ثورة الشمال، قد عجّلت بالحليفين الثائرين إلى التوجه نحو شارلمان، بعدما تعقدت الأمور ووصلت العلاقة بينهما وبين قرطبة إلى المأزق. ومن الواضح أن الأعرابي كان بطل هذا الدور حيث قام شخصياً ومعه القائد الأسير[1]، بمقابلة الملك الكارولنجي في مدينة بادربون Paderbon (١٦٠ / ٧٧٧)[2]، والاتفاق معه على حملة عسكرية يقودها شارلمان ضد الإمارة الأموية، على أن يمهد لها الأعرابي وحليفه الآخر[3].

رحب شارلمان بالعرض، وكانت ظروفه العسكرية حينذاك مؤاتية، فأخذ في إعداد حملة أراد لها أن تكون من أضخم الحملات، ليتاح له تحقيق ما يجول برأسه من تشامخ إلى العظمة. أما الأعرابي فعاد أدراجه إلى مدينته حاملاً أخباره المفرحة واعتقاده الساذج بأن أمير قرطبة الأموي بات على عتبات النهاية، وأن حليفه الكارولنجي سيعبّد له طريق السلطة في الأندلس فيسلكها آمناً مطمئناً تحت ظلاله.

وفي صيف (٧٧٨ م) قام شارلمان بحملته الضخمة إلى شمالي اسبانية، مخترقاً البرينيه في طريقه إلى سرقسطة، تنفيذاً لاتفاقه مع الأعرابي، وفي ظنه أن المدينة الثائرة ستبادر إلى فتح أبوابها أمام «الحليف» القادم من وراء الجبال. ولكن سلسلة المفاجآت بدأت تكرّ حلقاتها تباعاً، منذ اقترابه من أسوار هذه

---

(١) اصطحب معه القائد الأموي الأسير تأكيداً على صدق تعاونه مع الملك الكارولنجي. أخبار مجموعة ص ١١٣.

(٢) يقول دوزي إن تقليداً عاماً اتبعه شارلمان. فكان يعقد مؤتمراً سنوياً في هذه المدينة لمناقشة القضايا الدينية والعسكرية. تاريخ مسلمي اسبانية ص ٢٢٨.

(٣) لين بول، العرب في أسبانية ص ٢٩.

المدينة. فقد تهيب المتآمرون فداحة الخطأ الذي وقعوا فيه، ورفض حاكمها بالنيابة (الأنصاري)، أن يمضي بعيداً في الخط التآمري الذي جرّه إليه الأعرابي، فأغلق أبواب المدينة في وجه شارلمان وصمم على المقاومة. ولعل ضغط الحامية في سرقسطة، كان وراء عدول الأنصاري عن موقفه المنحرف، خاصة وأن المتغيرات تلك لم تصب هذا المعسكر فقط، بل امتدت إلى بطل المؤامرة لتنتزع منه ولديه اللذين رفضا دور الأب (الأعرابي) وانقلبا عليه. وهكذا بقي هذا الأخير المتآمر الأوحد، دون أن يكون لدوره فائدة تذكر بعدما ارفض عنه الجميع[1].

وساعدت الظروف الأمير الأموي عبد الرحمن، على التخلص من هذه المحنة بأقل التكاليف. ذلك أن شارلمان المصدوم بالتطورات المفاجئة عند أسوار سرقسطة، اضطر إلى الانسحاب نهائياً ليس عن المدينة ولكن عن اسبانية أيضاً. فقد صعقته مفاجأة أخرى بما ورد إليه من معلومات في ذلك الحين، عن تمرد القبائل السكسونية في منطقة الراين واقترابهم من كولون[2]، في ظل فراغ عسكري أحدثه غيابه بالأكثرية من جيوشه، حيث أقلقه كثيراً أن تذهب جهوده السابقة أدراج الرياح. ومن منطق الاعتقاد أن المعركة في الراين كانت أوجب من أسبانية، حيث انقلبت الحسابات وتشابكت الأوراق بعد استبسال سرقسطة[3]، يصمم على الانسحاب والعودة إلى بلاده، حاملاً فشله وملقياً بالمسؤولية على عاتق الأعرابي الخائن، وربما صابّاً غضبه على بنبلونة Pampelune عاصمة البشكنس[4]. ولا يوجد اتفاق على نكبة تلك المدينة وسكانها، الذين تجمعهم مسيحية المعتقد إلى شارلمان، فدوزي[5] يلمح فقط إلى

---

(١) دايفز، شارلمان ص ١٠١. عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ١٧٦.
(٢) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ٢٣٠.
(٣) أخبار مجموعة ص ١٣.
(٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ١٧٦. Levi — Prevençal, Hist 1, 124.
(٥) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانية ص ٢٣٠.

العداوة المتأصلة بين هؤلاء وبين الفرنجة، من دون أن يشير إلى أسبابها، بينما يعتقد آخرون[1]، أن شارلمان استهدف إنشاء قاعدة عسكرية تتيح له العودة إلى اسبانية، مرتئياً بنبلونة الواقعة في البريتيه. بيد أنه من الجائز أن يكون تدمير هذه الأخيرة، مجرد محاولة لتسويغ الكارثة التي حلت بقوات شارلمان على يد البشكنس، وذلك بإعطائها بُعداً انتقامياً لما جرى في مدينتهم.

ذلك أن شارلمان بُعيد انسحابه عن سرقسطة وعودته إلى بلاده، عابراً البوابة الرئيسية في البرينيه أو ما يعرف بالرونسسفال Roncesvalles[2]، وهو أحد الممرات القديمة في الطرف الغربي من الجبال، وأثناء اجتيازه تلك الشعاب الضيقة بجيشه المتثاقل البطيء، لصعوبة الطريق وكثافة العدد، صعقته المفاجأة الثالثة المذهلة عندما دبر البشكنس كميناً استهدف مؤخرة جيشه، حيث كانت المسافة بعيدة بينها وبين المقدمة بسبب طبيعة الممر، فقضوا عليها ولم ينج منها إلا القليل. ولعل دافع هذه الجماعات الجبلية التي احترفت الغزو، لم يكن أبعد من استلاب ما يقع في أيديها من الذخائر والمتاع التي تحتل مكانها عادة في المؤخرة.

على أن هنالك من يشكك في انفراد البشكنس بهذا العمل الجريء، ويعتقد أن وراءه تدبيراً عربياً أعده الأمير الأموي، حتى أن بعض مصادرنا التاريخية تفسح دوراً هاماً في هذه العملية لابني الأعرابي، اللذين شاركا في الدفاع عن سرقسطة[3]، بينما المصادر الأوروبية تكاد تعطي الدور الأساسي للعرب، معتمدة على إيحاءات وردت في الأنشودة التي ظهرت في وقت متأخر، واصفةً مصرع رولان Roland، أحد أقرب القواد للملك الكارولنجي، بأسلوب ملحمي تمجيدي لشارلمان بطل المسيحية، بحيث أنها حوّلت الهزيمة إلى انتصار معنوي

(١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ١٧٦.
(٢) يسميها الأدريسي (باب شيزورة). نزهة المشتاق ص ٦٥.
(٣) هما: مطروح وعيشون. ابن الأثيرج ٦ ص ٥.

رائع على العرب المسلمين، كما ألمحت الأنشودة[1]. وقد راجت هذه الفكرة خلال القرون التالية للحادثة، لإعطاء مصرع رولان خلفية صليبية وما يرافقها من تعبئة للأوروبيين ضد العرب والحثّ على طردهم.

لقد أصابت حادثة الرونسسفال بدون شك، الكبرياء العسكري لشارلمان بطعنة كبيرة وأضرّت بمشاريعه الأمبراطورية التي كان يعمل لها بنشاط جمّ، وكانت أقصر الطرق إليها بنظره هي طريق اسبانية. فانصرف منذ ذلك الحين إلى إقامة شريط دفاعي ومراكز محصنة على الحدود، لمراقبة تحركات العرب المسلمين. وبذلك انطوى حلمه التوسعي المطبوع بسمات صليبية نحو الغرب، حيث كانت تلك الحملة تجربته الوحيدة، عندما وجد نفسه غارقاً في همومه السكسونية ومضطراً إلى موادعة الأمير الأموي. ونسمع في هذا المجال عن اتصالات بين الملك والأمير ربما اقتربت من المصاهرة[2]، إلا أنها أخبار غير مؤكدة. وكانت أولى ثمرات هذه العلاقة الجديدة، الإفراج عن القائد الأسير ثعلبة الذي ارتهنه الأعرابي في بلاط الفرنجة. ومن المرجح أن الرجلين شعرا بحاجتهما للانصراف عن الحروب الخارجية إلى الاهتمام بشؤون ملحة في الداخل، حيث كان ذلك في مصلحة النظام الأموي في اسبانية.

وبهذا المصير الذي آلت إليه حملة شارلمان، تكون أول محاولة منظمة لطرد العرب المسلمين من أسبانية قد كتب لها الفشل، دون أن تحدث أي نوع من التغيير في خارطة المنطقة حتى سنة ٨٠١ م، عندما سقطت برشلونة في يد لويس ابن الملك الكارولنجي. ولكن هذه الحملة استُغلت فيها بعد لتحريك الشعور الصليبي في أوروبة على أوسع نطاق، مجسّداً في أنشودة رولان Chanson du Roland، القائد الأسير عند سيده الذي سقط في كمين البشكنس. فأصبحت على كل لسان يتغنى بها الشعراء الجوّالون، ويضيفون إليها أخباراً تدخل في عالم

(١) Levi — Provençal. Hist 1,125 — 126
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥.

الأساطير أكثر من الواقع. ومع الزمن ظهر رولان للأوروبيين، كأحد الرموز المقدسة في تاريخ العلاقات بينهم وبين العرب، تتمثل فيها بنظرهم أسمى مراحل التضحية والاستشهاد من أجل العقيدة.

بعد تراجع شارلمان بقواته الضخمة إلى بلاده، كان باستطاعة الأمير الأموي أن يغادر عاصمته إلى الشمال، بعد أن قضى على ثورة الفاطمي. فانصرف إلى سرقسطة ـ مسرح التآمر عليه ـ (١٦٤/٧٨١)، وكانت تطورات على جانب من الأهمية قد سبقته إليها، حيث انكشفت الأدوار واشتبك المتآمرون. فإذا بكبيرهم الأعرابي الذي افلت بعد كمين الرونسسفال، يسقط قتيلاً بتدبير من حليفه السابق الأنصاري [1]. وقد اعتقد هذا الأخير أن الأمور آلت لمصلحته وأنه استقلّ بحكم المدينة، ولكن أحلامه تبخرت مع اقتراب عبد الرحمن من أسوار سرقسطة، حتى إذا شارفها انضم إليه ابن الأعرابي المقتول (عيشون)، فأحسَّ الأنصاري بعدم جدوى المقاومة بعد ضغط الحصار عليه وطلب الاستسلام. ولكنه عاد بعد وقت تتنازعه رواسب الكراهية للأمير الأموي فأعلن العصيان مجدداً، غير أنه اصطدم بالفشل حتى مع جماعته الذين تحالفوا مع عبد الرحمن ضده، لينتهي إلى أسوأ ما انتهى إليه حليفه المتآمر الآخر الأعرابي (١٦٦/٨٧٢)[2].

وهكذا كان قدر الأمير الأموي الذي دخل الأندلس وهو في عنفوان الشباب، متسلقاً مع طموحه الكبير درجات السلطة، أن يواجه هذه التحديات قبل إن يرتقي أعلاها ويتربع مطمئناً على سدة الإمارة. ولعله من غير المبالغة القول أن معركة التحدي التي تصدى لها وخرج منها كهلاً يصطبغ رأسه بالشيب، لم يكن من اليسير على أحد الخروج منها سالماً وظافراً بالنصر، دون أن تكون له خصائص هذا الأمير الفذّ، الذي لاحقته المؤامرات أكثر من ثلاثين

---

(١) دوزي، تاريخ مسلمي أسبانية ص ٢٣١.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣١. Levi-Provençal, Hist I,126

عاماً من غير أن تنال من إرادته الفولاذية شيئاً، حتى كاد يختلط نضال تلك السنوات الطويلة، بلمحات من الخيال والأسطورة.

السياسة الإصلاحية بعد تلك السنوات المشحونة بالأعاصير والاضطرابات الداخلية، التي لم تؤثر في عزيمة الأمير الأموي الصلب الإرادة الثابت الجأش، آن لنا تقديمه خارج دائرة العنف الذي كان سمة عصره البارز. فقد نتساءل عن دوره في السياسة الجهادية، التي لمع فيها بعض عباقرة القواد في عصر الولاة؟ وعن دوره في تنظيم الحكم وتطوير الإدارة والإنشاءات العمرانية؟ إلى آخر ذلك من جوانب طغت عليها أخبار المعارك وضاعت في زحمة المؤامرات العديدة. وربما كان الجواب على ذلك سريعاً بالقول: وهل بقي للأمير وقت ما لمعالجة شؤون غير الحرب؟ وأي سبيل لمن اختارته المغامرة بطلاً لها والتصقت به، أن يهدأ أو يستكين؟. ولكن الجواب يبقى ناقصاً إذا سلّمنا بهذه الصورة النهائية لعصر عبد الرحمن الداخل، لأن الثلاثين عاماً التي قضاها سيداً مطلقاً لقرطبة، لم تعدم فترات من الهدوء، عندما يعود السيف لغمده إلى حين، تخللتها أعمال لا يمكن للباحث أن يتجاهلها أو يحذفها من الطريق. ويعجب في نفس الوقت للقدرة العجيبة التي كان يختزنها هذا الرجل ويسخّرها في شتى المجالات، فكيف لو أُعطي الفرصة كاملة في التفرغ لبناء دولته خارج إطار الدسائس، لينهض بها قوية المداميك راسخة في الأرض؟ وهل كان لمستقبلها شأن غير ذلك الشأن؟ إن علم ذلك في بطون الغيب، ولكن مؤرخ الأندلس ابن حيّان قد يأتي على بعض الجواب بقوله: «أقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدّته»[1]، في وصفه لشخصية عبد الرحمن الإدارية الساطعة. ولعل هذه الكلمات كافية لإبراز ما عنده من طاقات إصلاحية، ترقى بدون شك إلى مستوى ما تمتع به من مواهب عسكرية وسياسية.

وإذا كانت جلّ طاقات الأمير، قد ابتلعتها مؤامرات المتشاجرين على النفوذ

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥.

والسلطان، بما فيها العزوف مكرهاً عن مراقبة الأسبان في أقاصي الشمال، حيث أتيح لهم أن يتنفسوا قليلاً وينصرفوا إلى تنظيم أمورهم في مأمن من الضربات العنيفة[1]، فإن طاقات أخرى وضعها الأمير الأموي في خدمة آلة الحكم على حد تعبير المؤرخ السالف الذكر.

ومن البديهي أن أعظم إنجازاته، هي خلق دولة موحدة تتمتع بأجهزة مدنية وعسكرية لأول مرة في تاريخ أسبانية العربية، بعد أن ظلَّت لأربعين سنة خلت تفتقد مفهوم الدولة وعنصر الوحدة السياسية، حتى انتهى بها الأمر عشية وصول عبد الرحمن إلى أن يتقاسم الحكم فيها اثنان، أحدهما له السلطة الفعلية والآخر يمتلك منها الاسم والجاه فقط[2]. فكان له الفضل في توحيدها جغرافياً وسياسياً، وتطويع الزعامات العربية التي كانت وراء هذا التمزق والقضاء على طموحاتها، بضربه دون رحمة كل مظاهر الجنوح عن الحكم المركزي في قرطبة[3].

وكانت الأداة الرئيسية التي حققت له هذه الإنجازات العظيمة، جيشاً مطواعاً كثيف العدد، قال عنه المقري إنه بلغ المائة ألف[4]، معظمهم من البربر (المغرب) والصقالبة Esclave[5] (جنوب أوروبا). وهؤلاء كان يؤتى بهم كأرقاء، ويدخلون صغاراً إلى الجيش لتأهيلهم بعد وقت، حسب مشيئة الأمير والذوبان

---

(١) اقتصرت اعماله الجهادية على غزوة البشكنس في أعقاب استيلائه على سرقسطة. (دوزي ص ٢٣١) وعدا ذلك كان مضطراً إلى اتباع سياسة معتدلة مع الأسبان في الشمال، نلمحها في المعاهدة التي منح بموجبها الأمان للقشتاليين. عنان، ج ١ ص ١٩٩.

(٢) عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب ص ٦٠.

(٣) ريسلر، الحضارة العربية ص ١٤٩.

(٤) نفح الطيب ج ٢ ص ٢٤.

(٥) المقصود بالصقالبة في الكتب العربية، سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي امتدت اراضيها من بحر قزوين إلى البحر الأدرياتي. على أن كلمة Esclave (صقلب) فرنسية قديمة ومعناها عبد أو رقيق، وهي التسمية التي اطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامة. أحمد مختار العبادي، الصقالبة في اسبانيا ص ٨ وما بعدها.

في الولاء له والتضحية في سبيله. وهو تقليد عرف طريقه إلى العديد من الدول في العصور الوسطى وحتى في مطلع العصر الحديث، كما شاع الاعتماد على الصقالبة في الأندلس، في عهد عبد الرحمن بصورة خاصة. وعدا هذا الجيش النظامي الذي قهر به كل حركات التآمر الداخلية، كانت هنالك أداة عسكرية أخرى مهمتها حماية الإمارة في قرطبة أو ما يسمى «بالحرس الخاص»، وهي مؤلفة من أربعين ألفاً حسب إشارة المؤرخ نفسه[1]. ولعل هذه الأرقام خاضعة للشك لأن المقري، كغيره من المؤرخين التقليديين، كانت إحصاءاته تجنح إلى المبالغة وتعوزها الدقة. فمن الجائز أن يكون حرس الأمير أقل من هذا الرقم بكثير وكذلك جيشه، وإن كان هذا الأخير من الكثافة على الأرجح بحيث تحوّل إلى قوة ضاربة سريعة التحرك وقادرة على توزيع نفسها في عدة اتجاهات.

وتعدّت هذه الاهتمامات إلى مجال آخر هو الإدارة،التي كان لها حظ من التطوير تناول كل مؤسساتها بشكل عام. وعلى الرغم من تأثرها الشديد بالنظام الإداري في عاصمة الخلافة الأموية، فقد احتاجت إلى كثير من التعديل بعدما وصلت إلى درك من الفوضى في عهد الولاة، فضلاً عن ضرورة تلاؤمها مع الوضع الجديد للأندلس كإمارة مستقلة. فكانت إصلاحات عبد الرحمن تصب في هذا الاتجاه، لإخراج هذا الإقليم من دائرة الولاية الضيقة المتعثرة بمشاكلها المستديمة، إلى إطار الدولة المتطورة المحصنة بالقوانين وهيبة النظام.

ونحن لا نملك تفاصيل دقيقة عن جهاز الإدارة في عهد عبد الرحمن الأول، وذلك لاختفائها من معظم المصادر التي انصبّ اهتمامها في المقام الأول على معالجة الأحداث السياسية، دون الالتفات حتى ببعض الاشارات إلى هذه الناحية[2]. بيد أننا لا نعدم استشفافاً لبعض الملامح فيما بين الكلمات، فضلاً

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧.

(٢) Levi — Provençal: Hist 1,130

عن مصادر أخرى أولت هذا الجانب شيئاً من الاهتمام، ولكن بعبارات عامة جداً على نحو ما فعل المؤرخ ابن حيّان(١).

ولعل أول ما يستلفت الانتباه أن عبد الرحمن الأول، بعد نجاحه في إقامة ذلك الصرح الأموي في الأندلس، متحدياً حتى الاشتباك المسلح الخلافة العباسية الموتورة ضد أسرته، لم يلجأ إلى تحديها في اللقب الخلافي،لا زهداً بما يعتبره أحد حقوقه كحفيد لهشام بن عبد الملك، وإنما تهيباً من خطورة هذه المبادرة، في وقت كان يلهث لقهر الظروف وإتمام سيطرته على جميع المدن والأقاليم الأندلسية. ولعله لم يكن في ذهنه بعيداً ـ لو كانت التحديات أقل مما هي عليه ـ عن اتخاذ هذا القرار وإعلان استرداد الخلافة الأموية من الأندلس. فاكتفى إذن بحدود ما يفرضه الواقع العام، دون أن يحدث تغييراً ما في هذا الاتجاه،سوى طغيان كلمة «الأمير» على «الوالي» في التعبير عن الحاكم في قرطبة، التي ظلت بدورها العاصمة السياسية للبلاد. والتسمية لم تكن جديدة تماماً في الأندلس، فكثيراً ما حملها الولاة السابقون، كما حمل مركز الحكم في قرطبة اسم «دار الإمارة»(٢). غير أن الكلمة اتسمت بمدلول خاص في عهد عبد الرحمن وخلفائه، المتحدرين من أسرة ملكية، فاتخذت بعداً مميزاً في هذا العهد اختلف إلى حد كبير عن العهد السابق.

وكانت السلطة محصورة كلها في يد الأمير، فهو المسؤول السياسي الأول وهو كذلك القائد العام للجيش، وإليه يعود البت في كل القضايا لا سيما المصيرية. ولا يخلو الأمر من مستشارين، كانوا يقفون إلى جانبه ويقومون بأعباء ليست بعيدة عن الخطورة. غير أننا لا نلمح بين سطور الكتابات التي اهتمت بهذه الناحية، أي ذكر لكبير المستشارين أو المستشار الأول الذي يمارس صلاحيات

---

(١) أورد المقري على لسان ابن حيان قوله: إن عبد الرحمن الأول «دون الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية وجند الأجناد وأوثق الأوتاد فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته» نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥.

(٢) Levi — Provençal. Hist 1,134

رئيس الوزراء في الوقت الحالي، حيث ظهر فيها بعد تحت اسم الحاجب أو الوزير[1]. والواقع أن عبد الرحمن كان يستنكف عن اتخاذ وزير بالمعنى الحقيقي، يشاركه القرارات أو يطلعه عليها، لأن طبيعته الحذرة التي صنعتها أجواء الدسائس والمؤامرات، جعلته لا يأتمن إلى أحد من مساعديه، حتى إذا كان خادمه الأمين بدر أو مستشاره الناصح أبا عثمان[2]، اللذين مهدا له الطريق إلى الأندلس وبعث الدولة الأموية هناك.

وهكذا تحولت حكومته المركزية إلى أداة مطواعة في قبضته، مسخرة لخدمة أهدافه السياسية، ومنها تمتد السلطة المطلقة على بقية الأندلس، التي توزعت بدورها إلى عدة مقاطعات (محافظات) إدارية أو «كور» حسب التعبير المتداول في ذلك الوقت. وكان يتولى شؤون كل منها حاكم باسم الأمير، يتخذ مركزه في أكبر مدن المقاطعة (الكورة). أما إدارتها فهي صورة مصغرة لحكومة قرطبة، من حيث صلاحيات الحاكم والجهاز الإداري والحامية العسكرية، المحتشدة فيها عناصر البربر الصقالبة وعناصر أخرى مختلفة[3].

وفي وسط هذه الإجراءات سطعت قرطبة بما يليق بها كعاصمة لدولة مستقلة، تستقطب الاهتمام وتعج بالحركة الدائمة. فقد أراد لها الأمير أن تكون مدينة متألقة تخطف بريق دمشق الأموية أو بغداد العباسية، وإن كانت أكثر تأثراً بالثانية فيما يتعلق بطراز البناء وهندسة البيوت، فضلاً عن الأنواع نفسها من الأشجار التي أخذت طريقها من الشرق، لتشمخ في جنبات العاصمة وترتفع بين دورها. كذلك فإن السنوات الشاقة، لم تنتزع من هذا الأمير حسه الفني المرهف وذوقه الرفيع، فبقيت عاصمة الإمارة تحفظ له زمناً ذلك السور[4] المنيع

---

(١) Levi — Provençal 1,130

(٢) نفح الطيب: ج ٢ ص ٦٨ لين بول، العرب في اسبانيا ص ٨٥ أحمد الشعراوي، الأمويون أمراء الأندلس الأوائل ص ١٠٨.

(٣) Levi — Provençal: Hist 1 — 130

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣.

وتلك الإنشاءات العظيمة، سواء منها العامة المتمثلة بقنوات الماء العذب والحدائق الخضراء، والمسجد الكبير الذي يدين بتأسيسه له [1] حيث لا زال حتى اليوم الأعظم بين مساجد العالم، بعد أن استكمل عظمته في عهد الخليفة الناصر والحاجب المنصور، متلمسين جميعاً ذات الطراز الهندسي تقريباً الظاهر في مسجد الوليد بدمشق، أم في الإنشاءات الخاصة التي توّجها قصره المنيف على سفح إحدى التلال في قرطبة، المعروف بـ «الرصافة» التي لا زالت حتى اليوم إسماً لقرية في ضواحي المدينة Ruzafa [2]. ومن الواضح أن عبد الرحمن كان متأثراً بأجواء هشام بن عبد الملك جده، الذي كان قد سبقه بنحو نصف قرن (١١٠ هـ) إلى إنشاء قصر ريفي في بادية الشام، أطلق عليه نفس الإسم وعرف برصافة هشام [3]. وكان هذا القصر الذي انتشرت حوله الأشجار الباسقة، مسكن الأمير، يلتجيء إليه بعد ساعات العمل الشاقة. ومن ناحية أخرى فقد هجر دار الإمارة القديم الذي اتخذه الولاة مركزاً لهم في السابق، والذي كان مقر الحاكم في أيام القوط، حيث لم يعد متناسباً مع عظمة المدينة، فاستبدله بقصر جديد للإمارة، في المكان المجاور للمسجد الكبير من الجنوب على ضفة الوادي الكبير [4].

ولم يشأ في كل هذه الانجازات أن يتخل عن ذوقه الشرقي الذي حمله من قلب البادية الشامية، حتى النخلة السامقة مؤنسة الصحراء في وحشتها لم يطق عنها بعداً، حيث أمر باستحضار شتلات نصبها أمام عينيه، ليبقى ظل الأرض التي أكره أيما إكراه على الخروج منها، غير مفارق له وقائم في وجدانه. ويشتد عليه حنينه الشرقي فينفجر شعراً صافياً يدخل برقته إلى أعماق النفس، فلا

---

(١) انشيء قبل عامين من وفاة عبد الرحمن الأول (١٧٠ هـ) راجع: المجمل في تاريخ الأندلس للعبادي ص ٧٢.

(٢) مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٣١٨.

(٣) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٤) Levi — Provençal: Hist 1,129

يغادرها إلا وهي منقبضة شاردة، كشرود عبد الرحمن إلى باديته. ولعل العجب يأخذ منا مأخذاً عندما نتعرف على هذا الرجل خارج معمعان الحرب، فنجد له مكاناً آخر في محاريب الشعراء. وليس العجب أن يكون له محل هناك، فكثير من الملوك والحكام كانت لهم الشهرة في هذا المجال، بحكم طبيعة العصر الذي جعل من الشعر مذياع الدولة في ذلك الحين وأرقى الفنون فيها على الاطلاق. ولكن الملفت للنظر أن تختبىء وراء هذا الأمير الدموي، شاعرية جذابة ومعها أسلوب رقراق، فيه من المعاناة والشفافية، ما بينه وبين شخصية الأمير وطبعه الجاف مسافة واضحة(١).

---

(١) من شعر عبد الرحمن الوجداني تلك الأبيات التي يتحرق بها شوقاً إلى الشرق:

أيها الراكب الميمم أرضي ... أقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ومن قوله لصديق يمتّن عليه بأنه لولاه لما وصل إلى الملك:

لا يلق ممتن علينا قائل ... «لولاي ما ملك الأنام الداخل»
سعدي وحزني والمهند والقنا ... ومقادرٌ بلغت وحالٌ حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم الا يغفلوا ... ايروم تدبير البرية غافل؟
ويقول قوم سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماها العاقل

غير أن أرق شعره ذلك الذي توجه به إلى نخلة في قصره يبثها كوامن همومه وحنينه إلى بلاده الأولى:

تبدت لنا بين الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول ابتعادي عن بني وعن اهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الأقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح ويستمري السماكين بالويل

راجع أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٠. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٤١ - ٤٢، احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ٩١ - ٩٢.

خلفاء عبد الرحمن

هشام الأول: الرضا (١٧٢ ـ ١٨٠/ ٧٨٩ ـ ٧٩٦)

بعد سنوات نافت على الثلاثين، أدركت الشيخوخة عبد الرحمن الأول قبل أن يصل إليها ويحين الأوان. فلم يكن مؤسس دولة الأمويين المستقلة في الأندلس قد تجاوز الرابعة والخمسين من عمره عندما غاب عن المسرح السياسي في قرطبة (١٧٢ هـ)[1]، تاركاً وراءه الفراغ التقليدي الذي يشغر عادة باختفاء غير العاديين من عمالقة الحكم. وتلك معضلة النظام الوراثي، فلا يكاد الابن، المعقودة له ولاية العهد يعبر إلى السلطة، إلا ويكون للفوضى وراءه محل، حيث يندر مرور أزمة من هذا النوع في التاريخ الإسلامي، دون أن تجر ذيولاً وصراعات. ولعل التجربة نفسها، ولكن بتناقض أكثر بروزاً، مرت في مطلع الخلافة الأموية، بين الأب المؤسس معاوية وبين ولي العهد يزيد، الذي لم يستطع أن يرث شيئاً من صفات أبيه، وكاد أن يضيّع بقراراته المتسرّعة ما شاده الأب خلال سنوات عديدة.

وفي قرطبة فشل عبد الرحمن الذي كان جبّاراً في التصدي لكل المشاكل، في أن يجد حلّاً جذرياً لمشكلة ولاية العهد، ومات على الأرجح دون التوصّل إلى قرار حاسم لها. فقد وقع في مأزق الاختيار والمفاضلة بين

(١) ابن الخطيب، اعمال الاعلام ص١٠ـ١١.

سليمان البكر ـ الذي اصطحبه من الشام وكان طفلاً أثناء هروبه الشهير، ثم انتهى حاكماً على طلطيلة ـ وبين ابنه الآخر هشام الذي وُلد في الأندلس من أم اسبانية وتولى شؤون ماردة قبيل وفاته[1]. ويبدو أنه كان ميالاً إلى أن تكون الإمارة من بعده لهشام، مخترقاً حاجز السن الذي يؤهلها لسليمان، ربما بتأثير ضغوط عائلية، أو لأنه وجد في هشام الرصين المطبوع على الورع والتقى[2]، أكثر تأهيلاً لاحتلال مكانه. وقد ظهر هذا الاتجاه في وقت سابق، عندما كان «الداخل» يدفع بابنه إلى مهمات لم تكن من السهولة بمكان. فقد ثبت لها بشجاعة استحوذت على إعجاب الأب، لا سيما المهمة الأخيرة في ماردة، التي كانت على جانب من الخطورة.

... وفاز هشام بالإمارة من دون أخيه الذي غضب وسخط (١٧٢/٧٨٨)[3]، ولم يدعه ينعم بهدوء الحكم، رافضاً الاعتراف به رغم جهود الأمير الجديد في التودد إليه ومحاولة تقريبه منه. فسليمان كان يرى أن حقه «المغتصب» يجب أن يعود إليه، لذلك اعتكف في مدينته بعض لوقت، قبل أن يعلن العصيان على أخيه ويهدد بالزحف إلى قرطبة. وما لبث أن جاءه الدعم من الأخ الثالث، الذي لعبت برأسه كذلك خمرة السلطة وانحاز إلى سليمان في طلطيلة. ولكن الأمير هشام رغم مزاجه الهادىء وانطباعه على السلام[4]،فإنه لا يتردد في استعمال العنف عند الضرورة، حتى ولو كان المتمرد أخاً له. فسار إلى طليطلة لقمع حركة الأخوين (سليمان وعبد الله الذي غلب عليه اسم البلنسي)[5]، ولما تمض بعد شهور سبعة على إمارته.

---

(١) يشير ابن الخطيب إلى أن الداخل طلب من ابنه الثالث عبد الله بقوله: من سبق اليك من أخوتك فابرأ إليه بالخاتم، فقدم هشام قبل سليمان فلقيه عبد الله وسلم إليه امرته وأدخله القصر. أعمال الأعلام ص ١١.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢.

(٣) كان هشام في الثلاثين عندما تولى الامارة.

(٤) Voir: Levi — Provençal: Hist. 1, 139.

(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ١١.

ولم يطل الأمر حتى استسلم الأمير المتمرد، بعد هزيمته في طلطيلة ومن ثم فراره إلى مرسية، خاضعاً للأمر الواقع ومستجيباً لشروط هشام فيما بعد بالنفي إلى خارج البلاد مع أخيه البلنسي، مقابل مبلغ كبير من المال. فغادر الأندلس (١٧٤/٧٩١) وانتهى به المطاف في المغرب، حيث عاش ردحاً من الزمن، قبل أن ينتقل إلى طنجة ويعبر إلى الأندلس في مطلع إمارة «الحكم»[١].

ولم تكن ثورة الأخ المُبعد عن الإمارة كل هموم الأمير الجديد، فما لبثت أحداث الشمال التي كان لها محل بارز في إمارة أبيه أن عادت إلى الانفجار، وحمل رايتها مجدداً مطروح بن سليمان في سرقسطة[٢] وسعيد بن الحسين الأنصاري في طرطوشة Tortosa[٣] (١٧٢/٧٨٨ ـ ٧٨٩). وهي لا تعدو أن تكون إحدى الحركات الاستقلالية التي اعتمدت أساساً على «الحزب» اليمني، ولكنها كانت أقل حجماً بكثير من الثورة السابقة التي قضى عليها «الداخل»، حيث نجح هشام في تطويقها وقتل زعمائها دون مشقة[٤].

وهكذا فإن عهد هشام الأول كان انعكاساً لشخصيته المسالمة النازعة إلى الحوار، حيث قُدّر للأندلس أن تنعم في ظله ببعض فترات الهدوء التي فقدتها منذ زمن بعيد. ذلك أن حوادث العنف التي أطلّت برأسها بُعيد استلامه الحكم، لم تكن من الخطورة الى درجة تحرم البلاد هذا المناخ الهادىء، الذي كان في كل الأحوال من ثمرات الأعمال المرتبطة بسلفه. فثورة البربر التي تزعمها الفاطمي في شنتبرية واستمرت عشرة أعوام تناجز إمارة قرطبة وتوقع بجيوشها الهزائم، اختلفت عنها كثيراً ثورة البربر في عهد هشام التي

---

(١) ابن عذاري، ج ٢ ص ٦٤ ـ ٦٥، ابن الخطيب، اعمال الاعلام ص ١١.

(٢) كان أبوه (الأعرابي) قد تواطأ مع شارلمان لغزو الأندلس كما مر معنا.

(٣) كان قد التجأ إليها في وقت سابق بعد مصرع أبيه (الأنصاري) في سرقسطة. Levi — Provençal, Hist. 1,141.

(٤) تولى قمع الثورة أحد قواد هشام وهو عبيد الله بن عثمان العذري، ترصيع الأخبار ص ٢٦ وما بعدها.

نشبت في رُنـدة Ronda في الجنـوب (١٧٨ / ٧٩٥)[١] وعـاثت في المـدن المجاورة، رافضة الخضوع لأمير قرطبة قبل أن يقضي عليها بشدة وعنف.

وعدا ذلك فإن مسيرة السلام في عهد الأمير تابعت خطها المطمئن، دون أن يعكّر صفاءها متمرد أو عابث[٢]، حيث احتوى الأمير بمزاجـه الهادىء كـل الزعامات القبلية التي أذعنت له كل الإذعان. غير أن هشاماً لم يستسلم للدّعة فـوق وثير الأرائـك في قصور الإمـارة، ولكنه امتـاز بحس جهادي كـان دافعـه لتحقيق ما لم يتح لأبيه تحقيقه، وذلك بتأديب الإمـارات الاسبانيـة المجاورة. ولكنـه اختلف عن سلفه الـذي كان يقـود المعارك بنفسـه، بينمـا هـو لم يكن بـطبعـه ذلـك الـرجـل العسكـري، فـأرسـل عـدة حمـلات على رأسهـا قـادة معـروفون[٣] إلى استـورياس أهم معـاقل الاسبـان في ذلك الحين. ففي سنـة ١٧٥ / ٧٩١ اتجهت حملة ضخمة إلى البة Alva في وادي الأبـرو حتى منطقـة القـلاع القديمـة Gastilla Vieja التي عُرفت بقشتـالة، ثم تحـولت لاحقاً إلى معقل آخر خطير من معـاقل الاسبـان في الشمال[٤]، فـأنزلت بجمـاعة الملك برمندو Vermundo خليفة الفونسو الأول هزيمة عنيفة. وفي نفس الوقت كانت حملة ثانية تتوغل نحو الغرب لتصيب قوات الملك حيث كان يقـودها بنفسـه، فينكفىء إلى معاقله مهزوماً ومتكبداً عدداً كبيراً من القتلى[٥].

وتتابعت الحملات التـأديبية إلى قـلاع الاسبان، فـأُرسلت حملة ثالثـة في العام التالي (١٧٦/ ٧٩٢)، وكانت أستورياس قد فقدت ملكها واعتلى خليفته الفونسو الثاني العرش، وهو المعروف لـدى العرب بـالاذفونش. وعلى الـرغم

---

(١) تقع مدينة «رندة» في اقليم تاكرنة إلى الغرب من مدينة مالقة. الروض المعطار ص ٧٩.
(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٤.
(٣) من هؤلاء القادة: عبيد الله بن عثمان ـ يوسف بن بخت ـ عبد الملك بن مغيث، ابن عذاري ج ٢ ص ٦٦.
(٤) Levi — Provençal, Hist. 1,143
(٥) O.P. Cit. 1,143

من النجاحات الأولى التي حققتها هذه الحملة التي وصلت حتى أفيدو Oviedo العاصمة الجديدة[1]، إلا أن الاستورقيين داهموا الجيش الأموي أثناء عودته وشتتوا جنوده، ولكن القائد نفسه، وهو وزير هشام في نفس الوقت (عبد الملك بن مغيث)، عاد بعد قليل بحملة انتقامية، فهزم الفونسو الثاني الذي كاد أن يقع أسيراً، لولا فراره إلى إحدى القلاع البعيدة في الشمال، بعد سقوط حصنه في وادي نالون Nalon والتزامه الصمت بعدها مدة طويلة[2]. وكانت هذه آخر حملات هشام التي سُميت بالصوائف، تيمناً بالحملات الأموية في آسيا الصغرى، ولأنها كانت تتم بصورة تقليدية في أوائل الصيف من كل عام، تجنباً لبرد الشتاء في هذه المناطق الجبلية النائية.

ولم تقتصر النشاطات الحربية لهشام الأول على استورقة، بل كانت جيوشه تتحرك على جبهة أخرى إلى الشرق بقيادة وزيره عبد الملك بن مغيث وتخترق البرينيه إلى إقليم سبتمانية في جنوب فرنسا. وتشير المصادر العربية[3] إلى أن أربونة التي كانت تابعة قبيل ذلك لولاية الأندلس سقطت في يد عبد الملك، في وقت كان حاكم اكيتانية (لويس) في إيطاليا[4]، بينما أبوه (شارلمان) يحارب السكسون في المانية (الراين). وحين تقدمت القوات الأموية باتجاه قرقشونة، لأول مرة منذ هزيمتها في بلاط الشهداء (٧٣٢ م)، تصدى لها دوق تولوز، عند نهر أوربيو (أوربينه) Orbieu بالقرب من بلدة Vil-le daigne[5]، غير أن كارثة جسيمة حلّت بالجيش الفرنجي الذي خسر عدداً كبيراً من القتلى والأسرى الذين اقتيدوا بالآلاف إلى قرطبة[6]. ولهذه الحملة

---

(١) Levi — Provençal, His. 1, 143

(٢) راجع ابن عذاري ج ١ ص ٥٨، ابن خلدون ج ٦ ص ٤٥.

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٥٨، ابن الاثير ج ٦ ص ٤٥. Levi — Provençal Hist: 1 , 144

(٤) Levi — Provençal: Hist. 1, 145

(٥) بين اربونة وقرقشونة، O.P. cit. عنان: ج ١ ص ٢٢٧.

(٦) Levi — Provençal Hist. 1,145

مكانة هامة في تاريخ العلاقات العسكرية بين الإمارة الأموية وجارتها مملكة الفرنجة، حيث صنّفتها المصادر العربية على أنها أشهر الحملات وراء حاجز البرنيه. بيد أنها لا توضع في خانة الخطة التوسعية المتوقفة منذ عصر الولاة، فهي مجرد حملة تقليدية استهدفت التعبير عن قوة النظام الأموي في قرطبة، الذي خرج سالماً من كل المؤامرات الداخلية والخارجية، واشباع رغبات الجند القتالية بعد إلفة بينهم وبين الحرب طوال تلك السنين، بما تحمله لهم هذه الكلمة من اغراءات خاصة في بلاد الفرنجة.

وما لبثت هذه الحملات أن توقفت بموت هشام (١٨٠/٧٩٦)[1]، بعد سنوات ثمان من الحكم الهادىء نسبياً، افتقدته الأندلس في مرحلة بناء الصرح الأموي هناك، بجهود الأمير المؤسس عبد الرحمن الأول. وعلى الرغم من قلة المدة الزمنية التي قضاها فوق عرش الإمارة، فإن عصر هشام كان مطبوعاً بطابع خاص، ارتسمت عليه بصمات الرجل الإداري ذي الخلفية الدينية المتحكمة في كل ممارساته. فكان من البديهي أن يحيط نفسه بجمهرة من المتفقهين، الذين هم الطليعة المثقفة في ذلك العصر. وغالباً ما كانت قراراته متأثرة بهم، كالإجراء الذي اتخذه بتعميم اللغة العربية في معاهد غير المسلمين، وهو أول إجراء مدروس يعالج مشكلة السكان الخاضعين للدولة، في اتجاه نحو تحقيق التآلف بين عناصر السكان المختلفة في المجتمع الواحد. ومن مظاهر هذا التأثر حسب ما جاء في «الأخبار المجموعة»[2] اهتمامه بالمساجد ودأبه على أن تكون ملتقى أهل العلم والتقاة، فكان يُغدق كثيراً من أموال الدولة في هذا السبيل. ولا ننسى الجناح البارز الذي أضافه إلى المسجد الكبير في قرطبة، وترميم الجسر (القنطرة) الذي اختل بفعل السيول وذلك بُعيد الحملة الشهيرة إلى سبتمانية[3].

---

(١) ابن الخطيب، اعمال الاعلام ص ١٤.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠ - ١٢١.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٦٨. G. Marçais, l'architecture Musulman d'occident P.215.

ولعل أوثق ما يلتصق بهذا الأمير المتديّن،الغالب عليه اسم (الرضا)[1]، ذلك التحول المذهبي الذي شهدته الأندلس في أيامه، بشيوع مذهب مالك[2] أحد أئمة المدينة. وكان الأمير شديد الإعجاب به، حيث اطّلع على أخباره بواسطة الفقيه أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن اللخمي، أول المتحولين إلى مذهبه من عرب الأندلس وذلك في مطلع إمارة هشام[3]، وفقيه آخر من أصل بربري[4] سيكون له دور خطير في سياسة قرطبة بعيد ذلك هو يحيى الليثي، بالإضافة إلى آخرين تتلمذوا على إمام المدينة وعادوا متشربين أفكاره وحاملين إعجاباً مبادلاً بسلوك أميرهم هشام وثناء عليه من الإمام[5]. وجدير بالذكر أن المدينة عاشت على هامش الحياة السياسية، منذ انتقال الخلافة إلى الأسرة الأموية في دمشق، لا سيما بعد إخفاق ثورة ابن الزبير، وأُجبرت على ملء ذلك الفراغ بشؤون أدبية وفنية كان لها منهما المركز المرموق والشهرة الذائعة. ولكن المدينة ومنافستها مكة أيضاً، استقطبتا ما هو غير الموسيقى والشعر، أعني به العلوم الدينية، حيث كان للأولى بوجه خاص مركز الصدارة في هذا المجال. ومن الذين امتدت شهرتهم ليس فقط في الحجاز وإنما في أقاصي العالم الإسلامي، هو مالك بن أنس الذي عاش طوال حياته في المدينة ومات فيها قبل عام واحد من وفاة الأمير هشام (١٧٩/٧٩٦).

وهكذا شاع المذهب المالكي في الأندلس، بعد أن استهوى أميرها هشام (الرضا) ومن حوله الفقهاء وروّاد الأحاديث، متخلين عن الأوزاعية[6] التي

(١) كان يلقب بهشام الرضا، ابن الأثيرج ٦ ص ٤٦، ابن عذاري ج ٢ ص ٦٢.

(٢) مالك بن أنس من أصحاب المذاهب المعروفة في الاسلام. وكان معاصراً لهشام الرضا. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٥.

(٣) جاء في افتتاح الأندلس لابن القوطية أن الغازي بن قيس أول من أدخل موطأ ابن مالك وذلك في عهد عبد الرحمن الأول. ص ٥٨.

(٤) من قبيلة مصمودة.

(٥) اخبار مجموعة ١٢٠.

(٦) نسبة إلى الأوزاعي، احد أئمة الشام المتوفى سنة (١٥٧/٧٧٤). نفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨.

كانت المذهب الرسمي حتى ذلك الحين. وهناك من يعزو سبب هذا التحوّل في المذهب، إلى غير الاعجاب المتبادل بين الأمير والإمام الذي كان واسطته الفقهاء من تلاميذ هذا الأخير. ذلك أن تآلفاً في الموقف السياسي إزاء الخلافة العباسية الحنيفية المذهب[1]، جمع بين مالك الذي كان حاملاً على العباسيين[2] وبين هشام أمير الدولة الأموية المستقلة في الأندلس. فقرار التحوّل إلى المالكية إذن، حمل بُعداً سياسياً فيه تكريس إضافي للشخصية المستقلة لهذه الدولة، رائدة الانفصال عن السيادة المركزية في بغداد.

وإذا كانت المالكية المتشددة في محاربة الانحراف البدعي، قد جعلت من الأندلس وحدة مذهبية متماسكة وصل تأثيرها حتى الجانب الآخر من الساحل الافريقي، لتستقر في المغرب أيضاً، إلا أنها لم تخل من سلبيات كادت تصيب نظام الحكم وتطيح بخليفة هشام. فقد انتشرت على يد تلك العصبة من الفقهاء، المستحوذة بشكل أو بآخر على أفكار الأمير المتديّن، الذي أطلق لها المجال الفسيح، لتحتل نفوذاً زاد عن حجمها وفاق الدور المطلوب منها. ولم تلبث بُعَيْدَ موت هشام أن ظهرت كـ «أرستقراطية» دينية مثقفة على حد تعبير ليفي بروفنسال[3]، لها مكانتها الاجتماعية المرتفعة ولها نفوذها المتزايد في الدولة الذي بدأ يتعارض مع نفوذ الأمير الحاكم.

الحكم الأول (الربضي) ١٨٠ ـ ٢٠٦/٧٩٦ ـ ٨٢١

كان الحكم في السادسة والعشرين[4] حين ارتقى الإمارة، دون أن تصادفه مشكلة ما في أسرته، رغم أنه لم يكن الأكبر بين اخوانه[5]. ولكن

---

(١) نسبة إلى أبي حنيفة من أئمة العراق.

(٢) تجلى موقف مالك من الدولة العباسية في تعاطفه مع ثورة العلويين بقيادة النفس الزكية (١٤٥ هـ)، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١ ص ٨٤.

(٣) Levi - Provençal: Hist _ 1, 149.

(٤) ولد في قرطبة سنة ١٥٤/ ٧٧١.

(٥)، كان عبد الملك الابن البكر لهشام.

المشكلة جاءته من أعمامه الطامعين بالإمارة منذ عهد أبيه والمنافسين له، قبل أن يقمع حركتهم ويجبرهم على النفي، فاستقر سليمان بعد تجوال في طنجة، وابتعد عبد الله (البلنسي) إلى تاهرت في المغـرب الأوسط. أما بشـأن الأول، فقد عبر مع جماعة من البربر إلى الأندلس بعد سماعـه بموت هشـام، محاولاً الوصول إلى قرطبة، ولكنه فشل في ذلك عدة مـرات كانت آخـرها عنـد ماردة التي أودت بحياته (١٨٤/٨٠٠)[1]. أمـا البلنسي فقد دخـل بدوره الأنـدلس، وصعد شمالاً إلى سرقسطة ليمارس نشاطه في هذه المنطقة الخـطيرة، معتقـداً أنـه سيجد من تستهـويهم الثورة ضـد أمير قـرطبـة. غيـر أن محـاولتـه لم تلق تشجيعاً من الزعماء المحليين، فغادر اسبانية إلى عاصمة المملكة الكارولنجية (اكس لا شابل) Aix - La - Chapelle لمقابلة شارلمان، طالباً منه الدعم على غرار الاعرابي الذي ثار على أبيـه في وقت سابق، ولعب دوراً بارزاًفي الحملة الفاشلة التي قادها الملك الكارولنجي إلى اسبانية. ولكنه فشل أيضـاً وعاد من حيث أتى، ليعتصم في أحـد المعـاقـل (وشقـة) Huesca في إقليم اراغــون Aragon، ويثير أزمة في بلنسية ضد الحكم، قبل أن يساومه هذا الأخير على السكوت،بمنحه إدارة هذه المدينـة ومعها راتب شهـري[2]، حيث اكتسب لقبه الذي اشتهر به (البلنسي) منذ ذلك الوقت.

«والحكم» كان نموذجاً خاصاً وفريداً بين أمراء الأنـدلس الأمويين، آخـذاً من ملامح جده (الداخـل) الكثير من الحـزم والجديّـة وكذلـك الشجاعـة[3]، وحتى شيء من مـلامـح العنف فيــه، بينمـا الأب لم يمنحــه إلا القليـل من صفاته، فلم يكن له أثر يذكر على عهده الذي امتد أكثر من ربع قرن. كـذلك فإن «الحكم» تمتع بـذوق اجتماعي رفيـع، انعكس على أجواء التـرف والبذخ في عهده. وكان قصـره المشرف على الـوادي الكبير يغـرق بمظاهـر الفخامـة

---

(١) أعمال الاعلام ص ١٥.

(٢) Levi - Provençal. Hist 1, 153

(٣) اخبار مجموعة: ص ١٢٤.

وتزدحم حوله فرق الحرس المستنفرة لكل طارىء، إذ كان يحسب لكل شيء حسابه، ولا يدع لجانب في حياته أن يطغى على الآخر. فهو جدّي حتى الحزم حيث تدعو الحاجة، وهو كذلك بياذخ يعشق الغناء ومنادمة الشعراء ورحلات الصيد، ولا يجد تناقضاً بين هذا وذاك.

مجزرة طليطلة

نشبت الثورة في عاصمة القوط القديمة، مع مجيء الحكم إلى الامارة (١٨١/٧٩٧). فهذه المدينة كان لديها من الأسباب، ما يجعلها تجنح دائماً إلى رفض سيادة قرطبة والتحرر منها بأي ثمن، حيث كانت كعاصمة لها بريقها السياسي وزعامتها الدينية في الماضي، تحقد على عاصمة الحكم الأموي (قرطبة) التي تألقت على حسابها. كما ظلت طليطلة بحكم استمرار الأسقفية الكاثوليكية فيها، تستقطب نسبة كبرى من نصارى الاسبان، الذين كانت غالبيتهم معقودة للمولّدين (الاسبان المتحولون إلى الإسلام) وللمستعربين (الاسبان الذين اندمجوا في المجتمع العربي دون أن يتخلوا عن المسيحية)[١]. فهي تركيبة غير مستقرة إذن في تلك المدينة القوطية، المحصنة بالأسوار العالية والرابضة فوق منحدر يطل على نهر تاجة Tago. وغالباً ما كانت تقف هذه حاجزاً بينها وبين قرطبة، التي عانت غياب الولاء المخلص لها في هذه المدينة، الطامحة دائماً إلى انتحال دور من الأدوار، يعيد إليها بعض أهميتها السابقة[٢].

وهكذا أعلنت طليطلة ثورتها على الإدارة الأموية وانفصالها عن قرطبة[٣]، حيث كان الوقت مناسباً بُعَيْدَ موت هشام وبداية هبوب المنافسات العائلية في وجه الأمير الجديد، الذي لم تكن شخصيته الحازمة قد انطبعت بعد في

(١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٣٨.
(٢) راجع لين بول، العرب في أسبانيا ص ٦٥.
(٣) تزعّم الثورة عبيدة بن حميد، من مولدي طليطلة.

أذهان الناس. ولكن «الحكم» الداهية، الذي يطيب لبعض المؤرخين أن يجعلوه قريناً للمنصور العباسي في هذا المجال، رغم أن الدهاء إحدى صفات «الداخل» البارزة وكان أولى أن يتأثر به، لم تترك لديه ثورة طليطلة قلقاً شديداً، بل عالجها بمنتهى الهدوء والذكاء. واختار للمهمة «مولّداً» من وشقة Huesca[1]، هو عمروس بن يوسف، بعد أن وثق به وأرسله حاكماً على المدينة الثائرة، ليقوم بإجهاض حركة «المولدين» هناك. وكان ذلك اختياراً ذكياً بدون ريب، لشخصية ليست موضع ارتياب عند مولّدي طليطلة، عندما استطاع التظاهر بأنه أكثر منهم حقداً على الأمير الأموي، فمنحوه كل ثقتهم وأسرارهم، وأصبح بنظرهم من رجالات الثورة، دون أن يشعروا بما يبيِّت في رأسه من خطة مبتكرة للقضاء عليهم، حسب توجيهات أميره الحكم.

ومضى عمروس يتلاعب بعواطف اخوانه المولدين، فأنشأ لهم قلعة على مقربة من النهر (تاجة)، لتكون حسب زعمه قاعدة للثوار ومركزاً للتدريب. فلما انتهى من بنائها، دعا زعماء الثورة إلى مأدبة كبرى في القلعة، ثم بعث إلى «الحكم» سرّاً ليوافيه بقوة عسكرية في الوقت المحدّد. وانسجاماً مع سرية الخطة واتقانها، أعلن الحكم عن إرسال حملة عسكرية إلى الحدود الاسبانية في الشمال بقيادة ابنه عبد الرحمن، الذي اتخذ في الواقع طريق طليطلة. وكانت مجزرة رهيبة لم يتفق المؤرخون على رقم دقيق لقتلاها[2]، بمن في ذلك زعماء الثورة الذين سقطوا في حفرة ضخمة وراء القلعة. وهكذا أجهضت ثورة طليطلة بأسلوب من ابتكار الأمير الذكي، دون أدنى ضجة أو مشقة، ودون أي ردّة فعل في طليطلة لأن زعماءها البارزين دُفنوا مع ثورتهم في الحفرة الشهيرة[3].

---

(١) القلعة التي سيعتصم فيها عبدالله البلنسي بعد عودته من أكس لا شابل.

(٢) قيل إن عددهم بلغ السبعمائة. ابن عذاري ج ١ ص ٧١ ـ ٧٢.

(٣) سميت هذه المجزة «بوقعة الحفرة». ابن الأثير ج٦ ص ٦٥. ابن عذاري ج٤ ص ٧١ ـ ٧٢. أعمال الاعلام ص ١٤ ـ ١٥.

ثورة قرطبة (الربض)

كانت هذه الثورة نتيجة غير مباشرة لذلك التحول المذهبي في الأندلس على عهد هشام الأول، الذي ساهم في خلق «طبقة» من فقهاء المالكية. فاستطاعت هذه أن تتخذ حجماً خطيراً في السياسة الداخلية في قرطبة على حساب نفوذ الأمير، الذي كان مشدوداً بمزاجه الصوفي نحو رجال الدين، غير مكترث لوصايتهم المتزايدة عليه ونمو تأثيرهم على قطاعات هامة في الدولة، خاصة في الأوساط الشعبية النازلة في أحياء «الربض» التي تتجاذبها عادة التيارات الاجتماعية والدينية الجديدة. والربض معناها اللغوي الضاحية، والمقصود هنا المنطقة السكنية المستجدة في قرطبة العربية بعد إنشاء الجسر (القنطرة)، والممتدة إلى ما وراء الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير. وكانت هذه الضاحية المقابلة تماماً للمسجد وقصر الإمارة، قد امتلأت بصنوف الناس بعد أن غصّت قرطبة بهم، جاذبةً إليها الكثير من التجار والحرفيين والعمال، فضلاً عن عدد من الفقهاء المالكيين الذين وجدوا في هذا الخليط البشري، وكان جلّه من «المولدين»، مجالاً فسيحاً لممارسة نفوذهم، والضغط من خلاله على الأمير الجديد المناوىء لهم. فكان «الربض»، وهو لا يزال يحمل الاسم نفسه Arrabal[1]، الأرض الخصبة لأية حركة سياسية بزعامة هؤلاء الفقهاء المستحوذين على عواطف الفقراء وذوي المداخيل المحدودة.

والمسألة لا تأخذ بعدها الاجتماعي إلا في أعقاب التصادم الذي أخذ يتبلور بين «الحكم» القوي الشخصية، الرافض لوصاية رجال الدين، وبين هؤلاء الذين استبدّ بهم القلق على نفوذهم المضمحل وزعامتهم المفقودة. فلم يجدوا مدخلاً لتحطيم خصمهم الأمير، سوى تأليب الفقراء عليه من خلال الطعن بسلوكه الأخلاقي واتهامه بالهرطقة الدينية، والتركيز على الهوّة

(١) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٣٢.

الاقتصادية الفاصلة بين أغنياء السلطة المترفين في قرطبة[1] وبين فقراء الربض المعدمين، مع العلم أن جلّ هؤلاء الفقهاء لم يكن أقل ثراءً من رجالات السلطة، إلا أن ذلك كان المدخل المجدي لشحن عواطف الناس وتوتيرهم ضد الحكم الذي حطم نفوذ وامتيازات الفقهاء[2].

ولم تلبث الدعوة إلى الثورة على الطاغية - حسب تعبيرهم - أن عبرت الجسر إلى قلب المدينة القديمة، لتجد لها محلاً عند فئة أخرى لم تكن مرتاحة لشخصية الحكم، فأصابها ما أصاب الفقهاء من تحجيم. واتسع بذلك نطاق الحركة الانقلابية التي استهدفت العدو المشترك للفقهاء والزعماء السياسيين، ومن سار وراءهما من العمال والمزارعين وأهل الحرف وطلبة العلم وغيرهم من الفئات المسحوقة. وكان للمؤامرة دوران قبل أن تتحوّل إلى ثورة عامة وتهدّد عرش الأمير: الدور الأول، يتمثل في الانقلاب الفاشل الذي دبّره الفقهاء [3]، بالاتفاق مع أحد أقارب الحكم من الأسرة المروانية، على أن يكون الأمير البديل [4] (١٨٩ هـ/٨٠٥ م). ولكن هذا الأخير ساهم في تفشيل الانقلاب، عندما أفشى بسرّه للحكم قبل تنفيذه، ربما لتصوّره أن عوامل النجاح غير متوفرة في ذلك الوقت. ولم تشر المصادر إلى اشتراك الفقيه البارز يحي بن يحي في المؤامرة، وإن كان من المرجّح أن دوره الخفيّ قد ترك تأثيراً كبيراً على قادة الحركة، خاصة وأنه ابتعد عن قرطبة إثر اكتشاف المؤامرة. وكان «الحكم» في منتهى القسوة مع هؤلاء المتآمرين، ففتك بنحو سبعين منهم، وصلبهم جميعاً أمام دار الإمارة[5]، ولقد أثارت مجزرة الفقهاء والأعيان مزيداً من النقمة على «الحكم»، حيث نجح معارضوه

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٧٦.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٤٥.

(٣) كان بينهم: مالك بن يزيد التجيبي، موسى بن سالم الخولاني، أبو كعب بن عبد البر، يحيى ابن مضر القيسي. ابن الأثير ج ٦ ص ١٦ ابن عذاري ج ٢ ص ٧٣.

(٤) محمد بن القاسم.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٧٣.

في استغلالها على نطاق واسع، للمضي في مخططهم الذي لم يتوقف عند هذا الحد. وهكذا ينتهي الدور الأول من «مؤامرة» الفقهاء إلى الإخفاق وخروج «الحكم» منها سالماً، ولكن ليفتح معركة ضد خصومه أصبح لها أكثر حذراً وأشدّ يقظة. وقد تجلّى ذلك في الإجراءات السريعة التي اتخذها بُعيد اكتشاف المؤامرة، وإدراك الاتجاه الذي تتسرب منه رياح الثورة. فأمر بتحصين أسوار العاصمة وترميم المتصدّع منها وإحاطتها بالخنادق من جميع الجهات، فضلاً عن تكثيفه عناصر الحرس الخاص وتدريبهم تدريباً رفيعاً [1].

والدور الآخر للثورة هو الدور المباشر الذي أطلق النفوس من عقالها لتنفجر ثورة عارمة، في ظاهرها شعبية، ولكنها في المضمون ثورة المصالح المتضاربة مع رجل السلطة القوي، الذي لا يعترف بنفوذ غير نفوذه في الدولة، والعازف بطبيعته الدنيوية عن مجالسة رجال الدين أو الأخذ بمشورتهم. ولقد حدث ما يمكن اعتباره أمراً عادياً في كل زمان ومكان، ولكن يصلح في الظروف الخاصة إذا توفرت المعطيات، ليكون الشرارة التي تلهب الفتيل وتشعل نيران الثورة في كل زمان ومكان أيضاً.
ففي سنة ٢٠٢ / ٨١٨، أي بعد نحو أربعة عشر عاماً من مجزرة الفقهاء، وقع خلاف بين أحد حراس الأمير وبين حدّاد في الربض قدم إليه ليصلح سيفه، انتهى بقتل هذا الأخير. فهاجت النفوس وانتشر السخط غضباً للحداد المقتول، واستغلّ الفقهاء هذه الحادثة على طريقتهم، داعين أهالي الربض للزحف إلى قرطبة والتخلص من «الأمير الطاغية»، على الرغم من أن الحارس القاتل لقي عقابه على يد الجموع الهائجة.

وهكذا عَبَرَت قوافل الربضيين الجسر إلى قرطبة، مسلحة بما وصل إلى أيديها من سيوف وخناجر وعصيّ وغيرها، وأحاطوا بقصر «الحكم» يبغون الانتقام منه، كمسؤول رئيسي بنظرهم عمّا حدث من تحديات كانت آخرها

---

(١) راجع Levi - Provençal. Hist I,164.

حادثة الحداد. وكان في طليعتهم الفقيه المعروف يحي بن يحي، الـذي كان الزعيم الفعلي للثورة وفقيه آخر هو طالوت بن عبد الجبار المعافري [1]. وشعر «الحكم» بضغط الحصـار على القصر الـذي تولى الـدفاع عنـه قائـد الحـرس الخاص [2]، وحاجبه (وزيره) القائد المعروف عبد الكريم بن مغيث وعبيد الله ابن عبدالله (البلنسي)، الذي كان يتولى في عهـده قيادة الصـوائف إلى الثغور الأسبـانية. ولكن الأميـر القوي الإرادة ظـلّ محتفظاً بهـدوء أعصابـه، دون أن يأخذه الوجل أو شيء من الاضطراب، ولم يعدم ذهنه الوقاد خطة مـا، لا تقل إثارة عن مجزرة «الحفرة» في طليطلة. فأمر قائديـه عبيد الله وابن المغيث، أن يخترقا بفرسانهما هذا الحاجز البشري المخيف بشتى الوسائل، على أن يتـابع قائد الحرس وحده مهمة الدفاع عن القصر. ونجح القائدان في النفاذ بصعـوبة إلى مـا وراء المحاصـرين، حيث كانت مهمتهمـا الوصـول إلى الـربض، عن طـريق آخر غيـر الجسر الـذي كـان تحت سيـطرة الثـوار وإشعـال النـار فيـه. واستُكملت العملية باتقان، ولم يشعر الربضيون إلا وبيوتهم تنبعث منها ألسنـة النيران، مؤدياً ذلك إلى بلبلة صفوفهم وعـودة الكثيرين منهم لإنقـاذ عائـلاتهم وممتلكاتهم، بينما ذهب البـاقون طعمـاً لحرس الأميـر الذي فتـك بهم. وكان على ضفة «الوادي الكبير» أن تشهد موكباً آخر من المصلوبين قارب الثلاثمائـة ممن ثبتت عليهم الإدانة، بينما هـرب من استطاع إلى ذلـك سبيلاً من زعمـاء الثـورة [3]. ولعل المـذبحة كـادت تأتي على كـل الـربضيين، لـولا أن أوقف «الحكم» عمليـات القتل والمـلاحقة شـريطة إلغـاء معالم الحيـاة في الربض. وهكذا كان، بعد أن أعطى سكانه مهلة أيام لمغادرة الأنـدلس، ومن بقي منهم فمصيره القتل، ليبقى كذلك نحو قرنين من الزمن [4]، لم يـذكّر النـاس بـه سـوى

---

(١) أعمال الاعلام ص ١٥.

(٢) ربيع بن تدلفة. وهو مستعرب من قرطبة.

(٣) ابن الأبـار، الحلة السيراء ص ٣٩. ابـن عـذاري ج ٢ ص ٧٧. Levi - provençal. Hist. 1,164.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ١٦.

اللقب الذي غلب على الأمير واشتهر به فيما بعد وهو «الحكم الربضي». أما فصولها الخارجية فقد ظلّت تجرّ ذيولاً في أكثر من مكان، قبل أن تضع نهايتها الأخيرة. فبعد نفي الربضيين من الأندلس، اتجه فريق منهم إلى فاس عاصمة دولة الأدارسة الناشئة واستقروا هناك، بينما الأغلبية المتعطشة للمغامرة يممت صوب المشرق وانتهى المطاف بها إلى الاسكندرية، محاولة تثبيت أقدامها تلك الأرض الهادئة وإقامة تجمع يحظى بنوع من الاستقلال. غير أن الخليفة العباسي وكان يومذاك المأمون، لم يدعهم يحققون هذا الحلم، فأرسل إليهم أحد أقرب قواده الفرس عبدالله بن طاهر [1]، الذي أرغمهم على الخروج من المدينة (٢١٢/ ٨٢٧)، ليبحثوا مجدداً عن ملجأ آخر، فلم يجدوا غير جزيرة كريت (اقريطش) Crete التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية [2]. وهناك وجدوا من الحظ ما افتقدوه في الأندلس ومصر، عندما نجح زعيمهم عمر بن عيسى المعروف بأبي حفص البلوطي [3]، في تأسيس دويلة إسلامية حكمتها أسرته مائة وخمسة وثلاثين عاماً، قبل أن يستعيدها البيزنطيون من جديد، على يد قائد أصبح امبراطوراً في وقت لاحق (نقفور فوكاس) Nicephor Phocas (٣٥٠/ ٩٦١).

العلاقة مع الفرنجة والاسبان لم تخل السنوات الست والعشرون التي قضاها الحكم الربضي في الإمارة، مشغولاً في إحباط مؤامرات الفقهاء والمولدين، من اهتمام بشؤون الحدود مع الإمارات الأسبانية في الشمال. فقد استغلت هذه الأخيرة طغيان الأحداث الداخلية في تلك الفترة وأخذت تضغط كعادتها باتجاه الجنوب. كذلك فإن الكارولنجيين - رغم عزوف شارلمان عن تكرار محاولته اليتيمة في اسبانية - لم يترددوا بين الحين والآخر في اختراق الجبال وإثارة المتاعب في وجه الإمارة الأموية. وكان لويس أحد أبناء

---

(١) كان أبوه طاهر بن الحسين على رأس الجيش الذي دخل بغداد واسترد الخلافة للمأمون.
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٧٧.
(٣) اللقب مأخوذ من القرية التي ينتسب إليها (فحص البلوط) الواقعة على مقربة من قرطبة.

شـارلمـان، الأكثـر حمـاسـة للقيـام بـأعمـال عسكـريـة في أسبـانيـة. ففي سنة ١٨٥/ ٨٠١ أصيبت السيادة الأموية بأول ضربة خطيرة مع سقـوط برشلونـة في أيدي الكارولنجيين، دون أن تتمكن الصائفة التي قادها أخوه (معاويـة) إثر ذلك أن تسترد ما ضاع. فعلى العكس دفعت ثمنـاً إضافيـاً ، عندمـا حلت بها هزيمة عنيفة على مسافة قصيرة من رافـد لنهر الأبـرو Ebro [١]. ومرت بضـع سنـوات دون أن يـطرأ تعـديـل مـا على أوضـاع هـذه المنـطقـة حتى سنة ١٩٢/ ٨٠٨، عندما قام لويس الكارولنجي بعملية جديـدة وحاصـر مدينـة طـرطوشـة [٢]، ولكن المحـاولـة فشلت تحت ضغط حملة عسكـريـة أرسلهـا الحكم بقيادة ابنه عبد الرحمن. ثم تكررت المحاولـة في السنة التـالية وتكـرر معهـا التصدي من جـانب الأمويين، وبـالتالي إنقـاذ المدينـة وإلحاق الهـزيمة بالجيش الفرنجي. وكانت هذه آخـر عمليات الكـارولنجيين المنظمـة في عهد الحكم، ولكن دون أن تخلو الحـدود الشماليـة الشـرقية تمـامـاً من هجمـات متقطعة، عندما تشتد الأزمات الداخلية في إمارة الأمويين، من غير أن تتخذ أي بعـد توسعي خـطير. ومن جـانبه «الحكم»، الـذي تأثـر إلى حد كبير لضيـاع برشلونة، بذل جهداً في استردادها حين أرسـل حملة ضخمة على رأسهـا قائـد الصـوائف [٣] (١٩٥/ ٨١١)، في وقت كان الهـدوء يخيم على إمارة قـرطبـة، فشن هجوماً قوياً على برشلونة وقضى على أحد الجيوش الفرنجية بـالقرب من المدينة. ولكن هذه الأخيرة لم تعد إلى الأمويين وإن أسفرت الحملة كما يشير المؤرخ ابن حيّان [٤] ، إلى معاهدة بين الحكم وشارلمـان، نصّت على احترام الهدنة في منـطقة الحـدود بين الطرفين، حيث ظـل مفعولهـا ساريـاً حتى وفاة الامبراطور الكارولنجي[٥].

---

(١) — Levi - Provençal I,176.

(٢) ابن الأثير ج٦ ص ٦٥. ابن عذاري ج ٢ ص ٧١ ـ ٧٢. تقع طرطـوشة على مسـافة ١٢٠ ميـلاً إلى الشمال الغربي من بلنسية. صفة جزيرة الأندلس ص ١٢٤.

(٣) عبيدالله بن عبدالله البلنسـي.

(٤) راجع عنان ج ١ ص ٢٤١. Levi - Provençal: Hist 1,181 - 182.

(٥) أصبح امبراطوراً منذ سنة ٨٠٠ م.

أما علاقات الحكم العدائية بجيرانه الأسبان، فقد أورد عنها ابن حيّان في «مقتبسه» تفصيلات وافية. ذلك أن الفونسو الثاني ملك استورقة (استوريـاس) الذي مر ذكره في إمارة هشام الرضا، كان شديد الحماسة للتوسع على حساب العرب، حيث اتخذت حملاته العسكرية بعداً صليبياً ظاهراً. وكـان الحكم مدركاً لخطـر الفونسو قبل أن يأتي إلى الإمارة، ولهذا لم يتردد في نفس السنـة التي استلم فيها مهامـه، في إرسال وزيـره (ابن مغيث) في مهمة عسكـرية إلى قشتالة (منطقة القـلاع). وكانت حملتـه على ما يبـدو مقتصرة على الفـرسان، ليتـاح لها التحـرك بغير صعـوبة في تلك الأرض الـوعـرة. فتقـدم بهم القـائـد الأموي نحو الشمـال الغربي دون مقـاومة تـذكر، ثم عـاد أدراجه بعـد تخريب عدد من الحصون والقلاع التي سقطت في يـده [1]. غير أن مؤامـرات الأعمام وثورات المولّـدين جمدت نشـاطه (الحكم) إلى حين، في الـوقت الذي كـان الفونسو الثاني يستغل الفرصة الذهبية ، في غياب حملات الصوائف التقليديـة ويـشـن هـجـومـاً مـتـقـدمـاً حـتى مـدينـة اشبـونـة (لـيـشـبـونـة) Lisbonne [2] (١٨٢/٧٩٨). ولكن هـذه المدينـة على مـا يبـدو لا تسقط في يــده، أو أنهـا سقـطت واستعـادهـا الحكم بحملة قـادهـا بنفسـه في وقت لاحق (١٩٤/٨١٠) [3].

وبعـد خمس سنـوات (١٨٧/٨٠٣)، كـان الأخـوان (عبـد الملك وعبـد الكـريم) يقومـان بحملة عاديـة إلى منطقـة القلاع (قشتـالـة)، في إطـار نـظام الصوائف، ولكنها لم تترك أثراً يذكر، كمـا أن المعلومات عنهـا لا تكاد تكفي لتقويم نجاحها. وهي لا تختلف عن حملات تقليدية أخرى كانت تشق طريقها كل صيف إلى الشمال، ما لم يكن هناك مشاكل داخلية تستوجب تجنيـد كافـة الطاقات العسكرية في الدولة. ولعل النشاط الأخير الذي شهدته جبهة الحدود

---

(١) Levi - Provençal: Hist 1,174

(٢) Ibid

(٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٤١.

الشمالية في عهد الحكم، تمثّل في تلك الحملة الضخمة التي قادها وزيره عبد الكريم بن مغيث إلى استورقة (٨١٦/٢٠٠)، وتوغلت حتى جيليقية في أقصى الشمال الغربي. وهناك في منطقة تعرف بوادي آرون Arun، يخوض القائد الأموي معركة طاحنة ضد جيليقية، وينزل بها ضربة قوية [1] قبل أن يعود أدراجه إلى قرطبة، لتتوقف بعدها الأعمال العسكرية في الشمال وتنحصر في تطويق مؤامرات الفقهاء التي أخذت تهدد عرش الأمير الأموي.

وتوفي الحكم (٨٢١/٢٠٦) بعد ولاية مديدة اختارته، لأن يكون بطلها المميز وسيفها المسلط [2] فوق رقاب المتآمرين. وكان في أواخر أيامه قد استكان لبضعة أعوام، قبل أن يشعر باقتراب النهاية ويختار ابنه الأكبر (عبد

---

(١) المقري ج ١ ص ١٥٩، ابن عذاري ج ٢ ص ٧٧.

(٢) كان «الحكم» ينظم الشعر على غرار جده، وربما كان أكثر شاعرية وجاذبية منه، فهو يقول مشيداً بالاستقرار الذي انعكس في عهده على الأندلس بعد ثورة الربض:

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعا ... وقدماً لأمتُ الشعث مذ كنت يافعا
فإني إذا حادوا جزاعاً عن الردى ... فلم أك ذا حيد عن الموت جازعا
ولما تساقينا سجال حروبنا ... سقيتهم سماً من الموت ناقعا
وهل زدت إن وفيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهاك بلادي إنني قد تركتها ... مهاداً ولم أترك عليها منازعا

ابن عذاري ج ٢ ص ٧١ - ٧٢.

ومن غزلياته الرقيقة:

ظل من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكا الهوى زيد ظلما ... وبعاداً يدني حماماً وشيكا

أخبار مجموعة ص ١٣٣، ابن الأبار، الحلة السيراء ص ٤١. ومن رائع شعره أيضاً في هذا المجال:

قضبٌ من البان ماست فوق كثبان ... أعرضن عني وقد أزمعن هجراني
ناشدتهن بحقي فاعتزمن على ... الهجران حتى خلا منهن هيماني
ملكنني ملك من ذلت عزيمته ... للحب ذلّ أسير موثق عاني
من لي بمغتصبات الروح من بدني ... غصبنني في الهوى عزي وسلطاني

ابن عذاري ج ٢ ص ٧٩.

الرحمن) ولياً لعهده، دون ضجة أو صراعات عائلية دامية. حتى إذا تسلم الأخير منصبه المرشح له. كان أول أمير أموي لا يقفز إلى السلطة فوق أنهار الدم، مما أتيح لعهده الطويل والهادىء أن يكون الانطلاقة الجدية لحضارة ساطعة ومتفوقة في العالم الوسيط.

ومهما تكن نظرة المؤرخين التقويمية إلى الحكم واختلاف الآراء حول مواقفه، التي قد تبدو غير مألوفة لهم بالمقارنة مع أجواء العصر الذي عاش فيه، فإنه من التجديف على الحقيقة أن لا نعترف بواقعيته وكفاءته كرجل دولة أصاب من النجاح حظاً غير يسير. وإذا كان توّاقاً بطبعه إلى أن يعيش حياته بكاملها، لا يطرق فيها غير أبواب الفرح ولا يكفيه أن يأخذ منها بمقدار، فليس في ذلك ما يسيء إليه أو يطعن في سلوكه، كما انفرد ابن حزم [١] من دون سائر المؤرخين. لأن حياته الخاصة لم تتداخل أبداً مع المنصب، الذي تربع فوقه وتحمل مسؤولياته بجدية وإخلاص طيلة ربع قرن أو يزيد، على نحو ما فعل مع الفقهاء حين رفض تدخلهم في شؤون الدولة.

عبد الرحمن الثاني:الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ/٨٢٢ - ٨٥٢) تسلّم عبد الرحمن [٢] الإمارة من أبيه الحكم، في ظل أجواء هادئة لا تعكرها المنافسات العائلية ولا الحركات الثورية الخطيرة، التي طوقت العهد السابق وكادت أن تطيح به لولا شجاعة الحكم ومبادراته السريعة. والأمير الجديد لا يتفق مع سلفه في كثير من الصفات، فهو أقل تمسكاً بنظرية الحكم المطلق، وبالتالي فإن خلفيته الدينية كانت ظاهرة في أجواء البلاط وروّاده من أهل الفقه ورجال الدين الذين هجرتهم عتباته لربع قرن مضى. فهو في ذلك أقرب إلى جده

---

(١) يصف ابن حزم الحكم «بأنه كان من المجاهرين بالمعاصي السافكين للدماء» على عكس بقية المؤرخين الذين أشادوا بحزمه وحسن إدارته. أعمال الاعلام ص ١٥. أخبار مجموعة ص ١٢٤. ابن عذاري ج ٢ ص ٧٨.

(٢) تسلم الحكم في الثلاثين من عمره ويعرف بالأوسط للتمييز بينه وبين اثنين يحملان نفس الاسم، عبد الرحمن الداخل (الأول) وعبد الرحمن الناصر (الثالث).

(هشام)، منه إلى أبيه رجل السياسة المحترف، وإن كان هنالك من يرى في شخصيته مزيجاً بين الاثنين الأب والجد [1]، متأثراً بمقدار من صفات الأول وبآخر من صفات الثاني. غير أننا نخطىء إذا نظرنا إلى شخصية عبد الرحمن الثاني من جانب التأثر بالأسلاف فقط، وجرّدناه من ملامحه الخاصة التي كان لها دور هام في تكوين شخصيته السياسية والإدارية، والتي انعكست على حياة الأندلس أكثر من ثلاثين عاماً، وهو متربع على عرش الإمارة في قرطبة. ولعل أبرز هذه الملامح هي ثقافته الأدبية والفقهية الواسعة [2]، وما تمتع به من إحساس فني مرهف وذوق اجتماعي رفيع، وغير ذلك مما ترك تأثيراً على العصر الذي عاش فيه وأصبح عنوانه الرئيسي، حيث اختمرت فيه بذور التحوّل الحضاري الساطع في الأندلس، وبداية الانتقال الحقيقي إلى الدولة بمفهومها المحدد كمؤسسات إدارية وثقافية وعسكرية متطورة بحدود ما. فهذا العصر يمثل بدون ريب، نقلة حضارية ومرحلة هامة من مراحل الانصهار الاجتماعي بين مختلف العناصر العربية والمستعربة، التي تضافرت على هذا العطاء القيم.

ولقد اعتاد المؤرخون أن يتناولوا تاريخ هذا الأمير، من خلال شخصيات معاصرة استوت مراتب عالية من التقدير والحظوة، وساهمت بما لديها من تأثير قوي في إعطاء عهده هذا اللون الخاص. فهل كان ذلك من مظاهر الضعف في نظام عبد الرحمن الثاني؟ أم أن شخصيته المثقفة استهوت التعامل مع عبقريات الفن والعلم والأدب، فاتخذت محلها الرفيع في بلاطه الذي انفتح لها على مصاريعه؟

السياسة الداخلية وقبل أن يأخذنا الحديث عن زرياب [3] أو الليثي [4]

(١) العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ٨٣.
(٢) أخبار مجموعة ص ١٣٥.
(٣) المغني الشهير الذي لعب دوراً كبيراً في إمارة عبد الرحمن الثاني.
(٤) هو الفقيه يحيى بن يحيى الليثي رائد المالكية في الأندلس. وقد مر ذكره أثناء الخلاف بين «الحكم» والفقهاء.

أو طروب [1] وغيرهم من شخصيات العصر، بحيث لا نرى أي دور للأمير إلا دور الظلّ لهؤلاء، يتبغي أن نلتفت إلى أحداث تلك الفترة وأهم التطورات السياسية التي مرت بها دولة الأندلس الأموية في ذلك الحين.

ففي مستهل هذا العهد تمرد على حكومة قرطبة، عبدالله بن عبد الرحمن (البلنسي)، ذلك الثائر التقليدي الذي يجرب حظه في مطلع كل عهد، فلا تثنيه التجارب الفاشلة عن تكرار المحاولة ولا الشيخوخة المنهكة بثقل السنين. فغادر بلنسية إلى تدمير [2] واتخذها مركزاً لنشاطه وتجميع أنصاره، قبل تنفيذ الخطة الرئيسية في التقدم إلى قرطبة والإطاحة بعبد الرحمن. ولكن القدر كان متربصاً بالشيخ الأموي العجوز، قبل أن يتربص به أمير قرطبة وينقض عليه، وإذا به يتراجع إلى مدينته (بلنسية)، تحت وطأة المرض الأخير ليفارق الحياة بُعَيْدَ ذلك بقليل، متفادياً بذلك عبد الرحمن هذا الخصم التقليدي في الأسرة الحاكمة بدون عناء. غير أن تدمير ظلت مسرحاً للعنف نحو سبع سنوات، عندما قامت حرب شرسة بين العرب اتخذت بُعداً قبلياً لأول مرة منذ تأسيس الإمارة الأموية. فقد استطاع «الداخل» حينذاك وقد حمل معه مأساة أسرته المنهارة، أن يستفيد من تجارب أسلافه الأمويين، فلم يقتد بنهجهم السياسي غير المتوازن الذي أدى إلى تعميق الخلافات العربية وتفجير الحساسيات القديمة بين القبائل. فنجح كثيراً بفضل سياسته الحكيمة في تجنيب دولته، ذلك الصراع التقليدي العنيف بين اليمنيين والقيسيين وفي لأم الجراحات بينهما إلى حد كبير.

وهكذا عادت الصراعات الحزبية العربية، تتفجر لأي سبب، وإذا بحرب ضارية تشهدها تدمير (٢٠٧ ـ ٢١٣ هـ)، أساسها خلاف سطحي بين رجلين أحدهما يمني والآخر قيسي انتهى بمقتل الثاني، ولكنه لم ينته لدى الحزبين

---

(١) الجارية الباسكاوية التي مارست سلطة واسعة في بلاط الأمير.

(٢) إحدى المقاطعات الشرقية في الأندلس، وهي منسوبة إلى حاكمها الذي يحمل نفس الاسم: تدمير: «راجع ولاية عبد العزيز بن موسى». صفة جزيرة الأندلس ص ٦٢.

فانجرا إلى الحرب. ولقد بذل الأمير الأموي جهده لإطفاء نار الصراع الملتهبة في تدمير، موفداً أحد قواده (يحيى بن عبدالله) لهذه الغاية ومعه قرار تعيينه حاكماً على المنطقة، دون أن يتمكن رغم الشدة التي أخذ بها المتحاربين من إيقاف ذلك الصراع العربي ـ العربي، الذي حسم حينذاك لمصلحة اليمنيين وتولي زعيمهم محمد بن إبراهيم المعروف بأبي الشماخ الأمر في تدمير (١). ثم تكررت محاولات السلطة في قرطبة، حتى قدّر للقائد أمية بن معاوية أن يقضي على هذه الحركة، ومعها قاعدة الإقليم (آلة) Ello (٢) التي يبدو أنها كانت تستقطب غير الموالين للحكم المركزي، واستبدل بها مدينة جديدة أصبحت لها شهرتها فيما بعد هي مرسية Murcia (٣)، في الإقليم الذي يحمل نفس الاسم.

ثورات البربر تحرك البربر بدورهم وأعلنوا العصيان في أكثر من منطقة حيث يسودون أو يتمتعون بأغلبية ساحقة، فثاروا سنة (٢١١/٨٢٦) في إقليم الجزيرة الخضراء (٤). ولكن عوامل الثورة لم تكن ناضجة وافتقرت إلى التأييد الكافي، مما جعلها تلقى الفشل الذريع ودفعت ثمناً غالياً من القتلى على يد قوات الحكم المركزي.

بيد أن التحرك الخطير الذي قام به البربر في عهد عبد الرحمن الثاني، كان مسرحه مدينة ماردة (إلى الغرب من قرطبة) (٥)، حين أُعلنت الثورة هنا بعد عامين من أحداث الجزيرة الخضراء (٢١٣/٨٢٨)، بقيادة رجل من قبيلة مصمودة (محمود بن عبد الجبار بن راحلة)، ومعه رجل آخر (سليمان بن مرتين)، يبدو من اسمه أنه مولدي أو مستعربي، كما أُتيح للثورة أن تستفيد من

---

(١) راجع ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ ـ ٨٣. Levi — Provençal: Hist 1,199.

(٢) Levi - Provençal Ibid

(٣) راجع صفة جزيرة الأندلس ص ١٨١ ـ ١٨٣.

(٤) قامت الثورة بقيادة بربري اسمه حبيب البرنسي.

(٥) صفة جزيرة الأندلس ص ١٧٥.

الموقع الجغرافي لمدينة ماردة وتتلقى دعماً خارجياً على جانب من الأهمية. ذلك أن قائد الثورة الذكي والجريء، تمكن من اصطناع تحالفات سياسية مع الملك الأسباني الفونسو الثاني وغيره من الأمراء الأسبان، فضلاً عن مساعدات قدمها له الملك الكارولنجي لويس [1]. وتصدى الأمير الأموي لهذه الحركة، وحاول أن يضيّق حولها الخناق بشتى الوسائل، ولكن محاولاته أخفقت ولم تزد الموقف إلا حراجة، مما دفعه إلى ارتداء ثوبه العسكري والتوجه إلى ماردة (٨٣٣/٢١٨) [2]، دافعاً زعيم الثورة إلى الهرب والاختباء في أحد حصون وادي آنة [3]. وما لبث الخلاف أن وقع بين الأخير وبين حليفه المولدي سليمان، فانفرد بالثورة في تلك النواحي، مسيطراً على بطليوس [4] وباجة[5]. ويبدو أن هذه الأخيرة لم تتجاوب مع حركته، فأكرهها بالقوة على فتح أبوابها والانضمام إليه. على أن الأمير الأموي لم يعطه فرصة التوسع أبعد من باجة، فقد طاردته جيوشه حيث حل، واضطر تحت ضغطها للالتجاء إلى جليقية، ومن هناك اتصل بالملك الفونسو الثاني طالباً المساعدة في حركته الانفصالية. ولكن الثائر البربري يكتشف بعد حين أنه تورط في تحالفه مع الملك الاستورقي، فيعمل على التحرر من المأزق الذي وضع نفسه فيه، بعد أن شعر بأن الملك يستخدمه كأداة لتحقيق مكاسب سياسية لمملكته على حساب الإمارة الأموية. ورأى أن العودة إلى حظيرة قرطبة أسلم عاقبة وأقل حرجاً، ولكن الفونسو أفسد عليه مخططه وجرّه إلى معركة قاتل فيها ببطولة نادرة، قبل أن يدفع حياته ثمن موقفه الانفصالي وتنقلب عليه محالفاته مع الأعداء [6].

---

(١) راجع عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٥٧.

(٢) أخبار مجموعة ص ١٣٨.

(٣) النهر نفسه الذي تقع عليه مدينة ماردة.

(٤) تقع إلى الغرب من ماردة.

(٥) من أقدم مدن الأندلس. تقع على مائة فرسخ إلى الغرب من قرطبة. وهي المدينة التي ثار فيها العلاء بن مغيث ضد «الداخل». صفة جزيرة الأندلس ص ٣٧.

(٦) راجع ابن القوطية ص ٦٧.

ثورة طليطلة: كان وراء هذه الثورة الغامضة، زعيم شعبي يدعى هاشم الضرّاب، كان قد بدأ حياته في قرطبة حداداً قبل انتقاله إلى طليطلة [1]، وانغماسه في أجوائها المضطربة والمشحونة بمختلف الأفكار، بحيث أصبحت هذه المدينة مركز التحرك الدائم واجتذاب أصحاب الطموح السياسي. ومن هؤلاء كان الضرّاب الذي كان له من شخصيته القيادية ونشأته في وسط شعبي فقير، ما يؤهله لتزعم أولئك المسحوقين الذين عجّت بهم طليطلة، وإعلان الثورة على الحكم المركزي (٢١٤/٨٢٩).

والواقع أن مصادر المؤرخين لا توضح لنا أبعاد هذه الثورة وأسبابها، إذا ما كانت حركة انفصالية على غرار الحركات العديدة التي شهدتها الأندلس في تلك الفترة، أم أنها حملت مضموناً اجتماعياً يرمي إلى تحسين أوضاع الفئات المسحوقة، التي التفت حول هذه الحركة وتحمست لها؟ وقد يكون الاحتمال الثاني أكثر واقعية لا سيما وأن الضرّاب يوصف في كتابات المؤرخين بأنه زعيم العامة، مع إشارات إلى التحقير من شأن حركته ورمي جماعته بشتى نعوت الوضاعة والإهانة، بأنهم سفلة القوم وأهل البغي والشر إلى آخر ذلك [2]. ولا بد من الإشارة إلى أن آراء المؤرخين، كانت بصفة عامة انعكاساً لرأي السلطة، التي كان لها موقف معروف إزاء هذا النوع من الحركات الاجتماعية. وبقي هاشم الضراب الزعيم النافذ في طليطلة وجوارها نحو سنتين، لم تتمكن قوات الإمارة خلالها من قمع حركته، إلاّ بعد أن رمت بثقلها وطوقت ثورة طليطلة الشعبية حيث تمكنت من القضاء عليها وقتل قائدها في معركة حاسمة بالقرب من دروقة Daroca [3].

غير أن طليطلة تأبى الخروج من دائرة العصيان، فتبقى على سلاحها

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٣. Voir: Levi Provençal, Hist 1, 200—201

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ وما بعدها. ابن عذاري ج ٢ ص ٨٣.

(٣) Levi - Provençal, Hist 1,201

نشهره في وجه الأمير الأموي، الذي عاد إلى الانشغال بها وإرسال أخيه أمية ابن الحكم لإخضاعها. ويبدو أن مهمته كانت تستهدف اجتثاث بؤرة التمرد في المدينة، التي كان لها قصة لا تنتهي مع كل أمير أموي، بدليل أن قائد الحملة ما كاد يصل إلى أطرافها حتى أمر جنده بإلغاء معالم الحياة حولها، ونشر الفزع في داخلها بإزالة المنشآت وحرق المزروعات. ولكن ذلك لم يؤثر في معنويات المدينة التي اعتصمت وراء أسوارها العالية والمنيعة، مما أدى إلى تراجع القائد الأموي بعد اصطدامه بمقاومة، تطلبت صبراً ووقتاً فوق احتماله. فغادرها تاركاً أحد رجاله في قلعة قريبة منها [1]، كانت مهمته استنزاف المدينة المغلقة حتى الاستسلام. ولكن ثوارها ما كادوا يشعرون بانسحاب القائد الأموي، حتى شنوا هجوماً عنيفاً على القلعة، أدى إلى وقوع عدد كبير من القتلى بين الجانبين، دون أن يتمكنوا من اختراقها، حيث عادوا بعدها إلى طليطلة لاستئناف العصيان، الذي طال حتى سنة ٢٢٢/٨٣٧. وتنسب هذه المصادر إلى أن رجلاً من طليطلة (ابن مهاجر)، التحق بهذه القلعة بعد أن ضاق بالحصار وكان على معرفة بنقاط الضعف عند الثوار، فقام بدور هام في إنجاح الهجوم على المدينة المتمردة وإسقاطها [2].

المستعربون في قرطبة - بداية المقاومة الأسبانية من الداخل لم تكن الحركات الثورية التي جابهت نظام عبد الرحمن الثاني، من الخطورة إلى حد يماثل الثورات التي أحدقت بأسلافه. فقد استطاع هذا الأمير بقليل من الجهد، إزالة كل الحواجز التي اعترضت مسيرة الهدوء والسلام في عهده، ولكن تطورات مثيرة شهدتها قرطبة، كانت المؤشر الأول لحركة التحرر الأسباني في الداخل، بعد أن سبق إعلانها في المناطق التي لم تصل إليها السيادة الأموية بشكل أو بآخر. ذلك أن مسيحي عاصمة الإمارة أو

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ وما بعدها. ابن عذاري ج ٢ ص ٨٤
Levi — Provençal, Hist. 1,201 — 202

المستعربين Mozarabes [1]، وجدوا فرصة للتحرك في عهدٍ لم يكن السيف وحده يسيّر خطوات الدولة، بل كانت أجواء الاستقرار والتعايش والانفتاح، وكذلك حرية المعتقد هي السائدة، حيث شجع عليها وجود أمير مثقف ومسالم على رأس السلطة. وكان المستعربون من الفئات التي انتعشت وتحسنت أوضاعها في هذا العصر، بعد أن استطاع عدد غير قليل منهم القفز إلى مراتب عالية في الإدارة، بفضل كفاءاتهم وإتقانهم للغة العربية، كذلك فإن العلاقات بينهم وبين المسلمين، كانت تزداد وثوقاً وانسجاماً. وكان عبد الرحمن الثاني بعقليته المنفتحة، الرجل المناسب لتلك المرحلة الهامة، من أجل انصهار أكثر بين فئات المجتمع الأندلسي، وتذويب التناقضات الفكرية والعقائدية بينها إلى حد كبير.

وإذا كانت هذه السياسة التي رحب بها السواد من المستعربين، بما حملت إليهم من الفائدة والشعور بعودة الاعتبار الاجتماعي إليهم، كأعضاء عاملين في الدولة، فإن الرهبان والقساوسة الذين انفردوا مع ذواتهم تحت أسقف الكنائس والأديرة، ظلوا بعيدين عن هذا التيار الذي غمر جماعاتهم، المسيحي المعتقد، المتعرّبي الثقافة والسياسة، وبالتالي أصابهم الجزع الشديد على المستقبل الذي بدا مخيفاً، وهم يرقبون تقلّص رواد الكنيسة وانتشار لغة القرآن وثقافة العرب في أوساطهم بصورة مذهلة، فتذهب نداءاتهم عبثاً ولا تردد صداها غير جدران الأديرة. فنزلوا إلى الشوارع يفتعلون أزمة مع الحكم المتسامح ويستدرون عطف إخوانهم في العقيدة، عبر مواقف ساذجة وممارسات مثيرة للدهشة، توسّلاً لإحراج السلطة وجرّها إلى معركة داخلية ذات طابع صليبي.

ولقد تزعم هذا التيار المتطرف في أواخر إمارة عبد الرحمن الثاني، راهب قرطبي شاب يدعى ايلوخيو Eulogio، وهو متحدر من عائلة مستعربة

---

(١) Levi - provençal: Hist 1,225

على جانب من الثراء، كان لبعض أفرادها مناصب إدارية في الدولة. وانضم إليه فريق من القساوسة الشبان ممن أصابتهم هذه اللوثة، وعدد آخر خارج الدائرة الكنسية، لا سيما اثنان احتلا دوراً هاماً في حركة الرهبان المتطرفة: أحدهما تاجر ثري من مستعربي قرطبة يدعى الفارو Alvaro وفتاة مسلمة الأب، غير أنها تأثرت بأمها المسيحية واستهوتها أفكار زعيم الحركة حتى الهوس. وما لبثت علاقة روحية متبادلة أن قامت بين الفتاة واسمها فلورا Flora وبين الراهب ايلوخيو، جعلت منها راهبة تتسم بالجرأة والإخلاص حتى الموت في سبيل المعتقد، حيث تسربت إليها تعاليمه وهي طفلة من الأم وترسخت في قلبها بعد معرفتها بالراهب الشاب[1].

وقبل أن ندخل في تفاصيل حركة الرهبان في قرطبة، لا بد من استبعاد أي عامل اجتماعي وراء هذه الحركة خاصة في عهد عبد الرحمن الثاني - وقد حدثت في آخره - الذي كان أفضل العهود الأموية في الأندلس تسامحاً وانفتاحاً، حيث أصاب المستعربين من إيجابياته، ما لم يسبق لهم أن تمتعوا بها في عهد سابق. فالقضية إذن لا تحمل خلفية اضطهادية، بقدر ما كانت نتيجة من نتائج الاستقرار السياسي في ذلك الوقت، والتلاحم الأسباني مع الحياة العربية الإسلامية. ولو كان لحركة الرهبان بُعد آخر غير البعد السياسي المغلف بثوب ديني، لكان من السهولة إيجاد وسائل مختلفة للاحتجاج، ولكنها توسلت منهجاً غامضاً وغريباً، للتعبير عن رفضها هذا التحول الاجتماعي، باللجوء إلى مبادرات انتحارية معروفة النتائج. ومع ذلك أخذت تتكرر وتزداد جرأة، على نحو أربك السلطة الأموية في قرطبة وأوقع قضاتها في مأزق القوانين الصريحة، والمحافظة على وحدة المجتمع الذي استهدفته هذه الحركة.

وكانت خطة الرهبان، استثارة السلطة الأموية وجرّ عاصمتها إلى

(١) Levi - Provençal 1.226

اضطرابات دموية، من خلال تحدي السلطة في مقدساتها والتهجّم على العقيدة في الأمكنة العامة المكتظة بالناس، وهو تصرف كان عقابه الموت حسب الشريعة الإسلامية. وكان أول ضحية من ضحايا التصرف الحاقد هذا، راهب يصفه لين بول بـ «الاختبال» [1] يدعى (برفكتو) Perfecto، كان قد استدرج أحد العرب المسلمين إلى نقاش حول العقيدة، وبلغت به الحماسة إلى درجة فقدان السيطرة على عباراته التي جنحت إلى التطرف في تحقير النبي والإسلام. وكانت المناسبة عيد الفطر (٢٣٥/٨٥٠)، حيث الناس مكتظة تحتفل بالعيد، فأصابت كلمات برفكتو منهم جرحاً لم يسكن إلا بإعدام الراهب، الذي أسلم الروح دون أن يتراجع عن كلمة واحدة من أقواله [2].

وجاء الحكم على برفكتو كما اشتهى زعيم الحركة الانتحارية (ايلوخيو)، الذي استغله لاكتساب مزيد من المؤيدين المستعربين ممن تسربت إليهم تدريجياً أفكار الراهب المتطرف، وأصبحوا أكثر تأثراً وانفعالاً بعد هذه الحادثة. ولم يلبث برفكتو أن ارتقى إلى مرتبة القديسين، بعد الهالة التي أحيط بها بعد موته، وكانت وراءها الأساليب الدعائية الحارة التي أتقنها ايلوخيو، نافذةً إلى قلوب البسطاء من المستعربين، فدخلوا بدورهم هذه المأساة العصبية ضد شعائر الدولة ومقدساتها. ثم تكررت المحاولة مع راهب آخر يدعى اسحاق Isaac، قام بنفس الدور الذي قام به برفكتو بعد نحو سنة من إعدامه (٢٣٦/٨٥١) [3]. ولم يجد الأمير المتوادع عبد الرحمن مجالاً للتردد في موقفه من هذه الحركة وما تحمله من الخطورة، فكان متشدداً وحازماً، عندما انتهى اسحاق نهاية سلفه، ولكن محروقاً، لمنع أي احتفال بتشييعه وتجمهر حول ضريحه، على غرار الحادثة السابقة.

---

(١) لين بول، العرب في أسبانية ص ٧٧.

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٥٦.

(٣) Levi - Provençal, Hist 1,235

مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٣٥٦.

ولعل الشدة التي اتخذتها السلطات الأموية في قرطبة رداً على هذه الممارسات الغريبة، كانت مطلباً ملحاً لحركة الرهبان التي زرعت فكرة الاستشهاد من أجل العقيدة في نفوس جماعتها، ولم تعدم عناصر غلبها التطرف خارج دائرة الرهبنة. فلا يتردد جندي[1] من حرس الأمير، من المتشبعين بأفكار ايلوخيو، أن جهر في ثورة حماسية بالتهجم على شعارات الإسلام في باحة القصر. ولحق الجندي بالراهبين ليرتفع عدد «القديسين» الذين حملوا هذا اللقب إلى ثلاثة، دون أن يكون لهم من صفات القداسة، إلا الجرأة على تحدي عقيدة الدولة ومجابهة الموت بشجاعة نادرة. وما كاد يطل صيف السنة نفسها، حتى كان عدد آخر من الرهبان والقساوسة يقتحمون الموت طلباً للشهادة، بتحريض من ايلوخيو الذي لم تزده مشاهد الإعدام ورؤوس أصحابه المقطوعة، إلا إصراراً على موقفه وحركة دائبة بين صفوف المستعربين، بدفع من استطاع منهم بقوة إقناعه إلى حلبة الموت.

ولكن أين ايلوخيو في هذه الموجة الانتحارية؟ وما هو موقف السلطة من نشاطه المريب؟ وبالتالي ما هو موقف المستعربين خارج قرطبة من هذه الحركة ومدى الاستجابة نحوها؟. في الواقع أن زعيم حركة الرهبان كان لا يزال في دوره غير مكشوف تماماً للسلطة، حيث حُصر في نطاق الاتصالات الخفية واستقطاب المؤيدين، متحاشياً الاصطدام معها أو التفوّه بكلمات كان يأمر أتباعه بالجهر بها طلباً للموت. ولم يكن معنى ذلك أن أجهزة الأمير كانت غائبة عن تحركات الراهب الحاقد، المتحكمة فيه عصبيته الأسبانية. غير أنها ارتأت التريث في عقابه حتى تهدأ العاصفة المصطنعة، وحتى لا يثير إعدامه ضجة في أوساط المستعربين في المدن الأخرى.

وقبل الإشارة إلى موقف الأسقفيات المسيحية خارج قرطبة، وهي كما نعرف ظلت تمارس نشاطها بحرية أثناء الحكم العربي الإسلامي - وإن كانت زعامتها قد انتقلت إلى العاصمة قرطبة، بعد أن كان الأسقف العام يتخذ مركزه

(١) يدعى سانشو، راجع لين بول، العرب في أسبانية ص ٧٨.

في طليطلة سابقاً [١] ـ يجب التوقف عند حادثة فلورا Flora الفتاة المسلمة وتلميذة أيلوخيو. لقد اكتُشفت حقيقة هذه الفتاة المتنصرنة التي أخذ ترددها على الكنيسة واجتماعها بالراهب يثير ارتياب الأسرة، وما لبثت أن غادرت البيت بعد أن شعرت باكتشاف أمرها، إلا أن ذلك لم يطل لأن أخاها الأكبر توصل إلى معرفة مكانها واستعادتها. ولكن الأخ لم يكن رحوماً إزاء ارتداد فلورا بعد أن اعترفت أمامه بحقيقة إيمانها، فسلمها إلى القاضي لتنال نصيبها في المحاكمة. وهناك اكتشف القاضي أن تنصرها راسخ، تشربته وهي طفلة من والدتها المستعربة، ومن ايلوخيو الذي استهواها وهي شابة. حتى أنها لم تتردد في التفوّه بما فاه به الرهبان الذين سبقوها إلى الموت. ويبدو أن انتماءها الإسلامي خفّف انفعال القاضي، الذي اعتقد أن ما أصابها لا يعدو أن يكون لوثة سطحية، أو لعل هذا الأخير مجّت نفسه هذا الشريط العجيب الذي يتابعه منذ أكثر من عام ومجّ قرارات الإعدام المتواصلة، دون مسوّغ لضحاياه غير تلك الموجة المحمومة المستحوذة على عقولهم. فأمر بأن تُلقى فلورا ورفيقة أخرى لها(ماريا) في السجن. وعلى عكس ما اعتقد القاضي لم تهن عزيمة فلورا التي ظلت على اتصال دائم مع أستاذها الروحي (ايلوخيو)، وأصرت على موقفها كما في السابق. ولم يجد بداً في النهاية من إصدار حكم بإعدامها (٢٣٧/٨٥١)، لتنضم (فلورا) إلى قافلة «الشهداء القديسين»، من الذين جرّهم ايلوخيو إلى هذا المصير [٢].

وأخذت أصداء هذه الحركة تمتد خارج قرطبة، وتجد لها معجبين في بعض المدن الأخرى. فرأى عبد الرحمن الثاني ألا يبادر إلى دعوة الأساقفة في دولته إلى مؤتمر عام لمناقشة تطورات هذه القضية. والتأم المؤتمر في قرطبة (٢٣٧/٨٥٢) برئاسة أسقف اشبيلية (ريكافريدو Recafredo [٣]،

---

(١) أحمد إبراهيم الشعراوي، الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٣٠٩ وما بعدها.

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٥٧.

(٣) Levi - Provençal, Hist 1,236

وتمثلت الإمارة الأموية بأحد موظفيها المستعربين (غومز بن انطونيان) Gomez fils d'antonien [1]. فوضع هذا الأساقفة في أجواء العاصفة المفتعلة التي خلقها ايلوخيو ورفاقه المتطرفين من الرهبان، وانعكاساتها الخطيرة على المجتمع الأندلسي بصورة عامة. فاستنكر مجلس الأساقفة هذه الحركة وأعلن معارضته لها باستثناء أسقف قرطبة[2]، الذي يبدو أن الموجة المحمومة جرفته في طريقها، ووجد ما يدافع به عن هؤلاء المتطرفين من خلال فكرة الاستشهاد السائدة في العقيدة المسيحية.

ولكن بيان المجمع الأسقفي الاستنكاري، لم يترك من الأثر شيئاً على ايلوخيو، الذي قرر آنذاك المجاهرة بموقفه دون تردد. وتأخذ الحركة ملامحها الصليبية لأول مرة على المستوى الأوروبي، بزيارة راهبين من فرنسا لقرطبة والتقائهما سراً بزعيم الحركة، ثم عودتهما إلى باريس، ومعهما بقايا من رفات «القديسين الشهداء» [3]، في اتجاه لتحويل الرأي العام الأوروبي نحو قرطبة وإعطاء حركة الرهبان فيها البُعد السياسي المطلوب.

وهكذا استنفد عبد الرحمن الثاني وحكومته كل المحاولات السلمية، في سبيل وضع حد لتلك الحركة دون طائل ما، ودون عقاب رأس الحركة (ايلوخيو)، الذي تمتع بشعبية واسعة بين مستعربي قرطبة. وقبل أن يموت الأمير بأيام تعرض المسجد الكبير لعملية انتهاك، قام بها متطرفون من هذه الحركة، فكان عقابهم الإعدام. في هذا الوقت كانت دعاية زعيم الحركة تشق طريقها إلى أوساط المستعربين لتربط بين إعدام جماعته وبين موت الأمير[4]، الذي قطع شوطاً من العمر وكان حينذاك على أبواب السبعين.

فألقى الأمير الجديد القبض على ايلوخيو وزجّ به في السجن ثم تُرك

---

(١) كان كاتباً عند عبد الرحمن الثاني وابنه محمد، وقد نال شهرة أدبية واسعة. الخشني، قضاة قرطبة ص ١١١.

(٢) (ساؤول Sauil) Levi - Provençal 1.237

(٣) O. P. cit 1,236

(٤) O. P. Cit 1,237

وشأنه بعد قليل، لقاء موافقته على مغادرة قرطبة إلى بنبلونة. ولكنه لم يمكث هناك طويلاً، فعاد إلى طليطلة ومنها مجدداً إلى قرطبة [1]. وحينذاك فقد الأمير (محمد) صبره، فأمر بإلقاء القبض عليه وإعدامه (٢٤٥/٨٥٩)، واضعاً بذلك حداً لتلك الموجة الصليبية، التي اتخذت من الانتحار الديني سبيلاً لتحقيق أهدافها السياسية، الرامية إلى إضعاف الحكم الأموي وتوريطه في مشاكل داخلية خطيرة، ومن ثم إيقاف تيار التمازج الاجتماعي بين الأسبان المسيحيين والعرب المسلمين، وأخيراً تنفير المستعربين من النظام القائم، بعد أن شهدت الأعوام السابقة إقبالاً واسعاً منهم على الأخذ من ثقافة العرب والاكتساب من لغتهم، ما يتيح لهم الارتقاء إلى المراكز الاجتماعية العالية.

العلاقات العسكرية: مملكة استورقة كانت السياسة الجهادية في الحقيقة محكّاً عملياً للنظام في الأندلس، فمن خلالها يُقوِّم نجاح أو فشل الأمير الحاكم. وفي زمن عبد الرحمن الثاني، كانت العوامل مساعدة لتحريك الجيوش نحو حدود الدولة في الشمال، والقيام بعمليات عسكرية ضد أعدائها الاستورقيين وغيرهم من الذين يتربصون بها. فالحركات الثورية في الداخل، كان من السهولة حصرها والقضاء عليها، وليس هنالك ما يعيق السياسة الجهادية من اتخاذ مبادرات ما، خلال هذه السنوات الطويلة التي قضاها الأمير في الحكم. ففي سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣م، في مطلع عهده قام القائد المعروف عبد الكريم بن مغيث، بعملية عسكرية تقليدية إلى ألبة Alava ومنطقة القلاع (قشتالة) في مملكة استورقة، ولكن دون أن تشير مصادر المؤرخين إلى اشتباكها مع قوات الفونسو الثاني، مما يرجح اقتصارها على الذخائر التي عادت بها، والقلاع التي دمرتها حيث وصلت [2]. ثم تبعه «قائد الصوائف» عبيدالله البلنسي بحملة أخرى (٢١٠/٨٢٥)، خاض بها معركة عنيفة ضد

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٨١.

(٢) Levi — Provençal. Hist 1,237 — 238.

قوات الملك الاستورقي الذي هُزم وتراجع بفلوله إلى جليقية [١]. وهذه الأخيرة لم تنج من حملة مشابهة، توغلت في أراضيها في نفس العام بقيادة العباس بن عبدالله القرشي، ثم تكررت هذه الحملات بشكل مكثف ودوري، حتى أن الأمير شارك في واحدة منها (٢٢٥/ ٨٤٠).

وشهد إقليم أراغون في الشمال الشرقي تطورات هامة، حين تحالف حاكم تطيلة Tudela [٢] (موسى بن موسى) مع البشكنس (الباسك)، وهو من أصل قوطي، كان مع أسرته يتقلدون مناصب ومسؤوليات في الإمارة الأموية. ويبدو أن خروجه على قرطبة سبقته خلافات شخصية مع أحد القادة العسكريين، إبّان مهمة حربية جرت في منطقة البشكنس [٣]. فقام عبد الرحمن الثاني بحملة تأديبية ضد حاكم تطيلة قضت على تمرده، ومن هناك تابع مسيرته شمالاً ليوقع هزيمة عنيفة في قوات البشكنس حلفاء موسى، حيث التجأ هذا الأخير إلى عاصمتهم (بنبلونة). وما لبثت هذه المدينة أن عقدت صلحاً مع الأمير الأموي، ملتزمة بالهدوء وعدم الاعتداء على حدوده (٢٢٨/ ٨٤٢) [٤].

كانت علاقات عبد الرحمن الثاني مع جيرانه الاستورقيين والبشكنس عدائية بصورة عامة، واتّسمت حملاته العسكرية بالكثافة، كمحصلة لهدوء الأوضاع نسبياً في الداخل، متوفراً بذلك الوقت لإعطاء قسط من اهتمامه إلى جبهة الحدود الشمالية، وأن يشترك ببعضها شخصياً برغم نزعته غير الحربية. وكان خروجه المتكرر من قرطبة له دلالة، بأن حكومته لا تحمل كثيراً من المتاعب الداخلية، حيث يغادرها مطمئناً ويعود دونما حساب للمفاجآت.

---

(١) Levi — Provençal, Hist 1,204 كانت جليقية تابعة لمملكة أستورقة.
(٢) تقع إلى الجنوب من بنبلونة وهي من أعمال أراغون، الروض المعطار، ص ٦٤.
(٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٦٠.
(٤) ابن عذاري ج ٣ ص ٨٧.

النورمان: إغارات ودبلوماسية شهد النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، اتصالات هامة بين حكومة عبد الرحمن الثاني وبين النورمان، القبائل الوثنية المعروفة بالفيكنج Vikings في أقاصي الشمال الأوروبي، وذلك في أعقاب سلسلة من الهجمات البحرية، بعضها استهدف الشواطىء الغربية والشرقية، وامتد الآخر في الداخل حتى اشبيلية عبر «الوادي الكبير». وإذا كان الجانب الحربي يبدو واضحاً في كتابات المؤرخين الذين اهتموا بتدوين تلك الأحداث، من أمثال ابن القوطية وابن حيّان وابن عذاري وغيرهم [(١)]، فإن الجانب الآخر وهو «الدبلوماسي» محاط بشيء من الاضطراب والغموض، وذلك لتداخله صفةً وتاريخاً مع بعثة أُرسلت إلى القسطنطينية، خاصة وأن شخصية واحدة اضطلعت بالمهمتين، وأعني بها الشاعر «الغزال»، رجل البلاط المثقف وسفيره إلى الخارج.

والعلاقات بين الأمويين في الأندلس وبين النورمان الشماليين، اختلفت عن أية علاقات دولية أخرى شهدها العصر. فلم تكن وراءها خلفية محورية تستهدف إقامة تكتل سياسي في وجه تكتل آخر، كما زُعم في تفسير التودد الذي جرى بين الدولتين العباسية والكارولنجية، بل كانت نابعة من موقف مصلحي، أول ما يفيد حكومة قرطبة التي شُغلت منذ تأسيسها بإحباط الثورات الداخلية ومطاردة المتآمرين. وقد تمّ ذلك بعد عناء كبير حيث كانت الحروب البرية التي برع فيها العرب المسلمون سيدة الموقف، دونما حاجة ملحة آنذاك للاهتمام بالشؤون البحرية، التي بقيت محدودة الإمكانات، كذلك لم تكن فكرة القواعد العسكرية على سواحل الإمارة، قد طُرحت بشكل جدي في ذلك الحين. وهكذا فإن الاختلال كان واضحاً في هذا المجال، وظل قائماً حتى تعرضت تلك السواحل المكشوفة والمفتقرة إلى السفن والتحصينات، لهجوم مفاجىء قام به النورمان. فامتدت اهتمامات السلطة إلى سد هذه الثغرة

---

(١) ابن عذاري ج ٣ ص ٨٧.

الهامة في قوتها العسكرية، وذلك في السنوات الأخيرة من إمارة عبد الرحمن الثاني [1].

والمصادر العربية لا تذكر تفاصيل وافية عن هذه الدولة، التي أقلقت الحكم الأموي في الأندلس. فهي تقتصر على وصفها بإحدى الممالك الشمالية في أوروبة، وأن أهلها يمتازون بالشقرة الزائدة والنزوع إلى عبادة النار والكواكب. ولعل تسميتهم بالمجوس [2]، كما جاء في هذه المصادر، له علاقة بذلك، حيث إن المجوسية في نظرها مرادفة لعبادة النار، على نحو ما كان سائداً في بعض العبادات الشرقية القديمة. ولقد اقترن بهم كذلك اسم آخر، كان له علاقة بالموقع الجغرافي وهو النورمان Normands. وهذه الكلمة على ما يبدو تحريف للاسم الذي عرفوا به الأصل Norsmands، ومعناه الشماليون أو أهل الشمال [3]. وكان أول ما اشتهر به هؤلاء، احتراف البحر والنزوع إلى المغامرة والقرصنة، حيث انطلقوا في موجات متوالية ومتشعبة، استهدفت معظم سواحل أوروبة الغربية لا سيما المكشوفة منها، والمفتقرة إلى وسائل دفاعية رادعة، كما كان الحال حينذاك في الأندلس حيث تجلى ضعف البحرية على الجانب الغربي، مما دفع هؤلاء إلى تركيز نشاطهم في هذه المنطقة. أما القوة المحدودة في هذا المجال فقد كانت مرابطة على السواحل الشرقية، في مواجهة الأخطار الحقيقية التي يمثلها الأسطول الفاطمي في ذلك الحين.

ولقد استهدفت غارات النورمان الجريئة بشكل خاص شواطىء الأندلس، تجذبهم إليها عوامل اقتصادية بحتة، لما تمتعت به من شهرة ذائعة في الثراء، بالمقارنة مع الشواطىء الأوروبية الأخرى. وكانت أخطر هذه العمليات

---

(١) مجلة الرسالة (المصرية) عدد١٣٢ ص ٤٨. ٦ - ١ - ١٩٣٦.

(٢) ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب ص ١٣٨ وما بعدها، ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٨٦. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٨.

(٣) جاء النورمان أصلاً من اسكندناوة وسواحل ألمانيا الشمالية.

النورمانية تلك التي حدثت في سنة ٢٢٩/٨٤٤، حين تعرضت مدينة اشبونة (ليشبونة حالياً) لهجوم بحري من عدة سفن، عبرت إليها من مصب نهر تاجة Tago. ولكن مقاومة المدينة بقيادة حاكمها (وهب الله بن حزم)، أدت إلى إحباط المحاولة وإجبار النورمان على التراجع. فوجدوا عند ذلك بغيتهم في مصب الوادي الكبير (إلى الشمال من قادس)، حيث سقطت هذه المدينة في أيديهم وعاثوا فيها تدميراً، ومن ثم انتقلوا إلى تحقيق أمنيتهم باختراق الأندلس، إلى عاصمته الشهيرة قرطبة. وعلى الرغم من التصدي لمراكب هؤلاء الغزاة على ضفتي النهر، والاستعدادات التي اتخذها عبد الرحمن الثاني منذ أن أخطر بنزولهم على شواطىء دولته، إلا أنهم تابعوا تقدمهم في مياه النهر حتى أدركوا اشبيلية وسيطروا عليها، وقاموا بأكبر عملية قرصنة استهدفت المدينة التي عانت أياماً صعبة في ظل القتل والدمار[١].

وأحدثت هذه الغزوة ارتباكاً في أوساط حكومة قرطبة التي فوجئت بنتائجها، ولم يكن لديها من السفن غير الرابضة في المريّة على الساحل الشرقي. ولكنها لم تعدم وسائل التصدي لهؤلاء المغامرين، المتطلعين إلى عاصمة الإمارة هدفاً ثانياً لهم، فشكلت فرقاً سريعة لمطاردة النورمان في اشبيلية والحؤول دون تقدمهم الى قرطبة. غير أن الغزاة وقد اصطدموا بهذا الحاجز الدفاعي، آثروا الاكتفاء بما حققوه والعودة، ولكن دون أن يكون ذلك في متناولهم، حيث واجهت العودة معركة عنيفة، كان مسرحها قرية طلياطة Tejada[٢]، انتهت بهزيمة النورمان وفرارهم بقليل من سفنهم، تاركين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى[٣].

وكان على السلطة الأموية في عهد عبد الرحمن الثاني، أن تبذل جهوداً

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٨. ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٧ ـ ٨٨.
Levi — Pronvençal, Hist, 1,220 — 225

(٢) تقع على مسافة عشرين ميلاً من أشبيلية، راجع الروض المعطار ص ١٢٨ وما بعدها.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٨٨.

قصوى لإيقاف هجمات النورمان الشرسة وعدم تكرارها. وظهر هذا الاهتمام في سلسلة من الحصون الدفاعية على مصبات الأنهار، وتزويد الأسطول بسفن جديدة بلغت مداها في عهد الخليفة الناصر. وبذلك أمكنها تجميد الخطر النورماني، بفضل هذا الحزام الدفاعي الواقي. غير أن الأمير الأموي، لم يكن بعد حادثة اشبيلية مطمئناً إلى عدم تكرار المحاولة التي قام بها هؤلاء القراصنة، فارتأى وهو المنفتح بطبعه، أن لا يكتفي بالإجراءات العسكرية المتخذة، ولكنه آثر إقامة نوع من الصداقة بينه وبين الملك النورماني.

وقد انتدب عبد الرحمن الثاني أحد البارزين في بلاطه وهو الشاعر يحيى الغزال، لزيارة مملكة النورمان ومعه شخص آخر (يحيى بن حبيب). فقام بتنفيذ هذه المهمة على متن سفينة أموية مضافة إلى سفينة أخرى نورمانية، كما تشير الرواية التي تعرضت لهذه الحادثة[1]. وهذا يعني أن اتصالات مسبقة جرت بين الطرفين، مهدت الطريق أمام الموفد الأموي، الذي وصل هذا الأخير إلى بلاط الملك النورماني[2] في سنة ٢٣٠/٨٤٥، أي بعد سنة من الغزوة الآنفة الذكر. ولا يتطرق المؤرخ[3] الذي اهتم بأخبار هذه الرحلة «الدبلوماسية» إلى أكثر من حدود الترحيب والحفاوة بمبعوث الأمير الأموي، دون أن يشير إلى اتفاق ما يفترض أن تسفر عنه مهمة الغزال، حيث طغت شخصية السفير عنده وأخبار ظرفه على ما عداها. ولا نستطيع المبالغة كثيراً في الاستنتاج، بأن معاهدة جرى نقاشها وتوصل إليها الطرفان، تقضي بالتزام ملك النورمان بعدم الاعتداء على سواحل الأندلس. وإذا كان شيء من ذلك قد تمخض عن هذه الزيارة، فهو لا يعدو أن يكون مرحلياً فقط، لأن هجمات النورمان تكررت في وقت لاحق.

(١) ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب ص ١٣٨ وما بعدها.
(٢) كان يدعى هوريك.
(٣) ابن دحية الكلبي.

العلاقات الدبلوماسية مع البيزنطيين إذا صحَّ أن تلك الاتصالات والوفود المتبادلة بين العباسيين والفرنجة، أو بعضها على الأقل، كان يدور في إطار العلاقات «الدبلوماسية» بين الدول حسب المفهوم المتداول لها، وما يمكن أن ترمي إليه من أهداف ذات مصلحة مشتركة لكل من الطرفين، فإن علاقات أخرى يفترض أنها قامت بين دولتين كانتا أساساً هدف هذه الاتصالات المحورية، وهما دولة البيزنطيين وإمارة قرطبة الأموية. فثمة مصادر معينة تشير إلى أن هذه العلاقات تمت فعلاً بينهما، ولكن في وقت متأخر قليلاً عن العلاقات العباسية الكارولنجية[(١)]، وإن كانت محاطة بالغموض والتشويش. فالمعروف أن سياسة الأمويين في الأندلس، كانت تحمل طابع الاستمرارية لسياسة الأسلاف في دمشق، وهي لم تخرج عن التنافر والعداوة بين هذه الأخيرة والقسطنطينية. ومن هذه الزاوية يمكن التساؤل عن فائدة ما لأي من الطرفين في إقامة هذه العلاقات، لا سيما الإمارة الأندلسية الغارقة في شجونها المحلية، وفي مواجهة التيار الصليبي الذي أصبح أكثر خطورة بعد سقوط برشلونة وحركة الرهبان في قرطبة؟ ولعل ما أوردته المصادر عن اتصالات دبلوماسية وتجارية بين القسطنطينية وقرطبة، يندرج في مصاف الزيارات العادية التي تتم بين الدول بهدف التودّد والصداقة، وربما تبادل الخبرات في حقول ثقافية وعمرانية وغيرها، أكثر من التحالف وتوحيد الموقف السياسي بين الدولتين. فالامبراطور البيزنطي (تيوفيل) عندما أوفد سفيره اليوناني (قرطيوس) إلى قرطبة، لم تشر هذه المصادر إلى أبعاد هذه الزيارة السياسية[(٢)]. وكل ما صدر عن الأمير الأموي، هو الرّد على المبادرة البيزنطية والهدايا الفخمة التي حملتها، بمبادرة مماثلة تولى تنفيذها الغزال، الذي كان موضع اعجاب شديد من جانب الامبراطور

(١) ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب ص ٧٨.

(٢) تعود هذه الزيارة إلى سنة ٢٢٥/٨٣٩. نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢.

لكياسته وثقافته، دون الإشارة إلى طبيعة الزيارة. وإذا قيل بأن أهـدافاً مـا وراء هذا الاتصالات في أيام عبد الرحمن الثاني، فإن ما جـرى بعد ذلـك في عهد الامبراطور قسطنطين السابع والخليفة الناصر، لم يتعد الشكـل «البروتـوكولي» المعـروف واقتصر على الاحتفـالات والهـدايـا والخـطب. ذلـك أن الأنـدلس تحررت من هواجسهـا العباسيـة وتخلت عن الإمارة بمعنـاها الضيق لتستعيض عنها بالخلافة، متمردة على بغداد ليس فقط في الخـروج على السيادة، ولكن أيضـاً في تحدي المنصب الخـلافي. ويبقى الأصح أن هـذه العـلاقـات (بين قـرطبة والقسـطنطينيـة)، كانت تـدور في إطار حضـاري، بين مـدينـة عـريقـة (القسـطنطينية)، وأخرى (قرطبة) تجتهد لأن تأخـذ دورها التـاريخي، ولا تتردد في التوجه إلى أي مركز من مراكز الثقافة العالمية، خاصة في أيام عبد الرحمن الثـاني، التي بلغت الذروة في الاستقـرار والانفتاح السيـاسي والاجتماعي في دولة الأندلس الأموية.

مظاهر الحياة الاجتماعية

يمثّل هذا العهد مرحلة حضارية خـاصة، اختمـرت فيها تيـارات وثقافـات مختلفـة، سرعـان ما تفجـرت عطاءً واشعـاعـاً في العهـود التـاليـة من تـاريخ الأنـدلس. وإذا كانت الحـروب تقتل المـواهب وتفني الطاقـات، فإن السـلام يخلق ظـروفاً نـادرة للانتـاج، لا سيما إذا تـوفرت لـذلك المعـطيات الـلازمـة والمنـاخات الفكـرية المقبـولة. ولا شـك أن مجيء عبـد الـرحمن الثـاني إلى الحكم في وقت شاع فيه الاستقـرار الداخلي إلى حدٍّ كبير، وفي ظروف كـانت عاصمة العباسيين في الشرق تسطع بمجدهـا الثقافي الـذي صنعه لهـا الخليفة المـأمون، المفـطور على حب المعرفـة والعلم، كان لهـا تـأثيـر إيجـابي على انتعاش الحركة الفكرية في قرطبـة ونمو دورهـا الثقافي، الـذي أصبح إحـدى مفاخر الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ.

ففي بغداد ـ المدينة الحديثة يومذاك ـ كانت جـامعتها أو دار الحكمـة[1] ـ

(١) أسسها المأمون بعد عودته إلى بغداد. راجع عصر المأمون للرفاعي ج ١ ص ٣٧٥.

ملتقى النخبة العالية من العلماء والفلاسفة والمترجمين، وتفيض خزائن مكتباتها بالمخطوطات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية[1]، فضلاً عن العربية التي انتقلت إليها هذه المعارف. ولم يمض غير وقت قصير إلا وكتب افلاطون وأرسطو الفلسفية، قد ترجمت مع شروح لها إلى اللغة العربية، وكذلك مؤلفات جالينوس وأبقراط في الطب، وكتابات أقليدس وبطليموس وغيرهما من أساطين الرياضيات والهندسة وعلم النجوم والجغرافية وسائر العلوم[2]، هذا إذا استثنينا كتب الفرس الشهيرة مثل (هزار افسانة)[3] و(كليلة ودمنة) و(مزدك) و(التاج في سيرة انوشروان) وكثيراً غيرها.

هكذا بدت بغداد لمعاصرها عبد الرحمن الثاني المطبوع بدوره على الأدب والعلم، فضلاً عن مزاجه الهادىء واحساسه المرهف في تذوق الجمال واستهواء الموسيقى والغناء. وكانت عاصمة العباسيين تستوعب كل ما يتوق إليه الأمير، فلم يكن غير مألوف هناك مشاهدة حفلات السمر الليلي، حيث تتألق الجواري برقصاتها الإيقاعية في قصور الأغنياء والمترفين. ويلمع حينذاك الموصلي، الموسيقي الشهير ومغني الخليفة، فيضيف مع تلاميذه المغنين على العاصمة العباسية أجواء من الرخاء والجاذبية. وكان عبد الرحمن الثاني شغوفاً بكل ما يجري في هذه المدينة، جاهداً أن لا يفوته شيئاً من معالمها إلا اقتبسه، دون أن تؤثر فيه حساسيته الأموية التي قطعت في السابق كل الجسور مع بغداد العباسية. فكان هذا الأمير المثقف رائد السياسة الجديدة المنفتحة على الخارج بمن في ذلك أعداء الأمس، وكانت عاصمته (قرطبة) مشرعة الأبواب أمام العلماء والشعراء والتجار وذوي الفنون المختلفة، القادمين من الشرق، هرباً من المنافسة أو بحثاً عن آفاق جديدة لم تتوفر لهم في بغداد.

---

(١) السنسكريتية.

(٢) راجع عصر المأمون ج ١ ص ٣٨١ ـ ٣٨٧.

(٣) معناه ألف خرافة. وهو الكتاب المعروف بألف ليلة وليلة.

وفدت على قرطبة مع مجيء عبد الرحمن الثاني إلى الإمارة، شخصية طريفة كانت لصيقة بالأمير شديدة التأثير ببلاطه، عاكسةً ملامحها المتنوعة على المجتمع بصورة عامة، فإذا هو مطبوع بمادة جديدة من الترف الاجتماعي والذوق الأنيق، عدا المواهب الأصيلة التي جاءت معه وكانت سبب مجيئه، كالموسيقى المتجددة والغناء الرفيع. وأعني بذلك الحسن بن علي بن نافع المعروف بـ «زرياب»، حيث الكنية الأخيرة، ليست سوى لقب معناه بالعربية الطائر الغرّيد الأسود اللون. ويبدو أن اكتسابه لهذا اللقب عائد إلى سمرة داكنة تميّز بها، أو أن لونه كان أسوداً كلون هذا الطائر. ولقد جاء في العقد الفريد «انه كان عبداً أسود للموصلي»[1]، المغني الذائع الصيت في بلاط الرشيد. ومن هنا تبدأ قصة زرياب مع الشهرة والتي كاد أن يخسر معها حياته في بغداد، ذلك أن الفتى الفارسي الذي دخل في خدمة الموصلي، فاكتشف فيه ميلاً إلى الغناء وموهبة موسيقية فذّة، لم يلبث أن أصبح تلميذاً متفوقاً بات يخشاه الأستاذ، حتى إذا امتلك الصنعة وبرع فيها أتيح له أن يعزف شيئاً من ألحانه في حضرة الخليفة، فأطربه وانتزع إعجابه. ولكن هذه المناسبة بدل أن تفتح له آفاق الشهرة والصعود، كادت أن تقضي عليه، لأن أستاذه الأثير عند الخليفة والنافذ في البلاط، لم يحتمل وجوده في بغداد، فنصحه بلهجة لا تخلو من التهديد بالخروج منها.

غادر التلميذ المتفوق العراق باتجاه المغرب، فوصل إلى القيروان ـ عاصمة الاغالبة ـ في أواخر القرن الثاني للهجرة. ولقي هناك كل حفاوة وترحيب، حتى اختلف مع أميرها (زيادة الله)، الذي أمره بمغادرة بلاده[2].

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٧ ص ٣٠. جاء في افتتاح الأندلس لابن القوطية أن زرياب كان في بلاط الأمين ثم هرب من بغداد بعد مقتل هذا الخليفة. ص ٨٩.

(٢) يقول ابن عبد ربه، إن سبب الخلاف أبيات لعنترة غناها زرياب للأمير الأغلبي فوقعت منه موقع الغضب. العقد الفريد ج ٧ ص ٣٠ ـ ٣١.

ومرة أخرى يهيم زرياب على وجهه خائفاً مذعوراً، ويتطلع إلى الأندلس آملاً أن يجد فرصته التاريخية هناك، بعد أن أوردته تلك الموهبة أو كادت موارد التهلكة في بغداد والقيروان. وانتظر أن يأتيه جواب الأمير الجديد (عبد الرحمن الثاني) بالموافقة، حتى إذا تم له ذلك انتقل إلى قرطبة[1]، ليجد فيها المحل اللائق به والطموح الذي يتوق إليه.

وفي عاصمة الأندلس الأموية، وجد زرياب المناخ الاجتماعي الملائم للعطاء والإبداع في الموسيقى وفي غيرها من المجالات. وكان في مزاج الأمير المثقف والمذواق فرصة نادرة لأن يكون نجم البلاط المتألق والشخصية الأكثر جاذبية فيه. ولعل شهرة زرياب في قرطبة مبنية أساساً على أنه كان رائداً في التجديد الموسيقي، حيث أضاف إلى العود، آلة الغناء الرئيسية في ذلك الوقت، وتراً جديداً لم يكن متداولاً من قبل[2]، هذا فضلاً عن امتلاكه الخارق لهذه الآلة وسيطرته المطلقة على أوتارها، يساعده صوت عذب وشجي. كذلك فهو رائد استخدام التنويع الغنائي في الموسيقى العربية، باشراك عدة مغنين أو مغنيات إلى جانب المغني الرئيسي.

وإلى جانب الغناء الذي أصاب منه تلك المنزلة المتفوقة، نستطيع القول إن زرياب أحدث انقلاباً في الحياة الاجتماعية الأندلسية، استهدف كل جانب من جوانبها الكثيرة، سواءً في الأطعمة حيث انتقل معه الذوق الشرقي وتعدد الأصناف، وآداب الموائد التي لا زالت في كثير من ملامحها سائدة هذه الأيام، أو في مظاهر الأناقة حين ابتكر طريقة خاصة لتصفيف الشعر، والتنويع في الألبسة تبعاً للفصول، مع مراعاة النوع واللون. وهكذا لم يخل جانب ما في المجتمع الأندلسي، إلا وكان له نصيب من ذوق زرياب وابتكاراته، هذا

(١) وصل إليها على الأرجح سنة ٢٠٧ هـ.

(٢) كان العود يتألف من أربعة أوتار قبل أن يضيف إليه زرياب وتره الخامس، راجع لين بول، العرب في إسبانية ص ٦٩ ـ ٧٠.

المغني الطموح الذي طبع العصر بشخصيته الفذة، حتى غدا أحد رموزه الحضارية المشعة في ذلك الوقت[1].

وأخيراً فإن بلاط الإمارة استقطب عدداً من الشخصيات البارزة، كان لها مقامها وكلمتها المسموعة، إلا أن أحداً منها لم يبلغ ذلك المستوى الذي وصل إليه زرياب في التأثير على عصر بكامله، تناول مختلف الفئات الاجتماعية فيه وليس داخل أسوار القصور فقط. ومن هذه الشخصيات، الفقيه المالكي المعروف يحيى بن يحيى الليثي الذي كان وراء حركات المولدين في العهد السابق، والعالم الكيميائي عباس بن فرناس الذي مارس نشاطه العلمي وقام بتجاربه في جو من الحرية لم يجدها في غير هذا العهد، وكذلك جارية الأمير الباسكاوية (طروب)، التي افتتن بها واحتلت مكانة أثيرة عنده[2]، وأخيراً شخصية السفير الشاعر يحيى بن حكم البكري المعروف بالغزال، التي نالت نصيبها من الشهرة بين مساعدي الأمير وأعوانه.

وهكذا كانت شخصيات البلاط ورجالاته المقربين، من الموسيقي العبقري إلى الفقيه الشهير قاضي قرطبة، إلى الشاعر رجل المهمات الدبلوماسية، انعكاساً لشخصية عبد الرحمن الثاني، الأمير المثقف الذي اختار أعوانه من هذه المجموعة النخبوية، دون أن يدع لأحد مجال الاستئثار بما هو خارج عن اهتمامه، فاستطاع بأسلوبه الهادىء أن يحفظ التوازن في إدارته وأن يجنبها العثرات والمشاكل.

بقي أن نشير إلى أهم منجزات عبد الرحمن الثاني العمرانية، وهي بلا ريب كانت إحدى مآثره الحضارية التي لا يمكن اغفالها. فعدا المدينة التي أمر بإنشائها بعد إخضاع ثورة تدمير، والتي عرفت باسم مرسية[3] Murcia،

---

(١) عن زرياب، راجع تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص٨٩، نفح الطيب ج ٤ ص ١٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٢.

(٣) (٢١٦ هـ/ ٨٣١ م).

كذلك ارتبط اسمه بالسور الذي أنشىء حول اشبيلية في أعقاب الغزوة النورمانية. وفي قرطبة، كان لها أن تتألق كعاصمة فخمة لامارة عظيمة، فإلى عهده يعود ذلك الرصيف المعبّد المحاذي لنهر الوادي الكبير، فضلاً عن القصر الخاص الذي كان صورة لترف الأمير، بما حوى من تطوير فني ومعماري، كالشرفات العالية المطلة على النهر والتجهيزات الداخلية المعقدة، على نحو لم يكن معروفاً في السابق. وكان للمسجد الكبير كالعادة نصيبه من اهتمام الأمير، فهو الصرح المشترك لتنافس الأمراء في الذوق والسخاء، أما عبد الرحمن الثاني فقد أضاف إليه مساحة كبيرة احتلتها ثمانون من السواري[1].

---

(١) بلغت الزيادة التي أضيفت إلى المسجد سبعة آلاف وخمسمائة ذراع مربع. راجع ابن عذاري ج ٢ ص ٨٢.

E. Lambert, les mosquées de type Andalous en Espagne et en Afrique du Nord. p 273.

الانتكاسة

اختلال المركزية في قرطبة

(٢٣٨ ـ ٣٠٠/٨٥٢ ـ ٩١٢)

محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣ / ٨٥٢ ـ ٨٨٦) غاب عبد الرحمن الثاني عن أمارته وهي موطدة هادئة، تستقطب أعلام الفكر وتجتذب أصحاب المواهب. وجاء من كان معدّاً لخلافته وهو الأمير محمد، الذي سبق أن تولى مهمات إدارية في سرقسطة وعسكرية في حملة البشكنس (الباسك)، ودبلوماسية مع أعداء الدولة المجاورين لا سيما الفرنجة. فهو إذن صاحب تجربة سابقة في الحكم ووثيق الصلة بأبيه الذي اصطفاه ولياً لعهده رغم تكتل المحظية الأثيرة (طروب) وعصبتها في القصر، ليكون ابنها (عبد الله) المرشح للامارة[1]، وهو بالتالي رصين يقظ ، مرهف الإحساس، قوي الإرادة، غير متخاذل[2]. ولكن كفاءة الحاكم ليست وحدها دائماً المعيار الأساسي للنجاح، فالمطلوب إلى جانب ذلك عوامل أخرى لا تقل أهمية، وفي طليعتها البنية الاجتماعية المنسجمة والمصالح المشتركة غير المتنافرة، والولاء الموحد لحكم مركزي منفتح على جميع التيارات، وليس احتكاراً لفئة خاصة. فهل توفرت هذه الظروف أو بعضها للحاكم الجديد؟

والواقع أن الإمارة الأموية حتى في أيام الرخاء إبّان عهد عبد الرحمن الثاني، لم تكن خالية من المتاعب، ولم تكن السلطة فيها إلا عبئاً ثقيلاً على أمراء تلك

---

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٦.

(٢) عن الأمير محمد راجع أخبار مجموعة ص١٤١-١٤٢.

الحقبة. ذلك أن قضيتين أساسيتين كان على كل أمير جديد أن يتصدى لهما، أو انزلق ومعه النظام إلى مهاوي التمزق والانقسام: القضية الأولى وهي الأكثر خطورة، تكمن في طبيعة المجتمع الأندلسي المفكك، الذي هو عبارة عن قبائل وشعوب متعددة، خضعت للسيادة الأموية إما طوعاً أو كرهاً وإما ابتغاءً لمصلحة، دون أن يجمع بينها قليل من القاسم المشترك بالمسؤولية الوطنية. فإذا تطرقنا إلى عناصرها المختلفة، نجد أنها تتراوح بين أقلية عربية جاءت مع الفتوح أو في ظروف عادية، وحتى هذه كان يعوزها الانسجام لتوزع انتماءاتها قبلياً بين قيسي ويمني، واقليمياً بين حجازي أو شامي أو أفريقي، وبين أقلية أخرى من البربر جاءت في نفس الظروف ونازعتها مشاعر السيطرة والنفوذ، فأخفقت مراراً ولكنها لم تتخل عن طموحها الذي استمدته من دعم القوة الأساسية للبربر في المغرب، وكذلك بين أغلبية من السكان الأصليين الذين تأقلموا مع النظام، عقيدة وهوية فصاروا يعرفون بالمولدين، بالإضافة إلى فئة أخرى من هؤلاء تأقلمت هوية دون عقيدة وهي التي عرفت بالمستعربة أو المستعربين. أما القضية الثانية والتي كانت نتيجة حتمية لهذا المجتمع المنخور والمتنافر عنصرياً ودينياً، إن لم نقل اجتماعياً، هي العلاقة العدائية بين حكومة قرطبة وبين الإمارات الاسبانية في الشمال، التي كانت تغذّي هذا التنافر وتستفيد من اختلال الحكم المركزي لحساب مصالحها التوسعية.

هكذا كانت ظروف الإمارة الأموية مع استلام الأمير محمد شؤون الحكم في قرطبة.. تناقضات هائلة ورياح حركات استقلالية مكبوتة تنتظر لحظة الانفجار في الوقت المناسب، حتى إذا حانت الفرصة في مطلع عهده وثب الطامحون إلى السلطة كل في مقاطعته، حيث يتوفر الانصار والمؤيدون، وكأنهم على موعد مع خطة مشتركة ومدبرة. وحاز «المولدون» قصب السبق في عملية اقتسام الدولة، التي كانت حتى وفاة عبد الرحمن الثاني محافظة على وحدتها السياسية الكاملة، أما الآن فلم تعد سلطة الأمويين خلال فترة الستين عاماً، ما بين غياب هذا الأخير ومجيء الناصر، تمتد إلى أبعد من إقليم قرطبة، كأي إقليم آخر في الامارة

المنهارة. ففي شمالي شرق إسبانيـة، أعلن موسى بن مـوسى[1] (من المولدين)، منطقة الثغر الأعلى ولاية مستقلة عاصمتها سرقسطة. وفي غرب الأندلس استقل عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، وهو من المولدين أيضـاً، عن حكومـة قـرطبة في بـطليوس. وعمـر بن حفصون وهـو كذلـك مولـدي، الـذي كـان في ممارساته قريب الشبه بزعيم حركة متطرفة، تزرع الذعر في البلاد وتقـطع الطرق وتسلب الناس، حيث اتخذ مركز نشـاطه في منـطقة جبليـة وعرة في الجنـوب بين مالقة ورندة، تعرف بحصن ببشتر Bobastro [2]. وإلى جانب هؤلاء المولدين، كان البربـر يتربصـون السوانـح لاتخاذ مـراكز نفـوذ لهم، فسيطروا عـلى طليطلة (موسى بن ذي النون) وعـلى جيان (بنـو الملاّخ). ولم تفت عمليـة التقاسم هـذه بعض زعـماء العرب، الـذين ثاروا بـدورهم على الحكم المـركـزي، واتخـذوا في إشبيلية وقرمونة قواعد نفوذ لهم (بنو الحجاج من العرب اليمنيين).

هذه هي أهم الحركات الاستقلالية التي عصفت بإمارة الأمويين في الأندلس، حـدث بعضها في وقت مبكـر من عهد الأمـير محمـد، وبعضهـا تـأخـر سنوات معدودة. وكان قدر هذا الأمير أن يصرف كل جهوده وأوقاته، لمعالجة أخطر أزمة سياسية تعرضت لها الأنـدلس في تاريخهـا العربي الاسـلامي حتى ذلك الحـين. ويبدو أن مشاكله جاءت أيضاً من أقرب الناس إليه وهو هاشم بن عبد العـزيز، الوزير المتغطرس الذي كان يتسع قلب الأمير لهفواته[3]، ولكنها كانت تترك آثاراً سيئة على آلة الحكم وعلى العلاقات مع حكام الأقاليم.

لقـد كانت إمـارة محمد الأول وابنيـه من بعده، تمثـل انتكاسـة للمنجـزات الضخمـة التي تحققت على يـد الأوائل من الأمـراء الأمويـين، واتخـذت تـألقهـا الحضاري بشكل خاص في أيام عبد الرحمن الثاني. ولم تكد تمـر بضعة أيـام على

---

(١) هو موسى بن موسى الذي ثار في العهد السابق في تطيلـة من أعمال أراغون. العذري، ترصيع الأخبار ص ٢٩.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٦.

(٣) أخبار مجموعـة ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

موت هذا الأخير حتى كانت طليطلة رائدة العصيان في كل عهد، ترفع علم الثورة وتهاجم حاكمها الأموي وتلقي به في السجن، مساومةً على أسرى لها معتقلين في قرطبة. ولما استجاب الأمير لمطلبها عادت بعد حين (٢٣٩/٨٥٣) وطردت الحامية الأموية من قلعة رباح المجاورة. وعلى الرغم من استعادة القلعة في وقت لاحق، إلا أن طليطلة استمرت مضطربة تنتهز الفرص للثورة على حكومة قرطبة. فقد تعرض أحد جيوش الإمارة وهو في مهمة عسكرية في شندلة Jandula[1]، لكمين شنّه ثوار المدينة المتمردة، أوقع به هزيمة ساحقة. وكانت هذه الحادثة كافية لإعلان العصيان المنظم في طليطلة، حيث يسيطر المولّدون وبعض المستعربين، الذين كانوا يلقون عطف وتشجيع الدويلات الاسبانية، خاصة في عهد الملك الاستورقي أردونيو الأول Ordono 1[2]، الذي أرسل جيشاً لمساعدة الثوار، في سابقةٍ لم تحدث قبلاً في الأندلس. وربما كان لهذه المبادرة أثر في ترويع الجو العام في قرطبة، التي كان لديها القدرة على تجميع قوات ضخمة، بقيادة الأمير محمد نفسه (٢٤٠/٨٥٤)، لقمع هذه الحركة الخطيرة. وكانت الخطة متقنة إلى حد كبير بحيث أن الأمير استطاع تضليل الثوار بأعداد ضئيلة من حملته، التي اختفى معظمها في كمائن بين التلال المشرفة على نهر سليط Salit، وهو رافد صغير لنهر تاجة Tago. وفي هذا المكان جرت معركة طاحنة مع ثوار طليطلة الذين استدرجوا إليه، ووقعوا في الشرك المنصوب لهم، حيث سحقت ثورتهم ومعها القوة التي أرسلها الملك الاستورقي[3].

وعلى الرغم من أهمية الانتصار والكسب المعنوي الذي تحقق للأمير الجديد في مطلع ولايته، إلا أن مشكلة طليطلة ظلت قائمة تنذر بالخطر بين الحين والحين، وأضحت المدينة ملجأ مختلف التيارات السياسية والدينية، وهي في

---

(١) قلعة تقع على رافد لنهر الوادي الكبير يحمل نفس الاسم. عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص٢٩٢. Levi - Provençal, Hist 1,292

(٢) O. P. Cit 1,293

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٩٤ ـ ٩٥.

مجملها حاقدة على السيادة الأموية في قرطبة[1]. ولقد قابل الأمير محمد ثورة طليطلة بجدية وشجاعة، ونجح في قمع عدة انتفاضات على جانب من الخطورة، حتى انتهى الأمر بها إلى الرضوخ والاعتراف بسيادته بعد الضربة العنيفة التي تلقتها على يده (٨٥٨/٢٤٤). ولا تلبث طليطلة أن تعود إلى خطها السلبي، برغم محاولة السلطة تطويق الاضطرابات فيها، إلا أن ذلك كان تدبيراً وقتياً، لأن المدينة وقعت تحت سيطرة بني ذي النون البربر وتحولت إلى أقليم مستقل بموافقة الأمير الأموي.

وكانت ماردة في ذلك الوقت قد سارت على خطى طليطلة، وأعلنت بدورها الثورة بزعامة عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي[2]. غير أنها استسلمت بعد حصار الأمير، الذي تركها وشأنها مقابل تسليم زعماء الثورة، فاستجابت لذلك وتم القبض على هؤلاء بمن فيهم الجليقي، وإيداعهم السجن في قرطبة. إلا أن هذا الأخير لم يعدم فرصة للهرب والعودة إلى الاعتصام في قلعة[3] بالقرب من ماردة، حتى إذا طاردته قوات الأمير استسلم ثانية وأُعيد إلى السجن. ثم ناشد الأمير محمد الإفراج عنه والسماح له بالإقامة في بطليوس Badajoz الواقعة في وادي غاديانا Guadiana[4]. ولكن هذه البلدة القديمة، لم تلبث أن تحولت مع الجليقي إلى معقل حصين ومركز لنشاطه الثوري ضد الأمير الأموي، وأخذ يمتد نفوذه السياسي حتى جوار أشبيلية. ولما أرادت حكومة قرطبة أن تضع حداً لمغامراته، أدرك أنه لن يفلت هذه المرة من العقاب، فوجد ملجأ لدى ملك استورقة[5] الذي كان على استعداد لتبني هذه الحركات الانفصالية في إمارة الأندلس. فعاش بضعة أعوام مع أصحابه في ضيافة الملك، قبل أن ينشب

---

(١) Voir: Dozy, Hist 1,356

(٢) مولد من أصل جليقي. Levi - Provençal, Hist 1,295.

(٣) قلعة حنش Alange. Levi - Provençal, Hist 1,296.

(٤) تقع بطليوس على بعد أربعين ميلاً إلى الغرب من ماردة. الروض المعطار ص ٤٦.

(٥) الفونسو الثالث.

الخلاف بينهما، ويعود الجليقي غاضباً إلى بطليوس (٢٧١/٨٨٤). وفي هذه الأثناء كان الأمير مترصداً له فأرسل حملة إلى المدينة، أرغمته على مغادرتها إلى مرتفعات أشبرغوزة Esparragosa[(١)]. فلحق به المنذر أحد أبناء الأمير، ولكنه لم ينل منه في تلك المنطقة الوعرة، فاضطر مكرهاً إلى مهادنته، في وقت هبَّت عليه المشاكل من كل الاتجاهات، والاعتراف به حاكماً على بطليوس والمنطقة المحيطة بها[(٢)].

ثورة ابن حفصون أثارت شخصية عمر بن حفصون[(٣)]، أخطر ثوار تلك المرحلة، جدلاً كبيراً في أوساط المؤرخين الذين أولوه من الاهتمام الكثير. فهو متطرف منذ فجر شبابه، ميال إلى المغامرة، مطبوع على العنف ومجبول بالقسوة. عاش مطلع حياته في أقليم رندة Ronda، ثم رحل إلى المغرب هارباً من جريمة ارتكبها لاسباب تافهة في أحد الأحياء الشعبية، حيث طبيعته الشرسة لا يردها كابح ولا ترتبط بقوانين. ثم عاد إلى الأندلس سرًّا ومعه تصميمه على الثورة، فاستولى على قلعة قديمة في جبل ببشتر في اقليم ريَّة، مستقطباً حوله جماعة لا تقل عنه شراسة وتمرداً وذلك في سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨٠ م. وكانت أولى أعماله المنظمة ضد حكومة قرطبة، الهزيمة التي أوقعها بحاكم ريَّة عامر بن عامر، حيث كان لها الأثر الكبير في تقوية نفوذه وازدياد حجمه. فرد عليه الأمير بإرسال حاكم جديد على الأقليم (عبد العزيز بن عباس) بقوات مكثفة، مما حال دون اشتباك ابن حفصون معه، ومن ثم تراجعه إلى قلعته والاعتصام فيها. غير أن القائد الأموي لم يشأ أن يعود بغير نتيجة، فشدد حصاره على القلعة حتى توصل مع الثائر إلى هدنة مشتركة[(٤)]. ولكن الأمير محمد رفض الموافقة على هذا التدبير،

---

(١) تقع بالقرب من وادي (يانة) Levi - Provençal, Hist 1,298 - 299.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٢ وما بعدها.

(٣) هو مولد كما أشرنا سابقاً ويبدو أن كلمة حفصون تحريف لحفص، والواو هنا في آخر الكلمة لها دلالة على التفخيم في اللغة الاسبانية. حيث كانت تتردد هذه الأسماء في الأندلس كابن زيدرن وابن عبدون وابن خلدون. . . Levi - Provençal, Hist 1,302.

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٤.

فعزل القائد ابن عباس وأرسل وزيره هاشم لمتابعة المهمة والقضاء على اعتصام الثائر، فنجح الوزير حيث أخفق القائدان السابقان، وأُرغم ابن حفصون على الاستسلام مع جماعته، وحملوا جميعاً إلى قرطبة.

وفي العاصمة، ارتكب الأمير محمد الخطأ نفسه الذي ارتكبه مع الجليقي، فهو لم يكن دموياً بطبيعته، بل كان يؤثر الاعتدال وتجنب العنف. وهذا ما حدث مع ابن حفصون، حيث وقعت شخصيته الذكية موقعاً حسناً لدى الأمير الذي عفا عنه. وبلغ به التسامح أن عينه في منصب هام في الجيش، ليشارك في العمليات العسكرية الرامية إلى قمع المتمردين، وقد كان لوقت قصير أخطرهم على الاطلاق. ولم يطل المقام به في قرطبة، لأن طبيعته المتمردة ترفض التقيد بقوانين المنصب والامتثال لأوامر الرؤساء، ولا تلبث أن تفتقده أوساط الإمارة، لتسمع أنه عاد إلى قلعته في ببشتر (٢٧١/٨٨٤)، أي قبل عامين من وفاة الأمير محمد. وكان هذا الأخير قد أنهكته السنوات الطويلة في مطاردة الثائرين، دون أن يضع لنشاطهم حداً، لا سيما ابن حفصون الذي أطلق العنان لنفسه عابثاً مخرباً، إلى أن تصدى له الأمير منذر بن محمد في أواخر أيام والده، وكان قد بدأ فعلاً يمارس الحكم بعد أن أخذ الإرهاق من هذا الأخير كل مأخذ. فأرسل محمد بن جهور إلى إقليم ريُّة معقل الثائر ابن حفصون، غير أن هذا القائد عرج أولاً على مالقة قبل تنفيذ مهمته الرئيسية، حيث كان ثائر آخر وحليف لابن حفصون، كان قد اتخذ معقلاً هناك لحركة انفصالية مشابهة[1].

وما كادت تصل أخبار الحملة العسكرية التي بعثها المنذر إلى مسامع ابن حفصون، حتى غادر قلعته وقصد معقل حليفه لقطع الطريق على جيش الإمارة. ولكن القائد الأموي سبقه إلى إحكام الطوق على القلعة التي سقطت برغم اشتراك الحليفين في الدفاع عنها، حيث أصيب قائدها بجراح بليغة، بينما هرب ابن حفصون وجماعته قبل أن تدركهم سيوف القائد الأموي. غير أن

(١) هو الحارث بن حمدون الذي اتخذ معقله في (الحاقة) إلى الشمال الشرقي من مالقة.

الأقدار شاءت أن ينجو ابن حفصون مرة ثانية، حيث نعت قرطبة في ذلك الحين الأمير محمد (٢٨ صفر ٢٧٣/ ٤ آب ٨٨٦)[1]، واضطر الأمير الجديد (المنذر) إلى أن يحشد معظم طاقاته في العاصمة تحسباً لأي طارىء. وبذلك أفلت الثائر المولدي من قبضة الأمير محمد، كما سيفلت من قبضة خليفتيه المنذر وعبد الله.

المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨) تسلّم المنذر تراثاً ثقيلاً من المشاكل، لم يكن من السهولة الخروج بحلول لها ولو بصورة جزئية. فالتمزق السياسي بلغ مداه، والحركات الانفصالية أخذت تتفشى في كل الأقاليم، والمؤامرات تزحف إلى القصر فتصيب رؤوس الكبار وتصل إلى الأمير نفسه. وكان ابن حفصون سيد الموقف وأكبر هواجس المنذر وخصمه الأكثر عناداً، يرتع في المناطق الجنوبية ويقفز من مدينة إلى أخرى، والأمير حينذاك مشغول بتصفية حسابه مع وزير أبيه (هاشم بن عبد العزيز)، الذي بقي في منصبه بعد مجيء المنذر. وكانت بين الرجلين مودة مفقودة منذ زمن بعيد، فلم يمض أكثر من شهرين، حتى دبَّر الأمير لوزيره ضربة مفاجئة أودت بحياته وألقت بجماعته في غياهب السجن[2]. وهذه المبادرة قد يكون لها ما يسوّغها لدى المنذر، الذي فقد ثقته بالوزير الانتهازي وضاق بتصرفاته منذ عهد أبيه، إلا أنه افتتحت شريط الاغتيالات في البلاط الأموي في قرطبة، مما سيؤدي إلى اضطراب الوضع وانحسار سلطة الأخيرة.

لقد كان المنذر قوي الشخصية، صاحب كفاءة في الحرب، حيث جاء إلى الحكم ومعه طموح كبير للقضاء على الحركات الانفصالية، وفي طليعتها حركة ابن حفصون، التي امتدت رقعتها حينذاك من جيّان شرقاً إلى شذونة واستجة غرباً، وباتت تجسّد الآمال الوطنية للأكثرية من المولدين، الذين وجدوا في هذا الثائر «بطلاً قومياً» على حدّ تعبير المؤرخ الهولندي دوزي Dozy. ولعل هذا

(١) راجع أعمال الاعلام لابن الخطيب ص ٢٣.
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦.

الثائر وجد أن الظروف متاحة لتحقيق أحلامه في السلطة. فأخذ يبحث عن دعم خارجي، حيث قاده العامل الجغرافي إلى الاتصال بأمير القيروان الأغلبي[1]، لمساعدته في هذا الشأن. ولكن هذا الأخير رفض التورط معه، فعاد يجهد لتحقيق قوة ذاتية من المولدين الذين أخذوا يتدفقون على حركته، بعد اتخاذها آنذاك إطاراً منظماً، وتحولت إلى نوع من «الحكومة» الثورية، لها دورها الأمني والاقتصادي بالإضافة إلى الدور العسكري[2].

ولقد بلغ من حماسة الفئة التي تزعمها ابن حفصون، أنها لم تعد تكتفي بالسيطرة على الأرض وتحقيق مكاسب سياسية، وإنما أخذت تجنح إلى التطرف والقيام بأعمال انتقامية مروّعة، كان مخططاً لها ببراعة لإحداث جو من الذعر ،يلتصق باسمها ويرافق تحركاتها. وفي تلك الأثناء، كان المنذر قد أنهى ترتيباته لقمع هذه الحركة، فقام على رأس قوة ضخمة مستهدفاً اقتلاع جذورها والقضاء على قلعتها المنيعة. فحاصرها نحو أربعين يوماً حصاراً محكماً، لم يتوقف إلا بموته الفجائي، حيث قيل إنه حينذاك شعر بالمرض وعهد إلى أخيه عبد الله متابعة هذه المهمة. غير أن موته لم يخلُ من تساؤلات وشكوك بأن يكون وراءه مؤامرة مدبَّرة. وتشير أصابع الاتهام ـ حسب اعتقاد عدد من المؤرخين ـ إلى أخيه عبد الله المرشح لخلافته[3] بأنه ضالع في هذه المسألة.

وهكذا لم يطل عهد الأمير المنذر أكثر من عامين[4]، فكان أقصر العهود الأموية في الأندلس، دون أن يحالفه النجاح بالقضاء على ثورة ابن حفصون، بعد أن قضى نحبه وهو يلقي الحصار عليه. فهل سيتاح لخليفته أن يكون بطل المهمة، أم أنه سيترك ذلك للظروف ومتغيرات الأحوال؟..

عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠/٨٨٨ ـ ٩١٢) انتقل الحكم إلى الأمير عبد الله دون ضجيج أو منافسة، ولعل التركة الثقيلة من المشاكل والأخطار العاصفة

---

(١) ابن حيان، المقتبس ص ٩٣.
(٢) ابن عذاري، ج٢ ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٣) ابن القوطية ص ١٢٠.
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٢. أخبار مجموعة ص ١٥٠.

بـالإمـارة من كل صـوب، لم تشجع أحـداً من الأخوة الكـثر على ركـوب هـذا المركب المترنّح وسط عباب الأمـواج العاتيـة. فمن ثورة ابن حفصـون التي باتت معضلة النظام الأموي في قرطبة، إلى الحركات الانفصالية الأخرى، التي احتلت مكـانها في حرب الصـراع على النفـوذ واتسعت دائرتهـا لتجرّ ذوي الـطموح من عرب وبربر ومولدين آخرين، فتنجرّ معهم الأندلس الأموية إلى مهـاوي الضياع والتسيب. ولعل الباحـث الذاهب بخياله إلى تلك الحقبة الحالكة، لا بـد له أن يستشفّ معالم النهاية القريبة لهذه الـدولة. غـير أن الزمن يمـرّ والأخطار تتفـاقم، والتحديات تستوجب صموداً وجلداً عظيمين، والأمير الجديد المرهف الاحساس والقـوي الإرادة[1]، لا ترهبه الشدائـد ولا تربكـه المهمة المستحيلة. وإذا لم يكن لجهوده من تأثير إيجابي في إنقـاذ الأندلس من حـروبها الـداخلية السـاخنة، فـإنه بدون ريب أوقف عجلة السقوط السريعة أو خفف على الأقل من جموحها، ليتاح لهذه الدولة فرصة جديدة من الحياة والتألق بعد موته.

بـين عبد الله وابن حفصـون بـدأت العـلاقـة بـين الأمـير الأمـوي والثـائـر المولدي، بمعاهدة سلميـة ربما كـان في انعقادهـا مصلحة للطرفـين. فالأمـير كان بحـاجة إلى شيء من الـوقت ليتاح لـه تنظيم إدارتـه وإعداد قـواتها العسكـرية، كذلك ابن حفصون الذي أدرك أن للمرحلة متطلبـات جديـدة و «استراتيجيـة» مختلفـة، حـرص عـلى أن يستفيد قـدر المستـطاع من الهـدنـة. وكـان ثمن هـذه الأخيرة أن يبقى الثائـر المولـدي مع جمـاعته في قلعـة ببشتر، ولكن تحت وصـاية الأمـير ومراقبـة الحاكم الـذي عيّنه عـلى أقليم ريّة. بيد أن هـذه المعاهـدة كـانت هشّـة، وما لبثت أن تـداعت بعد أشهـر قليلة، وقـامت حـركـة الثـائـر الخـطير بـاستئناف الحـرب المسلحة في المنـاطق المحيطة باقليم رية، حيث تـأرجح النفـوذ مراراً في السنوات الأخيرة بين حكومة قرطبة وبين الثائر المولدي. فاستهـل الأمير عبد الله أعماله العسكرية بمطاردة هذا الأخير حتى معقله، ثم عـاد إلى عاصمتـه مؤثـراً عـدم الابتعـاد عنهـا طـويـلاً، في حصـار غـير حـاسم للقلعـة الحصينـة

(١) أخبار مجموعة ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٨٨٩/٢٧٦)[١]. وفي هذا الوقت أُتيحت الفرصة لابن حفصون أن يوسع دائرة نفوذه شمالاً ويستولي على استجة، مستهدفاً قرطبة، ولكن المحاولة فشلت ورُدّ صاحبها على أعقابه[٢].

ويبدو أن الهزيمة التي حلّت بابن حفصون بعد موقعة استجة كانت شديدة، لما خلفته من خسائر جسيمة بين جماعته، إلى درجة أصبح معها بحاجة إلى هدنة جديدة مع أمارة قرطبة. ولقد مهّد لذلك بمبادرة إيجابية، عندما قامت مجموعة من عناصره إلى جيّان حيث ثار مولد آخر[٣] في قلعة شوذر Jodar، مدفوعاً بعوامل نفسية وشعوبية لا تختلف كثيراً عن دوافع ابن حفصون، فاغتالته وجاءت برأسه إلى زعيمها في ببشتر وأرسله هذا إلى العاصمة، مصيباً بذلك هدفين: التخلص من ثائر مجاور ينافسه في زعامة الأقاليم الجنوبية، ومحاولة التقرب من الأمير عبد الله واستدراجه إلى معاهدة جديدة، تعطيه فرصاً أفضل للتحرك والنجاح[٤]. ولكن عبد الله كان أكثر حذراً وذكاءً من الوقوع مرة أخرى في شرك المهادنة، رافضاً هذا التودد من ابن حفصون ومتمسكاً بموقف السلطة التقليدي من حركته الخطيرة.

وبعد سنتين من هزيمة استجة (٨٥١/٢٧٨)، عاد ابن حفصون إلى تصعيد الحرب المسلحة، بعد وقت صرفه في تنظيم قواته وتكثيفها، بحيث تفوقت على القوات المركزية[٥]. فشن هجوماً على أقليم جيّان، ومن هناك تقدم شمالاً حتى بلغ مشارف العاصمة[٦]، ليفاجىء الأمير بأسلوبه الجديد في القتال، عبر العمليات الجريئة التي قامت بها عناصره المدربة، على نحو ما نسميه اليوم بحرب العصابات، بكل ما تعنيه هذه الكلمة. ولقد اتخذ من أحد الحصون المعروفة

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٥١. أعمال الاعلام ص ٢٨.
(٢) أخبار مجموعة ص ١٥١.
(٣) خير بن شاكر، المقتبس لابن حيان ص ٩٢ ـ ٩٣.
(٤) راجع أعمال الاعلام ص ٢٨.
(٥) راجع المقتبس ص ١٠٤.
(٦) أخبار مجموعة ص ١٥١.

باسم بُلاي Poley ـ كما جاء في المصادر الأندلسية القديمة[1] ـ معسكراً لقواته. ومن هذا الموقع كانت تنطلق تلك الهجمات التي أشاعت في قرطبة جواً من الذعر والهلع. وكان الأمير عبد الله منهمكاً في الدفاع عن عاصمته، مستنفراً كل طاقاتها لردّ الخطر المحدق بها، فصب اهتمامه الخاص على سلاح الفرسان وعلى قائده أبي العباس (أحمد بن محمد)[2] الذي عُهدت إليه مهمة التصدي لابن حفصون. وكان لسلاحه هذا الخفيف الحركة، دوره المطلوب، محققاً ما كان معقوداً عليه من آمال، بتمزيقه طليعة الثوار، الذين انكفأوا حينذاك إلى الحصن للاعتصام به على غرار ما كان يجري في قلعة ببشتر. ولكن جنود القائد الأموي كانوا حائلاً بضرباتهم السريعة دون تحقيق ذلك، فسقط الحصن وتشرذم الثوار وتدافعوا إلى الجبال المجاورة هاربين من الموت. وفي الوقت نفسه استعاد الأمير عبد الله سيادته على بُلاي وأستجة والمناطق الأخرى، بينما عاد ابن حفصون إلى قلعته[3] يجتر مشاعر الخيبة ومرارة الهزيمة القاسية التي حلت به، وكانت أشد ما تعرض له في حياته، وسيكون لها أثر كبير في تحجيمه واختلال مركزه في أذهان مؤيديه وأنصاره. وفي قرطبة أعطت هذه المعركة لنظام الأمير شحنة من الحيوية وثقة كبرى في الصمود، وفجّرت قصائد الشعراء المادحين[4]، تمجّد الانتصار وتسبغ عليه هالة من العظمة.

ومن البديهي أن القضاء على هذه الحركة الخطيرة، كان يتصدّر الأولويات في سياسة الأمير الأموي، ولكنه لم يجد مناصاً من التحرك على جبهات أخرى مقلقة، مستفيداً من ركود الجبهة مع ابن حفصون. وإذ انصرف إلى معالجة قضية أشبيلية القريبة منه، كان الثائر المولدي ينفض عنه آثار الهزيمة ويعيد النظر في أوضاعه، مستقطباً ما استطاع الحلفاء، في محاولة للضغط مجدداً على

(١) يقع هذا الحصن إلى الجنوب من قرطبة. راجع: أخبار مجموعة ص ١٥١. أعمال الاعلام ص ١٥١.
(٢) أخبار مجموعة ص ١٥١.
(٣) المكان نفسه.
(٤) المقتبس لابن حيان ص ٩٧ ـ ١٠٠.

إمـارة قرطبـة والإطاحة بها. غـير أن هذه الاجـراءات لم تكن مجهولـة لدى هـذه الأخيرة، التي كانت تستقي المعلومات بانتظام عن ابن حفصون وتراقب بحذر ما يجـري في قلعته المنيعـة. وكان نـدّه البارز آنـذاك، (المـطرّف) أكـثر أبنـاء الأمـير شجاعة، الذي أنزل بـه ضربـة قويـة جديـدة (٢٨١/٨٩٤)، أفقدتـه عدداً من قواده الأكفياء، واضطر بعدها إلى التقوقع في معسكره نحو ثلاث سنـوات، دون أن يقوم بأية بادرة عدائية نحو أمارة قرطبة(١).

على أن حركة ابن حفصون، أخذت بُعداً جديداً في عدائها للسيادة الأموية في الأندلس. فقد جـاء تحوّل زعيمهـا إلى المسيحية(٢) ـ حسب مـا أوردته بعض المصادر ـ مـؤشراً لتصعيد الأزمة مع السلطة ووضعها في مأزق جـديد. عـلى أنه من المعتقد أن بواعث هذا التحول سياسية أكثر منها عقائدية، ولا تعدو أن تكون محـاولة لإلفـات نظر الملك الإسبـاني الفونسـو الثالث إلى حـركته والحصـول على الدعم المطلوب منه، بعد أن لحق به الفشل خـلال السنوات الـطويلة الماضيـة. وإذا افترضنا صحة ذلك، وأن الثائر المولدي كان منطوياً على هـذه العقيدة منـذ فجر شبابه، فإنه من المستبعد المجاهرة بهـا وهو عـلى رأس حركـة عناصـرها من المسلمـين، ويتخذ لهـا موقعـاً في محيط إسلامي في جنـوب الأندلس، فضـلاً عن الحلفاء الذين تعاون معهم كابن قسي في سرقسطة وابن حجاج في أشبيلية، دون أن تكون له مصلحة في اتخاذ بادرة جريئة كهذه، بمعـزل عن تصوراتـه المستقبلية في هذا المجال. ولعلها مجرد تهمة الصقتها به أمـارة قرطبـة، في إطار حملة نفسيـة ضد هذا الثائر العنيد، حيث التاريخ ينطوي على أمثلة عديدة من هذا النوع من التـركيز الإعـلامي والتشهير الـذي يستهدف الحـركات المنـاوئة، خصـوصاً ذات المحتوى الاجتماعي أو السياسي المتقدم، فتلجأ السلطة إلى قذفها بتهمة الخروج على المعتقد أو الزندقة إلى آخر ذلـك. وإذا كان المؤرخـون لم يهتموا إلا بـالجانب العسكـري من هذه الحـركة، دون أيـة إشارة إلى مضمـونها الخـاص، فـإنـه من

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٤.
(٢) راجع المقتبس لابن حيان ص ١٣٨ ابن عذاري ج ٢ ص ١٨٧.

العسير فهمها بعيداً عن الظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت بها، وبعيداً عن شخصية قائدها الخارج من بيئة تعج بالعمال والحرفيين. ومن العسير أيضاً أن تعيش حركة ثورية نحو ما يقرب من الأربعين عاماً وتأخذ جلّ اهتمام السلطة فلا تنال منها، دون أن يكون لها طرح اجتماعي معين، يلامس عواطف الفئات الشعبية التي كانت عماد هذه الحركة والمصدر الذي يغذيها بالدماء الجديدة.

ومن هذا المنظور فإن حركة ابن حفصون تمتعت بسمات خاصة، ميّزتها عن بقية الحركات المعاصرة ذات البعد السياسي المحض. فتحولت إلى شكل من أشكال «الحكومة الثورية» بكل ما تعنيه هذه الكلمة، إن كان من حيث الأفكار المتقدمة التي استهوت آلاف المقاتلين المشحونين بالكراهية ضد «الطغيان العربي» حسب تعبير ابن حفصون، وضد «الأرستقراطية» العربية الباذخة والمستأثرة بالأموال ورغد العيش[1]، أو من حيث القدرة التنظيمية المتفوقة التي كانت أبرز ملامح هذه الحركة، والعامل الأهم في استمراريتها دون تعثر أو هزات داخلية، برغم الهزائم العنيفة التي توالت عليها. وعلى مدى هذه السنوات الطويلة احتلت ثورة ابن حفصون جانباً هاماً في مشاكل النظام الأموي الذي أخفق في القضاء عليها نهائياً، فخضعت علاقاته معها للأمر الواقع، وتحولت هي بدورها إلى مشكلة تقليدية يتعايش معها الأمراء المتعاقبون، متأرجحة بين الامتداد والإنحسار ولكن في إطار محدود. فالموقع العسكري المحصّن الذي اختارته في أقليم ريّة مقراً لها، كانت تكمن فيه قوة هذه الحركة كما يكمن ضعفها في آن معاً، إذ كانت لديه القدرة الدفاعية في تلك الظروف لتفشيل مخططات جيوش الامارة لاختراقه، ولكنه في المقابل كان يفتقر إلى الدعم الخارجي المطلوب، حيث السبيل إلى ذلك دونه الصعاب. فالظروف الجغرافية لم يُحسن اختيارها، وظل ابن حفصون أسيراً لها، يلهث وراء محالفات سياسية ترجّح موازين القوى

(١) R. Dozy, Hist 282 - 85.

لمصلحته ولكن دون جدوى. ذلك أن الاتفاق الذي عقده مع ابن قسي في سرقسطة، أُجهض قبل أن يخرج إلى النور، كما أن حلفه القصير مع زعيم أشبيلية (ابن حجاج)، انتهى أيضاً بخرق هذا الأخير له، في أعقاب تصفية مشاكله مع حكومة قرطبة[1]، التي كان لديها بدورها متسع من الوقت، لتشن سلسلة من الحملات على معقل ابن حفصون في السنوات العشر الأخيرة من هذا العهد، وتدفعه إلى الاعتصام في قلعته مدافعاً عنها بصبر وجلد، بعد أن خسر الكثير من رجاله، وبعد أن عبث به المرض ووطأته الشيخوخة، ومع ذلك لم تسقط القلعة ولم تنته الثورة، إلا بعد نهاية المرحلة وانبعاث مرحلة جديدة من بين الركام.

بين عبد الله وبني الحجاج في أشبيلية قبع ابن حفصون في قلعته بعد تلك الضربات المتواصلة، وركدت العلاقات العدائية بينه وبين حكومة قرطبة، التي كان أمامها مزيد من المشاكل، لتنقذ ما يمكن انقاذه من هيبة السلطة المركزية المتداعية. ولعل الملفت للنظر في تلك الفترة، أن تستفز ثورات المولدين مشاعر العرب، حيث اتخذوا موقفاً سلبياً وقابلوها بثورات مضادة، ولكن دون أن يتبادر إلى الذهن أن تحرك القبائل العربية في تلك الأثناء، كانت وراءه دوافع قومية لحماية النظام الأموي، الذي تشدهم إليه روابط قبلية أو عنصرية، بل كان تحركاً تمليه مصالح ذاتية بحتة، بدليل أنه استهدف حكومة قرطبة نفسها التي كانت حينذاك بنظر العرب، أداة مطواعة في أيدي العناصر الأجنبية المستحوذة على مراكز النفوذ في البلاط والجيش، كما استهدفت المولدين الذين انتشروا في عرض الأندلس يقتطعون أجزاءها تباعاً، فتتحول الدولة إلى دويلات تتقاذفها أيديهم هنا وهناك.

وفي غمار ذلك أبت الزعامات العربية أن تظل قابعة خارج دائرة الأحداث مراقبةً لها، فاتخذت دوراً فاعلاً فوق حلبة الصراع على النفوذ ضد الأطراف

---

(١) راجع المقتبس ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

الأخرى المتنازعة[١]. ولقد شهدت تلك الحقبة عـدداً من الثوار العرب خاصة من الحزب القيسي، من أمثال يحيى بن صقالة الـذي اتخذ من أقليم البيـرة مركـزاً لنشاطه المعادي ضد القوى التي مر ذكرها، وسـوّار بن حمدون الـذي انتصر على قوات الإمارة في معركة طاحنة (٢٧٦/ ٨٩٠)[٢]، وسعيـد بن سليمان السعـدي الذي قاد سلسلة من العمليات العسكرية الناجحة ضد جماعة ابن حفصـون[٣]، وغيرهم من الثوار العـرب في تلك الجهات، من الـذين تمحور نشـاطهم بصورة خاصة ضد الثائر المولدي ابن حفصون[٤]. ويبـدو أن نفوذهم في أقليم البيـرة لم يعد موضع جدال بالنسبة لحكومة قرطبة، التي سـارعت إلى الاعتراف بسيـادتهم عليـه، يشجعها عـلى ذلك تلك العـلاقات العـدائية المتـوترة، بينهم وبـين عـدو الإمارة الشرس ابن حفصون.

غـير أن نقطة الثقـل حينذاك في الـزعامـة العـربيـة لم تكن في ذلـك الأقليم (البيـرة)، ولكنها انتقلت إلى أشبيليـة المدينـة النائيـة في الأنـدلس حيث تـزدحم القبـائل العـريقة والنـافذة، إلى جـانب عدد كبـير من المولـدين والبـربـر وبعض المستعـربة. ولكن الـزعامـة الحقيقية في المـدينة كـانت معقودة للعـرب بقيادة بني الحجّاج، الذين صنعوا أحداثها وتبوأوا فيها الصدارة. وعـلى الرغم من أن بـواكير الثورة المسلحة في أشبيليـة لم ترتبط بهم مبـاشرة في البـدء، إلا أنه كـانوا وراءهـا وغـير بعيـدين عنهـا. ذلـك أن زعيم بني خلدون[٥] (كـريب بن عثمـان) أعلن الثورة على نظام قرطبة (٢٧٦/ ٨٨٩)، مدعوماً بقوى ذات انتماءات مختلفة، حتى أنه لم يتردد في التحـالف مع الجليقي الثـائر المـولدي وزعيم بـطليوس الـذي مر ذكره. فاحتدم الصراع في أشبيلية واختلطت فيها الأوراق السياسية، حيث دأب كل طرف على استغلال المـوقف المشحون وتحـويله باتجـاه مصالحـه الخاصـة. ثم

(١) المقتبس ص ٥٥.
(٢) عرفت بمعركة المدينة. المصدر نفسه ص ٥٥ وما بعدها.
(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها.
(٤) المقتبس ص ٢٩ ـ ٣٠، ابن عذاري ج ٢ ص ١٣٩.
(٥) الأسرة التي ينتمي إليها المؤرخ الشهير ابن خلدون. العبر ج ٧ ص ٣٨١.

سقط حاكم المدينة الأموي [1] وهو يدافع عنها، فأدى ذلك إلى انهيار الأوضاع وانفلاتها نهائياً من قبضة السلطة المركزية.

واستمرت الحالة مضطربة بضع سنوات في هذه المدينة، إلى أن تمكن الأمير عبد الله من ارسال حملة عسكرية ضخمة بقيادة ولده المطرف لقمع الثورة ومعاقبة المتمردين. ومن الغريب أن الحملة نفسها لم تكن قيادتها على قدر من الانسجام إذ وقع خلاف بين قائدها ومساعده وزير الأمير (عبد الله بن أمية)، انتهى بقتل الأخير. ولعل في ذلك ما يعطينا صورة عن التطاحن السياسي المستشري حتى في بلاط الأمير، الذي انعكست عليه أجواء البلاد، بما فيها من دسائس وصراعات لا حدَّ لها. ويبدو أن الأمير عبد الله لم يفاجأ بتصفية وزيره ولم يتأثر له، مما يوحي بأنه ضالع في العملية وعلى معرفة مسبقة بها. ذلك أن الأمور سارت بشكل طبيعي ونفذت الحملة مهمتها في أشبيلية، حيث حالفها النجاح وأوقعت بالثوار هزيمة قاسية. ولكن النصر الذي حققه المطرّف لم يؤد بالضرورة إلى حسم نهائي للمشكلة، لأن إمارة قرطبة وجدت نفسها مضطرة إلى الدخول في مساومات حول مستقبل المدينة الثائرة، كما اضطرت في الماضي إلى اتخاذ مواقف مماثلة، بعد أن فقدت عنصر التفوق على الصعيد العسكري، ولم يعد ما يميزها كثيراً عن الدويلات الأخرى التي فرضت نفسها بالقوة وانتزعت اعتراف الإمارة بها. وهذا ما حدث في أشبيلية حين اتفقت مع أبرز زعمائها والمهم شخصية (إبراهيم بن الحجاج) المتحدّر من قبيلة لخم اليمنية، على أن يحكم المدينة في ظل وصاية محدودة للأمير.

وهكذا نشأت دويلة شبه مستقلة على مقربة من عاصمة الإمارة (٢٨٢/٨٩٥) [2] بزعامة بني الحجاج، عاشت حتى قيام الخلافة. ولقد نافس بلاط أشبيلية في عظمته بلاط قرطبة في الاستقرار ومظاهر الترف واستقطاب

---

(١) أمية بن عبد الغافر بن أبي عبده.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦.

الشعراء والعلماء[1]. ومن الذين تألقوا في بلاط بني الحجاج، ابن عبد ربه صاحب الكتاب الشهير المعروف بـ «العقد الفريد»، والشاعر الذي عاصر تلك الفترة القلقة من حياة الأندلس وامتد به العمر ليشهد صعودها من جديد على عهد الناصر[2].

تلك هي أهم أحداث هذا العصر الذي شهد اختلال السيادة العربية وانتكاسها، لأول مرة منذ ارتباط الأندلس بالأسرة الأموية. فقد تراجع نفوذ قرطبة تدريجياً وفقدت مركزيتها السياسية[3]، ومعها ذلك الوهج الذي تألقت به في ظل الأمراء الأوائل. والواقع أن هذه الفترة التي استمرت نحو ستين عاماً، كانت موحدة الملامح، متشابهة الظروف بحيث لا يمكن أن نميز أي عهد فيها عن الآخر، بل كانت متلاحمة في عصر واحد أطلق عليه المؤرخون اسم «دويلات الطوائف الأولى»، مقارنةً مع عصر ملوك الطوائف الذي نشأ في أعقاب سقوط الخلافة (٤٢٢/١٠٣١). ولعل في التسمية تعبيراً واضحاً عن الشرذمة التي اجتاحت الأندلس في تلك الأثناء، فحولتها إلى دويلات صغيرة تزداد أهميتها أو تقل بحسب نفوذ الأسر المهيمنة عليها، في وقت عجزت السلطة المركزية في قرطبة عن مواجهة هذا التيار الاستقلالي الذي هب عليها من كل الجهات. وكان للمولدين كما رأينا الباع الطويل في مقارعة السلطة، فاستقلوا عنها في ثلاثة عشر مقاطعة[4]. والقليل من هؤلاء استطاعت حكومة قرطبة القضاء عليه، بينما تحدتها الأكثرية واستمرت في الخروج عليها. أما البربر فكان

---

(١) Dozy, Hist. des Musulmans d'Espagne 11, p. 89.

(٢) راجع ترجمة ابن عبد ربه في مقدمة الجزء الأول من العقد الفريد.

(٣) أعمال الاعلام ص ٢٧.

(٤) عمر بن حفصون (ببشتر)، ديسم بن اسحق (تدمير)، عبد الله بن أمية ومنذر بن هابل وسعد بن هذيل وخير بن شاكر ثاروا جميعاً في (جيّان)، سعيد بن وليد (باغة)، عبد الرحمن الجليقي (بطليوس)، عبد الملك بن أبي الجواد (باجة)، بكر بن يحيى (شنتمرية)، محمد بن لب بن موسى بن قسي (الثغر الأعلى)، سعدون بن فتح (قلنبرية)، عبد الوهاب بن جرج (البيرة). راجع المقتبس ص ٩٢ - ١٠٩، أعمال الاعلام ص ٢٧، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٨ - ١٣٢.

أشهر الخارجين منهم على الحكم المركزي أبناء موسى بن ذي نون (يحيى والفتح والمطرف)، في طليطلة وشنتمرية، ومن العرب بنو حجّاج، الذين سيطروا على أشبيلية ونافسوا بها العاصمة من النواحي السياسية والثقافية.

لقد نشرت هذه المأساة أجنحتها السوداء على الأندلس الأموية، المنهكة والمتداعية في ذلك الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة. وإذ تتراقص أشباح النهاية في قرطبة منذرة بشر مستطير، وبأن زوال الحكم الأموي بات على بضع خطوات؛ تنفجر ارادة جديدة بالاستمرار والنهوض بأعجوبة من بين حطام الدولة الممزقة، والعبور إلى مرحلة زاهرة، بلغت فيها السيادة العربية الاسلامية أرقى درجاتها في الأندلس.

ولعل من الخطأ الفادح أن نضع مسؤولية ذلك الانهيار السياسي على عاتق أمراء هذه المرحلة، خاصة الأمير عبد الله الذي هبت عليه أعاصير الثورات المحلية خلال ربع قرن من الزمن، دون أن تتيح له مجالاً آخر للعطاء. فهو لم يكن أقل كفاءة أو ذكاء من الأمراء الذين سبقوه[1]، ولكن المرحلة التي جاءت به إلى عرش الإمارة، كانت غير عادية وتحتاج بالتالي إلى رجل فذّ وحاكم غير عادي. فقد عاشت الأندلس آنذاك تحوّلات اجتماعية وثقافية خطيرة، أخذت ملامحها في الظهور خلال إمارة عبد الرحمن الثاني كما سبقت الإشارة، وبلغت من النضج حداً في ذلك الوقت، أن شخصية جديدة بلورتها التيارات المختلفة، لبست الأندلس وطبعتها بسمات خاصة. فلم تعد هذه البلاد تُحكم بأقلية عربية ذات مزاج شرقي وطبيعة لا زال فيها من البداوة نصيب، ذلك أن فئات أخرى برغم ذوبانها في إطار العقيدة مع «الأرستقراطية» الحاكمة، اختلفت مزاجاً وطبيعة، وحتى ثقافة عنها، فتطلعت إلى المشاركة في الحكم أو الاستئثار به، معتمدة على تفوقها البشري وارتباطها التراثي القديم بالبلاد.

ومن أبرز ملامح تلك الفترة المضطربة، انها على الرغم من أجواء التطاحن

---

(١) أعمال الاعلام ص٢٦.

واستشراء الصراع والتمزق السياسي، لم تعدم بعض الإيجابيات على صعد أخرى لا سيما في المجال الثقافي. وقد نال الشعر نصيبه الوافي، حيث شهد تطوراً جذرياً في الأسلوب والمحتوى، فكان انعكاساً واضحاً لهذا التمازج الثقافي واللغوي الذي بلغ مداه في ذلك الحين[1]. واعتبرت القصيدة الأندلسية رائدة التحرر في الشعر العربي من طغيان القافية وغموض العبارة، فامتازت بالرقة والوضوح والسهولة. ولعل من أوائل المتأثرين بهذا النسيج الشعري الجديد، هو الأمير عبد الله نفسه الذي تمتع بشاعرية رقيقة وصافية، تجلت في وجدانياته بصفة خاصة، ومنها هذه الأبيات التي اخترناها من بين بضع قصائد له:

يا مهجة المشتاق[2] ما أوجعك ... ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها ... بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتي به ... في مجلس يخفى على من معك
كم حاجة اتجزت إبرازها ... تبارك الرحمان ما أطوعك[3]

---

(١) H. Pérès, La Poèsie Andalouse p 215.

(٢) وردت في الحلة السيراء: «يا كبد المشتاق» ج ١ ص ١٢١.

(٣) أعمال الاعلام ص ٢٦ - ٢٧، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٢ الحلة السيراء ج ١ ص ١٢١.

الخلافة

عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»

٣٠٠-٣٥٠ / ٩١٢-٩٦١

عبد الرحمن الأمير: إسترجاع الوحدة السياسية

عبد الرحمن الثالث[1] هو الشخصية الأكثر جاذبية وتألقاً في تاريخ الأندلس الأموية، لا يختلف في ذلك عن جده الأعلى عبد الرحمن الأول واضع اللبنة الأولى للسيادة الأموية في تلك البقعة النائية، المزدحمة بالمتناقضات والمحاطة بصنوف الأخطار والتحديات. فكان هذا الأخير نموذجاً متطوراً يحاكي معاوية بن أبي سفيان صانع الدولة الأم، التي دفعت بالأسرة الأموية إلى واجهة الأحداث في مرحلة دقيقة من التاريخ الإسلامي.

وإذا ما جاز لنا أن نتابع المقارنة في إطار هذه الأسرة، فإن شخصية عبد الرحمن الثالث سنجد فيها الكثير من ملامح سلفه عبد الملك بن مروان، الذي أشاد من جديد صرحاً كان منهاراً ولملم أطراف دولة كانت مبعثرة. فهو إذن المؤسس الثاني للدولة الأموية في الأندلس بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وهو باني عظمتها الحقيقية والمساهم الرئيسي في إعطائها ذلك الدور الحضاري الساطع.

(١) هو عبد الرحمن بن محمد، حفيد الأمير السابق عبد الله، وقد كني بأبي المطرف قبل أن يتولى الحكم وهو في الحادية والعشرين أو أكثر بقليل. راجع أعمال الاعلام ص ٢٨ - ٢٩. الحلة السيراء ج ١ ص ١٩٧، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣. المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٥٤.

لقد وقع الاختيار على عبد الرحمن بن محمد، في ظل ظروف كان الحكم فيها ضرباً من الاستحالة. فالدولة الأموية لم يبق منها سوى الاسم على حد تعبير ابن الخطيب[1]، وسُحب الظلام الكثيف حجبت آفاق المستقبل السياسي لهذه الدولة، بحيث كان يصعب التكهن بما يحمله من مفاجآت. ولكن فجراً آخر يشرق عليها، فينقذها من براثن الليل ويزيح عنها كوابيس الأيام الخالية. فقد كانت الظروف مهيأة لحدث ما بعد نصف قرن من الحرب الأهلية الدامية، مقترناً بظهور شخصية مميزة كعبد الرحمن الثالث، رجل المرحلة الذي عاش في قلب الأزمات وانصهر بالتجربة، لتضاف إلى موهبة فذة ومقدرة غير عادية في تحمّل أعباء الحكم ومسؤولياته.

وقصة عبد الرحمن مع الأمارة لم تكن خالية من عامل الصدفة تماماً، إذ تدخلت المنافسة بين ولدي الأمير السابق (محمد والمطرّف) ـ حيث كان لأحدهما خاصة الأول النصيب الأوفر بالأمارة ـ لمصلحة الحفيد (عبد الرحمن). ذلك أن المطرّف حسب ما تفيد به المصادر، ألصق تهمة غريبة بأخيه المرشح لولاية العهد، أسفرت عن قتله بموافقة الأب[2]. ويبدو أن هذا الأخير شعر بالتورط بما أقدم عليه، وارقّه أن يشارك في مؤامرة تستهدف ابنه المفضّل بصرف النظر عن التهمة الملصقة به. وإذا كان الخطأ لا يُعالج بالخطأ، فإن الأمير عبدالله شذّ عن القاعدة فخانته أعصابه وقضى على إبنه الآخر (المطرّف)[3]، لتتضاعف أحزانه وتتراكم فوق همومه السياسية، هموم خاصة بعد افتقاده إثنين من أبنائه. ووجد الأمير الحاكم عزاء في حفيدة (عبد الرحمن بن محمد) الفتى الغضّ، فأعطاه كل حنانه ورعايته، خصوصاً بعد أن اكتشف فيه ملامح الذكاء وقوة الشخصية، وتوسم الرجل المناسب للفترة العصيبة.

---

(١) أعمال الاعلام ص٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص٢٨-٢٩، نفح الطيب ج١ ص٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه ص٢٩.

وهكذا جاء عبد الرحمن إلى الأمارة شاباً في مقتبل العمر[1] ، متدفقاً بالحيوية والطموح. وتنفّذت إرادة الجد دون معارضة الأعمام وبقية العائلة، العازفين عن الحكم في دولة متهاوية ممزقة الأوصال[2]. فاستهل عهده بخطوة هامة في إطار معالجة الوضع الداخلي، بإصدار ما يمكن أن نسميه برنامجاً عاماً لسياسة جديدة، تجلى في ذلك البيان الموجّه إلى المتمردين الذين امتلأت بهم الأندلس، وفيه من الانفتاح والحوار كما فيه من الوعيد والتشديد في العقاب. وأعقب ذلك بخطوة عملية، حين أرسل ممثلين إلى الأقاليم المتمردة، للتحاور معها وإعادتها إلى دائرة السلطة المركزية[3]. ولعل الأجواء العامة في الأندلس لم تكن متنافرة مع قدوم هذا الأمير، بل على العكس من ذلك كانت شخصيته الجذابة تعكس تأثيرها القيادي على رجالات الحكم والبلاط، كما في خارج القصر بين أوساط الشعب لدى جانب من فئاته الموزعة الانتماءات والمواقف السياسية. فالأمير الجديد القوي، لم يكن أسير عقد خاصة أو مطية لاعتبارات ضيقة، بل كان نموذجاً فريداً في مسلسل الأمراء الأمويين، كرجل دولة يكرّس كافة طاقاته للعمل دون توقف[4]. وإذا كانت جماهير الناس مشغوفة بالتغيير في كل زمان ومكان، فإن التغيير الجذري في بنية الحكم وفي طبيعة الأسلوب الذي رافق مجيء عبد الرحمن، كان له الأثر الايجابي الواسع، بظهور بواكيره الأولى في قرطبة وانتشاره بسرعة مذهلة في بقية الأقاليم[5].

سياسته الداخلية كانت مشكلة ابن حفصون، أخطر مشكلة يتوارثها الأمراء الأمويين حتى ذلك الحين، دون أن يختلف الحال مع الأمير الجديد الذي انتظر وقتاً ردة الفعل على بيانه قبل أن يقوم بأية بادرة عسكرية. فلقي إستجابة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨.
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣.
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨ـ١٥٩.
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٩.
(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨.

لدى بعض المتمردين[1] وامتناعاً لـدى البعض الآخر. وكـان في طليعة الأقـاليم التي اعترفت بإمارته أقليم سرقسطة، ثم توالت الاعترافات تشق بداية جيدة لهذا العهد، وتفتح له آفاقاً واسعة بأقل قـدر من المجابهـة. غير أن فـريقاً وهـو الأكثر خطورة، ظل متجـاهلاً نـداء الأمير ومستنكفـاً عن التعاطف معـه، مما دفعـه إلى معترك الصراع وسحق المتمردين بنفسه.وكانت ظاهرة خاصـة تلازم هـذا الأمير، هي انه لم يقبع في قصره متخلياً عن المهمات العسكرية إلى قواده، بل كان يتولى تنفيـذها شخصيـاً بمنتهى البراعـة. وقد شهـد أقليم ريّة حيث معقـل الثائـر ابن حفصون، باكورة نشاطه العسكري، وذلك بعد شهـور قليلة من توليـه الحكم. وإذا كانت هذه العملية المبكرة التي دامت نحو ثلاثة أشهر قد حالفهـا النجاح في تـطويع الأقليم وتمشيط حصـونه الثـائـرة، فـان حصن ببشـتر ظـل في منـأى عن السقوط رغم الضربة التي أنزلت بـالعجوز المتمـرد، كون هـذه المنطقـة تدور في فلك ابن حفصون وتدين له بالولاء.

وعاد الأمير الأموي إلى عاصمته، تاركاً ابن حفصون في قلعته الشهيرة وقـد أخذته المفـاجأة بـاختلال الأوضـاع في أقليم ريّة لغـير مصلحته. فكـان لابد من تحليل جديد للموقف السياسي الذي بـدأ يميل نحـو مركـزية السلطة، لأول مـرة منذ سنوات طويلة. أما عبد الـرحمن فكانت بانتظاره مهمة أخـرى في أشبيلية تلك المدينة المنافسة لعاصمة الأمـارة، حيث اتخذهـا بنو الحجـاج ملكاً متـوارثاً، بـانتقال السلطة فيهـا بعد وفـاة زعيم الأسرة (إبـراهيم) [2] إلى ابنه، وذلـك قبل مجيء عبد الرحمن إلى الأمارة. ولكن ظروفاً إستجدت بانقسام الأسـرة الحجاجيـة وتنافسها على الحكم[3]،أدت إلى تدخل الأمير الأموي وإرسال أحد قواده، للقضاء عـلى استقلال المـدينة وإعـادتهـا إلى فلك الحكم المركزي، حيث نجحت الحملة

(١) أخبار مجموعة ص ١٥٤.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٢.
(٣) بعد موت إبراهيم انتقلت الزعامة إلى ابنه عبد الرحمن ثم محمد بعد موت الأول سنة ٣٠١ هـ. ولكن أحمد بن مسلمة من بني حجاج أيضاً، نافسه على زعامة المدينة، فطلب محمد مساعدة الأمير الأموي. أعمال الاعلام ص ٣٥.

وأنهت إحدى أهم الحركات الانفصالية التي شهدها العصر (٣٠١/٩١٤).

كان انهيار دولة بني حجاج في أشبيلية تحت ضغط القوة الجديدة في قرطبة من أهم المؤشرات الايجابية التي انعكست على نظام الأمويين، فأعطته دعامة وقوة في المسيرة الصعبة، التي استهدفت إعادة توحيده وإنقاذه من براثن التمزق والسقوط. ولعل المدخل إلى تحقيق ذلك السلام المنشود، كانت دونه العقبة الكأداء في أقليم ريّة، حيث تنتصب قلعة ببشتر منيعة جلدة، تنفث في صفوف ثوارها أفكار التغيير والاستقلال، وتبقى وحدها رغم كل شيء، النافذة الواسعة التي تهب منها الرياح الخطرة. غير أن حسم هذه المشكلة تطلب بعض الوقت، لانصراف الأمير إلى معالجة الأزمات الاقتصادية[1]، الناتجة عن التطاحن الداخلي الذي استنفد موارد البلاد وطاقاتها. ولقد عانى سلبياتها جميع الأطراف بمن فيهم ابن حفصون الذي كان أكثر تضرراً من الظروف الجديدة، التي أصابت معنويات جماعته وأفقدتها كثيراً من حماستها، خاصة بعد انقطاع خطوط المساعدات المحلية والخارجية، التي أمّنت للقلعة احتياجاتها بصورة شبه دائمة، وذلك بعد أن تحولت السيطرة الجدية عليها لقوات الأمارة. وكان ابن حفصون قد تقدم به العمر وشعر بثقل السنين على معنوياته المتهدمة، بعدما أصاب قواعده الشعبية من اهتزاز، وبعد أن أخذ منها اليأس كل مأخذ وفقدت كل أمل بالتغيير وتحقيق الشعارات التي استهوتها وقاتلت في سبيلها من دون طائل؛ واجداً أن طريق المصالحة مع النظام الجديد هو الطريق الأجدى. وكانت المفاجأة التي لم ينتظرها الأمير، عندما أرسل إليه ابن حفصون عهداً بالاعتراف به والالتزام بالولاء للسلطة المركزية[2]. وجاء الثائر الكبير إلى قرطبة (٣٠٣/٩١٦)، بعد ترتيبات واقية أجرتها هذه الأخيرة لضمان العلاقة المستقبلية معه.

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢.

(٢) أعمال الاعلام ص ٣٢، البيان المغرب ج ٢ ص ١٧١.

كانت تلك بداية النهاية لأخطر ثورة شهدتها الأندلس الأموية، إلا أن مجيء رأس الثورة وعقلها المفكر إلى قرطبة معترفاً بالسلطة خاضعاً لها، ثم موته بعد بضعة أعوام (٩١٩/٣٠٦)(١)، لم يكن معناه إنطواء صفحتها الأخيرة، لأن راية الثورة عادت إلى الارتفاع في قلعة ببشتر على يد جعفر أحد أبنائه، الذي حمل بعض ملامح الأب في الجرأة والحقد على حكومة قرطبة الأموية. ولكن القلعة الحصينة دخلت إليها بعد غياب مؤسسها، أجواء الصراعات بين الأخوة الذين لم يكونوا على موقف موحد، محدثة فيها اضطراباً كان من الصعوبة تطويقه أو معالجته. فقد اغتيل زعيم القلعة (جعفر)، في ظروف لم يكن أخوه الآخر (سليمان) ورجل من قرطبة بعيداً عنها. وأصبح هذا الأخير حاكم القلعة المعترف به من السلطة التي أمّنت له سبل الوصول إلى الزعامة وتصفية كل الخصوم والمنافسين(٢). ولكن سليمان ما لبث أن جذبه تيار الثورة في القلعة وغلبه الطموح، ليمارس دور أبيه في مقارعة الأمارة الأموية بعد أن شعر بقوته. بيد أن الأمير عبد الرحمن سدّ كل منافذ العودة إلى تكرار التجربة الصعبة، وأحاط القلعة بحزام كثيف من جنوده، ظل يُنزل بها الضربات حتى خارت قواها أخيراً بسقوط سليمان في معركة طاحنة (٣١٤ هـ)(٣) واستسلام أخيه (حفص) في السنة التالية (٩٢٨/٣١٥)، بعد أن اخترقت جنود الأمارة أسوار القلعة المنيعة التي ظلت نصف قرن، مثل جدار حديدي تتكسر عليه محاولات السلطة العديدة. وما لبثت القلعة الشهيرة وثورتها، أن دخلت في النسيان وتحررت الأمارة من كابوسها الطويل، لتفتح أمامها آفاقاً مشرقة نحو مستقبل جديد(٤).

كان القضاء على ثورة بني حفصون واقتلاع جذورها، كافياً لبعث الاطمئنان الجدي في أوساط الأمير، الذي شعر بأنه اجتاز أصعب المراحل في طريق الوحدة السياسية. فعلى الرغم من أن بضعة مواقع، كانت لا تزال خارجة على سيادته،

(١) أعمال الاعلام ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣.
(٣) ج ٢ ص ١٩٢.
(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٣ ـ ١٥٤، أعمال الاعلام ص ٣٣ ـ ٣٤.

فإن أمرها لم يكن يقلقه كثيراً، بعد أن بلغ هـذا المبلغ من القوة والنفـوذ. ولعل إحدى مظاهر الثقة القوية بقدرته على تحطيم القوى المعادية والمتصدية له، ذلـك القرار الذي اتخـذه بُعَيْدَ سقـوط ببشتر، حـين وجد أن اللقب الـذي توارثـه عن أسرته وهو الأمارة لم يعد يتسع لطموحه الكبير، فأجاز لنفسه لقب الخلافـة تيمناً بأجداده الأمويين خلفاء دمشق[1]. ويبدو أنه كان مدفوعـاً إزاء هذا القـرار بعدة إعتبـارات: الأول، أن الوحـدة السياسيـة في الأندلس قـطعت شوطـاً رئيسياً في طريق التنفيذ، بعد ستة عشر عاماً من النضال الصعب، توّجه بانتصـاره العظيم على بني حفصون. والثـاني، أن الخلافـة العباسيـة التي انفردت بهـذا اللقب بعد قضائها على الأمويـين، باعتبـار أن الخلافـة كمؤسسة دينيـة ودنيويـة لا يمكن أن تتجزأ حسب المفاهيم السائدة في ذلك الوقت، هـذه الخلافـة انحدرت سمعتهـا إلى الحضيض وتحولت إلى مطية لأطماع القواعد الأتراك، المهيمنين عـلى مصائـر الخلفاء وأصحاب الكلمة النافذة في الدولة. وجاء اغتيـال الخليفة (المقتـدر) على يـد قائـده التركي (مؤنس)، [2] ليضـع الخلافـة العباسيـة أمـام منعـطف خـطير ويشجع على اتخـاذ مواقف أكـثر جرأة في منـاهضتها والخـروج عليها. والثـالث، مرتبط بالاعتبار السابق وهو نتيجة حتمية له، تَمثّل بظهور دولة إسلامية جـديدة، سبقت الأنـدلس إلى إعلان الخـلافة وهي الـدولة الفـاطمية، المعـروفة بعـدائهـا للعباسيين وللأمـويين معاً. وهذا الجانب الأخير هو الـذي عُني به عبـد الرحمن، إذ إن بروز الفاطميين في تلك الفترة وإعلانهم الخلافة في المغرب، بقدر ما شجع خليفة الأندلس الأموي على الاقتـداء بهم في اللقب، بقدر مـا كان بـاعثاً للقلق الشديد من جيرانه الأعداء، واتخاذه من الحيطة ما يصرف إهتمامهم عن دولته. أما الاعتبـار الأخير والأهم الـذي كان وراء قـرار عبد الـرحمن الثالث، فهـو داخـلي إستهدف إعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية،، بما للخلافة من تأثـير معنوي يتعـدى

(١) ألبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٨. نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣.
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣.

لقب الامارة، مما سيؤدي إلى اشتداد قبضتها على أطراف الدولة قاطبة، ويكون لها من الوسائل العملية لقمع أي تحرك إنفصالي بالسرعة القصوى.

هذه هي أهم الدوافع التي حدت بأمير الأندلس القوي إلى تسمية نفسه بالخليفة، في وقت كانت الظروف الداخلية والخارجية متاحة لإعلان هذه الخطوة. وأصبح عبد الرحمن، منذ الثاني من ذي الحجة (٣١٦/٩٢٩) أول خليفة أموي في الأندلس، بما يضاف إليه من ألقاب رفيعة تخاطب بها أوائل الخلفاء في الإسلام. وكانت عبارة «أمير المؤمنين الناصر لدين الله» اللقب الذي غلب عليه، فالتصق به وأصبح يُعرف بالناصر أو عبد الرحمن الناصر[١].

وكانت لا تزال في الأندلس بعض جيوب، ترفض الانصياع للحكم المركزي كما سبق أن أشرنا. ولعلنا نذكر ثورة الجليقي في بطليوس الذي استقل بتلك المنطقة في غربي الأندلس بموافقة أمراء العهد السابق، وجعل منها حكماً متوارثاً يأبى الاعتراف بالخليفة الأموي. فقام الناصر بأول حملة عسكرية بعد اتخاذه اللقب الجديد (٣١٧/٩٢٩)، وقضى على معاقل الثوار في بطليوس وجوارها، حتى وصل إلى باجة على نهر وادي آنة في أقصى الغرب[٢].

كانت عملية بطليوس نهاية الشريط الدموي الطويل، الذي ترجم مأساة الأندلس في تلك الفترة وأرّخ انتقالها من الفوضى والتفتت إلى فجر ساطع وآمال جديدة. وكانت هذه العملية آخر ضربة للتيار الانفصالي الذي تصدّره المولدّون وحققوا به نجاحات لا تخلو من الخطورة، إذ إن بقية الأقاليم والمدن الثائرة التي ظلت خارج دائرة الاعتراف بنظام الناصر، لم تعد ذات أهمية، وكان سقوطها مرهوناً بالوقت ليس أكثر.

السياسة الخارجية: مع الممالك الأسبانية بعد إنجاز المهمة العظمى

---

(١) أعمال الاعلام ص ٢٩ ـ ٣٠، البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٨، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣، الحلة السيراء ج ١ ص ١٩٨.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٩.

بإعادة الوحدة السياسية للدولة التي أخذت نحو ثمانية عشر عاماً من جهود الناصر (٣٠٠ ـ ٣١٨ هـ)، التأمت بعدها الجبهة الداخلية كأقوى ما تكون، تقف وراءها شخصية الخليفة الذي اختار لنفسه نظام الحكم المطلق، دون أن يكون لغيره كلمة نافذة أو مشاركة في صنع قرارات الدولة. فهو وحده صاحب الحضور الدائم في مختلف المجالات والمؤسسات، أما بقية الأعوان فكانوا يستمدون منه القوة والاستمرار. وكانت أداته الفعالة التي ضمنت له سرعة التحرك وتحقيق الانتصارات الباهرة، ذلك الجيش المطواع الذي اختيرت معظم عناصره من مماليك الصقالبة[1] المتفانين في ولائهم للخليفة. ولم يكن استخدام هذه العناصر جديداً في بلاط قرطبة، فقد سبقه إلى ذلك بعض الأمراء الأمويين، ولكن الناصر كان أكثر تعاملاً مع هذه الجماعات، المدربة منذ الحداثة على طاعة النظام، والبعيدة نسبياً عن التأثر بأجواء الصراعات المحلية. فعلى عكس ذلك كان هؤلاء سيفاً مسلطاً على رقاب المتمردين ذوي النزعات الاستقلالية في الداخل، وحاجزاً منيعاً في وجه الأخطار الخارجية التي كانت تهبّ رياحها في أكثر من اتجاه، لا سيما في الشمال، حيث الدويلات الأسبانية آخذة في الاتساع والنفوذ.

وقبل البحث في العلاقات العدائية التي قامت بين الخلافة الأموية في الأندلس وبين جيرانها الاسبان، لا بد من عودة إلى بدايات الحركة المعادية للعرب المسلمين، حيث كانت نواتها الفلول الأخيرة من القوط التي التجأت في أعقاب سقوط اسبانية بأيدي العرب إلى إقليم جيليقية أو غاليسيا في أقصى الشمال الغربي، وهو إقليم إمتاز بالوعورة وصعوبة المسالك وقساوة الطبيعة، مما جعل اختراقه أمراً على جانب كبير من الصعوبة. وكان رائد المجموعة التي اعتصمت في هذه المنطقة الجبلية رجل يدعى بلاي Pelayo، إتخذ مقره في كهف أونجا

(١) إن مدلول هذه الكلمة لغوي وليس عنصرياً. وهي مشتقة من الأصل الفرنسي Esclave ومعناه الرقيق أو العبد. ومن المؤكد أن الصقالبة لا ينتمون إلى عنصر واحد، وإنما كان يؤتى بهم من عدة مناطق سواء من إيطاليا أو شمالي اسبانية أو من شواطىء البحر الأسود والأدرياتي. راجع صورة الأرض لابن حوقل ص ١١٠، العبادي، الصقالبة في اسبانيا ص ٨.

Cavadongo أو صخرة بلاي كما سماها العرب[1]. ومن هذا الكهف خرجت فكرة القضاء على الحكم العربي في أسبانية وتحريرها من نفوذهم، حاملة لواءها أقدم دويلات الأسبان التي كانت جليقية نواتها الأولى، وأصبحت تعرف بمملكة ليون أو استورقة بزعامة الفونسو الأول (حفيد بلاي).

كانت تلك البداية الجدية لحركة التحرر الأسباني، التي أخذت ملامحها الصليبية تتكشف يوماً بعد آخر، وصادفها الحظ بأن الواقع العربي لم يكن خالياً من المشاكل، التي صرفت جلّ أوقات الحاكمين منذ الفتح حتى هذا العهد. فقُدِّر لهذه الدولة أن تتسع، لتضم مملكة قشتالة التي ظهرت إلى الشرق منها في المنطقة المعروفة باسم القلاع في القرن العاشر الميلادي. وفي غضون ذلك قامت مملكة أسبانية جديدة مدفوعة بنفس الأهداف السياسية وهي نافار Navarra أو نبرة كما يسميها العرب، تحت أقدام البرينيه، وحققت بزعامة ملكها (شنجة) أو (سانشو) Sengha مكاسب على جانب من الأهمية، حيث امتدت سيطرتها إلى تخوم سرقسطة، إحدى أكبر مدن أسبانية العربية. وكان القاسم المشترك لهذه الممالك، هو الموقع الجغرافي المتشابه في الوعورة وفي المناخ، فكان ذلك أول أسلحتها التي استخدمتها في رد الهجمات إلى قلب معاقلها الجبلية البعيدة، فضلاً عن سلاح آخر لا يقل مضاء، وهو يتمثل في الهزّات العديدة التي تعرض لها الحكم الأموي، حيث صرف طاقاته الأساسية التي كان ينبغي توجيهها إلى الخارج في صراعات محلية طويلة. وكان لهذه الدويلات الأسبانية الناشئة، أن تراهن على انهيار الأوضاع الداخلية في إمارة الأندلس وتحقيق سياستها التوسعية.

هذه باختصار ظروف الشمال الأسباني، عشية مجيء الناصر إلى الحكم. فهناك ثلاث ممالك: إثنتان منها إتحدتا في مملكة واحدة وهي مملكة ليون، وكان على عرشها اردونيو الثاني Ordono II ومملكة نافار بزعامة شنجة الأول، وكلاهما تجسدت فيه آمال الأسبان في التحرر، حيث بلغت مداها توهّجا وحماسة في ذلك

(١) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٠٦.

الحين. وكان أول احتكاك عسكري بين الناصر وأعدائه الأسبان في مطلع عهده، حين شن الملك الليوني هجوماً على غربي الأندلس (٣٠١/٩١٣) وبلغت قواته مدينة يابرة[١]، فاقتحمتها بعد مقاومة بطولية من حاميتها التي أبيدت بكاملها. وغادر أردونيو الأخيرة وهي أنقاض لا أثر فيها لحياة، بعد مقتل حاكم المدينة مروان بن عبد الملك وعدد كبير من سكانها[٢]. والواقع أن السياسة الاسبانية، كانت تستهدف في ذلك الحين إحلال الخراب محل العرب المسلمين والقضاء على تفكيرهم بالعودة مجدداً إلى الاستيطان فيها، خاصة وأن الأسبان كانوا عاجزين عن تزويد منطقة بعيدة كهذه بالطاقات البشرية التي تؤمن إستمرارية الدفاع عنها في هذا المحيط المعادي. ولكن مخطط أردونيو لم ينجح، فما لبثت يابرة أن استعادت عافيتها وعمرت بالسكان مرة ثانية. ثم تكررت عمليات الملك الليوني على الأقاليم الغربية من الأندلس، في وقت كان الناصر لا يزال غارقاً في همومه الداخلية، ومؤثراً تجميد سياسته الأسبانية إلى حين. ومن أخطر هذه العمليات تلك التي جرت في سنة (٣٠٥/٩١٦) بقيادة الملك نفسه واستهدفت مدينة ماردة إلى الشرق من بطليوس، واستولت عليها بعد تدمير الجيش الأموي بقيادة أحمد بن أبي عبدة[٣]. غير أن هذه العملية خلّفت قلقاً عظيماً في قرطبة، وحملت الناصر على إجراء تعديل في مخططاته العسكرية، حين وجد أنه لم يعد باستطاعته تجاهل النشاط الواسع الذي تقوم به جيوش أردونيو في غربي الأندلس. وتجسّد موقف الناصر حينذاك، بتصميمه على توجيه ضربة إنتقامية للملك الليوني في عمق بلاده. فقاد حملة عسكرية (٣٠٨/٩٢٠) إلى الشمال واقتحم بها معاقل اردونيو في عدة إنتصارات باهرة، برغم الأعداد الضخمة التي قذفت بها نافار لمساعدة حليفتها ليون[٤]. وكانت هذه الحملة بما حققته من مكاسب عسكرية وتغييرات جغرافية، باستيلاء الناصر على عدد من المواقع الهامة التي خضعت

(١) على مسافة مائة ميل إلى الشمال من باجة. الروض المعطار ص ١٩٧.
(٢) راجع عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ٢ ص ٣٩٢.
(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٧٦.
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٣.

مؤخراً للأسبان[1]. كافية لتجميد موجة التغلغل العسكري الذي كان رائده الملك أردونيو الثاني، خاصة وأن الجبهة الداخلية في الأندلس لم تعد تستحوذ على كل إهتمام الناصر، فصار لديه من الوقت ومن القدرة على إحباط هذه العمليات من غير صعوبة. وأثبتت الأيام صلابة النظام الأموي في عهد الناصر، فحين عادت إلى الجبهة الشمالية سخونتها بعد موت الملك الليوني (اردونيو) ومجيء راميرو الثاني Ramiro II المعروف بنزعته الصليبية المتطرفة، إستطاع الناصر حماية دولته من غزوات التكتل الأسباني المسيحي المتربص بها وتفشيل مخططاته التوسعية.

ولم تستأثر ليون وحدها بمقارعة دولة الناصر، فقد كان لنافار نصيبها في هذه العلاقات العدائية، التي أخذت بُعداً من الشراسة لم تبلغه في أي وقت مضى. ففي سنة (٩٢٣/٣١١) قام شنجة الأول بعملية عسكرية، فاجتاح بعض المواقع الأموية المتاخمة لحدوده، ومنها حصن بقيرة Viguera، حيث أجرى مذبحة وحشية، فيها من الغدر بقدر ما فيها من التعطش للدماء. فبعد أن استولى على الحصن، حمل حاميته وآخرين من الأسرى إلى عاصمته ليقضي عليهم جميعاً. وكانت هذه الحادثة التي هزّت قرطبة، سبباً مباشراً للحملة التي قادها الناصر بنفسه إلى العاصمة النافارية في السنة التالية (٩٢٤/٣١٢)، واعتبرت إحدى أنجح حملاته الشمالية كما يصفها المؤرخون. ولعل سماتها الانتقامية كانت واضحة في آثار التخريب والدمار، التي خلّفتها وراءها في بلاد الباسك (البشكنس)[2].

غير أن ميزان التفوق العسكري لا يبقى مائلاً في اتجاه الناصر، فقد خانه الحظ لأول مرة في حياته وهُزم أمام عدوّه القوي والقائد المحنّك راميرو الثاني (٩٣٩/٣٢٧)، في المعركة الشهيرة المعروفة بـ «الخندق» عند مدينة سنت

---

(١) من هذه المواقع: اوسمة Osma، تطيلة Tudela، كاركاسو Carcaso. ابن عذاري ج ٢ ص ١٧٩ ـ ١٨٠. العبادي في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٧٠.
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٣، البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

مانكش Simancas[1]. ولقد أسهبت الروايات التاريخية في وصف «الكارثة» التي أصابت جيش الناصر في هـذه المعركـة، بحيث أن قلة قليلة نجحت في الافلات من سيوف الأسبان من بينها الخليفة الأموي. فكان وقع الهزيمـة قاسياً عليه، إلى حدّ أنه استنكف منذ ذلك الحين عن قيادة الحمـلات بنفسه، تـاركاً هـذه المهمة لقواده[2].

غير أن الهزيمـة التي أفاض المؤرخـون في الحديث عنهـا، لم تكن نتائجهـا في ذات الحجم المعطى لها، بدليل أن أية تغييرات ملحوظة لم تشهدها جبهة الحدود الشمالية، خاصة وأن استئناف الحملات التقليدية من جانب الخلافـة في أعقاب هزيمة الخندق، كان كافياً لردع أية محاولة توسعية يلجأ إليها الملك الليـوني تتويجـاً لانتصاره. كذلك فإن ما يجعل من هذه الهزيمة حدثـاً عاديـاً، ذلك الهـدوء الذي ساد العلاقات الأموية ـ الأسبانيـة، والتودّد الـظاهر من ملكيّ نـافار وليـون نحو الخليفة الناصر، الذي أصبح أقوى شخصيات المرحلة[3].

وليس من السهولة أن ندرك أسباب هذه الهزيمة، وذلك لاختلاف الروايـات التاريخية التي اهتمت بها. فموازين القوى كانت متكـافئة بـين الطرفـين، ومعنى ذلـك أن الجيش الأموي لم يكن ضحيـة التفـوق العـددي في الجيش الآخـر[4]، بقدر ما كان ضحية الانسجام النوعي المفقود بين عناصره المختلفـة. فالمؤرخ ابن الخطيب يلقي مسؤولية الفشل على فئـة من قوّاد النـاصر وجنوده، كـان يعوزهـا الانضباط والاخلاص في الولاء، غير أنـه لم يذكـر أسماء المتهمـين هؤلاء، الذين أعدموا في الساحة العامة في قرطبة، وكان عددهم نحو ثلاثمائة من الفرسان[5]. ويُستخلص من ذلك أن جيش الناصر كانت تتجاذبـه تيارات متنـاقضة، هي في

(١) أخبار مجموعة ص ١٥٥ ـ ١٥٦، نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٣، أعمال الاعلام ص ٣٦.
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٣.
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٦٦.
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٥٥.
(٥) راجع أعمال الاعلام ص ٣٦ ـ ٣٧.

الواقع نتيجة مباشرة لاختلاف عناصره المقاتلة، بين أقلية عربية وأكثرية من مماليك الصقالبة[1]، إلى جانب فئات أخرى اتسع لها هذا الجيش، مما كان له تأثير سلبي على وحدته وتلاحم عناصره في جبهة واحدة منسجمة. ولعل باعث هذا الصراع الخفيّ له علاقة بالتفوق الصقلبي على حساب الفئات الأخرى من العرب والبربر، التي أخذت تتذمر من تراجع نفوذها وانحسار أهميتها في جيش الخليفة[2]، خاصة وأن الرجل الثاني في حملة الخندق بعد الناصر، كان أحد هؤلاء الصقالبة وهو نجدة الصقلبي الذي لقي حتفه في هذه المعركة.

بيد أن هذه الهزيمة لم تحدث أي تغيير على الشريط الحدودي مع الأسبان، وظلت العلاقة معهم تتأرجح بين السلم والحرب في السنوات المتبقية من عهد الناصر. ولكن السخونة التي عرفتها هذه الجبهة مع مجيء راميرو الثاني فترت إلى حدّ كبير، لا سيما وأن الأوضاع الداخلية في مملكة ليون، حاملة شعار القضاء على العرب المسلمين في أسبانية، مرّت بعد وفاة ملكها المتطرف (٣٣٩/ ٩٥٠) بأزمة عاصفة، نتيجة التنافس الشديد الذي وقع بين ولديه (أردونيو) و (شنجة) على وراثته. ومن المثير حقاً أن يكون للناصر دور في تحقيق الوفاق بين الأخوين وتنازل أحدهما للآخر، فكان أن حسمت المسألة لمصلحة الثاني الذي حظي بدعم الخليفة الأموي وشعر بأنه مدين بعرشه لهذا الأخير، فاتحاً معه صفحة من العلاقات الودية التي أفادت الطرفين[3].

مع الفاطميين كان ظهور القوة الفاطمية المعاصرة للخليفة الناصر، من دوافع إهتمامه بالسلاح البحري، الذي لم يكن حتى ذلك الحين متكافئاً مع احتياجات دولة لها تلك الشواطىء الممتدة على مسافات طويلة. ولعل أول اهتمام جديّ إتخذته الأندلس الأموية في هذا المجال، يعود إلى ما بعد الغزوة الشهيرة التي قام بها النورمان في عهد عبد الرحمن الثاني. فقد أدركت حينذاك

(١) عبد العزيز سالم، قرطبة، حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس ج١ ص٥٩.
(٢) ابن خلدون، كتاب العبر ج ٤ ص ١٣٨.
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

نقطة الضعف في سلاحها، وحاولت تقويم هذا الاختلال بحدود ما تفسح لها الظروف. غير أن الحاجة الملحة لانشاء قوة بحرية متكاملة لم تظهر إلاّ في أيام الناصر، حين شعر بالخطر الفاطمي على الضفة الأخرى من المضيق. والواقع أن شهرة الفاطميين في البحر نمت مع قيام دولتهم، التي أصابت تقدماً ملحوظاً في ميدان التنافس على حوض المتوسط، بحيث أنها امتلكت زمام المبادرة فيه حتى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي[1]. ولم يكن تخوّف الناصر في غير محله، فما لبثت أطماع الفاطميين أن تجلت حقيقتها في الهجوم المفاجىء الذي قامت به سفن الأسطول الفاطمي المرابط في صقلية على المريّة، قاعدة الأسطول الأموي في الأندلس، محدثةً فيها أضراراً جسيمة[2]. ولكن ردّ الناصر كان سريعاً وقوياً، فقد تحرك أسطوله مترصداً نشاط الأسطول الفاطمي على محاذاة السواحل الأفريقية. وشهدت تلك الحقبة تنافساً شديداً بين قوتين، يجمع بينهما المعتقد الاسلامي ولكنهما مختلفتان في المذهب، حيث الفاطميون الشيعة كانوا ينظرون إلى الحكم الأموي في الأندلس، على أنه امتداد لخلافة دمشق بذكرياتها البغيضة والمأساوية بالنسبة إليهم[3]. وكانت بعض الموانىء المغربية (سبتة ومليلة وطنجة) محور هذا الصراع، بعد أن قُدّر للخليفة الناصر أن يبسط نفوذه هناك، بمساعدة خصوم الدعوة الفاطمية. غير أن الصراع البحري بين الخلافتين المتجاورتين توقف أخيراً بسبب انصراف الفاطميين باهتمامهم إلى غير هذه المنطقة، لتصبح كل همومهم بالتالي شرقية، بينما فاز الناصر من هذا الصراع بمدينة سبتة التي ظلت منفردة بولائها للأندلس[4]. وهكذا كان الضغط الفاطمي على دولة الناصر، سبباً في انتعاش أسطولها البحري الذي أخذ في النمو، إلى درجة أن الأندلس صُنّفت بين الدول البحرية الشهيرة في ذلك الوقت إلى جانب

(١) ارشيبال لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ص ٣٢٤.
(٢) المرجع نفسه ٣٢٦ - ٣٣٧، سالم، تاريخ مدينة المريّة الإسلامية ص ٣٨.
(٣) حسن ابراهيم حسن - طه شرف، المعز لدين الله ص ٣١١.
(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠٧ - ٣١٧.

الفاطميين والبيزنطيين، وقيل إن تحالفاً بحدود ما في هذا المجال، ربط بين قرطبة والقسطنطينية، لفرض نوع من التوازن البحري في غربي المتوسط[1].

والواقع أن الدولة الفاطمية التي بلغت ذلك المبلغ من القوة في عهد خليفتها المعزّ، كانت لها أطماع جدّية في الأندلس، يحدوها إلى ذلك دافع الاختلاف المذهبي، الذي يكفي لأن يكون السبب الرئيسي من أجل القضاء على الحكم الأموي فيها. واقترنت مطامع الخليفة الفاطمي بخطوة عملية في هذا الاطار، عندما قام أحد أعوانه بمهمة خاصة في الأندلس وهو الجغرافي المعروف ابن حوقل منتحلاً شخصية تاجر، ليدرس ظروف البلاد ومدى قوتها العسكرية[2]. ويبدو أن تحويل إمارة الأندلس إلى خلافة وتسمية عبد الرحمن نفسه بأمير المؤمنين، كان من الأسباب التي أثارت الخليفة الفاطمي (المعزّ) ودفعته إلى محاولة التخلص من خصم سياسي ومذهبي مجاور، ينافسه في اللقب الذي يعتبره الفاطميون أحد مكتسباتهم الشرعية، التي أجازتها لهم تلك العلاقة مع النبي. وليس أدل على الانزعاج الذي أصاب المعزّ في هذا الصدد، ما يُنسب إليه قوله عن الناصر: «وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، كما تسمى دون من سلف من آبائه، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله. إننا أهل ذلك دونه ودون سواه»[3]

ولا شك أن الظروف كان لها دورها في حسم هذا الصراع بين الخليفتين الأموي والفاطمي، وإنقاذ الأندلس من غزو مرتقب على يد الدولة الفاطمية النامية في المغرب. فهذه الأخيرة لم يكن الأمويون وحدهم من خصومها في الاسلام، بل كانت لها خصومة أخرى لا تقل ضراوة، متمثلة بالخلافة العباسية التي كانت علاقات الشيعة معها تمتاز بنفس المرارة. ولقد كانت هذه الأخيرة الهدف الرئيسي لنضال الدعوة الفاطمية الرامية إلى تزعم العالم الاسلامي، بعد تحويله إلى المذهب الشيعي. ولعل التوقيت جاء مراعياً

(١) عبادي ـ سالم، تاريخ البحرية الإسلامية ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض ١٠٤ وما بعدها، معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٨.

(٣) النعمان بن حيون، المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٣٠ وما بعدها.

. M. yalaoui, les Relations entre Fatimides de l'Ifriquiga et Omeyyades d'Espagne. P. 13

لطموحهم هذا، في أعقاب سلسلة من الأزمات السياسية التي عصفت بخلافة بغداد، وكانت مصر التي خرجت عملياً من قبضة العباسيين منذ ولاية أحمد بن طولون في منتصف القرن الثالث الهجري (في أيام المستعين)[1]، تجتذب إهتمام الخليفة الفاطمي لتكون مركز دولته الناشئة، بما لها من ثقل بشري وأهمية جغرافية. وكان الأخشيدي كافور حاكم مصر آنذاك يودّع آخر أيام حياته، كما يودّع نظاماً هشّاً ينتظر من يضع قبضته عليه. وهكذا سقطت مصر في يد جوهر، كبير قواد المعز الفاطمي (٣٥٨ هـ)، لتتحول أنظار الفاطميين كلياً نحو الشرق، ويدخلون حلبة الصراع مع القوى السياسية الكبرى صاحبة الشأن في تلك المنطقة، بينما عاشت خلافة الناصر هادئة مطمئنة بعد أن ارتفع عنها الكابوس الفاطمي، لتنصرف إلى معالجة مشاكلها التقليدية. غير أن أجواء العداء التي أحاطت بسواحل الأندلس الشرقية والجنوبية، عكست تأثيرها الايجابي على هذه الدولة، إذ صنعت منها قوة بحرية ذات شأن، وذلك خلال مدة قصيرة من الزمن، كانت معظم طاقاتها معبأة لانجاز هذه المهمة. وكانت المريّة كما ذكرنا القاعدة الأولى للأسطول الأموي في الأندلس، مضافة إليها قواعد أخرى أقلّ أهمية في عدد من الموانىء والمدن البحرية، التي كانت بمثابة الحزام الواقي من الغارات المفاجئة.

العلاقات الدبلوماسية لقد اجتمعت في شخصية الناصر عدة مواهب، وكل واحدة منها تؤهل صاحبها ليكون حاكماً على قدر من النجاح كبير. فهو سياسي مرن وقائد شجاع وإداري صلب، بالإضافة إلى ثقافة أدبية واسعة وذوق فني رفيع. وشخصية كهذه، لابد أن تترك بصماتها على دولة الأندلس بصورة عامة، خاصة قرطبة التي تألقت معه نصف قرن من الزمن، حيث وصل بجهوده الجبّارة ومنجزاته العظيمة، إلى أن يجعل منها جوهرة العصر، تزدحم بالسكان وتشمخ في سمائها العمائر والقصور، ويؤمها أصحاب العلم وطلابه

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١ ـ ٦.

من كل صوب. وبدا الناصر بعد رحيل منافسه المعزّ إلى المشرق وأفول شمس الأمبراطورية الكارولنجية، الشخصية الأكثر قوة في غربي البحر المتوسط. وفوق ذلك كان باستطاعته أن يدّعي الزعامة الدينية للعالم الإسلامي، بعد تحجيم هذا الدور الذي استأثر به الخلفاء العباسيون زمناً، قبل أن يطغى عليهم ضباط القصر من الترك والديلم. وهكذا فإن الخليفة الناصر تحوّل في السنوات العشر الأخيرة من عهده إلى رجل العالم الإسلامي القوي، له من متانة نظامه في الداخل وسمعته السياسية في الخارج، ما يؤهله لأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة، التي سعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه.

وفي نطاق العلاقات الدولية بين قرطبة والعواصم الأخرى البارزة في ذلك الحين، تستوقفنا تلك العلاقة الخاصة مع العاصمة البيزنطية، التي كان بينها وبين قرطبة على ما يبدو إنسجام، فرضته تطورات الأحداث والظروف المتشابهة. وكانت الدولة البيزنطية قد استعادت عافيتها على يد الأسرة المقدونية ورجعت لها مكانتها التقليدية كزعيمة للعالم المسيحي، خاصة في عهد الأمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٥ ـ ٩٥٩)، المعاصر للخليفة الناصر. وتصف الروايات التاريخية هذا الأمبراطور، بأنه كان شغوفاً بالعلم والتاريخ وفنون التصوير والنحت. وتُنسب إليه أبحاث في هذه المجالات لا تخلو من الأهمية[١]، كانت لها مساهمتها في تصعيد الحركة العلمية التي انتعشت وارتفعت إلى أزهى مراحلها في القسطنطينية. ولعل اتصالاته بالخلافة الأموية في الأندلس، تمت في هذا الإطار الثقافي، لأن الروايات لم تشر إلى أبعاد سياسية محددة وراءها، أو إقامة علاقات لا تختلف في المضمون والاتجاه عن العلائق الدبلوماسية التي تقوم بين الدول في هذا العصر، يحدوها تبادل التعاون في المجالات الاقتصادية والثقافية والفنية إلى آخر ذلك، مع الفارق بين طبيعة هذا العصر وذاك.

(١) أسد رستم، الروم ج ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨.

وفي «نفح الطيب»[1] وصف مسهب لزيارة قام بها وفد يمثل الأمبراطور البيزنطي، وإن كان لا يتعدى الاهتمام بمظاهر الاستقبال والحفاوة التي لقيها في قرطبة وفي بلاط الخليفة في الزهراء والقاء قصائد الترحيب[2]. وفي «أعمال الأعلام» يختصر ابن الخطيب أخبار الزيارة بقوله: «ووصل إليه رسول ملك القسطنطينية العظمى، راغباً منه إيقاع المؤالفة». ولعل هذه العبارة تترجم مرامي الوفد البيزنطي وسعيه إلى طلب صداقة الخليفة ومودته. ثم يضيف ابن الخطيب فيصف إنبهار الرسول البيزنطي بفخامة العرش الذي يجلس عليه الناصر والترتيبات التي أعدت مسبقاً لتضفي هالة عظيمة على أجواء القصر، حيث اسُتقبل الوفد: «فعقد له المقعد الشهير الذي لم يتهيأ مثله لملك قبله، فدخل الرسول عليه وقد بُهت لهول ما عاينه، ودفع إليه رسالة مودعة في ذهب كثير التصاوير، وكان الكتاب في رق سماوي اللون مكتوباً بالذهب وعليه طابع ذهب، في أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك قسطنطين»[3]. وأخال ابن الخطيب هنا يصف حفلة تقليدية يقدم فيها أحد السفراء أوراق إعتماده، حتى أن ابن خلدون لا يخرج عن هذه الأجواء حين يقول في وصفة للإجراءات التي أُعدت لهذه المناسبة بقوله: «ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكه. وزُيّن القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجُمّل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة، ورتُب الوزراء والخدمة في مواقفهم»[4].

وانتهت مهمة الوفد البيزنطي عند حدود الترحيب والحفاوة، وعاد إلى بلاده بعد أن أمضى وقتاً في ضيافة الخليفة. على أن ما يستوقف النظر أن تكون هدية الأمبراطور للخليفة عبارة عن كتابين نفيسين، أحدهما في علم النبات والآخر في

---

(١) المقري، نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٢) الخشني، قضاة قرطبة ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣) أعمال الأعلام ص ٣٧.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢.

السيرة وأخبار الملوك الأقدمين[1]. فالأمبراطور البيزنطي الذي قضى بين كتبه وأبحاثه نحو ربع قرن، قبل أن يعتلي عرش الأمبراطورية[2]، كان أكثر ما يعنيه في موضوع العلاقات مع الأندلس الأموية، أن تقوم روابط ثقافية بين القسطنطينية الزاهرة وبين قرطبة منارة الفكر في ذلك الزمن. ولم يعد الوفد البيزنطي منفرداً إلى عاصمته، فقد أرسل بصحبته سفير يمثل الخليفة هشام بن هذيل، الذي حمل معه هدية إلى الأمبراطور[3]. ولا تفيدنا المصادر التاريخية عن محتوى الهدية، وإن كان الظن بأنها مخطوطة قيّمة إلى الأمبراطور البحاثة. وقد مكث السفير هشام عامين في القسطنطينية ثم عاد إلى قرطبة، وربما جاء مصحوباً ببعثة «دبلوماسية» أخرى[4].

واستقبلت قرطبة في أيام الناصر بعثات تمثل ملوك ذلك الزمن، وإن كانت لا ترقى أهمية إلى مستوى العلاقة مع القسطنطينية، حيث امتدت جذورها إلى أيام «الداخل» مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. ومن بين الذين أمّوا قصر الخلافة في الزهراء (مقر الناصر)، ممثلون للملك ليون الأسباني، خاصة بعد أزمة الحكم بين الأخوين أردونيو وشنجة، والتي انتهت بمساعدة الناصر إلى إيصال هذا الأخير إلى العرش، وكذلك ممثلون للملك نافار لأغراض سياسة أو «دبلوماسية» لها علاقة بجبهة الحدود في الشمال. ولم تخلُ هذه الاتصالات من مظاهر انفتاحية في حالات السلم، كانت تصل أحياناً إلى حد قيام هؤلاء الملوك شخصياً بزيارة مقر الخلافة[5]. كما لم يتردد الناصر في تزويدهم بالمساعدات، لا سيما العلوم الطبية، إنطلاقاً من موقع قرطبة الشهير في هذا المجال، حيث أسفرت هذه الاتصالات عن معاهدة صلح جرى توقيعها في عاصمة الخلافة.

---

(١) المراكشي، المعجب ٥٥ عنان، دولة الإسلام في الأندلس ج ٢ ص ٤٥٣.
(٢) أسد رستم، ج ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٣) نفح الطيب، ج ١ ص ٣٦٥.
(٤) نفسه ج ١ ص ٣٦٥، ابن خلدون، ١٤٢ ـ ١٤٣.
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦.

ومن العلاقات المثيرة التي شهدتها قرطبة أثناء خلافة الناصر، ذلك الاتصال بينها وبين الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كان على رأسها أوتو الأول، وهو أقوى الشخصيات الأوروبية في ذلك الوقت. وتجدر الإشارة إلى أن امبراطورية شارلمان التي توارثها هذا الملك (أوتو)، فقدت كثيراً من أهميتها السابقة، ولم تعد متكافئة في حجمها السياسي مع الدولة الأموية في الأندلس. ولكن اللافت أن هذه العلاقة لا تأخذ سوى جانب يسير جداً من اهتمام المصادر العربية، وتكاد تقتصر على ذكر شخصية السفير الأسقف وتاريخ الزيارة التي يرجّح أنها تمت في حدود سنة ٩٥٦/٣٤٤[1]. ويبدو أن بضعة اتصالات بين الدولتين مهدت لهذه الزيارة، كان قد بدأها الامبراطور، متخذةً طابع الاحتجاج على نشاط البحرية الأندلسية المستهدف شواطىء بلاده، لأن ردة الفعل كانت واضحة في لهجة السفير جان دي جورز ـ أو يوحنا الجورزيني، وهو من دير Gorze القريب من مدينة متز Metz[2]، برغم التكريم الذي أحيط به وإنزاله في قصر قريب من إحدى الكنائس. وهي ظاهرة لها دلالة على مناخ الحرية الدينية الشائع في قرطبة، خاصة في عهد الناصر، كما لها دلالة أخرى على مرونة هذا الخليفة الذي لم ينفعل إزاء عصبية الأسقف ورسالته الجدلية حول موضوع الإسلام، التي أصر المبعوث الأسقف على إلقائها بين يدي الخليفة. فقد رفض الخليفة استقباله بعد أن علم بمضمون الرسالة، قبل أن يستوثق إذا ما كانت هذه الأخيرة تمثل وجهة نظر الامبراطور، أم أن الأسقف المتطرف اهتبلها فرصة للإفضاء عن آرائه العدائية في مجلس الخليفة. فكانت تلك البعثة التي غادرت قرطبة إلى بلاط الامبراطور، وعلى رأسها مستعرب وثيق الصلة بالناصر يدعى رثموندو Recemondo، المعروف في الروايات العربية باسم ربيع بن زيد، وهو كما يبدو تحريف لاسمه الاسباني[3]. ونستخلص من العبارات المختصرة والغامضة التي

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٣٤، نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٥.

(٢) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France P187.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣.

أوردت خبر هذه الزيارات المتبادلة بين الخليفة والامبراطور، أن سفير الناصر بدد السحب السوداء التي غمرت العلاقات بينهما، والتي حاول تقليدها الأسقف المتعصب. فقد استقبل أوتو مبعوث الناصر بترحاب وأحاطه بالحفاوة والتكريم[1]، بينما اجتمع مبعوثه في قرطبة إلى الخليفة، محاطاً بنفس الرعاية بعد اكتفائه بالمراسيم العادية، دون التطرق لموضوع آخر غير العلاقات الودية بين الدولتين، حيث كان لسفير الناصر دوره الإيجابي في هذا المجال.

والواقع أن التعرض لموضوع العلاقات الدبلوماسية في تلك الحقبة الزمنية من العصور الوسطى أمر غير يسير، حيث العلاقات العسكرية طاغية على سواها من مظاهر التعاون الودي. وكما لاحظنا فإن هذه الاتصالات والزيارات المتبادلة بين وفود الخلافة الأموية في الأندلس وبين الممالك المعاصرة لها سواء في الشرق أم في الغرب، لم تحتل غير جانب سطحي في إطار ما نسميه حالياً بالعلاقات الدولية، لأن الجانب الأهمّ كانت تشهده ساحات القتال في معركة إثبات الوجود، فوق أرض محاطة بالأعداء.

قرطبة في أيام الناصر: مركز حضاري فريد في العالم الوسيط

إن تاريخ قرطبة العربي الإسلامي، هو في الحقيقة تاريخ الأمويين في الأندلس بما يحمله من الارتفاع والسقوط. ولكن قرطبة الناصر تأخذ مكانها المميز، كأعظم مدن ذلك العصر إلى جانب بغداد المدينة العباسية الشهيرة، والقسطنطينية عاصمة البيزنطيين المتألقة، حتى أنها نافست هذه الأخيرة اتساعاً واكتظاظاً بالسكان. فهذه المدينة التي انصبّت فيها معظم مداخيل الأندلس الغنية، لتجعل منها نموذجاً متطوراً لمدن العصر، تستقطب الآلاف من البشر وتزدحم بآلاف المنازل والقصور وعشرات الفنادق والحمامات والمتاجر، وتخترقها الشوارع والأسواق المرصوفة، وتعجّ أروقة المساجد فيها بالعلماء والفقهاء وتغص بطلاب العلم، كما تجتذب قصورها أجواء الشعر والغناء والرقص، كانت هذه

---

(١) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France P193.

المدينة الوجه الحضاري لدولة الأمويين التي بلغت ذروة تألقها في عهد الخلافة[1]. وفي قرطبة أشد ما يثير الإعجاب في كل زمان، مسجدها العظيم الذي واكب تاريخ الأمويين في الأندلس، بحيث كاد يكون لكل أمير منهم بصماته الواضحة عليه، فيصبح مع كل عهد أكثر اتساعاً وأروع جمالاً، حتى إذا كانت خلافة الناصر وابنه الحكم، بلغ أقصى امتداده إلى الجنوب محاذياً نهر الوادي الكبير[2]. ولعل المنارة المذهبة التي سُميت بمنارة الناصر (٣٤٠/٩٥١)[3]، هي أبرز المنشآت التي أُضيفت إلى هذا المسجد، فكانت شاهقة الارتفاع وغاية في الفخامة والدقة الفنية[4].

ومن المؤكد أن النهضة العمرانية في قرطبة، ارتبطت إلى حد كبير بمناخ الاستقرار السياسي الذي خيّم على الأندلس، منذ الثلث الأول من عهد الناصر. ولقد ساهم فيها الأمراء ورجال الحكم وأصحاب الثراء من الناس، المتأثرين بالذوق الفني الذي انتقل إلى خارج القصور ليصبح طابع المدينة بصورة عامة. ولكن منجزات الخليفة في عاصمته التي ابتدأت بالمسجد ومنارته وانتهت بالسور الكبير، لم تأخذ من اهتمام المؤرخين ما يستحق أهميتها، إذ طغت عليها المدينة الجديدة التي بناها الناصر على مقربة من قرطبة، وهي الزهراء[5]، التي كانت توأم الخليفة الملازم له، بحيث لا يُذكر أحدهما منفصلاً عن الآخر. وتشير بعض الروايات التاريخية أن هذه المدينة الجديدة كانت بادرة تكريم لإحدى جارياته التي تحمل نفس الاسم[6]، ولكن هذا الاعتقاد محاط بالشك لما عرف عن الناصر من جدية كرجل دولة واستبعاد رضوخه لرغبة حظية عنده، ببناء

---

(١) الروض المعطار ص ١٤٠ وما بعدها، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨.

(٣) المكان نفسه.

(٤) عن تطوير المسجد في عهد الناصر، راجع: البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١. -
Levi — Provençal. Inscriptions Arabes d'Espagne P. 19.

(٥) الروض المعطار ص ٩٥.

(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٣.

مدينة خاصة لها، لا سيما وأنه نقل إليها بعد إنجازها، إدارة الدولة وحاشيته ومعاونيه. ولا بد أن بناء الزهراء كانت له علاقة بالضغط البشري على عاصمة الخلافة، مما دفع الناصر إلى الخروج منها إلى سفح جبل العروس[١]، حيث موقع الزهراء لتكون عاصمة جديدة للخليفة العظيم، تنعكس عليها ملامح العصر الذهبي للأسرة الأموية في الأندلس. فالباعث إذن وراء هذا الإنجاز العمراني الضخم، خضع لمتطلبات الدولة وسرعة نمو العاصمة، إن لم نقل استجابة لنزعة الخليفة «الارستقراطية»، باتخاذ مقر جديد، فيه من البهاء والفخامة ما يبتغيه طموح خليفة، يؤمن بنظام الفرد والحكم المطلق إلى أبعد الحدود[٢].

ولقد بوشر بالعمل في الزهراء في مطلع سنة ٣٢٥/٩٣٦، أي في منتصف ولاية الناصر، وهي تبعد نحو خمسة أميال تقريباً إلى الشمال الغربي من قرطبة[٣]. وقد روعي في تخطيطها نظام المدينة الكاملة، لتستوعب أجهزة الحكم ورجال الحاشية والجيش، وصرفت لها ميزانية هائلة، بحيث أن مهندسين وفنانين وبنائين استقدموا من الشرق خاصة من بغداد والقسطنطينية، للمشاركة في هذا العمل الضخم، فضلاً عن عشرة آلاف من العمال والحرفيين كانوا منصرفين يومياً إلى بناء هذه المدينة[٤]. وعلى الرغم من السرعة العجيبة والعمل الدؤوب فإن الزهراء لم تستكمل صورتها النهائية إلا بعد وفاة الناصر، تاركاً لابنه (الحكم) تنفيذ الجزء الأخير منها.

غير أن الزهراء التي حظيت بهذا الاهتمام الكبير وانصبت فيها تلك المقادير من الأموال ومن جهود العمال والمهندسين ـ فأصبحت كما تفيض روايات المؤرخين، أحد أعظم المنجزات الفنية في العصر وأكثرها تجسيداً للترف

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣.
(٢) Dozy, Hist 2,153
(٣) الروض المعطار ٩٥، نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٤.
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٦.

والبذخ الذي بلغ في ذلك الوقت[1] - تهاوت بالسرعة التي قامت بها وكأن وجودها اربط بالخلافة، حتى إذا اضمحلت هذه الأخيرة لحقت بها ولقيت نفس المصير. ولعلها أول مدينة في التاريخ تغدر بها الأيام، فتحوّلها إلى بقايا أنقاض، حيث ظلت مطمورة منسية حتى مطلع هذا القرن، عندما قام أحد العلماء الأسبان بحفريات في المكان الذي أقيمت عليه، معتمداً على المعلومات الواردة في «نزهة المشتاق»[2] للادريسي، الذي كان قد زارها بعد وقت قصير من خرابها[3]، وهي لا تزال حتى اليوم، تحمل اسمها العربي القديم مدينة الزهراء Medina Zahara[4].

وقرطبة لم تكن زاهية فقط بمنشآتها العمرانية البديعة، المتوّجة بولادة جارتها الزهراء العاثرة الحظ، بل كانت إلى جانب ذلك قمة علمية شامخة تغص مكتباتها بآلاف المخطوطات النفيسة الأصلية والمترجمة، وتعج أروقة مساجدها وقصورها بالنخبة من العلماء والشعراء والمثقفين، يستهويهم المناخ الفكري الفريد في المدينة والذهنية المستنيرة والمتطورة. هذه النهضة العلمية والأدبية التي شقت طريقها في الأندلس على يد الأمير عبد الرحمن الثاني، كانت قد بلغت مرحلة من النضج والعطاء في عهد الناصر، وعلى الأخص في أيام خليفته المثقف وصاحب أكبر مكتبة في ذلك الوقت، وهو ما سنتطرق إليه عند حديثنا عن الحكم المعروف بالمستنصر، تيمناً بلقب الخليفة الأب الذي حمل اسم الناصر.

وبدأ هذا الخليفة الذي ضاق بأعماله نصف قرن من الحكم الطويل، يشعر بوطأة تلك السنوات الثقيلة، تغتال فيه الحيوية تدريجياً، حتى إذا اقترب من العام الخمسين لحكمه كان المرض قد استحوذ عليه، حيث قضى بضع سنوات بين الاعتكاف والظهور، إلى أن توفي في رمضان ٣٥٠ هـ/ تشرين الأول

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٦.

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤١٥.

(٣) نزهة المشتاق ص ١٩٣.

(٤) مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤١٤.

٩٦١ م، خاتماً بذلك قصة حافلة من النضـال الشاق والإنجـازات العظيمـة[١]. فهـذا الرجـل الذي قـطع في الحكم أطول شـوط بلغه حـاكم في تاريـخ العـرب والإسلام، قُدر له بفضل إرادته الفولاذية أن يصنع المعجزات في دولة كانت على مشارف النهاية، فأنقذها من الضياع وأعطاها ذلك الوجه الحضاري المتميز الذي أشرقت به اسبانية العربية في العالم الوسيط. والعظماء في التاريخ لا ينكر فضلهم حتى الأعداء، فتنتكس هاماتهم تقديراً لهم واحتراما. ولعل زيـارة الملك الليوني المخلوع أردونيو الرابع، لمثوى هذا الخليفة بعد فترة قصيرة من موته وخشوعه أمام ضريحه، خير اعتراف بالمكانة العالية التي رقي إليها الناصر والثقل المعنوي الذي رافق اسمه في ذلك الحين[٢].

الحكم الثاني: المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦/ ٩٦١-٩٧٦)

قطع هذا الخليفة سنوات الشباب[٣]، قبل أن يـرتقي عرش الخـلافة ليمـلأ ذلـك الفراغ الكبـير الذي تـركه غيـاب الناصر. والكهـولـة وإن افتقـدت روح المغامرة فلا بد أنها تختزن تجربة إذا ما اقترنت بعقل متنور وشخصية قـوية. فـأين الحكم من هذه الصورة؟ بل أين موقعـه في تلك «المؤسسة» الضخمـة التي ورث أعباءها الثقيلة؟ هل كانت لـه بعض ملامـح أبيه وذهنيتـه المتفتحة؟ أم أن وقـار الخمسين غلبه، فعاش في قصره يتوكأ على أمجاد الخليفة السابق؟. ذلك أن الحكم الثاني لم يكن رجل سياسة محترف، يفتتن بالسلطة وتستحـوذ عليه شهـوة الملك، بل نموذجاً خاصاً بين الحكام الأمويـين في الأندلس. فقـد كان صـاحب مزاج لا يتفق عادة مع السيـاسة، إذ هـو عاشق للكتب، مـولع بـاقتنائهـا حتى الهوس[٤]. ومن الطبيعي أن يجد رجل له تلك الهـواية في السلطة، غربة ومكـاناً ليس مكـانه

---

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠، نفح الطيب ج ١ ص ٣٨٢.

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.

(٣) كان في السابعة والأربعين حين ارتقى الخلافة. المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٩، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٣٣.

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٦١ - ٦٢.

المناسب. ولقد أوجز ابن الخطيب في بضع كلمات، شخصية هذا الخليفة المثقف بقوله: «كان عالماً فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جمّاعاً للكتب..»[1]. وفي ذلك دلالة على أن الحكم كان قارئاً مدمناً، يقضي جلّ ساعات النهار في مكتبته الزاخرة بصنوف المخطوطات، أو في صحبة العلماء والمؤرخين والفلاسفة. ومن أشهر معاصريه الذين استهوتهم شخصيته المثقفة، ابن حزم صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب، وأبو علي القالي اللغوي البغدادي الأصل ومؤلف كتاب الأمالي، حيث كانا على الأرجح من رواد مجالسه العلمية، لا سيما هذا الأخير الذي كان له محل مرموق في بلاط الخليفة[2].

ولكن الحكم المستنصر الذي كان له حسب ما تشير الروايات التاريخية سفراء متجولين، يمدّونه بما يقع في أيديهم من مخطوطات نفيسة مهما بلغ ثمنها[3]، لم يكن أسير نهمه إلى المعرفة وانشغاله بالكتب ومجالسة العلماء، وإنما كان يجد من الوقت متسعاً للقيام بأعباء الدولة ومعالجة شؤونها. فقد جاء إلى الخلافة ولديه من التجربة الكافية المكتسبة في عهد أبيه، الذي كان لا يتردد في إشراك ولي عهده المختار منذ زمن مبكر والمهيأ للمنصب الكبير بعد موته. ومن هنا فإن التجاهه إلى الكتب لم يكن هرباً من ضعف في شخصيته أو جزعاً من السلطة، لأن عهده كان ذروة الاستقرار السياسي في تاريخ الأندلس الأموية. غير أن الجهد الذي قام به كان متواضعاً إلى حد كبير، بالمقارنة مع الجهود العظيمة التي قام بها الناصر، حيث استمد قوته الرئيسية من رصيد الخليفة السابق، الذي ترك له عرشاً قوياً لا تقتلعه العواصف بسهولة. ولذلك فإن دور المستنصر تمثّل في المحافظة على تراث أبيه، آخر عظماء الأندلس من الأسرة

(١) أعمال الأعلام ص ٤١.

(٢) الحلة السيراء ج ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣، نفح الطيب ج ١ ص ٣٨٦، ٣٩٤ ـ ٣٩٥، جمهرة أنساب العرب ص ٢٨١ وما بعدها، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٥٩ ـ ٦١، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٠.

(٣) قيل إن الحكم اشترى النسخة الأولى من الأغاني بألف دينار ذهبي. المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٦٢.

الأموية حسب تعبير أحد المؤرخين[1]. ولعل أبرز وجوه الاختلاف بين الاثنين، أن السلف كان شديد الحذر لا يطمئن لمعاونيه إلا بمقدار، انطلاقاً من إيمانه بنظرية الحكم المطلق، بينما المستنصر ألقى كثيراً من أعباء الحكم، خاصة في شؤون الإدارة على عاتق وزيره (المصحفي)[2]، الذي مُنح صلاحيات واسعة، جعلته يبتّ بالأمور دون الرجوع إلى الخليفة، بحيث كان أول وزير يأخذ هذا الحجم في دولة الأندلس الأموية.

العلاقات مع الممالك الاسبانية

لم تكن لدى المستنصر مشاكل داخلية ذات أهمية، بعد سحق الثورات المختلفة في العهد الماضي.حيث كانت متاعبه في الغالب خارجية، لا سيما العلاقة مع الاسبان التي اتخذت حيزاً هاماً في سياسته، على الرغم من الطابع الودي الذي سادها في أواخر عهد الناصر، الذي كان له من النفوذ السياسي والمعنوي في بلاط الملك الليوني، ما يؤهله للتدخل في صراعات الحكم وتطاحن المتنافسين. وكان شنجة الأول (سانشو) مديناً بعرشه للخليفة الأموي، الذي وقف إلى جانبه ضد خصمه أردونيو الرابع، وكان الثمن كما أشرنا سابقاً، بضعة حصون تنازل عنها الملك في لخلافة قرطبة. غير أن العلاقات ما لبثت أن ساءت بين الطرفين في مستهل عهد الحكم، حيث يبدو أن ملك ليون خرق اتفاق الهدنة المعقود مع الناصر، بعد أن استقامت له الأمور وشعر بقوته بعد غياب الخليفة القوي. ولكن شنجة لم يذهب أبعد من ذلك في مناجزة أعدائه الأمويين، لأن الظروف تألّبت عليه وشعر بأنه تورط في خرق نصوص المعاهدة التي التزم بها. ذلك أن منافسه المخلوع قام بزيارة الخليفة في قرطبة آملاً مساعدته على استرداد عرشه، كما فعل الناصر مع خصمه، فاستقبله الحَكَم بحرارة وأحاطه بمظاهر

---

(١) لين بول، العرب في اسبانية ص ١٣١.

(٢) جعفر بن عثمان المصحفي. المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٦٢، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٣، نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٢.

الحفاوة الملكية[1]، خاصة وأن أردونيو كان على جانب من الدهاء والقدرة في استغلال المواقف. ولم تكن زيارته لضريح الناصر برغم الإعجاب الذي كان يدّخره للخليفة الراحل، غير مظهر يعبّر عن ذكاء ومرونة تمتّع بهما الملك المخلوع.

وكان نزول أردونيو في ضيافة الخليفة الأموي كافياً لأن يُفقد ملك ليون (شنجة) صوابه، ويقدّر أي خطأ فادح أقدم عليه، لذلك سارع إلى تصحيح موقفه بتنفيذ شروط الاتفاق المذكور. ولم يكن ذلك السبب الوحيد الذي دفع الملك الليوني إلى المهادنة مع المستنصر، فهناك عامل آخر لا يقل أهمية، تعلق باضطراب الجبهة الاسبانية الموحدة، واتخاذ أمير قشتالة (فرديناند) صهر الملك المخلوع جانب قريبه، موجّهاً أول ضربة للتحالف التقليدي الذي ربط بين قشتالة وليون[2]. غير أن التطورات التي حدثت بعد وقت قصير، أنقذت الوضع وأزالت الحرج لدى الملك والخليفة معاً. فقد جاءت وفاة أردونيو الرابع المطالب بعرشه، لتحرر المستنصر من التزاماته الأدبية بدعم معركته ضد ملك ليون، كما أنها أراحت هذا الأخير من كابوس ثقيل وأنقذت جبهته السياسية من الانهيار والتفسخ. ولكنها لم تكن بالنتيجة في مصلحة السلام والعلاقات الودية بين خلافة قرطبة وبين مملكة ليون، التي عادت إلى توترها التقليدي وقضت على أجواء السلام في جبهة الحدود الشمالية.

ومن الواضح أن الدويلات الاسبانية بُعَيْدَ هذه الأزمة، رجعت موحدة متماسكة وشعرت بأنها قادرة على استئناف الحرب ضد الخلافة الأموية، في وقت كان شنجة قد أصبح أقوى شخصية اسبانية وأكثر المتحمسين للقيام بدور صليبي، يعزّز من مواقعه بإعطاء زعامته السياسية بريقاً وجاذبية في العالم المسيحي. ولكن طموحه تعثّر أمام المبادرة السريعة التي اتخذها المستنصر بإعلانه

---

(1) ابن عذاري ج ١ ص ٢٢٥.
(2) نفح الطيب ج ١ ص ٣٨٤.

التعبئة العسكرية في الدولة، رداً على استعدادات الملك الليوني وحلفائه، ومن ثمّ القيام بهجوم تحت قيادته إلى قشتالة (٣٥٢/ ٩٦٣)، فتصدى له أميرها (فرديناند) ولكنه أصيب بهزيمة، فرّقت جيشه وبعثرت قواته قبل إرغامه على موادعة الخليفة، الذي عاد أدراجه بعد حملة ناجحة، تكللت برضوخ الأمير القشتالي لشروطه واحترام سلام الحدود[1].

غير أن معاهدات السلام مع الاسبان، لم يكن لها عادة ذلك المفعول التنفيذي، فلا تلبث أن تتهاوى وتصبح فارغة من أي مضمون. ولهذا فإن استمرار الحرب في المنطقة نفسها لم يكن يثير الاستغراب، حيث شنّ الأمويون سلسلة من الهجمات على قشتالة في السنوات اللاحقة، كانت القيادة خلالها معقودة بصورة عامة ليحيى بن محمد التجيبي والقائد الآخر غالب بن عبد الرحمن من أعوان الخليفة المقربين[2]. وقد سبق أن اشترك هذان القائدان في عملية ناجحة ضد نافار، حيث سقطت في أيديهما بضعة حصون هامة. وهكذا استطاع المستنصر، مداهمة الاسبان ومنعهم من اتخاذ أية مبادرة هجومية على مواقع العرب المسلمين، كما أرغم الملك الليوني على تسليم الحصون، محور الخلاف الذي انفجر بعد غياب الناصر.

العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الأقصى

إن أية علاقات عدائية مع الدولة الفاطمية، صاحبة السيادة على المغرب، لم يعد لها ذلك الطابع العسكري المهدِّد لكيان الأمويين في الأندلس، منذ أن شقّت هذه الدولة طريقها إلى الشرق حيث المجال أرحب لنشاطها السياسي والعقائدي. وبسقوط مصر (٣٥٨/٩٦٩) في عهد الخليفة المعزّ، على يد قائده الشهير جوهر الصقلّي، تنطوي نهائياً فكرة الغزو الفاطمي للأندلس، ويتقلص معها النفوذ في المغرب الأقصى بصورة ملحوظة. ذلك أن الفاطميين اقتنعوا منذ

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٢٦.
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥.

الإستيلاء على مصر، بأن مسرح دورهم الكبير، الطامحين إلى القيام بـه، هو في الشرق وليس في أي مكان آخر، حيث الصراعات العقائـدية والاجتمـاعية عـلى أشدها، تطوّق خلافة بغداد فتزيدها اضطراباً وعزلة.

ولقد عانى الفاطميون في الواقع متاعب جمّة في علاقاتهم مع البربر، الذين لم يلتزموا بالولاء لهم الالتزام الكامل. وكانت قبيلتـا صنهاجـة وزناتـة الأكثر نفـوذاً وسطوة، والمنافسـة بينهما عـلى أشدهـا، حيث تبنّت الأولى الخط الفاطمي وعُـيِّنَ زعيمها (زيري بن مناد الصنهاجي) حاكماً عـلى المغرب الأقصى، واتجهت الثـانية إلى الدولة الأموية في الأندلس متحالفة معها ضـد القبيلة الصنهاجيـة[1]. وكانت هـذه نقـطة الضعف في السيـادة الفـاطميـة عـلى المغـرب، التي استغلّهـا الحكم المستنصر بـإعطاء حليفتـه (زنـاتـة) الـدعم الكـافي لتحقيق هـدفـين: الأول هـو الاحتفاظ بالمواقع العسكرية التي كانت تحت سيطرة الأمويين على ساحـل المغرب مثل طنجة وسبتة ومليلة، والثاني هو إضعاف الحكم الفـاطمي في هذه المنـطقة، بتحقيق تعادل في الموازين السياسية، هو في النتيجة لمصلحة المستنصر الأموي.

وما لبث الصراع في المغرب أن اتخذ بُعـداً محلياً مـع غياب الحكم الفـاطمي المباشر، فأخذت القوى السياسية في الـداخل تتـزاحم على النفـوذ، مستغلةً هذا الفراغ الذي حدث مع تخلخل الزعامة الفاطمية في هذا الأقليم. وكان من بينهـا بقية الأدارسة بزعامـة الحسن بن كنون (قنّـون)[2]، آخر أمرائهم، قبل أن يقضي عـلى دولتهم الفـاطميـون. فتحـالف الـزعيم الأدريسي مـع الأسـرة الأمـويـة في الأنـدلس ـ عدوة الأمس ـ للوقـوف في وجه الحكم الـزيري الممثـل للفـاطميـين الشيعة. كما أن زناتة إحدى أقوى القبائل المغربية، وحليفة الأمويين، حاولت أن تجد لها محـلاً وسط هذا الصـراع على النفـوذ. فقوي شـأن هذه القبيلة بتحـالف زعمـائها مـع حكام المسيلة السـابقين من بني حمـدون الأندلسي[3]. وكـان هـذا

---

(1) Voir: A. Julien, Hist de l'Afrique du Nord P 68.

(2) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٤.

(3) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

الحلف موجهاً ضد الفاطميين وممثليهم بني زيري، الذين دفعوا ثمن هذا التكتل هزيمة قاسية، قُتل فيها زعيمهم ممثل الخلافة الفاطمية (٩٧١/٣٦١)[1]، بحيث انعكس ذلك على نفوذ الأخيرة وحليفتها القبيلة القوية صنهاجة، بينما تعزز وضع الأمويين الذين استعادوا موقعهم في المغرب الأقصى. غير أن الشعور الأموي بسحق النفوذ الشيعي والقضاء على السيادة الفاطمية الممثلة بالزيريين في هذا الإقليم لم يدم طويلاً، حيث قام الأدارسة بعد عام واحد فقط (٩٧٢/٣٦٢) بثورتهم في المغرب الأقصى وسيطروا على تطوان وطنجة واصيلا[2]، وهي مواقع في غاية الأهمية، لا سيما طنجة التي حرص الأمويون على أن تكون إحدى ركائزهم العسكرية الأولى في المنطقة. فسقط بذلك التحالف السياسي القائم بين الأمويين والأدارسة، وهو في النتيجة تحالف مرحلي ضعيف، من الصعوبة أن يستمر طويلاً لاختلاف المفاهيم لدى كل من الطرفين. وشعر الحكم المستنصر بخطورة هذه التطورات، فصمّم على اتخاذ موقف حازم وقمع الثورة الادريسية المناوئة له بالسرعة القصوى. ولم يعد هنالك من تسويغ لسياسة التدخل غير المباشر بواسطة الحلفاء المحليين وغيرهم من مؤيدي الخلافة الأموية، خاصة بعد الهزيمة القاسية التي تعرّضت لها قواتها في طنجة. ورأى المستنصر أن الوقت قد حان للقيام بعمل تأديبي في المغرب الأقصى، فأرسل حملة عسكرية بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس[3] إلى سبتة، قاعدة الحكم الأموي الوحيدة في ذلك الحين على الساحل المغربي. ومن هناك شنّ هجوماً عنيفاً على طنجة معقل الثورة الادريسية، حيث بذل زعيمها الحسن بن كنون جهوداً عظيمة في مقاومة الحصار الأموي، ولكنه فشل وانتهى الأمر باستسلام المدينة وعودة السيادة الأموية إليها، كما عادت إلى المدينة الأخرى (اصيلا)، وهرب الزعيم الادريسي ولكن دون أن يلقي سلاحه أو يتوقف عن إثارة المتاعب ضد الأمويين. غير أن

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٢.
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٥.

هذه الثورة وإن أصابها الفشل، إلا أنها كانت سبباً في توتير العلاقة بين الخلافتين الفاطمية والأموية وعودتهما إلى المجابهة مرة أخرى(١).

استدعى المستنصر قائده المقرّب غالب بن عبد الرحمن إلى قرطبة وأمره بتنفيذ حملة إلى المغرب الأقصى، لتصفية جيوب المقاومة الادريسية وإعادة السلطة الأموية المطلقة إلى قواعدها السابقة. وكان المستنصر شديد الاهتمام بالتطورات الأخيرة، لما سخّره من طاقات بشرية ومادية في هذه الحملة التي استدعي قائدها من الجبهة الشمالية على تخوم نافار(٢)، ومن المؤكد أن موقف المستنصر المتشدد كان نابعاً من خلفية مذهبية متزمتة، هي في الحقيقة لا تتجزأ عن الذهنية العامة في الأندلس(٣). فالخليفة الأموي المتديّن والمحاط بطبقة من الفقهاء، لا يتردد في سحب قائده البارز من الجبهة الاسبانية وإرساله إلى المغرب، للوقوف في وجه خصومه الفاطميين والأدارسة. وفي رمضان ٣٦٢ هـ عبر غالب بن عبد الرحمن المضيق من الجزيرة الخضراء، وبعد نزوله في الضفة الأخرى انضمت إليه جميع القوات الأموية هناك، كقائد عام للجيش الأموي في المغرب. كما وصلته تدريجياً قوات إضافية أخرى منها حملة القائد المعروف يحيى بن محمد التجيبي، التي ضمت بين عناصرها محمد بن أبي عامر (المنصور)(٤)، وكان لا يزال شخصية مغمورة في ذلك الحين. وما لبثت القوات الأموية أن أخذت تطارد الثوار الأدارسة الذين تجمعوا أخيراً بقيادة زعيمهم الحسن بن كنون في قلعة حصينة تعرف بـ «حجر النسر». وكانت مقاومة ضارية أبداها الأدارسة الذين أُحيطوا بقوات الخلافة الأموية وبمؤامرات قائدها، تفعل مثل السحر في رؤوس جماعة الحسن التي مالت تحت تأثير الأموال الطائلة الموزّعة بسخاء. فاستسلم الزعيم الادريسي أخيراً

---

(١) راجع تفاصيل ثورة الأدارسة في المقتبس لابن حيان ص٦٩ وما بعدها. البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) تروي المصادر التاريخية أن المستنصر خاطب قائده بقوله: سر سير من لا إذن له بالرجوع حياً إلا منصوراً أو ميتاً فمعذوراً.. ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨. ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٧.

للقائد غالب وذهب أسيراً مع عائلته إلى الأندلس. فبقي هناك حتى موت المستنصر، عندما أبعده الوزير المصحفي إلى تونس (٣٦٥/٩٧٥)، ومنها إلى مصر حيث رحب به الخليفة الفاطمي (العزيز)، ليهيىء له بعد قليل من السنوات دوراً جديداً في إطار الصراع الفاطمي ـ الأموي في المغرب الأقصى[1].

وكان الفاطميون بعد نجاحهم السياسي والعسكري في المشرق، قد عادوا إلى الاهتمام جدياً بتلك المنطقة، نواة دولتهم الكبيرة. ففي سنة (٣٦٩/٩٧٩)، كان حلفاؤهم الصنهاجيون من بني زيري، يقومون بثورة ذات طابع شيعي لاسترداد زعامتهم من الأمويين خلفاء الأندلس. وكان على رأسهم بلكين (بلقين)[2] بن زيري الصنهاجي، الذي بدأ تحركه من مدينة فاس وانطلق منها ليقضي على السيادة الأموية في المغرب. وما لبث الزعيم الأدريسي الحسن بن كنون أن وفد من مصر لمشاركة بلكين، في مطاردة الأمويين وترسيخ النفوذ الفاطمي هناك[3]. ومن الواضح أن هذه العمليات جرت في وقت لاحق بعد وفاة المستنصر (٣٦٦/٩٧٦)[4]، وكانت السلطة السياسية الفعلية في الأندلس قد انتقلت إلى أحد موظفي الإدارة الأموية الكبار وهو محمد بن أبي عامر[5]. وفي عهده ازدادت الأوضاع السياسية تعقيداً في المغرب، واحتلت جانباً غير يسير من اهتمامات رجل الدولة الجديد.

ومن الأهمية بمكان، التوقف قليلاً عند هذه الفترة من تاريخ دولة الأمويين في الأندلس. ذلك أن موت الحكم المستنصر، لم يكن حدثاً عادياً يتمثل بغياب حاكم ومجيء آخر، بل كانت له أبعاد أكثر خطورة على مستقبل النظام الأموي بصورة خاصة، إن لم نقل المستقبل السياسي للعرب المسلمين هناك بصورة

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٨.
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٣.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٥.
(٤) أعمال الأعلام ص ٤٣.
(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥١.

عامة. وبعبارة أوضح، كان غياب المستنصر، مؤشراً لسقوط الخلافة التي انتهت فعلياً بموته .وقد لا نبتعد كثيراً عن الحقيقة، إذا ما ربطنا الخلافة بشخصية مؤسسها الناصر، حيث وُلدت معه كمؤسسة إدارية وسياسية، ثم أخذت تتحوّل تدريجياً إلى مجرد لقب رسمي، لخليفة لا تستهويه السياسة كما القراءة ومجالسة العلماء. وإذا كان المؤرخون التقليديون قد وجدوا في اعتكاف المستنصر بين كتبه ومخطوطاته أكثر ساعات النهار، سمة إيجابية في الخليفة العالم والمثقف، فإن ذلك يشكل إحدى نقاط الضعف في نظام المستنصر. ومن البديهي أن المعرفة الواسعة، من ضرورات نجاح الحاكم في كل زمان ومكان، أما أن ينصرف لها وتستحوذ على معظم اهتمامه، فلا بدّ أن يتحول معها من رجل سياسة بحكم منصبه إلى رجل بحث وعلم، ومن الصعب جداً الجمع بين المهمتين، لأن كلاً منها يستلزم التفرغ التام. ولعل ذلك أكثر ما ينطبق على رجل الدولة في الأندلس، أرض التناقضات والصراع السياسي، حيث يفترض أن تكون آلة الحكم مستأثرة بكل طاقاته، موزعة الاهتمام على مختلف الجبهات في الداخل والخارج. وبهذا نصل إلى نتيجة واضحة، أن المستنصر لم يكن رجل المرحلة المطلوب، فجلّ ما قام به هو تجميد الأوضاع السياسية في الأندلس، معتمداً في المقام الأول على تراث أبيه الخليفة السابق، والجمود لا يعني سوى الرجوع إلى الوراء في كل الحالات.

الدَولَة العَامِرِيّة
أبو يعقوب المنصور... على خطى الخليفة العظيم

٣٦٦-٣٩٣ / ٩٧٦-١٠٠٢

الخليفة الطفل و «الحاجب» القوي

إن أخطر مآسي النظام الوراثي في الحكم، هو ارتباط حاضر الدولة ومستقبلها بشخصية رجل غامض هو ولي العهد. فإذا كان من الصعوبة المراهنة على كفاءة من هو خارج الحكم، فكيف بطفل لم يتعد العاشرة أو دون ذلك[1]، وهو هشام بن الحكم وحيد الخليفة الراحل؟

ولا يبدو أن المستنصر كان مطمئناً إلى سير الأمور مع ولده الحدث بعد وفاته، ولكنه يقع في الخطأ الفادح، معتقداً أن ما يشبه مجلس الوصاية الذي شكّله قبل موته من كبار الأعوان الثلاثة: المصحفي وغالب والعامري، سيأخذ بيد الخليفة الطفل حتى يصبح مؤهلاً للحكم الفعلي. وعلى الأرجح أن قرار الخليفة كان تحت تأثير «زوجته» صُبح[2]، صاحبة الكلمة النافذة في القصر والطموح السياسي البعيد، لتمارس دوراً فاعلاً خارج هذا القصر، بواسطة ابنها هشام، حيث اختاره المستنصر «وكيلاً»[3] للأخير قبل وفاته.

---

(١) نفح الطيب ١-٢٥٣، أعمال الأعلام ص٤٤، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٧٢.
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥١.

ولكن اختيار هشام للمنصب الخطير، لم يمر دون اعتراض المعترضين. وما لبث أن احتدم الجدل بين رجالات الدولة، فاختلفت بينهم الآراء بعد وفاة المستنصر تبعاً لمصالحهم السياسية أو علاقاتهم الخاصة. وإذ برز في الساحة أكثر من تكتل، فإن الصراع الرئيسي قام بين اتجاهين: الأول يرفض الخليفة الطفل متذرّعاً بصغر سنه وعجزه عن القيام بسواجبات الحكم قبل مضي وقت طويل، ويرشح عمه المغيرة بن عبد الرحمن بما له من وقار وتجربة[1]. والثاني كان أصحابه رجال السلطة الفعلية منذ عهد المستنصر، الذين أصروا على تنفيذ الوصية، وهم في الأساس مشاركين في صنعها، وجلّهم من محترفي السياسة ومن أصحاب الطموح، لا يرون في تنصيب مرشحهم إلا ضماناً لاستمرار مصالحهم في الحكم. وتبلورت المنافسة على النفوذ من خلال المرشح للخلافة، لتصبح صراعاً عنيفاً بين قادة الجيش وبين رجال الدولة. فكبار القواد من الصقالبة (فائق وجؤذر) كانوا مع الاتجاه الأول[2]، بينما كان الوزير المصحفي وابن أبي عامر وغيرهما من كبار موظفي القصر مؤيدين للاتجاه الثاني، الذي فاز في السباق على السلطة. وبذلك تمّ تنصيب الطفل هشام ليكون الرقم الثالث في مسلسل خلفاء الأمويين في الأندلس، ولكنه ظل مجرد رقم لا أهمية له، وصورة باهتة معلقة في أحد جدران القصر الخلافي[3].

ومن الواضح أن قوة خفية كانت وراء جماعة المدنيين الذين جاءوا بهشام، وهي الأرملة القوية التي عُرفت باسمها العربي صُبح، المأخوذ من الاسم الباسكاوي القديم Aurora[4]. وقد بلغ من تأثير هذه المرأة التي دخلت بلاط المستنصر كجارية تحترف الغناء، أنها أصبحت الشخصية القوية في القصر خاصة بعد إنجابها هشام الابن الوحيد للخليفة، ومن ثم صار لها المقام الأول، لا يُردّ

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٩٦.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٠.

(٣) راجع سيرة هشام المؤيد في أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٤ وما بعدها.

(٤) Aurora كلمة اسبانية معناها الفجر، Aurore في اللغة الفرنسية.

لها قرار ولا تناقش كلمة. وقد ورد اسمها في المصادر الأوروبية يحمل لقباً ملكياً هو «السلطانة صُبح»[١]، على الرغم من أن علاقتها بالخليفة لم تتعد حدود الجارية المحظية، أي أنها لم تكن له زوجة بالمفهوم التقليدي لهذه الكلمة. ويبدو أن هذه المرأة الذكية التي وصلت إلى قلب المستنصر وعقله، كان أكثر ما يستهويها بريق الخلافة وحياة القصور، وهو الجانب الذي طغى على اهتمامها وتفكيرها. أما الجانب الآخر في شخصية المستنصر البحاثة والقارىء حتى الإدمان، فلم يأخذ منها سوى القليل، لأن علاقة إعجاب نمت بينها وبين شاب في مقتبل العمر هو محمد بن أبي عامر[٢]. فهذا الأخير الذي تحدّر من أسرة يمنية عريقة ولكنها غير ميسورة، كان قد بدأ حياته كاتباً للرسائل أمام عتبات القصر[٣]، واستطاع بذكائه الحاد وثقافته الأدبية الرفيعة، أن يرقى فوق الحواجز ويذلل العقبات، حتى أصبح من رواد البلاط الخلافي ووصل إلى قلب المرأة النافذة، فاستهواها شبابه المتدفق وشخصيته الذكية ولسانه الذرب، حيث أتقن جيداً صناعة الكلمة الأنيقة، التي اكتسبها على ما يبدو من احتراف كتابة الرسائل فترة ما في بداية خروجه إلى الحياة العامة[٤]. ونمت العلاقة بين الجارية القوية وبين الشاب الذي لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد، فاتحة أمامه سُبل الارتقاء إلى تحقيق طموحه الكبير. فأخذ يتدرج في مناصب الدولة ويرتفع من وظيفة إلى أخرى، حتى انتهى به الأمر صاحباً للشرطة[٥] قبل وفاة الحكم، أي أنه أصبح الرجل الثاني في حكومة الخلافة بعد الوزير الأول جعفر المصحفي.

وبعد أن شغر منصب الخلافة بوفاة المستنصر، وكان لابن أبي عامر كما رأينا

(١) Dozy: Hist 2, 190 — 195.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن اليزيد بن عبد الملك المعافري. أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٥٩، المعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٨٤. ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٨.

(٣) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٣٧.

(٤) راجع سيرة المنصور في أعمال الأعلام ص ٥٩، نفح الطيب ج ١ ص ٣٩٩.

(٥) أعمال الأعلام ص ٥٩ ـ ٦٠.

الـدور البارز إلى جـانب المصحفي في تنصيب هشام، لم يكن الـوزير حتى ذلـك الحين يشك بولاء صاحب الشرطة له وتنفيذ ما يأمره به، ولو كان قتـل المغيرة بن عبد الرحمن، مرشح التكتل المنافس الذي قضى خنقاً بتدبير منه[1].

لقد كان العامري نوعاً من الرجال الذين لا يقفون بطموحهم عنـد حدود، فالنجاح الذي تكلّل بانتصـار فريقـه في البقاء عـلى رأس السلطة، لم يكن بنظره غير خطوة مرحلية لا بد أن تعقبها خطوات أكثر اتساعاً، ليجد نفسه وقـد أصبح الرجل الأول في دولة الأندلس الأمـوية. غـير أن تحقيق هذا الهـدف، كان دونـه طريق شائك وخصوم أقوياء. ذلـك أن تنافسـاً خفياً عـلى الاستئثار بـالحكم من وراء الخليفة الطفل، احتدم بين ثلاثة من كبار رجالات الدولة الذين آلت إليهم في الواقع مقـاليد السلطة الفعليـة. فالأول هـو الوزيـر المصحفي الذي لا يـزال متمتعاً بالنفوذ الأقوى، باعتباره رأس الـسلطة التنفيـذية أو بمثـابة الـوزير الأول. والثـاني هو محمـد بن أبي عـامـر صـاحب الشـرطـة والمـدعـوم من سيـدة القصر (صُبح). أما الثالث فهو قائد الجبهة الشمالية غالب بن عبد الرحمن، وهـو أقوى شخصية في الجيش، والرجل الذي يتمتع بشهرة عسكـرية ذائعـة ويحظى بتقـدير جميع الأطراف. غير أن هذا الأخير كان أكثر تعلقاً بعمله العسكري، فلم يدخل حلبـة التنافس السيـاسي بشكل ظـاهر، وإن كـان لثقله المعنوي تـأثير خـطير في ترجيح كفة أحد المتنافسين. لهـذا فإن العـامري اتجـه باهتمـامه إلى هـذا القائـد الذي اتخذ من «مدينة سالم» قاعدة له، وتمكن بأسلوبه المرن من اكتساب صداقته وثقته، قبل أن يتقارب الرجلان من بعضهما أكثر، بزواج العامري من ابنـة القائـد في وقت لاحق[1].

وهكـذا انحصرت المنـافسة الفعليـة، بين رجـليّ القصر في قرطبـة: الوزيـر (الحـاجب) وصاحب الشـرطة. وشهـد بلاط الخليفـة الذي أُعـطي لقب «المؤيد بـالله»، صراعـاً على الـدور الأول أخذ يتبلور ويتكشّف في ذلـك الوقت. وكـان

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦١، نفح الطيب ج ١ ص ٣٩٦.
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٠، اعمال الاعلام ص ٦١، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧.

العامري الأسرع في اتخاذ المبادرة وفي اقتناص المناسبات، بعلمٍ أو بغير علم من الوزير. ففي القصر كانت الضربة التي أنزلها بقادة الحرس الصقلبي ورجالهم، الذين تجاوزوا الألف[1]، تحت ستار التأديب لموقفهم المناوىء في معركة تنصيب الخليفة. وقد وجد سبيلاً لاقناع المصحفي بمنطقه، دون أن يكتشف الأخير أبعاد العملية التي لم تكن في مصلحته. وما لبث العامري أن استبدل الحرس الخلافي بعناصر جديدة موالية له، فكانت هذه أولى قراراته الذكية في اتخاذ ركائز له في الدولة لا سيما القصر، توسّلاً إلى تحقيق أهدافه السياسية. وفي تلك الأثناء وقعت حادثة كان لها دور إيجابي في بروز هذا الرجل، عندما شنّت الإمارة الإسبانية قشتالة هجوماً على قلعة رباح (بين طليطلة وقرطبة)[2]، مستغلةً دون ريب ظروف التناحر السياسي في العاصمة بُعَيْدَ وفاة المستنصر. ولم تدرك قشتالة أنها خدمت في هجومها هذا مصلحة العامري دون قصد، ومهّدت له الطريق إلى القمة بصورة غير مباشرة. فقد كانت المحنة التي نزلت بالقلعة في منتهى الشدة وتركت صداها المؤثر في عاصمة الخلافة، دون أن يحرك الوزير المسؤول ساكناً، حيث تجاهلها أو كاد، ربما لخشيته مغادرة العاصمة في تلك الأجواء المتلبدة. وكان هذا الموقف شركاً أوقع المصحفي نفسه فيه دون أن يدري، وأفقده كثيراً من بريقه المعنوي. ذلك أن سياسة الجهاد في الأندلس عكست تأثيرها دائماً على شخصية المسؤول وحجمه، وهي معادلة عامة لها علاقة وثيقة بالأوضاع النفسية في أي مجتمع من المجتمعات، حيث تنعكس عليه الانتصارات أو الهزائم، فترفع الأولى إلى القمة، بينما تطفىء الثانية بريق الحكام وتهز العروش.

وكان العامري يرقب بارتياح موقف الوزير اللامبالي من الهجوم القشتالي الجريء، فاقترح أن يقود الجيش بنفسه إلى الامارة الاسبانية، ردّاً على عملية

---

(١) أعمال الاعلام ص ٦٠ - ٦١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٣، نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٠ .

(٢) الروض المعطار ص ١٦٣ .

القلعة[1]. ولم يمانع الوزير، ولعله رحب بخروج منافسه من قرطبة والابتعاد عنها في حرب «القلاع» البعيدة، بعد أن شعر بوطأة وجوده وتحركاته السياسية المريبة. ولعل الباحث يتساءل عن دور قائد الجبهة الشمالية غالب والرجل القوي في الجيش، وعن تلكؤه في التصدي لهجوم القائد القشتالي؟ ولماذا لم يكن هو، رجل الحرب المتمرس، قائداً للحملة بدل العامري رجل القضاء والإدارة؟ فهل تمّ ذلك بالتنسيق مع هذا الأخير، ليقطف ثمرة عمل يوظفه في خدمة طموحه السياسي؟ ذلك أنه برغم التودد بين الرجلين، لا يبدو أن غالباً كان في صميم اللعبة التي اتخذت من قرطبة مسرحاً لها، وإن كان من المرجح أن جبهة الثغر الأعلى عند حدود نافار ودائرة نشاطه العسكري، كانت من الخطورة بحيث صرف كل اهتمامه لها في ذلك الوقت.

وفي رجب ٣٦٦ هـ/ شباط ٩٧٧ م، نفّذ العامري تجربته الأولى في الحرب على مستوى القيادة. وسار بحملته التي اتخذت طابعاً انتقامياً صرفاً، مستهدفاً الإمارة القشتالية. وانتهى به المسير إلى موقع عسكري للاسبان يُعرف بحصن الحمامة[2] (على مسافة غير بعيدة من مدينة سلمنقة)، فأنزل بالحصن ضربة قوية، كانت متكافئة مع هجوم الأمير القشتالي السابق على قلعة رباح[3]. ولقد أصاب العامري بحملته الناجحة أكثر من هدف، حيث استطاع بواسطة أجهزته ومراكز نفوذه، أن يجعل منها انتصاراً باهراً قوبل بارتياح وإعجاب في عاصمة الخلافة، وكشفت في نفس الوقت موهبة العامري العسكرية إلى جانب مواهبه العديدة الأخرى، وكان الخاسر الأكبر في ذلك الوقت الوزير المصحفي، الذي شعر بأفول نجمه وتراجع نفوذه. وبعد عودته لم يدّخر العامري وسعاً في متابعة الجهود، للاستئثار بالسلطة ومحاصرة ندّه الوزير بحملات نفسية عنيفة تزيد في عزلته وتحجيمه. بيد أن المعركة السياسية بين الخصمين الكبيرين لم تكن بهذه

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٤ ،ابن الأبار،الحلة السيراء ج ١ ص ٢٥٩.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٤.
(٣) المكان نفسه.

السهولة، فالمصحفي لا يزال قابضاً بيده على مقاليد الأمور ومستأثراً بالسيطرة على المناصب الحساسة، خاصة بيت المال بما لذلك من أهمية في اكتساب الأعوان وشراء الأنصار.

وكان القائد غالب الحليف الذي راهن عليه العامري، في الصراع بينه وبين المصحفي. فالعلاقة بين القائد والوزير كانت فاترة منذ أن اتّهم الأخير قائده بالتثاقل في الدفاع عن الحدود الشمالية، خاصة أثناء الهجوم القشتالي على قلعة رباح. ووجد العامري في ذلك مدخلاً لاكتساب صداقة القائد وثقته، فتحوَّل إلى مدافع عنه في أوساط القصر وتسويغ موقفه من حادثة القلعة، حيث تتوَّجت الصداقة بين الرجلين في الحملة المشتركة التي استهدفت أيضاً قشتالة. وعلى الرغم من أن القيادة الفعلية كانت للقائد المحترف غالب، فإن العامري أبدى من البسالة والجرأة ما أثار إعجاب القائد الشهير. ومرة أخرى يعود العامري إلى قرطبة، مكلّلاً بهامات النصر وحائزاً على ثقة إحدى أقوى شخصيات الخلافة الأموية[١]. وبعودته تصبح المجابهة حتمية بينه وبين الوزير المصحفي، حيث كان أول مؤشرات المعركة، انتزاع العامري مرسوماً خلافياً بتعيينه حاكماً على قرطبة. ولم تكن سيدة القصر بعيدة عن هذا الإجراء الذي أطاح بابن الوزير (محمد بن جعفر) الحاكم السابق. وكان المنصب تجربة جديدة لكفاءة العامري، الذي برز فيه كما في قيادة الحملات العسكرية، عندما شهدت العاصمة هدوءاً واستقراراً لم تعرفهما منذ وفاة المستنصر.

ولم يكن عزل محمد بن جعفر في الواقع غير مقدمة للإطاحة بالأب الوزير، الذي شعر بالحصار السياسي والمعنوي المفروض عليه من القصر والجيش. وأخذت كرسي الوزارة تهتز به وهو يتراجع من هزيمة إلى أخرى، في وقت كان العامري ينتقل من نصر عسكري إلى آخر سياسي. فبعد الحملة الثالثة[٢] التي

---

(١) أعمال الأعلام ص ٦١، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٧ .

قـام بها إلى سلمنقـة بالإشتـراك مع غـالب (٣٦٧/٩٧٨)، تمكن من استصـدار مرسوم خلافي آخر بتعيين حليفه القائد شـريكاً للمصحفي في الـوزارة[١]. وكان هذا الإجراء السهم الأخير المستهدف حيـاة الوزيـر السياسيـة، حيث طغى عليه نفوذ القائـد وفقد كـل صلاحيـاته التي انتقلت تـدريجياً إلى شـريكه. ثم جـاءت الضربة القاضية، بعزله من منصبه نهائياً وزجـه في السجن في العام نفسـه[٢].

وكانت التهمة المحبوكة ضد الوزير والتي كان وراءها الجهاز الثلاثي الحاكم (ابن أبي عـامر وأم الخليفـة والقائـد غالب)، هي استغـلال أموال الـدولـة في شؤونـه الخـاصة[٣]. وانتهى الأمـر بالمصحفي الـذي تألق كـأبرز الـوزراء (الحجّاب) في تاريخ الـدولة الأمـوية في الأنـدلس، إلى الموت قتـلاً في سجن المطبق بـالزهـراء (٣٧٢/٩٨٣)[٤]. وكـانت نكبة العـائلة المصحفية بتصفيـة عميدهـا الـوزيـر في السجن وملاحقة أبنـائها واضـطهادهم ومصـادرة أموالهم، قـريبة الشبـه بالنكبـة الشهيرة التي تعرض لها البرامكـة وزراء الدولـة العباسيـة في عهد الـرشيد. كـما كانت مؤشراً لطبيعة العهـد الجديـد الذي أصبـح على رأسـه محمد بن أبي عـامر بنزعته الفـردية العنيفـة، حيث لا يتردد في استعمـال مختلف الوسـائل من أجـل تحقيق أهدافه السياسية، دون تهيّب أو وجل. فبالسهولة وهدوء الأعصاب اللتين قضى بهما على المغيرة بن عبد الرحمن[٥] مرشح الحرس الصقلبي للخـلافة، قضى عـلى منـافسـه المبـاشر جعفـر المصحفي ليـأخـذ مكـانـه في كـرسي الـوزارة، وبالطريقة نفسها سيلجأ إلى تحطيم قـوة الخصم الآخر (غـالب) بعد انتهـاء دوره كحليف مرحلي، ولا يتـورع عن الاصطدام بسيـدة القصر (صُبح)، التي كـانت وراء نجاحه، حتى لا يجد في النهاية قوة غير قوته وسلطاناً غير سلطانه.

وإذا أردنا البحث عن المصدر الذي استمد منـه العامـري قوتـه في مواجهـة

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٦.
(٢) المصدر نفسـه ج ٢ ص ٢٦٧.
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٦٨
(٤) ابن الأبار، الحلة السيراء ج ١ ص ٢٥٩، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٧٠ وما بعدها.
(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦١.

الخصوم الأشداء، فلا جدال في أن قوة القصر كانت وراء كل هذه المعارك السياسية الناجحة. لقد امتلك ناصية الأمور فيه، من خلال استحواذه على إعجاب شخصية القصر القوية، المهيمنة بدورها على ابنها الخليفة، الذي كان يوفّر لقرارات العامري التغطية الرسمية والشرعية. فمن القصر إذن استمد رصيده المعنوي الذي أمّن له الأرضية المناسبة لتحقيق أهدافه، حيث أصبح بنظر الناس ورجالات الدولة المدافع عن النظام وعن استمرارية الخلافة. غير أن القوة المادية التي كانت وسيلته إلى تنفيذ مخططاته الذكية والبارعة، تكمن في الجيش الخاص الذي سعى إلى تأليفه وتنظيمه بعد القضاء على الحرس الخلافي من الصقالبة. فلجأ إلى ملء الفراغ بعناصر غير عربية غلب عليها الطابع البربري، مع أقلية محترفة ومرتزقة من المقاتلين الاسبان، وكان القائد الفعلي لهذه القوة الجديدة جعفر بن علي بن حمدون أو الأندلسي اللقب الغالب عليه[1]، الذي برز في الصراع بين الفاطميين والأمويين على المغرب الأقصى. فهو رغم انتسابه إلى أسرة أندلسية الأصل كما يبدو من اسمه، إلا أنه عاش في المغرب وارتبط مع أسرته بالولاء للخلافة الفاطمية، حتى إذا عهدت هذه الأخيرة بالحكم إلى حلفائها الزيريين، استبد الغضب بالأندلسي وغادر المغرب إلى قرطبة. ويبدو أن علاقة ودّية ربطت بينه وبين العامري، منذ أن أُرسل هذا في مهمة خاصة إلى المغرب، أثناء حملة غالب بن عبد الرحمن التي مرّ ذكرها، وقد جرت هذه الأحداث كما رأينا في عهد الحكم المستنصر.

وفي قرطبة نمت العلاقة بين العامري والأندلسي، حتى إذا تطورت الأمور لمصلحة الأول في بلاط الخلافة، عهد إلى صديقه القائد الشجاع والموهوب بالإشراف على تنظيم الجيش الجديد، الذي اعتمد كما أسلفنا على عناصر مغربية مدربة ومحترفة. ولقد أصاب بذلك هدفين: الأول سد الفراغ الذي أحدثه حلّ الحرس الصقلبي المسؤول عن حماية القصر والعاصمة، والثاني محاولة كبح قوة

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء ج ١ ص ٢٥٩، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٧٠.

القائد العام للجبهة الشمالية، حيث يرابط الجيش الرئيسي للخلافة. ومن الواضح أن تأليف هذه القوة العسكرية المطواعة وعلى رأسها قائد مخلص الولاء للعامري، كان يتماشى مع طموح هذا الأخير الذي بدأ يمارس مهام الوزارة (الحجابة) فعلياً بعد القبض على المصحفي، مع مشاركة رمزية من غالب. فهي عملية توازن مرحلي، لا سيما وقد بدأت المواجهة الفعلية بين الرجلين في الوزارة، ولا بد لأحدهما أن يزيح الآخر من طريقه قبل أن يقضي عليه.

إعلان السياسة الجهادية وحسم الصراع مع غالب امتازت السياسة الخارجية مع الاسبان بطابع جهادي ظاهر، منذ أن أصبح للعامري الكلمة النافذة في شؤون الخلافة الأموية التي تحولت مع الطفل القابع في قصره إلى مجرد رمز ولقب، بينما الدولة ارتبطت بالحاجب الطموح الذي عكس شخصيته وحضوره على كل مؤسساتها وأعطاها ملامح جديدة ومستقلة، بحيث لم تعد الدولة أموية إلا في بلاط الخليفة المستضعف. وسياسة الجهاد عند العامري كانت منسجمة إلى حد كبير مع المراحل التي قطعها لبلوغ قمة السلطة، حيث اتخذها طريقاً إلى تحطيم خصومه واكتساب ثقة الشعب، بما للانتصارات من تأثير إيجابي عليه. كما اتخذها من جانب آخر لإرضاء نزعة خاصة فيه وهي حماية الدولة وحدودها من أعدائها المتربصين بها. وهذه السياسة لم تكن مرحلية فقط ، استخدمها في تحقيق أهدافه الشخصية، بل كانت لها خلفية دينية[1] وثيقة الصلة بالخط العام الذي تبناه في حياته السياسية، سواء في الطريق إلى السلطة أو في القمة بعد أن اتخذ من «المنصور» لقباً، اكتسبه بلا ريب من رصيده الجهادي، أم في علاقاته الودية مع الفقهاء وانسجام المواقف بينه وبينهم. وهي ظاهرة مميزة في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، حيث قام لأول مرة توازن في العلاقة بين السلطة والفقهاء، الذين لهم تأثيرهم الكبير في المجتمع، مما كان يؤدي أحياناً إلى المصادمة الدائمة على النفوذ بينهم وبين السلطة الزمنية، فإما أن تسود كلمتهم، كما حصل في عهود هشام الأول وعبد الرحمن الثاني والحكم

---

(١) ابن عذاري ج٢ ص٢٥٧.

المستنصر، أو يعيشون في الظل كما في عهود الأقوياء من الحكام من أمثال الحكم الربضي. وهكذا فإن العامري كان الحاكم الوحيد الذي بنى علاقات متكافئة مع الفقهاء، فلم يحاول تحجيم نفوذهم برغم سلطته المطلقة من جهة، ولم يفتح لهم أي نافذة للتدخل في شؤون الحكم من جهة أخرى. غير أنه كان واضحاً في تعاطفه الضمني معهم، أن العامري آثر عدم التصدي لهذه الفئة التي يكنّ لها شعوراً ودياً، واحتراماً إنما يعود إلى تربيته الإسلامية وإلى المنابع التي تشرّب منها ثقافته وعلومه الأولى، حيث تتلمذ على أئمة الفقهاء والمحدِّثين في مسجد قرطبة[١].

لقد كانت سياسة الجهاد عند العامري نابعة من هذه الخلفية الدينية، إلى جانب استخدامها في تحقيق مآرب شخصية أخرى سبقت الإشارة إليها. ولعل ما يدفعنا إلى هذا الاعتقاد أيضاً، أنه كان أكثر حكام الأندلس الأموية ارتباطاً بهذه السياسة وتحمساً لها[٢]، كونه الوحيد الذي أعطى من وقته هذا المبلغ للحملات العسكرية التي كان يقودها شخصياً، والتي نافت على الخمسين حملة، مما يعني أنه كان يقوم بأكثر من عملية حربية في العام[٣] ضد الاسبان، في ليون وقشتالة ونافار ومواقع أخرى. وكان الطابع العام لسياسته الجهادية طابعاً هجومياً، بانتزاعه المبادرة من أعدائه الذين أُرغموا على تغيير خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، حيث لا نجد مثيلاً لهذا النوع من العلاقات العدائية بين العرب المسلمين وبين الاسبان في العهود السابقة، بما فيها عهد الناصر.

ولعل أشهر حملات العامري وأكثرها خطورة، حملته الرابعة التي شنها على مملكة ليون في عهد راميرو الثالث، حيث حاصر مدينة سامورة Zamora[٤]

---

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء ج ١ ص ٢٦٨، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٧.
(٢) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٨٣.
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٤٠، المعجب ص ٨٤.
(٤) الروض المعطار ص ٩٨ - ٩٩.

(إلى الشمال الغربي من سلمنقة)، وذلك في مطلع سنة ٣٧١ هـ/٩٨١ م ، ولكنه تراجع عنها إلى مجابهة تحالف القوى الأسبانية بزعامة الملك الليوني على مقربة من قلعة سنت مانكش[١] . وفي هذا المكان جرت معركة من أعنف المعارك ، تجلّت فيها موهبة العامري القيادية وجرأته النادرة ، بحيث أوقع بالأسبان هزيمة ساحقة ،وطاردت قواته فلولهم حتى أبواب ليون عاصمة المملكة الاستورقية . ويُعلّل المؤرخون عدم سقوط المدينة في أعقاب ذلك ، إلى صعوبة المناخ في تلك المناطق الباردة مع حلول الشتاء . ولا يبدو أن ذلك هو السبب الوحيد لتراجع العرب عن أسوار ليون ، لأن المعركة الفاصلة كان توقيتها في صيف تلك السنة (آب ٩٨١)[٢] ، ولا بد أن سبباً أكثر وجاهة دفع العامري إلى الاكتفاء بهذا القدر من الانتصار العسكري ، في وقت بلغت العلاقة بينه وبين قائد الجبهة الشمالية (غالب) حدّاً كبيراً من الانهيار .ولا ريب أن النشاط الحربي المكثف الذي أخذ يمارسه العامري رجل الدولة ، قد أثار حساسية هذا القائد وترك لديه شعوراً بالحذر وعدم الثقة إزاء صهره الخطير . كذلك فإن غالباً العسكري المحترف، لم يستسغ بروز العامري في الميدان الذي تألق فيه، دون منافس وأن يقطف ثمرات النصر على حسابه .

وهكذا انفجر الخلاف بين الرجلين الأكثر قوة في الأندلس الأموية ، وأصبحت المجابهة بينهما حتمية تنتظر الفرصة المناسبة ، دون أن يتخلى أحدهما عن حذره كي لا يقع فريسة الآخر المتربص به . ففي نفس السنة التي حدثت فيها غزوة ليون (٣٧١ هـ) ، دعا غالب خصمه العامري الى القيام بعمل عسكري موحد ، في محاولة لاستدراج الأخير والقضاء عليه . وقد أورد ابن الخطيب تفاصيل هذه المؤامرة التي كان محورها قلعة انتيسة على الحدود الشمالية ، حيث كانت وليمة أعدّها القائد متظاهراً بتكريم صهره ، فإذا ما اجتمعا إلى بعضهما بعد عتاب قصير ، فاجأ غالب خصمه بضربة سيف كادت

---

(١) R . Dozy : Hist 2,234

(٢) O. P. Cit. 2, 234 — 235

تقضي عليه ، لولا أن كان العامري في منتهى اليقظة والحذر ، غير أنه لم ينج من جرح في يده وصدغه[1] .

واعتصم غالب في القلعة بعد فشل مؤامرته ، بينما اتجه العامري إلى مدينة سالم قاعدة خصمه[2] . واتسعت دائرة الصراع بينهما لتضم عناصر من البشكنس ، كانوا الى جانب غالب حسب رواية ابن حيان التي ينقلها ابن الخطيب[3] . غير أن تحالف غالب مع أعدائه التقليديين ، وهو المرتبط اسمه بالجهاد ضد الأسبان ، يحتاج إلى مناقشة برغم وضوح الرواية عند مؤرخ الأندلس (ابن حيان) ، الذي زعم «بأن طائفة من البشكنس مع ابن ملكهم » قاتلت إلى جانب غالب . أي أن تحالفاً رسمياً بين الطرفين تمّ بموافقة الملك وليس مجرد مقاتلين مرتزقة ، كانوا أساساً في عداد قوات القائد العام للجبهة الشمالية . ولعل في هذه الرواية شيئاً من عدم الدّقة أو تعريضاً بهذا القائد لاعتبارات لم يكن المؤرخ بمنأى عن الالتزام بها . فعلى الأرجح أن العناصر الاسبانية التي قاتلت إلى جانب غالب ، كانت مرتزقة سبق للدولة أن استعانت بها، خاصة بعد إعادة تنظيم الجيش في هذا العهد كما أشرنا في حينه . كما أن المؤرخ ابن حيان الذي عاش نفسياً في أجواء الموالاة للعامري عندما كان أبوه كاتباً لهذا الأخير[4] ، لا يُستبعد أن يكون قد ألصق هذه التهمة بالقائد الكبير ، الذي استمد شهرته العسكرية من حروبه ضد الأسبان .

كانت المجابهة صعبة ودقيقة بين القائدين ، حيث جنّد كل منهما أقصى امكاناته للقضاء على خصمه . وكان العامري قد اصطحب معه قائده (الأندلسي)[5] ، الذي احتل مكان غالب في الوزارة ، عندما حدثت المعركة

---

(١) أعمال الأعلام ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٤) أعمال الأعلام ص ٧٠.

(٥) جعفر بن علي بن حمدون. اعمال الاعلام ص ٦٣ .

الحاسمة التي انتهت بسقوط هذا الأخير إثر إصابته بجراح ، أو نتيجة ارهاق مبعثه بداية الشيخوخة[1] . وكانت هذه المعركة من أصعب ما واجه العامري في حياته العسكرية ، إذ كاد يفقد حياته مرتين لو لم ينقذه الحذر في الأولى والحظ في الثانية ، عندما سقط خصمه القوي عن حصانه في أشد الظروف حراجة .

وعاد العامري إلى قرطبة وقد أصبح الرجل الأقوى والحاكم المطلق في دولة الأندلس ، التي أخذت منذ ذلك الوقت تتخلص من ثوبها الأموي باستثناء لقب الخلافة، الذي لم يعد يُسمع إلا في الخطبة الرسمية ابان صلاة الجمعة في المسجد الكبير . أما الدولة كمؤسسة ونظام فقد غابت عنها الشخصية الأموية تماماً وارتبطت كافة أجهزتها بهذا الشاب الطموح ، الذي توّج نفسه بعد انتصاره على غالب والأسبان تحت لقب المنصور (أواخر ٩٨١ م) ، تيمناً بالألقاب الملكية التي حملها أسلافه من الخلفاء الأمويين ، ثم نقش اسمه على النقود وأمر بترديده على منابر المساجد ، عدا مظاهر العظمة الأخرى التي أُحيط بها في ذلك الوقت . ولعله كان متأثراً بسلفه الناصر إلى حد كبير ، فاستمد منه الطموح وقوة الاحتمال واللقب الملكي ، وحتى الذوق الفني في العمارة . وهل كانت «الزاهرة»، ذلك القصر الفخم الذي بناه على ضفة الوادي الكبير، إلا مظهراً من مظاهر هذا التأثر بالخليفة الأسبق ومحاكاة لمدينته الملكية الشهيرة (الزهراء) ؟

العلاقات مع الأسبان انفرد المنصور بالسلطة المطلقة بعد تصفية جميع خصومه ، وكان آخرهم قائده المقرّب (الأندلسي) الذي تخلص منه في منادمة استدرجه اليها[2] . فقد كان يرتاب بكل الأقوياء ، ولا يطيق مشاركة إلا من هم دونه وخاضعين لإرادته . وهي ظاهرة عامة في نظام الحكم الفردي ، حيث تتحول كل أجهزة الدولة ومؤسساتها إلى قبضة رجل واحد ويرتبط مصيرها بمصيره .

ولقد أشرنا إلى النزعة الجهادية في شخصية المنصور وذكرنا أنه قام بعدة

(١) أعمال الأعلام ص ٦٤ .
(٢) المصدر نفسه لابن الخطيب ص ٧٧، ابن عذاري ج ١ ص ٢٨٠ .

غزوات إلى الجبهة الشمالية ، قبل أن يزيح من طريقه قائد هذه الجبهة ، لا سيما حملة ليـون المظفـرة التي وصل فيهـا إلى أسوار المـدينة . ولا سبيـل الى تتبع كـل حملات المنصور ، لأن ذلك يستلزم منا بحثاً خاصاً وتفاصيـل قد تضيق بهـا هذه الدراسة . على أن أبرز أعماله العسكرية بعد حملة ليون الآنفة الذكر ، حملته إلى برشلونة في الشمال الشرقي من دولته. وكانت هذه المدينة قد انتُـزعت من أيدي العرب في أيام شارلمان ، وغدت عاصمة لاقليم مستقل عُرف باسم قـطالونيـة ، الذي اندمـج في وقت متأخـر مع دويلة أراغـون (إحدى الممـالك الأسبـانية) . وهذه الحملة يصنّفها المؤرخون بأنها الثالثة والعشرون من غزوات المنصور ، وقد حـدثت في سنة ٣٧٤ ـ ٣٧٥/٩٨٥ ، استـطاع خلالهـا أن يوقـع بحاكم الأقليم (بوريل الثاني) Borell II عدة هزائم تتوجت بـاقتحام المـدينة[١] . ومن حمـلاته الشهيـرة أيضاً حملتـه الغربيـة عبر نهر (دويـرة) ، الى سانتيـاغو[٢] في البـرتغـال (٣٨٧/٩٩٧) . غير أن أشد حمـلاته عنفـاً حسب ما أورده ابن الخـطيب[٣] هي حملة قشتـالة في سنـة ٣٩٠ هـ/٩٩٩ م ، حين جـابه المنصـور في هجومـه تكتـل القوى الأسبانية بزعامة الملك شنجة في معركة طاحنة عند جبـل جربيـرة . وكان المنصور يعتمد عـلى إمدادات القـاعدة العسكـرية المهمـة في مدينـة سالم ، حيث حالفه النصر الباهر مرة أخرى وأوقع بالزعماء الأسبان هزيمة قاسية[٤] . ويبدو أن معركة جربيرة، كانت آخر أعمال المنصور الهامة ضد الممالك الأسبانية . فقد توفي بعد عامين منها (٣٩٢ هـ) ، دون أن تلحق به هزيمة ما، حيث كان النصر حليفـه على مختلف الجبهات التي خـاض عليها معـاركه السيـاسية والعسكرية[٥]. ولعله أول حاكـم في الأندلس أعطى لجبهة الحدود الشمالية ذلك الاهتمام ، وكرّس لها هذا الوقت ، بحيث تغيرت في عهده خطط الحرب،من دفاعية تقـريباً في عهـود

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٧١.
(٢) مدينة على ساحل المحيط . وردت البرتغال في أعمال الاعلام باسم (البرطقال) ص ٦٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٦٩ . ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧ .
(٤) أعمال الاعلام ص ٦٩ ـ ٧٠ .
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٠ .

أسلافه ، إلى هجومية في عهده تترصد تحركات العدو وتوقع به الضربات المتوالية . ولا ريب أن سنواته السبع والعشرين التي أمضاها على قمة السلطة في الأندلس ، كانت كابوساً رهيباً أذاق ملوك الاسبان الخوف والدمار والهزائم . أما على صعيد الأندلس ، فقد رفعت هذه الانتصارات العظيمة المنصور إلى مصاف الأبطال الأفذاذ ، ومنحته تأييداً شعبياً واسعاً ، وظّفه في خدمة نظامه الفردي المطلق ، بحيث أن أي تحرك ثوري أو صوت معارض لم يجرؤ على الارتفاع في عهده . ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العديدة وما عكسته من رخاء اقتصادي على المجتمع الأندلسي ، أعطى لعهد المنصور شخصية مميزة وطبعه بالاستقرار والارتياح العام ، برغم سياسة القمع الداخلي التي خنقت أجواء الحرية الفردية، وشلّت كثيراً من النتاج الإبداعي والعطاء الفكري المتطور .

العلاقات مع الفاطميين كانت سياسة المنصور المغربية ، استمراراً للسياسة العامة التي سارت عليها دولة الأندلس منذ عهد الخليفة الناصر ، وهي في مضمونها تمثل أحد مظاهر الصراع السياسي والمذهبي ضد القوى الشيعية ، من الفاطميين وبقية الأدارسة في المغرب الأقصى . ولعل المنصور كان أكثر طموحاً في هذه المنطقة ، حيث أصاب نجاحات عسكرية مرموقة ، في وقت صرفت فيه الدولة الفاطمية جلّ اهتمامها إلى المشرق ، من ملاحقة القرامطة الى التصدي للخطر البيزنطي في بلاد الشام . غير أن الفاطميين لم يحوّلوا أنظارهم نهائياً عن المغرب ، ذلك الأقليم الأثير ومركز إنطلاق دولتهم في العالم الإسلامي . فما كادت تلوح فرصة أمام الخليفة (العزيز) ، حتى أوعز إلى الزعيم الصنهاجي بلكين بن زيري ، بالتوجه إلى المغرب الأقصى لاستعادته من التبعية الأموية (٣٦٩/٩٧٩)[1] . فتحرك بلكين على رأس قوات كبيرة ، مستهدفاً مدينة فاس (عاصمة الأدارسة)، فاستولى عليها وتعقب جماعة الأمويين وحلفائهم من قبيلة زناتة حتى الساحل الشمالي . ولم يستطع

(١) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٤٥ .

«الأندلسي» قائد الدولة العامرية الذي أرسله المنصور ، لمنع عودة النفوذ الفاطمي الى المغرب الأقصى ، أن يحقق شيئاً من مهمته فرجع الى قرطبة والسيادة الأموية تكاد تخرج نهائياً من تلك المنطقة .

وكان من نتائج هذا الانقلاب الزيري الذي أعاد السيادة الفاطمية إلى المغرب الاقصى ، أن المنصور أخذ يعطي جانباً من اهتمامه العسكري لحدوده الجنوبية . وأقام لهذه الغاية مركزاً للعمليات الحربية في الجزيرة الخضراء ، من أولى مهماته إستعادة المغرب الأقصى ومراقبة الحركات المناوئة للدولة العامرية الممثلة للخلفاء الأمويين . ونتيجة لذلك ، ستشهد هذه المنطقة تطورات سريعة وانقلابات في المواقف السياسية ، لم يكن شبح المنصور وحضوره القوي بعيدين عنها . فحركة ابن زيري لم تلبث أن استنفدت نفسها بعد الضغط «العامري» وحشوده المسلحة في سبتة من جهة ، واضطراب الجبهة المؤيدة للفاطميين وتناقضاتها من جهة أخرى . ذلك أن ظهور الزعيم الادريسي الحسن بن كنون فوق ساحة الصراع السياسي في المغرب ، أدى إلى خلط الأوراق وبلورة مواقف جديدة .

ويبدو أن الحسن بن كنون الذي التجأ بعد طرده من الأندلس الى بلاط الفاطميين في القاهرة ، قد ثقل وجوده على خليفتهم العزيز ، كما ثقل في وقت سابق على المنصور ، فدفعه ذلك للعودة إلى المغرب للتنسيق مع ابن زيري والوقوف معه في وجه الأطماع الأموية . وراقت هذه الفكرة للزعيم الأدريسي ، خاصة بعد أن منحه العزيز تفويضاً لحكم هذا الأقليم باسمه . فتوجه فوراً إلى المغرب الأقصى (٣٧٣/٩٨٣) ، وما لبث أن استقطب تأييداً واسعاً من البربر خاصة بني يفرن ، من فروع القبيلة الكبيرة زناتة[١] . ولعل أحد مؤشرات هذا الصراع في المغرب الأقصى ، ان القبيلة فقدت وحدتها السياسية تحت تأثير المصالح المختلفة التي تجاذبتها بين ولاء وآخر . ولم يكن ما يثير الدهشة أن

---

(١) السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج١ ص٢٠٣ .

تنقسم القبيلة الواحدة بين اتجاهين متناقضين ، أو تنتقل بكاملها من المعارضة إلى الموالاة أو العكس بالسرعة ذاتها . فبنو زناتة عُرفوا بولائهم الأموي التقليدي حتى أن الجيش الذي أرسله المنصور العامري ، لاسترداد النفوذ الضائع في المغرب كان يضم نسبة كبيرة من القبيلة الزناتية . وقد استطاع هذا الجيش الذي قاده ابنه عبد الملك ، وضم ابن أخيه عمرو بن عبد الله ، أن يقضي على محاولة الزعيم الادريسي وسابقتها الزيرية في المغرب الأقصى ، الذي غاب عنه النفوذ الفاطمي مرة أخرى[1] . وانتهى الأمر بزعيم الأدارسة إلى الاستسلام (٣٧٥ هـ) ، بعد أن وافق المنصور على مطلبه بالعفو عنه ، وتمّ الاتفاق على أن يقيم في العاصمة الأندلسية . غير أن المنصور لم يكن سوى متظاهر بالموافقة ، بينما هو يبيّت قرار قتله عند أقرب مناسبة ، حتى إذا سار الى قرطبة بعث اليه أحد رجاله لهذه الغاية وهو لا يزال في الطريق إلى الأخيرة . فغابت مع الحسن بن كنون آخر حلقة من تاريخ الادارسة السياسي في المغرب الاقصى ، وسقطت معها فكرة إحياء السيادة الفاطمية بالتعاون مع زعماء محليين ، يضمنون استمراريتها ولو في إطار رمزي[2] . وما لبثت هذه الحركات الأقليمية أن اتخذت طابعاً استقلالياً ، سيدفعها إلى الوقوف في وجه التيارين المتناقضين الفاطمي والأموي .

وكان المنصور بعد انتصاراته في المغرب الأقصى ، قد عين أحد مساعديه (الحسن بن أحمد السلمي) نائباً له في هذا الأقليم (٣٧٦/٩٨٦) ، وكانت زناتة إحدى أهم القوى السياسية التي اعتمد عليها في المغرب . والواقع أن هذه القبيلة ، برغم جنوح فروع منها بين الحين والآخر ، ظلت في صف واحد مع النظام الأموي في الاندلس ، خاصة بعد مجيء المنصور العامري الى السلطة في قرطبة واعتماده في تنظيم جيشه على عناصر من هذه القبيلة . فكان أن وحّدت هذه المبادرة مشاعر الزناتيين في الأندلس والمغرب ، ووضعتهم في جانب الموالاة

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨١ .
(٢) أعمال الاعلام ص ٦٦ .

للدولة العامرية . وبلغ التحالف أقصاه باتخاذ حاكم المغرب العامري، زعيم مغراوة، إحدى فروع القبيلة الزناتية مساعداً له، وهو المعروف باسم زيري بن عطية المغراوي[1] .

وسادت المغرب في أعقاب هذه الاجراءات حالة من الهدوء والاستقرار، امتدت نحو عشر سنوات (٣٧٦ هـ ـ ٣٨٦ هـ)، كانت العلاقات خلالها بين السلطة الحاكمة وحلفائها الزناتيين، ودية وتتسم بالتعاون . ونال زعيمها (المغراوي) مكانة رفيعة لدى حكومة قرطبة، التي وقفت من هذا الدور الإيجابي موقفاً متعاطفاً وأحاطته بكثير من الاهتمام .

بيد أن تطورات مفاجئة قلبت العلاقات الودية بين الطرفين، ودفعت الزناتيين الموالين بالطبيعة للدولة العامرية الى الثورة، وذلك بزعامة الصديق المقرّب من قرطبة، زيري المغراوي نائب الحاكم في المغرب الأقصى . ولا نكاد نلمح في سطور الروايات التاريخية التي دوّنت أخبار هذه الثورة، أي تسويغ مقبول لقيامها، باستثناء ما قيل من أن أسباباً اقتصادية كانت وراء نفور الزعيم المغراوي، أو ما قيل عن استخفاف هذا الأخير بلقب الوزارة الذي منحته إياه حكومة قرطبة، حيث وجد فيه ـ حسب تعبير الرواية ـ تقليلاً من وزنه السياسي كأمير ينتمي إلى قبيلة كبيرة[2] . غير أن هذه المصادمة إن صح وقوعها بين المنصور وزيري، فهي غير صالحه لأن تكون مقدمة ثورة شاملة تستقطب البربر، دون أبعاد سياسية ورواسب تاريخية معروفة، حدت بالزعيم المغربي إلى التمرد ضد الوصاية العامرية . فقد شعر زيري بقوته من خلال القاعدة الشعبية التي التفّت حوله من سواد قبائل البربر، التي استهواها دائماً الاستقلال بشؤونها السياسية والاقتصادية . وكان زيري بشخصيته الذكية قد احتل مكانة عالية لدى جماعته من البربر، فتحول بنظرهم الى قائد شعبي، تتجسد فيه آمالهم البعيدة في السيادة والاستقلال .

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) المكان نفسه.

وهكذا امتدت الثورة الى فاس واستولت عليها بعد مذبحة استهدفت أعوان الدولة العامرية ، ثم أخذت تنتشر بسرعة في مناطق المغرب الأقصى حتى خضعت بكاملها ما عدا الجيوب الساحلية مثل طنجة وسبتة التي ظلت على ولائها لحكومة قرطبة . غير أن الثورة المعاكسة ما لبثت أن ظهرت في طنجة ، بعد وصول أحد قواد الجبهة الشمالية في الأندلس إليها ، إلا أن تأثيرها كان محدوداً ، حيث فشلت في التوغل بعيداً عن هذه المدينة . فاضطر المنصور الى اتخاذ إجراءات أكثر فاعلية ، وعاد إلى إحياء قاعدة العمليات القديمة في الجزيرة الخضراء ، وإرسال ابنه عبد الملك في حملة قوية الى المغرب الأقصى[1] ، مؤدياً ذلك إلى نوع من التوازن في القوى بين الطرفين . غير أن المنصور اصطدم مرة أخرى بحجم التأثر المغربي والتأييد العريض الذي استقطبه، مما حال دون حسم عسكري للثورة ، إلا بعد لجوء المنصور إلى اختراق جبهتها بأساليبه المبتكرة التي شقّت وحدة الانسجام فيها ، والتي كان من نتائجها إصابة زيري بطعنة قوية نفّذها أحد المقاتلين في معسكره ، بالتواطؤ مع المنصور[2] . وانتهى الأمر بحملة عبد الملك إلى الانتصار في معركة عنيفة (بالقرب من طنجة) ، وإعادة الهدوء الى المغرب الاقصى ، بينما هرب القائد الثائر بجماعته نحو الشرق، واتخذ من أقليم الزاب في المغرب الأوسط مسرحاً جديداً لنشاطه ، حيث كانت السيادة المباشرة للصنهاجيين من بني زيري ، حلفاء الدولة الفاطمية . وما لبث الصراع التقليدي بين القبيلتين (زناتة وصنهاجة) أن تفجّر من جديد ، وشهد المغرب الأوسط سلسلة مواقع حربية بينهما ، أدت إلى وقوع اقليمي تاهرت وتلمسان في قبضة الزعيم الثائر المغراوي[3]. وكانت من أولى نتائج هذه الانتصارات التي حققها الزناتيون ، أنها بدّدت سحابة الخلاف بين الأخير وحكومة قرطبة ، وذلك لحاجته الى دعم سياسي وعسكري ، بعد أن

---

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) المكان نفسه، ابن خلدون ج٧ ص٢٣ .

أصبح على تخوم الدولة الفاطمية . وخيّم على تلك المنطقة هدوء نسبي بعودة الحكم المباشر لدولة الأندلس في المغرب الأقصى، وبقيام حكم غير مباشر هنا في بعض نواحي المغرب الأوسط ، استمر حتى وفاة المنصور العامري . فحدث آنذاك تحوّل جذري في الأوضاع السياسية بصورة عامة ، ليس فقط في المغرب الأقصى ولكن في الدولة العامرية نفسها ، حيث اهتز النظام المركزي بعد غياب القبضة الحديدية ، وافتقدت قرطبة آخر خيوطها الواهية التي تربطها ببقية الأندلس .

مات المنصور في رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، وقد ناف على الستين من عمره، مختصراً فيه منجزات عهود. ولعله كان جزعاً ، مغرقاً في اليأس على مستقبل دولته التي بناها بالطموح والذكاء والإرادة الجبارة(١) ، مدركاً أنها لن تعيش طويلاً بعد غيابه ، حيث قدر الدول التي تربط مصيرها بالأفراد ، فتصعد مع الشخصيات الفذّة وتهبط مع الضعفاء ، وكان أكثر ما ينطبق ذلك على الأندلس ، التي فشلت منذ البداية في اقامة نظام ثابت ، تستمد منه بقاءها وحيويتها المستمرة . فكان تاريخها على مدى القرون الثلاثة الماضية ، تاريخ أشخاص أكثر مما هو تاريخ دولة ، وهذا ما تجسّد بعد غياب المنصور ، أحد هؤلاء العظام الذين صنعوا دولة ولم تصنعهم ، فكان غيابه كارثة ومؤشراً الى خراب .

ولقد روت المصادر الأندلسية ان المنصور دُفن في مدينة سالم Mednaceli ، حيث توفي على الأرجح وهو يعدّ لغزوة أو أنه كان عائداً منها(٢) . كما أن بناء قصر خاص له في هذه القاعدة العسكرية الهامة التي كانت تُوجّه منها الحملات

(١) تروي المصادر أن المنصور كان مدمناً على العمل ومراجعة شؤون الدولة حتى ساعة متأخرة من الليل حتى لا يفوته أمر من أمورها . ويشير ابن الخطيب إلى أن كاتب المنصور طلب من سيده أن يخلد إلى الراحة بعد سهر طويل فاجابه بقوله : «حارس الدنيا لا ينام إذا نامت الرعية ! لو استوفيت نومي ، لما كان في دور هذا البلد عين نائمة . . » أعمال الاعلام ص ٧٦ .

(٢) يشير ابن الخطيب إلى أن المنصور توفي إثر عودته من غزوة في قشتالة . اعمال الاعلام ص ٨٠ - ٨١، الاحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٧٢ .

الى الممالك الاسبانية ، له دلالة واضحة على عمق الشعور الجهادي لدى المنصور ، بتكريسه الجانب الأهم من حياته السياسية لمقارعة الأسبان واجتياح معاقلهم وتدمير مدنهم وانشاءاتهم . لقد طغى الجانب العسكري في عهده على كل ما عداه من مجالات الدولة الأخرى ، بحيث لم يترك غير فسحة محدودة للنشاطات الثقافية التي عجّ بها قصر الخليفة السابق ، أو العمرانية التي كانت طابع العصر في عهد الناصر . كما أن حياة القصور المترفة لم تبهر المنصور ، الرجل القادم من بيئة متوسطة أو تغرقه في خمولها . فعدا القصر الخاص الى الشمال الشرقي من قرطبة (٣٧٠/ ٩٨٠) ، الذي سماه الزاهرة[1] ليحاكي به مدينة سلفه العظيم (الزهراء) ، أو القصر الذي نسب اليه في مدينة سالم ، فإن اهتماماته العمرانية لم يكن لها بعد خاص ، بل كانت في معظمها انشاءات عامة ، مثل القنطرة الشهيرة على نهر الوادي الكبير ، التي جدّدها وأضاف عليها تعديلات هامة (٣٨٩ هـ) ، والقنطرة الأخرى في مدينة استجة الواقعة على نهر شنيل[2] (أحد روافد الوادي الكبير) . بالإضافة إلى إنشاء سبل للماء في عدد من أحياء قرطبة لسقاية الناس ، دون ان ننسى طبعاً ذلك الجناح الكبير الذي زاد به المسجد الكبير ، حيث تقدّر مساحته بثلث المساحة العامة للمسجد[3] ، وهو يُعرف إلى الآن بجناح المنصور . وعلى الرغم من أن هذا الجزء دون بقية الأجزاء في المستوى الفني والزخرفي[4] ، بيد أنه لا يخرق أبداً وحدة الانسجام الهندسي للمسجد ، الذي يُعتبر حتى الآن أعظم مساجد العالم ، وإحدى المفاخر الحضارية التي تركها العرب المسلمون وراءهم في الأندلس .

(١) أعمال الاعلام ص ٧٦، الروض المعطار ص ٨٠ ـ ٨٢ .
(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٨، الروض المعطار ص ١٤ ـ ١٥، أعمال الاعلام ص ٧٦.
(٣) أعمال الاعلام ص ٧٦، ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٧ .
(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨٧ .

سقوط الدولة الأموية

لم يغب المنصور عن المسرح السياسي في الأندلس ، دون أن يترك حضوراً في المؤسسة التي أقامها وارتبطت به الى حدّ كبير . ولو قدّر أن يرث دولته هذه أشخاص من طرازه ، لأمكن لها أن تصمد مدة أطول وتحقق ما لم يتح لمؤسسها أن يقوم به . على أن أبرز ملاحظة يمكن تسجيلها ، هي أن « الوزارة » التي هيمن من خلالها المنصور على خلافة الأمويين الأندلسية ما يقارب الثلاثين عاماً ، تجاوزت معه حدود هذا المنصب ، بحيث تحولت إلى دولة مستقلة ، لها ملامحها الخاصة. فجاء الابن الأكبر للمنصور ، عبد الملك (المظفر)[1] إلى الحكم وكأنه يتلقى حقاً طبيعياً اكتسبه بالوراثة . أما الخليفة الذي لم يعد طفلاً ، فلا زال يعيش بأحلام الطفولة في سجنه المترف ، غير شاعر بما يجري من حوله .

ولقد بدأ عبد الملك (المظفّر) عهده بخطوات اصلاحية هامة، مستلهماً تراث أبيه الجهادي بصورة خاصة، دون أن يكون بعيداً عن أجواء الحرب وما تتطلبه من مهارة قيادية اكتسبها من تجارب عديدة سابقة. لذلك ارتبط عهده منذ مجيئه إلى السلطة بالسياسة الجهادية ضد الاسبان، يحدوه إلى ذلك - عدا التأثر بوالده - ثقافة إسلامية ونزعة دينية، فضلاً عن إحساس مشبعٌ

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٤٣٣ ، اعمال الاعلام ص ٨٣ - ٨٤ .

بالعدل والانفتاح، حتى وُصف بأنه أكثر إنسانية من المنصور[١]. غير أن المظفر كان بدون ريب ظلاً من ظلال هذا الأخير وليس نسخة عنه. فالأب كان عبقرياً من عمالقة السياسة والقادة العسكريين، بينما الابن لم يكن غير حاكم عادي، فيه من الصفات الجيدة التي تؤهله للقيام بأعباء المهمة الصعبة، ولكن الفراغ الكبير بعد المنصور، وضيق المسافة الزمنية لعهده التي اقتصرت على سبع سنوات فقط، كانا من العوامل السلبية التي أعطت لعهده صورة باهتة، مما لا يتوافق مع الجهود التي بذلها في مختلف المجالات، والتي كان لها حظاً غير قليل من النجاح.

وتركز الروايات التاريخية بصورة خاصة على الجانب الجهادي في شخصية المظفّر، الذي وجد نفسه في مواجهة التحركات الصليبية على جبهة الحدود مع الأسبان، بحيث أتيحت الفرصة لهؤلاء ان يخرجوا من وراء خط الدفاع المتراجع الذي فُرض عليهم في عهد المنصور، الى محاولة استئناف المبادرات الهجومية بعد موته. لذلك استعادت الجبهة الأسبانية تماسكها الذي اهتز في أعقاب الهزائم العديدة في العهد السابق، حيث كان حاكم برشلونة[٢] أول المبادرين الى خرق السلام في هذا الأقليم، إلا أن المظفّر كان قاسياً في رده على تحرك الأخير. ويبدو أن حادثة برشلونة أدّت الى تفسّخ في الجبهة الاسبانية وإعادتها مجدداً إلى أجواء التشاحن والمقارعة، عندما نشب خلاف بين حاكمي قشتالة وجليقية[٣]، بينما استقل المظفر في المقابل هذه الأجواء، مستدرجاً المتخاصمين الى الاحتكام لديه[٤]، على غرار ما جرى في أيام الناصر، لتسوية مشاكلهم الداخلية التي نجمت عن الخلاف، حول من له حق الوصاية على الملك الصغير، أهو الحاكم

---

(١) أعمال الاعلام ص ٨٤ ـ ٨٥، العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس ص ١٣٨.

(٢) ابن عذاري ج ٣ ص ٤ ـ ٨.

(٣) كان هذا الأخير وصياً على ملك ليون الطفل (الفونسو الخامس)، راجع ابن عذاري ج ٣ ص ٥. أعمال الاعلام ص ٨٧.

(٤) ابن عذاري ج ٣ ص ١٠.

الأقليمي (كونثالث) أم خال الملك (شنجة)[1]؟ ولم يكن قرار المظفر الذي حكم للأول ، إلا عاملاً لتصعيد الفوضى في أكبر الممالك الاسبانية ، التي بقيت مشلولة النشاط بصورة عامة حتى أواخر عهده[2] .

ومن ناحية أخرى فإن «حاجب الاندلس» ، اعتمد برنامجاً تقليدياً فيما يتعلق بسياسته الاسبانية ، فكان يقود كل عام تقريباً حملة عسكرية إلى ما وراء الحدود في الشمال ، بحيث أن مجموع هذه الحملات بلغ سبعاً كما أوردت الروايات التاريخية[3] . ولعل المظفّر كان يستمد قوته العسكرية من الجيش النظامي ، الذي خبر جغرافية المناطق الوعرة في الشمال على مدى أعوام طويلة سابقة ، ومن عدم الانسجام في الموقف السياسي بين القوى الأسبانية صاحبة الثقل المعنوي والمادي . وهذا ما أعطى المظفر فرصة تاريخية للاحتفاظ بالمبادرة في يده ، برغم المؤشرات التي أوحت بعد غياب المنصور ، بأن اختلالاً في المواقف بين الطرفين كان من المرتقب أن يحدث ، ويُعيد التوازن العسكري في المنطقة الشمالية الى سابق عهده . وهكذا فإن تراث المنصور الجهادي وتمزق الجبهة السياسية في مملكة ليون ، زعيمة التكتل الاسباني ، بالاضافة الى جدّية المظفر وبراعته القيادية ، انعكست على هذا العهد من الدولة العامرية استقراراً سياساً في الداخل ، ودوراً ساطعاً لعله الأخير في المحافظة على مبادرة الهجوم في مناطق الحدود الشمالية . وقد يصح القول إن سنوات المظفر الناجحة في حكم الأندلس ، كانت الفصل الأخير من الدولة العامرية في إطار المفهوم السياسي الذي تبناه مؤسسها المنصور .

وكانت سياسة المظفر المغربية أيضاً استمراراً لسياسة العهد السابق ، الرامية إلى تأكيد السيطرة على المواقع الساحلية الهامة واكتساب مودة البربر في المغرب الأقصى ، لا سيما زناتة الحليفة القديمة لدولة الأمويين الأندلس . أما في المغرب

---

(١) كان الأول حاكم جليقية بينما الثاني حاكم قشتالة .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

(٣) أعمال الاعلام ص ٨٧، ابن عذاري ج ٣ ص ٤ ـ ١٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٤٢٣ .

الأوسط ، حيث نجح المغراويـون من هـذه القبيلة ، بـإقـامـة حكم لهم هنـاك في أعقاب ثورتهم على المنصور ، فقد استمرت العلاقات ودّية بين المعز بن زيري ، الذي أصبح حـاكماً عـلى هذا الأقليم بعـد موت أبيـه وبين المـظفر وزيـر الدولـة العـامريـة ، حيث دان الأول بتبعية غـير مباشـرة للثاني ، كـان فيهـا من الافـادة والمصلحة المشتركة للطرفين ، فضلاً عن اكتساب زعيم القبيلة الصنهاجية ، ومـا يرميه الى أبعاد شبح الفاطميين عن المغرب ، حتى أنه لم يتردد في اجتذاب بعض زعماء الزيريين من قبيلة صنهاجة واحاطتهم بالحفاوة والترحيب[١] .

وبينما الأمور آخذةٌ خطّها المتوازن والـطبيعي على مختلـف الجبهات الـداخلية والخارجية ، تفتقد الأندلس حاكمها الجدي والوقـور ، وهو يقـود حملة عسكريـة الى الشمال . وقيل انه أصيب بذبحة قلبية بعـد وصولـه إلى مدينـة سالم[٢] ، أو انه قضى اغتيالاً ، على يد أخيه وخليفته (عبد الرحمن)[٣].

وجاء إلى الحكم (الحجابة) أخوه عبد الرحمن، المعـروف في المرويـات باسم «شنجول»[٤] «Sanchuela»، الذي كان نمـوذجـاً مختلفـاً عن سلفيـه في الأسـرة العامرية. فقد وُصف بـأنه ضعيف الشخصيـة، ميّال إلى الـدعة والاسـترخاء في أجواء الترف، قليل الاهتمام بالسياسة الجهادية التي كانت مقياس كفاءة الحـاكم الأنـدلسي في ذلك الحـين. ومـا لبثت هـذه الصفـات أن تكشّفت بعـد أقـل من شهرين على توليه الحكم[٥]، عندما طلب إلى الخليفة الذي لم يعقب، بأن يسميه ولياً لعهده، بحيث تنتقل إليه الخلافة بعـد موت هشـام وما يحيط بهـا من ألقاب

(١) العبادي في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٥٩ .

(٢) اعمال الاعلام ص ٨٩.

(٣) ابن عذاري ج ٣ ص ٥٢ .

(٤) هذا اللقب تصغير لسـانشو (شانجة) من ملوك اسبانيا ، حيث كـان حفيداً لـه عبر أمـه القشتاليـة الأصـل ، التي كانت قـد اهديت الى المنصـور في إحدى غزواته. ابن الخـطيب، اعمال الاعـلام ص ٦٦ . ابن عذاري ج ٣ ص ٣٨ . خالد الصوفي جمهورية بني جهور ص ٨.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٨.

ملكية، اتخذ بعضها حينذاك عندما لقب نفسه بالناصر والمأمون[1]، تيمناً بالخلفاء العظام من العباسيين، والأمويين في الأندلس. وكانت هذه أول محاولة في تاريخ الإسلام، يطمح من خلالها حاكم ما إلى الخلافة من خارج قريش، حيث اعتبرت سابقة وأثارت موجة من الاستياء في قرطبة[2].

والواقع أن «شنجول» اختصر الطريق إلى نهايته، التي بدت وشيكة بعد أن سوغت خطوته الجريئة، الذرائع للانقضاض عليه. فالدولة العامرية التي حكمت الأندلس من منصب «الحجابة»، لاغيةً دور الخليفة القابع في قصره، لم يُتح لها ذلك دون جهود المنصور وعبقريته السياسية، التي لم ينتقل منها شيء إلى ابنه «الجاهل» كما وصفه ابن عذاري[3]. فعلى العكس من ذلك كان «الحاجب» الجديد ـ وهو القصير النظر ـ متآمراً عليها بسلوكه النافر، واستخفافه بالأعراف، قبل أن يسوقها إلى حتفها خلال شهور قليلة، وكأنه جاء فقط لتكريس عملية السقوط المخزي لهذه الدولة التي سقطت فعلياً مع وفاة سلفه «المظفر».

وتجدر الإشارة إلى أن تجميد الخلافة لم يؤد بالضرورة إلى إلغاء الدور السياسي للأمويين نهائياً في قرطبة، حيث احتفظ هؤلاء بمواقع من النفوذ، برغم ملاحقة «المنصور» لزعمائهم وتصفية الخطيرين منهم. ومن هنا لم يتردد بنو أمية في التحرك بعد وصول العامري الضعيف إلى الحكم، في مواجهة محاولته الجريئة، الهادفة إلى إلغاء الخلافة في البيت الأموي. ولم يكن هذا الأمر ـ الذي تفاداه رجل العامريين ومؤسس سلطانهم (المنصور) ـ أن صح وقوعه، تحدياً للأمويين فقط، بقدر ما كان استفزازاً لمشاعر أهل الأندلس الذين استنكرت قبائلهم، لاختراق أحد أهم الأعراف السياسية والدينية في حياة العرب المسلمين. وقد انعكس هذا الاستنكار على مؤرخ من القرن الثامن الهجري (ابن عذاري)،

(١) راجع نص القرار بولاية العهد الصادر عن الخليفة هشام الى شنجول. اعمال الاعلام ص ٩٠ ـ ٩٣. راجع ايضاً ابن عذاري ج ٣ ص ٣٨.
(٢) اعمال الاعلام ص ٩٣.
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٣.

الذي عبّر بدهشة عن هذا الموقف الذي اتخذه شنجول بقوله: «قد تقدم القول في سبب توصّل هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجرفية من غير تأوّل ولا أهلية، وكيف استهواه الشيطان وغرّته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة لم يشاور فيها نصيحاً ولا فكّر في عاقبة بل أخذها بالجملة...»[1].

وفي الوقت الذي «صار عبد الرحمن في أهل المملكة إلى قصره بالزاهرة، يختال في ثوب الخلافة»[2] حسب تعبير ابن عذاري، كانت ثمة مؤامرة تحاك في الخفاء، للإطاحة بالدولة العامرية. أما بطلها فهو شاب مغامر من البيت الأموي يدعى محمد بن هشام[3]، كان قد أعدّ خطة متقنة مع جماعته ومن تحوّل إليه من خصوم العامريين، من القبائل القيسية وغيرها، ممن نقموا على العامري «شنجول» بسبب مشروعه الخلافي وسيرته السيئة[4]. وقد جاء توقيت المؤامرة متوافقاً مع خروج الأخير من عاصمته، ومعه عدد غير قليل من الجند، حيث انقض الثائر الأموي (محمد بن هشام) على قرطبة في عتمة الليل، بعد أن أرسل إليها من «كسر سجن العامة»[5] لينطلق منه «اللصوص والذعار وأصحاب الجرائم»[6] الذين قاتلوا إلى جانب الأمير الأموي. وقيل أيضاً إن الذلفاء (أم المظفر) قد أسهمت في تهيئة الأجواء المعادية ضد عبد الرحمن (شنجول)، بعد أن اتهمته بتدبير اغتيال أخيه أبي عبد الملك المظفر[7]. وسرعان ما وضع يده على مرافق الدولة وامتلك ناصية الأمور فيها، بما في ذلك القصر الخلافي، حيث اقتحمه مزيلاً «عرش» الخليفة المنسي وجالساً مكانه على سدة الخلافة[8]. ولم

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٣.
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤١.
(٣) محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر. أعمال الاعلام ص ٩٧.
(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٧ - ٤٩.
(٥) البيان المغرب ج ٣ ص ٥٦.
(٦) المكان نفسه.
(٧) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢.
(٨) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٩ وما بعدها. تم استيلاء محمد بن هشام على السلطة في ١٦ جمادي الثانية ٣٩٩ هـ.

تسلم عاصمة العامريين (الزاهرة)، التي عبثت فيها جنود الخليفة الجديد نهباً وحرقاً وتدميراً وملاحقة للأسرة العامرية[1]. أما «الحاجب» الأرعن الذي عاد أدراجه إلى العاصمة، ما لبث أن خسر أوراقه تباعاً، ولم يبق في يده ما يساوم عليه في النهاية سوى حياته، ولكن دون أن يبلغ هذا المنال، حيث قتل بجوار قرطبة، مجسّداً موته تلك الخاتمة المأساوية، لأسرة شغلت دوراً من أخطر الأدوار في تاريخ الأندلس. أما الخليفة الجديد، وبطل الانقلاب الذي أطاح بالأسرة العامرية وأعاد السلطة المباشرة المفقودة لبني أمية، فقد لقب نفسه بـ «المهدي»[2]، وهو لقب غير مألوف بين الألقاب الملكية المتداولة، التي كان لها مدلول أكثر ما يتعلق بالنصر والظفر، كالناصر والمنصور والمستنصر والمظفر. فلعله استلهم لقبه من ظروف خاصة بالأندلس،وأكثر خصوصية بأسرته التي أفل مجدها على يد العامريين، آملاً أن يكون على يده «انبعاث» سلطانها المفقود.

وهكذا نجح «المهدي» في استعادة السلطة الفعلية المغتصبة من العامريين، وتوّج نفسه خليفة بعد عزل هشام الثاني، الذي عاصر الدولة العامرية من وراء القضبان وعلى هامش السلطة، ويبدو أن «المهدي» استمد قوته من الفئات الشعبية[3]، التي ساندته في انقلابه ضد العامريين والخليفة الضعيف. فقد برز لفترة وكأنه شخصية المرحلة، المعقودة عليه الآمال لإقامة نظام قوي ومستقر، غير أن التجربة أثبتت خطأ ذلك، بعد فشل الخليفة الجديد في تحقيق توازن سياسي بين الأطراف المتشاحنة في قرطبة، حيث القاعدة التي استمد منها قوته الأساسية، لم يستطع كبح جماحها، فأفلتت من يده وارتدت ممارساتها السلبية عليه، لتزيد من إحراجه وضعف مركزه، ووجد نفسه في نهاية الأمر معزولاً في قصره، محاطاً بحصار من الخصومة والعداء، حتى من أسرته الأموية التي لم تخل من منافسين متعطشين للسلطة.

---

(١) ابن الخطيب اعمال الاعلام ص ٩٧. البيان المغرب ج ٣ ص ٦١ - ٦٤.
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٢٦. البيان المغرب ج ٣ ص ٦٠.
(٣) اعمال الاعلام ص ١١١ . ابن عذاري ج ٣ ص ٥٦.

ولم يطل المقام بالخليفة الجديد الذي فقد سلطانه بعد بضعة شهور في أعقاب هجوم البربر[١] على قرطبة بقيادة زاوي بن زيري[٢]، الذي هيأ وصول سليمان بن الحكم[٣] إلى الخلافة، ملقباً نفسه بالمستعين. ولكن «المهدي» الذي تعزز موقعه مجدداً في طليطلة التي لجأ إليها بعد فراره من قرطبة، والتحاق عدد من أنصاره السابقين به، واتصاله نتيجة لذلك بالأسبان لدعمه في استعادة سلطانه[٤]، لم يدع خصمه يرتع في الخلافة، التي رجعت إليه بعد سبعة أشهر فقط من افتقادها. وهكذا يعود «المهدي» مرة ثانية إلى الحكم في قرطبة، ليخوض معركة الانتقام من البربر الذين تعرضوا للملاحقة والقتل، ولكن دون أن يتمتع طويلاً بانتصاره، حيث تضافر أعداؤه عليه وقتلوه في قصره، بالاتفاق مع الخليفة الأسبق هشام الثاني، الذي بويع مرة أخرى، بفضل تأييد البربر له[٥].

ولعل هذا الصراع الذي استشرى بين أبناء الأسرة الحاكمة، يعبّر عن الأزمة العاصفة التي مرت بها خلافة الأمويين في الأندلس، خلال نيف وعشرين عاماً، حيث تقاذف الخلافة حينذاك عدد من المغامرين، لم يستطع بعضهم الاحتفاظ بالسلطة أكثر من شهور قليلة. فقد أعاد البربر سليمان (المستعين) إلى الخلافة[٦]، قبل أن تقوى شوكتهم وينصّبون واليه على سبتة علي بن حمود مكانه الذي قام بما يشبه الثورة، عندما اجتاحت جنوده قرطبة وقتلت سليمان وبعض أفراد عائلته، وذلك تحت ستار التحزب للخليفة السابق (هشام) والزعم بأن الأخير سمّاه ولياً لعهده[٧].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة. القسم الأول ـ المجلد الأول ص ٣٠.
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠.
(٣) سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر. البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ـ ٩١.
(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٩.
(٦) دامت خلافته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ونصف.
(٧) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول ص ٢٦. راجع ايضاً ابن عذاري، البيان المغرب ج ٣ ص ١١٧.

وهكذا خرجت الخلافة لأول مرة من الأسرة الأموية، بعد أن بويع علي بن حمود، (الناصر لدين الله)[1] الذي يتحدّر من الأدارسة الشيعة، بما يعنيه ذلك من تحول، لم ينعكس على الوضع السياسي في الأندلس ولكنه مسّ وحدته المذهبية، التي كانت متماسكة منذ أن دخلتها «المالكية» في بدايات الإمارة الأموية. على أن بني حمود «المغاربة» الذين اعتمدوا في حكمهم على البربر لا سيما قبيلة زناته، لم يحظوا بتأييد عرب الأندلس، حيث كان الموقف غير الودّي نحو الخليفة الجديد وحلفائه يحول دون تثبيت «شرعيته» في السلطة، انطلاقاً من قرطبة نفسها، التي كانت لا تزال ـ من خلال قوتها المعنوية على الأقل ـ الأكثر تأثيراً في هذه المسألة. ومن هذا المنظور تسارع قرطبة إلى الاعتراف بحركة تزعمها أحد الأمراء الأمويين[2] في شرقي الأندلس، مما دفع ابن حمود إلى الانتقام من حاضرة الخلافة والتشديد على أهلها، وإلى زيادة اعتماده في المقابل على البربر والتودد إليهم. وسرعان ما قطف ثمار هذه السياسة، عندما قام باغتياله ثلاثة من «صبيانه» الصقالبة، ولما يتجاوز حكمه السنتين (٤٠٨ هـ)[3]. ولكن أخاه القاسم لم يدع الأمور تفلت من يد أسرته، حين سارع إلى قرطبة وأمسك بزمام الأمور فيها، فبويع بالخلافة تحت اسم المأمون، لتكون أولى مهامه الانتقام لأخيه من الصقالبة، وملاحقة الثائر الأموي في شرقي الأندلس، حيث انتهى الأخير لاحقاً في غمرة الصراع الذي عصف بهذه المنطقة[4]. وبعد نيف وثلاث سنوات، ساد خلالها الهدوء في الأندلس، لأول مرة منذ سقوط «الدولة» العامرية، برز في الجنوب (سبتة) من عكّر صفو هذه الأجواء، من الأسرة الحمودية نفسها، حين ثار ابن أخي القاسم (يحيى بن حمود) على عمه وزحف إلى قرطبة معتمداً على «حزب» البربر الذي بايعه

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٠ - ١٢٢.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر. الذي لقب نفسه بالمرتضى. المصدر نفسه. ج ٣ ص ١٢٥.

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٢.

(٤) الذخيرة القسم الأول ـ الجزء الأول ص ٣٩٨. البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

بالخلافة باسم «المعتلي بالله»[1]، بعد خروج القاسم ملتجئاً إلى أشبيلية.

لقد حاول الخليفة «الحمودي» الجديد إعادة النظر في العلاقة بين البربر والعرب، بحيث مالت إلى التوازن في عهده الذي خيم عليه الهدوء، ولكن ذلك لم يكن كافياً لفرض الاستقرار طويلاً، حيث بقي مهدداً من جانب اشبيلية ـ المدينة المنافسة لقرطبة ـ التي بايعت سلفه أبي القاسم، ليصبح هناك خليفتان معاً، بما لذلك من دلالة على الانهيار السياسي الذي عانته الأندلس في ذلك الحين. وما لبث القاسم أن عاد مرة أخرى إلى قرطبة التي ألفت هذا الوضع القبلي وانساقت فيه، دون التمعّن بالنتائج الخطيرة المترتبة على الصراع الأموي ـ الأموي، والادريسي ـ الادريسي، ومن ثم الإدريسي ـ الأموي على السلطة، وما يرافقه من صراع سياسي واجتماعي وإقليمي أخذ يجتاح مدن وأقاليم الأندلس. فقد عاد القاسم إلى الخلافة، ثم عُزل بعد سبعة شهور فقط في المسجد الذي اقتحمه أحد الأمراء الأمويين[2] مع أنصاره وفرض بيعته على الحاضرين (رمضان ٤١٤ هـ)، متخذاً لقب «المستظهر بالله»[3]، ومستعيداً كما أخوه «المهدي» الخلافة إلى البيت الأموي، بعد أن سُمي عبد الرحمن العامري (شنجول) ولياً للعهد وبات على وشك الوصول إليها، بينما قام «المستظهر» باستعادتها بعد خروجها الفعلي إلى الأسرة الحمودية.

والواقع أن هذا التطاحن السياسي الذي شمل البلاد بكاملها، وتركّز بصورة خاصة في قرطبة، قد ترك آثاراً سيئة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فيها، حيث جاء الخليفة الجديد ليجد بيت المال خاوياً، وبالتالي فإن تلبية احتياجات أنصاره دفعته إلى تحصيل الأموال بطرق غير مشروعة، مما أغضب الناس الذين أنهكتهم الصراعات السياسية والعسكرية، فاضطر إلى الاعتماد على البربر، مستثيراً بذلك قرطبة، التي لم تعدم أبداً آخر تابعيه، بعد أن

---

(١) أول جمادي الأول سنة ٤١٢ هـ. البيان المغرب ج ٣ ص ١٩١.

(٢) عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ـ البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥.

(٣) المكان نفسه.

ألفت تغيير الوجوه خلال نيف وعشر سنوات من الفوضى والانحلال السياسي. أما الخليفة الجديد فهو محمد بن عبد الرحمن[1] الملقب بـ «المستكفي بالله» (ذو القعدة ٤١٤ هـ)، الذي وصف بأنه الأكثر سوءاً بين خلفاء «الفترة الأخيرة» من الدولة الأموية في الأندلس، بحيث آثرت قرطبة العودة إلى بني حمود، بعد أن بلغت الأوضاع حدّاً خطيراً من الانحدار، دفعها إلى الاستنجاد بالخليفة الأسبق يحيى بن حمود، الذي تولى الأمر مجدداً (رمضان ٤١٦ هـ)[2]، ولكن دون أن يأمن جانب قرطبة هذه المرة، مؤثراً الإقامة في مالقة بعد أن ترك وزيره وكاتبه نائباً عنه في الأولى[3].

ويبدو أن هواجس ابن حمود كانت في محلها، عندما شهدت قرطبة فصلاً جديداً من الحرب الأهلية[4] التي لم تنطفىء جذوتها خلال السنوات السابقة، وإنما كانت تتراوح بين الامتداد والانحسار، منذ أن أصبح البربر طرفاً في هذا الصراع ونجحوا في اختراق السلطة التي كانت عربية قبل ما سمي بـ «الفتنة» تلك التي ذرت قرنها نحو ربع قرن من الزمن، كان البربر، القوة المحركة فيها بصورة عامة. وفي غمرة هذه الأحداث يتولى الخلافة هشام بن محمد[5] الملقب بالمعتد بالله (ربيع الأول ٤١٨ هـ)[6]، الذي جاء نتيجة لهذا الصراع، بعد اتجاهه لمصلحة «الحزب» العربي في قرطبة، بيد أن طرفاً ما في هذا الأخيرة، لم يكن في وضع القادر على الحسم، أو تحقيق الاستقرار المنشود، بعد أن فقدت الخلافة هالتها، وتحوّل الخلفاء إلى دمى تحركها القوى النافذة سواء في هذا الفريق أو ذاك. ولم تعد الأسرة الأموية التي استمدت شرعيتها من خلافة

---

(١) محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله وهو ابن عم الخليفة السابق. البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٤٣.

(٣) أحمد بن موسى. المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٤٦.

(٥) هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر. المصدر نفسه ج ٣ ص ١٤٥.

(٦) المكان نفسه

دمشق، ومن التواصل الذي جسده حفيد هشام بن عبد الملك ومؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبد الرحمن الداخل، قادرة على حماية هذه «الشرعية» وتمثيلها لدى الفئات المتصارعة.

ومن هنا فقد باتت الحاجة ماسة إلى منقذٍ أو شبه منقذ، يواجه هذا التدهور المريع قبل أن يفلت الزمام من الأيدي، لا سيما وأن الخطر لم يكن داخلياً فقط، وإنما كان الخطر الأدهى، جاثماً وراء التخوم، حيث الاسبان يرقبون المأساة، وقد تربصوا للانقضاض في اللحظة المناسبة.

ومن هذا المنظور، فقد كان على الخلافة أن تتحمل مسؤولية الفشل، بعد أن أدانت الناس تقصيرها وعجزها عن استعادة الأمن والاستقرار. ومعنى ذلك أن السلطة كمؤسسة وليس كأفراد فقط، كانت موضع التهمة، عندما «اجتمع الملأ على خلعه ـ أي هشام ـ وهتفوا بابطال الخلافة جملة..»[1] حسب تعبير ابن عذاري. وكان ثمة رجل وراء هذا الإجراء، يبدو أنه أحكم قبضته في قرطبة، من خلال حظوته عند الخليفة، كوزير له، هو أبو الحزم بن جهور الذي أعلن نهاية الخلافة الأموية (ذو القعدة ٤٢٢ هـ)، وأرسل من ينادي «في الأسواق والأرباض لا يبقي بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد»[2].

ولعل هذا القرار كان يحمل معه أيضاً، سقوط الحكم المركزي، بعد أن فقدت قرطبة دورها السياسي المميز، وتحولت إلى مجرد دويلة صغيرة على غرار الدويلات المتناثرة في بقاع الأندلس، التي كان بعضها قد أعلن قيامه قبل إلغاء الخلافة. ولم يكن بنو جهور طارئين على المسرح السياسي في قرطبة، حيث كان كبيرهم أبو الحزم قد شغل حينذاك الوزارة، مما أكسب دوره أهمية في توجيه أحداث الفترة الأخيرة من الخلافة الأموية، ممهداً السبيل إلى سلطة «الجماعة» في قرطبة، بعد إعلانه باسمها إبطال الخلافة، تلك التي وجد فيها بعض المؤرخين

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٠.
(٢) ابن الخطيب، اعمال الأعلام ص ١٣٩. ابن عذاري، البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٢.

نوعاً من الحكم الجمهوري[1]، المتعارض في الصميم مع العرف الخلافي الذي حصر السلطة الأولى في قريش.

والواقع أن خلافة الأمويين في الأندلس، كانت قد انتهت فعلياً قبل ذلك الوقت، منذ أن برز المنصور العامري وقبض بكلتا يديه على السلطة، لاغياً الدور التقليدي للخلافة كمؤسسة دينية وزمنية، فتلقت بذلك ضربة قاصمة وانتهت إلى ما آلت إليه هذه المؤسسة في عواصم أخرى من العالم الإسلامي. ولا نبالغ إذا ما قلنا إن الخلافة الأموية في الأندلس، التي كانت لها بواعثها الاقليمية والسياسية، لم تكن في جوهرها غير مظهر من مظاهر التمزق والشحناء الذي ساد الخلافة المركزية في بغداد، وخضوعها بدورها لطغيان الفئات العسكرية، التي سبقت «المنصور العامري» إلى إلغاء دور الخليفة السياسي والاقتصار على دوره الروحي فقط. ولا نبالغ أيضاً في القول، إن خلافة الأمويين في الأندلس، ارتبطت بفرد وليس بنظام، حيث جاء إعلانها منسجماً مع الموقع القوي الذي بلغه عبد الرحمن الثالث في الأندلس، بعد استرجاع وحدتها السياسية وإثبات وجوده على مختلف الجبهات، مرتبطة أولاً وأخيراً بشخصيته، وبالتالي فقد ولدت معه وغابت مع غيابه. وإذا استطاع «الحكم المستنصر» الاحتفاظ بلقبه الخلافي وسلطته الزمنية لأعوام محدودة، فذلك لأنه استمد رصيده السياسي من تراث سلفه الناصر، وليس من قوة النظام الذي كان يحمل معه بذور الفشل.

وليس ثمة شك أن فقدان التلاحم البشري في المجتمع الأندلسي، الذي كان خليطاً متنوع الهويات العرقية ومتناقض الانتماءات سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، أسهم في تفشيل النظام الأموي وتعثره منذ بداية تأسيسه، حيث ظل

(١) راجع: مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٦٤ وخالد الصوفي، جمهورية بني جهور ص ٤٩.

العرب تلك الفئة المهيمنة على السلطة والمستأثرة بـالامتيازات، وفي نفس الـوقت ظلت الفئات الأخرى تجترّ ولاءها السطحي لهذا النظام، مقتربةً منه أو مبتعـدة، حسب تقلّب الأحـوال، دونما شعـور بـالـولاء الحقيقي أو ارتبـاط بـالمصلحـة المشتركة.

الباب الثالث

ما بعد الخلافة

١ ـ الطوائف .
٢ ـ المرابطون والموحّدون .
٣ ـ غرناطة .

الطوائف

٣٩٩-٤٤٨ / ١٠٠٩-١٠٥٦

لم تكن دولة بني جهور، رائدة الانفصال عن السلطة المركزية المتمثلة بالخلافة في الأندلس، بل كانت هنالك نماذج سابقة لهذا التفتت الذي أخذ ينتشر في شتى البقاع، مترافقاً مع التدهور المريع الذي بلغته الخلافة بعد سقوط الدولة العامرية، وما أعقبها من صراع مأساوي بين مغامري الأسرة الأموية وإخفاقٍ في استرداد المبادرة من القوى (الأحزاب) التي ذاقت طعم السلطة وبات من الصعب تطويعها أو احتواؤها، مما جعل الأندلس تتوزع بين عدة اتجاهات (أحزاب)، في الربع الأول من القرن الخامس الهجري، مشكِّلة ست عشر دويلة مستقلة في كافة شؤونها الداخلية وعلاقاتها الخارجية، ومتنافسة فيما بينها حتى الصراع الدموي، فضلاً عن الاستعانة بالعدو المشترك (الاسبان) ضد بعضها البعض.

وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هذه الكيانات الممسوخة بـ «الطوائف»، حيث استقلت كل «طائفة»، سواء كانت قبيلة أو موالية لقبيلة أو تجمعاً أو فرقة، بناحية ما صغيرة أو كبيرة من الأندلس. أما «الحزب» الأول الذي تغلّب في «هذه الفتنة المبيدة»[1] حسب ابن عذاري، فقد مثله ما عُرف

(١) البيان المغرب ج٣، ص ١٥٥.

بـ «الموالي العامـرية»[1] أو «العبيـد العامـريين»[2] الـذين كانـوا في معظمهم من الصقالبة، وقد أقاموا «دولتهم» في شرقي الأندلس، متضمنة دانية والمرية ومرسية وبلنسية وشاطبة. حيث تولى مجاهد العامري دانية منذ عهد المنصور، ثم أضاف إليها بعد «الفتنة» الجزائر الشرقية، قبل أن تنتقل إلى ابنه «إقبال الدولة» ومن ثم إلى بني هود (٤٦٨ هـ)[3]. وتولى أمر بلنسية وشاطبة مبارك ومظفر العامـريين، إلى أن استولى على الأولى أحد القادة الصقالبة[4]، ومن ثم آلت إلى حفيد لمؤسس الأسرة العامرية (المنصور) وهو عبـد العزيـز بن أبي عامـر الذي سيـطر على تلك المنطقة، متخذاً من بلنسية عاصمة لدولته. ومن زعماء الحزب جيران وزهير، وهمـا من الفتيان الصقـالبـة المـوالين لبني عـامـر، وقـد استـوليـا تبـاعـاً على المـرّية[5]، حتى سنـة ٤٢٩هـ، قبل انتقـالها إلى عبـد العزيـز العـامـري (من العرب) كما أسلفنا القول.

و «الحـزب» الثاني مثّله المغـاربة من البـربـر والعـرب، سـواء بنـو زيـري المتحرّرين من القبيلة الشهيرة صنهاجة (البربر) التي قـامت بدور كبـير في المغرب خـلال العهد الفاطمي، أو بنو حـمود (العرب) من بقـايا الأدارسـة الحسنيـون في المغرب أيضاً. فبينما سيطرت المجموعة الأولى على غرناطة قامت المجموعة الثانية بالسيطرة على مالقة التي أصبحت نواة «الدولة الحمودية»، قبل انتقال مـركزهـا إلى قرطبة في أعقاب القضاء على الخليفة الأمـوي «المستعين»[6]. وتجـدر الإشارة إلى أن بني حـمـود على الـرغم من أصلهم العربي، كـانوا متـأثرين ثقـافـة بـالبـربـر،

---

(١) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٢.

(٢) كان زعيـمهم مجاهد العامري وقد وصفه ابن عذاري بأن المنصـور قدّمـه على مـدينة دانيـة. البيان المغرب ج ٣ ص ٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٥٧.

(٤) لبيب الصقلبي، المصدر نفسه، جـ ٣، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٥) البيان المغرب ج٣، ص ١٦٦ ـ ١٦٧. العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٦٧.

(٦) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٣. العبادي، في التـاريخ العبـاسي والأندلسي ص ٤٦٦.

ومرتبطين سياسةً بالقوة التي يمثلها هؤلاء والتي كانت سبيلهم إلى السلطة خلال ما سمّي بعهد «الفتنة». وثمة مجموعات أخرى من البربر، حققت مواقع هامة في ظل هذه الموجة العاصفة التي مزّقت البلاد طولاً وعرضاً، سنأتي على ذكرها لاحقاً بشيء من التفصيل.

و «الحزب» الثالث والأكثر أهمية، فقد مثّله العرب، الذين كان لهم حضور مميز خلال عهد الطوائف، حيث شكّل بنو عباد اللخميين القوة الأساسية فيه، إضافةً إلى بني جهور (من موالي العرب)[1] وبني هود الجذاميين وبني صمادح التجيبيين[2] وبني عامر المعافريين[3] وغيرهم.

هذه بإيجاز أهم الاتجاهات السياسية التي تنازعت على النفوذ في أواخر سنوات الخلافة الأموية، ونجحت في تكوين دويلات مستقلة، متفاوتة في القوة والأهمية، وهي التي سميت بدول الطوائف، التي جاءت نتيجة لتفسخ الدولة العربية وعجز الخلفاء الأمويين على إنقاذها من السقوط. ولم تكن هذه التجربة جديدة في الأندلس التي عانت في الأساس خللاً في تكوينها السياسي والاجتماعي، بل كانت مسبوقة بتجربة مماثلة، وإن كانت أضيق دائرة وأقل تمزقاً، في ظلّ ما سمّي بـ «الطوائف الأولى» التي جاءت محصلة لضعف السلطة المركزية خلال الفترة الممتدة ما بين وفاة عبد الرحمن الثاني ومجيء عبد الرحمن الثالث، الذي استطاع بفضل شخصيته القوية وكفاءته النادرة، إنقاذ الدولة الأموية المنحسرة حتى حدود قرطبة، وإعطاءها فرصة جديدة للحياة نافت على القرن من الزمن.

وسنتوقف الآن عند أبرز هذه الدويلات، التي كان لها ـ على الرغم من اقترانها بالتفتت وتراجع النفوذ العربي الإسلامي في الأندلس ـ وميضها في الحياة الفكرية، الإنجاز الأهم لتلك المجتمعات المنفتحة على شتى التيارات الثقافية،

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف ص ٢١.
(٢) البيان المغرب ج٣، ص ١٦٧.
(٣) أعمال الأعلام ص ١٩٦.

شرقيها وغربيها، مما أوجد مناخاً شديد الملاءمة للإنتاج الذي كان على الرغم من مسحات الحزن المسيطرة على بعض ألوانه، قمة العطاء الأندلسي الزاخر.

دولة بني عباد (٤١٤-٤٨٤هـ)

كانت هذه الدولة من أوائل دول الطوائف في الأندلس، حيث قامت في إشبيلية قبل سنوات ثمان من دولة بني جهور في قرطبة. كما كانت الأعظم شأناً والأبعد صيتاً، وبلاطها كان الأكثر فخامة واستقطاباً لأهل الشعر والأدب والعلم، خلال نيف ونصف قرن من الزمن. ومؤسس هذه الدولة هو القاضي محمد بن عبّاد، الذي كان أحد ثلاثة[1] أوكل إليهم أهل إشبيلية إدارة شؤونهم في أعقاب التمرد على «المستعين». ولعل بني عبّاد كانوا يطمحون إلى أن يكون لهم دور في الحياة السياسية، يضارع دور بني عامر، أي بمعنى آخر ربما تطلعوا إلى إعادة توحيد الأندلس تحت سلطانهم في ظلّ شرعية الخلافة، التي كان أكثر تمثيلاً لها الخليفة الأموي الأسبق هشام (المؤيد)، عندما زعموا أن الأخير لم يمت وأنه يقيم في بلاطهم في إشبيلية[2]. ولعلهم أيضاً أقدموا على ذلك في معرض التحدّي لبني حمود، الذين تعود أصولهم إلى الأدارسة العلويين (قريش) وشكّلوا قوة أساسية بين القوى المسيطرة حينذاك على الأندلس، مما دفع ابن عباد إلى إعلان موت الخليفة هشام، متضمناً عهد الأخير له بالأمر من بعده[3].

والواقع أن القاضي محمد بن إسماعيل بن عبّاد، واجهته تحديات كبيرة في مرحلة تأسيس هذه الدولة، التي تطلعت إلى توحيد الأندلس تحت راية بني عباد، مجسّدةً ذلك في الإصرار على متابعة هذه السياسة بعد موت القاضي المؤسس (٤٣٣هـ) ومجيء ابنه عبّاد بن محمد، الذي لُقب بفخر الدولة قبل

(١) أما الثاني فهو الفقيه أبو عبد الله الزبيدي والثالث فهو الوزير أبو محمد عبد الله بن مريم. البيان المغرب ج٣ ص٣١٤

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ٣١٥. راجع أيضاً العبادي. في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٦٧ وعنان، دول الطوائف ص ٣٧.

(٣) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٩٦.

استبـدالـه بلقب ملكي آخـر يتماهى مـع ألقـاب الخلفـاء السـالفـين وهـو المعتضد بالله. وفي عهد الأخير، سطعت إشبيلية متقدمةً على أقرانها من دويلات الطوائف، وتألق نجم المعتضد كأعـظم شخصيات المـرحلة[1]. ، بعد أن كلفتـه هـذه المكانـة سلسلة من الحـروب والإغـارات عـلى الأقـاليم المجـاورة، دون أن يتورع عن استخدام شتى الوسائـل من أجل تحقيق أهـدافه[2]. وقـد وصفه ابن عذاري في رواية لابن حيان بقوله: «وكان عبّاد قد أوتي من جمـال الصورة وتمـام الخلقة وفخامة الهيئة وسباطة البنان وثقوب الذهن وحضور الخاطر وصدق الحسّ ما فـاق به أيضاً نظراءه، ونظر في الأدب مع ذلك قبـل ميل الهـوى به إلى طلب السلطان»[3]. كما وصفه ابن الخـطيب «بأنـه كان شـديد الجـرأة قوي المنـة عظيم الجلادة مستهيناً بالدماء»[4]. ومن هذا المنـظور فإن شخصيـة المعتضد كـانت نتاج تلك الأجواء المشبعـة بالصـراع والتطاحن والاقتتـال، دون ثمة مـا يحول واكتسـابهـا سمـة من العنف، كـان يجـد مـا يسـوغهـا في سبيـل الـدفـاع عن سلطانه[5].

ولقد توفي المعتضد في العام ٤٦١هـ، تاركاً الأمر لابنه محمد بن عبَّاد الـذي تلقب بـ «المعتمد على الله»، وهو كثير الشبه بأبيه ويحمل معظم سماته، سواء في ميله إلى السلطان، أو في انفطاره على العنف أو في نزعته إلى الفخامة التي كـانت عنـوان بلاطـه المزدحم بـالشعراء، عـلى نحو ربمـا فاق بـلاط أبيه، لا سيـما وأن المعتمد تمتـع بشاعرية عاليـة، جعلته يحـظى بتقدير شعراء عصـره، حيث كان اثنان منهما على الأقل من أعظم شعراء الأندلس وهما ابن زيدون وابن عمار.

ولعل هواجس المعتمد في مطلع حكمـه، تجلت في الاستيلاء عـلى قرطبـة

(١) راجع: عنان، دول الطوائف ص ٣٩.
(٢) البيان المغرب ج٣ ص ٢٠٥. راجع أيضاً: علي أدهم، المعتمد بن عباد ص ٥٧.
(٣) المصدر نفسه ج ٣، ص ٢٠٧.
(٤) أعمال الاعلام ص ١٥٦.
(٥) البيان المغرب ج٣، ص ٢٠٦.

التي كانت قد اتخذت حيزاً كبيراً من اهتمامه في عهد أبيه. وقد تمّ إسقاطها في العام التالي لولايته (٤٦٢)، ومعها «جهورية» بني جهور، بما يعنيه انضمامها إلى دولة المعتمد من أهمية سياسية في ذلك الحين، بحيث قوي شأنها في مواجهة التحديات المختلفة التي طالعت هذا العهد. ولكن أبرز هذه الهواجس كانت متصلة بالصراع الذي احتدم خلال عهد «الفتنة» بين العرب والبربر، والذي ما انفك مستشرياً في عهد الطوائف، حيث كان من الطبيعي أن تتعارض مصالح بني عباد، الذين قامت سياستهم على التوسع، وبين البربر المنتشرين خاصة في الجنوب. ومن هنا كان القضاء على دولة غرناطة القوية[1] أكثر ما يشغل المعتمد، بعد أن وجد فيها خطورة على دولته، كونها تمثل امتداداً لمنطقةٍ تسودها أكثرية من البربر، وقد زاد العلاقة تأزماً بين الدولتين، أن غرناطة أقامت حلفاً مع الاسبان وبادرت إلى غزو دولة المعتمد واحتلال أحد الحصون الهامة[2].

والواقع أن هذه الحادثة، دلالة على الوضع السياسي الذي بقي على انحداره، برغم ما وصل إليه بنو عباد وما لجأوا إليه من محاولة توحيدية لجزء من الأندلس، حيث لم يتورعوا أيضاً من الردّ على مبادرة البربر بالطريقة نفسها، عندما قام المعتمد بعقد صفقة مع الفونسو السادس كلفته خمسين ألف دينار[3]، مقابل الوقوف إلى جانبه في السيطرة على غرناطة التي آلت بسبب ذلك إلى سلطة المعتمد. وتجدر الإشارة إلى أن وزير الأخير وشاعره الأثير ابن عمار كان يده اليمنى هذه العملية وعمليات أخرى في بقاع مختلفة من الأندلس. ويبدو أن هذه السياسة الانتهازية، قد بالغ ابن عمّار في استخدامها، فضلاً عن محاولة توظيفها لمصلحته الشخصية، بعد استيلائه على مرسية، بطريقة مماثلة لما جرى في غرناطة[4]، وبالتالي الاستقلال بها، منتهزاً بُعدها عن حاضرة سيده. وقد جرّ

---

(١) كان يحكمها حينذاك باديس بن حبوس الصنهاجي قبل أن يتولاها ابنه بلقين أو بلكين في العام ٤٦٥هـ. عنان، دول الطوائف ص ٦٣.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) أعمال الأعلام ص ١٦٠.

ذلك إلى تربص المعتمد بوزيره المقرب الذي سرعان ما تحول صفقة، كتلك التي أبدعها ابن عمّار في عملياتـه السابقـة، دون أن يبخل المعتمـد في الحصول على غريمه، باذلاً لصاحب الحصن[1] الذي قبض عليه مـا شاء من الخيـل والمال[2]، قبل أن يبادر إلى تسليمه، لينتهي بعدها ذليلاً إلى سجن المعتمد الذي قتله بيده في وقت لاحق[3]، مسجّـلاً إحدى أكـثر الصفحات سـواداً في تـاريخـه، الـذي لن تكون نهايته خالية أيضاً من الإذلال والمعانـاة، حيث توفي في المنفى بعـد سنوات قليلة[4] إثر دخول المرابطين إلى الأندلـس.

«جمهورية» بني جهور (٤٢٢ - ٤٦٢هـ):

يصـطلح بعض المؤرخـين عـلى تسميـة دولـة بني جهـور في قـرطبـة بـ«الجمهورية»، انطلاقاً من القرار الذي اتخذه مؤسس هذه «الدولة» أبو الحزم بن جهور، بعد إلغائه المنصب الخلافي وجعل الأمر شورى بين أهل الـرأي في قرطبـة الذين مثّلوا برأيه «الجماعة»[5] فيها، وذلك لأول في التاريخ العربي الإسلامي في الأنـدلس. وقد تكـون هنالـك دوافع مـا وراء قرار أبي الحـزم، الذي ينتمي إلى بيت غير عربي ولكنه عريق في هـذه البلاد، حيث نسب لأحـد أجداده الـدخول إليها مع بلج بن بشر[6] في أواخر الربع الأول من القرن الهجـري الثاني. لـذلك فإن تمسكه بالخلافة لم يعد ما يسوغـه، بعد أن فقـدت الخلافـة مضمونها الـديني واقتـرنت بالعصبيـة والفئويـة، وتناحـر المغامـرين عليهـا، بحيث أصبـح المـوالي - جماعة أبي الحزم - وغيرهم من الفئات غير العربية، غـير معنيين بهـذا الصراع، العربي - العربي أو العربي - البربري، الذي استنزف البلاد وهدر طاقاتها من غـير

(١) أعمال الاعلام ص١٦٠، ١٦١.
(٢) المراكشي، المعجب ص ٦٨.
(٣) علي أدهم، المعتمد بن عباد ص ٣٢٧، وما بعدها.
(٤) توفي المعتمد في أغمات (المغرب) سنة ٤٨٤. علي عبد العظيـم، ابن زيدون ص ٤٣.
(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ١٣٩، وما بعدها. البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٦.
(٦) عنان، دول الطوائف ص ٢١.

طائل. ومن هذا المنظور تتسوّغ الخطوة الجريئة التي قام بها أبو الحزم، «شيخ» قرطبة المعتدل، الحائز على تقدير غالبية الفئات وثقتها، دون ثمة اعتراض على ما حدث، على الرغم من خطورته بالنسبة لهذه «الجماعة» التي سلمت زمامها لـه، بعد تماوج في موقفها بين خليفة وآخر. ولا ريب أن أبا الحزم، الشيخ الوقور، والمتدين والزاهد والمتواضع، وليس آخراً، غير المستبد برأيه[1]، قد نجح من خلال صفاته هذه الدخول إلى قلوب الناس، الذين وجدوا فيه شخصية المنقذ في زمن الانحدار الشديد.

تناولت إصلاحات أبي الحزم شتى الجوانب الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن العسكرية، عندما سعى إلى حلّ العناصر المقاتلة، والمؤلفة بأكثريتها من البربر، وتكوين قوة ذاتية، اتخذت مهمة مزدوجة، وهي فرض الأمن في قرطبة ومواجهة الأخطار المهددة لها من الخارج. بالإضافة إلى ذلك فإن سياسته مع الأسبان، اتصفت بالواقعية، ومراعاة الأوضاع السائدة في الأندلس، حيث سعى إلى إقامة علاقات غير عدائية معهم، ولكنها متكافئة في نفس الوقت، مما أبعد أخطار الحرب عن قرطبة خلال حكمه الذي استمر حتى العام ٤٣٥هـ[2].

وقد تولى الأمر بعد أبي الحزم، ابنه محمد (أبو الوليد)، الذي اقتدى في مطلع حكمه بسياسة والده، مقرّباً إليه ذوي الرأي والعلم، لا سيما المؤرخ الشهير ابن حيان[3] وشاعر الأندلس ابن زيدون الذي اتخذه وزيراً له. ولكن الصلة مع الأخير لا تلبث أن تسوء، بعد المكانة العالية التي بلغها في قرطبة، حيث تضافرت عوامل عدة في هذا السبيل، وفي طليعتها علاقته مع «ولّادة» الشاعرة وابنة الخليفة الأسبق المستكفي، التي استقطبت المعجبين الكثر وبينهم

(١) ابن خلدون، كتاب العبر ج ٤، ص ١٥٩.

(٢) البيان المغرب ج٣، ص ١٨٧. راجع خالد الصوفي، جمهورية بني جهور ص ٥٤، عنان، ملوك الطوائف ص ٢٥.

(٣) صاحب المقتبس في أخبار بلد الأندلس. راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٣.

خصـوم لابن زيدون، ممـا أدى إلى سخط أبي الوليـد على وزيـره وشاعـره، وإلى إيداعه ظلمـات السجن، قبل أن يمهـد له أصحـابه الهـرب والالتجاء إلى بـلاط إشبيلية، حيث رحب به المعتضد بن عباد وقلّده الوزارة[1]. ولكن أبا الـوليد بن جهور، يأخذ في الانحراف تدريجياً عن خطّ أبيه، عندما ربط المؤرخون بين هذا التحوّل وبين البيعـة لابنه (عبـد الملك) ولياً للعهـد، واصفاً ذلـك ابن عذاري بقـوله بـأنه ـ أي ابنـه ـ «قد اعتـدى وصـحب الأرذال واستباح أمـوال المسلمـين وسلّط عليهم أهـل الفساد وأهمـل الأمـور الشـرعيـة وأخـاف الـطرق وشـرع في المعاصي والفسوق»[2]. ويبدو لنا من خلال هذا النص، أن أبا الوليد كان واقعـاً تحت تأثير ابنه الذي فرض عليه، ليس المناداة به ولياً للعهد بعـد وقت قصير من ولايتـه، ولكن أن تكون لـه الـسلطة الفعلية في قـرطبـة. ولـذلـك يسمي نفسـه صاحب «السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله»[3]، كما ينفـرد بسابقـة في أسـرته، عنـدما أمـر بأن يخـطب له «على المنـابر»[4]، متجـاوزاً بذلـك سلطة «الجماعة» إلى السلطة الفردية تلك التي «ثـار» عليه مؤسس الـدولة الجهـورية وأصحابه.

بيد أن وزيره إبراهيم بن يحيى (ابن السَّقاء) الذي فوض إليه أمور الـدولة، كـان قوي الشخصيـة متمرّسـاً بشؤون الإدارة والحكم، ممّا صـرف النـاس عن أخطاء سيده واستبداده، حيث ظلّ ممسكاً بالأمور نحو خمسة عشر عامـاً، نعمت خلالها قرطبة بـالأمن والنظام[5]. ولكن أبـا الوليـد وقع فـريسة هـواجسه، التي أسهم في تـأكيدهـا المعتضد، عنـدمـا لجأ إلى التخلص من وزيـره القـوي وقتله (٤٥٥هـ)، بعـد أن أوحـى إليه صـاحب إشبيلية بـأطماعـه في الـسلطة[6]، بينـما

(١) عنان، ملوك الطوائف ص ٢٥.
(٢) البيان المغرب ج ٣، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٣) المصـدر نفسه ج٣، ص ٢٢٣.
(٤) البيان المغرب ج٣، ص ٢٣٢.
(٥) المصدر نفسه جـ ٣، ص ٢٥٦.
(٦) أعمال الأعلام ص ١٤٩. راجع، الصوفي، جهورية بني جهور ص ٩٣ ـ ٩٤.

كانت هي في الواقع أطماع الأخير الذي كان يرنو بعين واسعة إلى قرطبة، التي سقطت فيها بعد على يد خليفته المعتمد.

وكان غياب ابن السقّاء، إيذاناً ببداية الانهيار، حيث لاحت تباشيره مع الصراع على الحكم بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبد الرحمن، الذي كان يحقد على أخيه اغتصابه لحقه بالتواطؤ مع أبيه، سواء عن أثرة له أم عن تخوّف منه، لا سيما وأنه تمكن من الهيمنة على الحكم في حياة أبيه وإجباره على تقديمه على الناس وأخذ العهد عليهم[1]، كما سبقت الإشارة. وقد أدى ذلك إلى استقطاب كل منهما أنصاره والموالين له، مما أوجد حالة انقسام في الدولة، تكرست مع رضوخ أبي الوليد إلى الأمر الواقع، وتوزيع السلطة بين ولديه، حيث حاز عبد الرحمن على «الاشراف والجباية»، بينما حاز عبد الملك على «النظر في الجند»[2]. ولكن عبد الملك الذي كان في موقع أكثر تأثيراً وقوة من أخيه، لم يحتمل وجود شريك له في السلطة، حيث تعارض هذا الواقع ونزعته إلى التفرد والاستبداد. وسرعان ما انقلب على أخيه وزجّ به في السجن ليقود منفرداً الدولة، وقد اعتمد على حاشية لم تكن في سلوكها أكثر مسؤولية منه، فضلاً عن ابن عبّاد الذي كان يظهر له المساعدة، ويبطن مشروعه للاستيلاء على قرطبة الذي ما لبث أن تحقق بعد سنوات قليلة (٤٦١هـ)، وذلك بعد أربعين عاماً فقط من قيام الدولة الجهورية، التي أسسها ابن الحزم، واستهان بها خليفته (أبو الوليد)، عندما تركها لنزوات أبنائه على مرأى عينيه.

دولة بني هود في سرقسطة (٤٨١-٥٠٤هـ)

كانت هذه إحدى أبرز الدول «الطوائفية»، حيث الموقع الجغرافي الذي احتلته على تخوم الاسبان، أو في منطقة الثغر الأولى، كما عرفت لدى أهل الأندلس، قد أعطاها أهمية خاصة، سواء في السلم أم في الحرب. ولعل هذا

(١) البيان المغرب ج٣، ص ٢٣٢.
(٢) المصدر نفسه ج ٣، ص ٢٥٦.

الموقع أيضاً كان من بواعث انفصالها المبكر عن السلطة المركزية، فضلاً عما فرضه عليها من التزامات غير عادية لمواجهة التحديات المحيطة بها من كل جانب. ففي الوقت الذي احتدم فيه الصراع العنيف على السلطة في قرطبة في مطلع القرن الهجري الرابع، وقبل أن تجتاح الموجة الانفصالية أقاليم الأندلس، قامت أسرة عربية (تجيب) - اتخذت نفوذها في دروقة (الثغر الجنوبي) - بالسيطرة على سرقسطة بقيادة المنذر بن يحيى (٤٠٨هـ)[١]، الذي يعتبر مؤسس العهد الأول من دولة سرقسطة الذي دام نحو ربع قرن، أي حتى سقوط الخلافة وقيام أسرة عربية أخرى (بنو هود) بالسيطرة على الثغر الأعلى. وقد نعمت سرقسطة في عهده بالرخاء والاستقرار، دون أن يتورط في الصراعات التي ذرت قرنها في شتى بقاع الأندلس، كما «ساس عظماء الأفرنج، فحفظت أطرافه» في وصف ابن عذاري له[٢]. ولم يدم حكم المنذر أكثر من ست سنوات، عندما خلفه بعد وفاته (٤١٤هـ) ابنه يحيى الملقب بالمظفر، على عادة أمراء الأندلس الذين استهوتهم ألقاب التفخيم، لا سيما ذات العلاقة بالنصر. ولكن اللقب قد لا يعبّر دائماً عن الواقع، خاصة إذا كان استخدامه خارج ساحات المعارك التي أكسبت مستحقيه سابقاً هذا الحق، من أمثال عبد الرحمن الناصر والمنصور العامري. ففي عهده اختلّ التوازن الذي أقامه المنذر مع الأسبان، مما دفع هؤلاء[٣] إلى التحرك والإغارة على إمارته، وإرغامها على التخلي عن بعض الحصون. وبعد موته (٤٢٠هـ) خلفه ابنه المنذر في ظل ظروف دقيقة تزامنت مع الأيام الأخيرة للخلافة الأموية، بحيث لا تشير الروايات إلى ما هو جدير بالاهتمام خلال السنوات العشر التي أمضاها أميراً على سرقسطة، باستثناء ما أورده ابن عذاري في وصفه للأخيرة التي «أشرف أهلها على فتنة شديدة»[٤]،

(١) البيان المغرب ج ٣، ص ١٧٥ ـ ١٧٧.
(٢) المصدر نفسه ج ٣، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.
(٣) الكونت رامون بوريل صاحب برشلونة. راجع عنان، دول الطوائف ص ٢٦٨.
(٤) البيان المغرب ج٣، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

وباستثناء حادثة اغتياله الغامضة، على يد قريب له[1] (٤٣٠هـ)، ربما بتدبير من بني هود الذين كانت لهم أطماعهم في هذه المدينة بعد أن سيطروا مسبقاً على تطيلة ولاردة من أعمال الثغر الأعلى[2]. ويرجّح ابن خلدون هذا الاعتقاد، بضلوع بني هود في هذا الأمر، ملقياً تبعة الاغتيال على سليمان بن هود[3]، الذي بادر مع جماعته إلى السيطرة على سرقسطة (٤٣٥هـ) بعيد مقتل الأمير المنذر وإعلان نفسه أميراً عليها، منهياً بذلك العهد الأول (التجيبي) في تاريخ هذه «الدولة»، ومبتدئاً عهدها الثاني (الهودي) الذي استمر حتى دخول المرابطين إلى الأندلس.

ولقد تعاقب على دولة بني هود في سرقسطة خمسة من الأمراء، كان أولهم سليمان بن محمد بن هود الجذامي الذي اختار لنفسه لقب «المستعين». وهو ينتمي لقبيلة يمنية عريقة (جذام) شاركت في أحداث الأندلس، بدءاً بالفتح ومروراً بعهد الولاة حتى قيام الدولة الأموية وسقوطها. وقد أظهر المستعين مقدرة وكفاية في شؤون الحكم، حيث تجلى ذلك بإحكامه السيطرة على المدينة والإمساك بزمام الأمور فيها. كما تجلّى في صمود المستعين أمام التحديات التي واجهته، لا سيما المعارك التي قامت بينه وبين المأمون بن ذي النون (صاحب طليطلة) حول وادي الحجارة. وكان الأخير نسيباً لآخر الأمراء التجيبيين المنذر بن يحيى، مما جعل العلاقة تسوء بين الطرفين، اللذين احتكما للقتال الذي حسم لمصلحة المستعين[4]. وقد كشفت هذه الحرب ثغرات دويلات الطوائف، ومدى الأحقاد التي كانت تحملها الواحدة ضد الأخرى، دون التورع عن طلب المساعدة من الأسبان[5]، الذين كانوا يسهمون بشكل أو بآخر في تأجيج هذا الصراع أو في

---

(١) عبد الله بن حكيم. المصدر نفسه ج٣، ص ١٧٨.
(٢) المصدر نفسه ج٣، ص ١٧٩.
(٣) العبر ج٤، ص ١٦٣.
(٤) عنان، دول الطوائف ص ٢٧١.
(٥) البيان المغرب ج٣، ص ٢٢٣.

توفير الظروف له، وكل ما يعزز مواقع نفوذهم على حساب هذا التراجع العربي الإسلامي.

والأمير الثاني هو أحمد بن سليمان (المقتدر) الذي كان أحد خمسة أبناء وزع عليهم «المستعين» مملكته في حياته، حيث آلت سرقسطة إلى الأول، بما يعنيه ذلك من تكريس لولايته بعد أبيه، ولكنه لم يشأ القبول بهذا الواقع بعد انتقال السلطة إليه، مما جرّ إلى صراع بين الأخوة، نجح خلاله المقتدر في إحكام قبضته على مواقع أخوته، باستثناء أكبرهم (يوسف) صاحب لاردة الذي لقب نفسه بحسام الدولة[٢]. ولم يكن الأخير خصماً هيناً، لا سيما وأن «أهل الثغر» كانوا أكثر تعاطفاً معه، بعد أن أنكروا على المقتدر قسوته على أخوته وعدم التزامه بالعهود، حيث جرَّ ذلك إلى خلع الكثيرين طاعته والتحوّل نحو أخيه الذي وُصف بالشهامة والفروسية واكتسب لقباً آخر بفضل ذلك وهو «المظّفر»[٣]. وعلى عادة «ملوك» الطوائف الذين لم يتورعوا عن استخدام شتى الوسائل للاحتفاظ بالنفوذ، فقد توجه المقتدر، بعد احتدام الصراع مع أخيه واقتصار ولايته على سرقسطة، إلى الملك الاسباني طالباً منه المساعدة، التي كشفت مدى الانهيار في الوضع السياسي في الأندلس، كما كشفت ما وصل إليه المقتدر من انهيار خلقي، عندما اتفق مع الأخير، بأن يعتدي رجاله على قافلة محملة بالمؤن، كان قد أرسلها أخوه إلى تطيلة التي عانت حينذاك من المجاعة، وخشي من تربص المقتدر بها، مما دفعه إلى ارسال مبلغ من المال للملك الاسباني، كي يسمح بمرور القافلة في أراضيه، ولكن ما أرسله الأخير كان أكثر إغراءً للملك، الذي هيأ الظروف أمام رجال المقتدر لاعتراضها والفتك بها[٤]

ولقد أدت هذه الحادثة إلى إعادة ترتيب الأوضاع في الثغر الأعلى، لمصلحة

---

(١) أحمد بن سليمان في سرقسطة وأخوه يوسف (لاردة) ومحمد (قلعة أيوب ولبّا وشقة) والمنذر (تطيلة). البيان المغرب ج٣، ص٢٢٢.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه ج٣، ص٢٢٣.

(٤) المكان نفسه. راجع أيضاً: عنان، دول الطوائف ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

المقتدر، الذي سيطر إثر ذلك على طرطوشة، وهي نافذة الإقليم على البحر، مما عزّز موقع المقتدر في «مملكته» التي بات الشخصية الأقوى فيها، بعد الضربة التي نزلت بمنافسه البارز «المظفر». ولكن النكبة التي حلت حينذاك بمدينة بربشتر الواقعة بين لاردة ووشقة، إبّان حصار النورمان لها (٤٥٦هـ)[١]، كان لها وقعها الشديد على الأندلس و«كان الخطب أعظم من أن يوصف»[٢]، حسب تعبير ابن عذاري. فقد اجتاح المهاجمون المدينة بعد صمود بطوليّ، لم ينل منه سوى قطع الماء عنها، وما ترتب عليه من سقوط المئات من أهلها ضحايا العطش، في الوقت الذي تباطأت فيه النجدات لإنقاذها، على الرغم من الاستياء الذي عمّ الحواضر الأندلسية في ذلك الحين. وقد شجع هذا المناخ ابن هود (المقتدر) على استنفار المقاتلين لإنقاذ المدينة، ومن ثم رفع الحيف عن نفسه بعد إتهامه بالتقصير إزاء المدينة المنكوبة. فاستجاب له عدد كبير، من بينها قوات أرسلها المعتمد بن عبّاد، تحرك بها المقتدر نحو الأخيرة وفرض عليه االحصار، قبل أن يتمكن رجاله من اقتحامها والانتقام الشديد من النورمان الذين سيطروا عليها نحو تسعة أشهر[٣]، بحيث كان لهذا الانتصار الذي قطف ثماره المقتدر دوّيه الكبير، ولكن مع تبعات على عاتقه في تلك الفترة التي تحركت فيها جبهة الثغر الأعلى، في أعقاب هجمات الممالك الاسبانية المجاورة. فقد كان هذا الإقليم هدفاً حيوياً لهذه الأخيرة، لما يمثله من موقع جغرافي هام، قد يصحّ وصفه بأنه خطّ الدفاع الأول عن المسلمين في الأندلس. وقد تزامن هذا الخطر بصورة خاصة مع وصول القونسو السادس إلى عرش قشتالة، فارضاً الجزية على المقتدر الذي كان يدفع مثلها إلى ملكيّ أراغون ونافار، مما جعله في وضع صعب، لم يخفف منه سوى تحالفه مع الفارس القشتالي الذي لمع نجمه حينذاك تحت اسم «السيد»، وذلك إثر خلافه مع القونسو السادس[٤]، حيث أعاد هذا

(١) البيان المغرب ج٣، ص ٢٢٥.
(٢) المصدر نفسه ج٣، ص ٢٢٦.
(٣) المكان نفسه. راجع: عنان، دول الطوائف ص ٢٧٨ - ٢٧٩.
(٤) دول الطوائف ص ٢٨١.

التحالف الجبهة الشمالية إلى الهدوء، والعلاقات مع الأسبان إلى التوازن، ليصبح المقتدر بفضل ذلك أحد أقوى ملوك الطوائف، وتسطع معه سرقسطة جاذبة إليها الضوء كأعظم مدينة في الأندلس في أواخر عهد المقتدر، الذي كان شاعراً وعالماً، إلى جانب ما تمتع به من كفاءة في السياسة والحرب.

ولكن الصراع على السلطة الذي بدأ مع هذا العهد، عاد إلى الظهور في نهاياته، عندما احتدم التنافس بين يوسف (المؤتمن) الذي آلت إليه السلطة في سرقسطة وبين أخيه المنذر[1]. فبينما تحالف الأول مع «السيد» وجماعته المرتزقة، استعان الثاني بملك أراغون وقشتالة، حيث جرَّ ذلك إلى معركة عنيفة بين الأخوين، انعقد فيها النصر للمؤتمن وحليفه «السيد». وكان الأخير في الواقع الشخصية الأبرز في بلاط المؤتمن والسيف المشهور في وجه أعدائه، سواء في الداخل أم على التخوم، على نحوٍ جعل البعض يصفه بأنه «العقل المدبّر»[2] للمؤتمن. ولكن الأمير الهودي الثالث (المؤتمن) لم يستمر في الحكم أكثر من أربع سنوات، مما أعاد مجدداً أجواء الصراع السياسي والعسكري إلى هذه الدولة، حيث تولى الأمر ابنه أحمد (٤٧٨هـ) الذي عُرف بالمستعين، أو بالمستعين الأصغر[3]، للتمييز بينه وبين مؤسس الدولة الهودية الذي حمل اللقب نفسه. وقد تزامن ذلك مع سقوط طليطلة (٤٧٨/١٠٨٥) عاصمة الثغر الأوسط، بما يعنيه سقوطها من خطورة على أوضاع الدويلات الإسلامية في الأندلس، كونها تقع في قلب هذه البلاد[4]، وكونها العاصمة القديمة في العهد القوطي، وما يحمله ذلك من دفع بالغ الأهمية للمشروع الصليبي، المندرج في إطار حركة «الاسترداد»، التي استهدفت لاحقاً الوجود العربي الإسلامي في اسبانية.

(١) دول الطوائف ص٢٨٤. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، وعصر الطوائف والمرابطين ص ١٥.

(٢) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٥.

(٣) دول الطوائف ص ٢٨٦.

(٤) راجع وصف الشاعر ابن العسال لهذا السقوط الذي شطر البلاد إلى شطرين وأنذر حسب رأيه المسلمين بالنهاية في الأندلس:

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما البقاء بها إلّا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

كما تزامن عهد المستعين الثاني مع تحديات لم تكن منفصلة عن سيطرة الاسبان على طليطلة، عندما قام الفونسو السادس إثر ذلك بمحاصرة سرقسطة التي كان من المفترض أن تلقى المصير نفسه لو لم تشهد الأندلس حينذاك أحداثاً هامة، مع دخول المرابطين إلى الأندلس وانتصار سلطانهم يوسف بن تاشفين الباهر على الفونسو في موقعة الزلّاقة (رجب ٤٧٩هـ)، مجسّدة ردة الفعل الإسلامية على سقوط طليطلة. وما لبث السلطان المرابطي الذي عاد إلى المغرب بعد موقعة الزلّاقة، أن عبر إلى الأندلس بعد سنتين من هذه الأخيرة (٤٨١هـ) للقيام بمهمة مماثلة، ومن ثم عبر للمرة الثالثة بعد سنتين أيضاً، ولكن ليستولي على دويلات الطوائف، بعد أن ضاق ذرعاً بصراعاتها ومؤامراتها على بعضها، وتلاعب الملوك الاسبان بمصائرها، حيث سقطت في يده غرناطة وإشبيلية والمريّة وبطليوس وغيرها من المدن الهامة في الأندلس. وفي غمرة هذا الانتشار المرابطي على حساب دول الطوائف، يستبد القلق بالمستعين على دولته ويتوجه إلى حليف أبيه (السيد)طالباً مساعدته ضد المرابطين، فبادر الأخير الذي كان له نفوذ قوى في شرقي الأندلس إلى تلبية طلبه موحداً بينهما الخطر المشترك. ولكن المستعين أدرك بعد وقت قصير عبث اعتماده على «السيد» الذي كانت تحركه نوازعه السلطوية، فلم يجد بدّاً من التودد للمرابطين وإيفاد الرسل والهدايا إليهم. وفي الوقت الذي اطمأن المستعين إلى هؤلاء أو كاد، فوجىء بهجوم الاسبان على تطيلة، إحدى أهم القواعد في دولته، فلجأ إلى الدفاع عنها وخوض معركة عنيفة أسفرت عن هزيمته وقتله (رجب ٥٠٣)[1].

ومع غياب الأمير الرابع في دولة بني هود، تشارف الأخيرة على نهايتها التي أصبحت محسومة على الرغم من بيعة خامس أمرائها عبد الملك الذي تلقب بعماد الدولة، والاشتراط عليه بالتخلي عن محالفة الاسبان، في وقت كانت أجواء البلاد مشبعة بالعداء ضد هؤلاء، فضلاً عما أحدثته انتصارات المرابطين عليهم من تعزيز للمعنويات، حيث كانت آخرها حينذاك معركة «إقليش» التي سُحقت

(١) راجع ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ١٧٤.

فيهـا القوات القشتـالية، ممـا دفع أهـل سـرقسطـة ـ وقد وجـدوا نكوصـاً لـدى أميـرهم بمـا قـطعـه عـلى نفسـه في محـاربـة الاسبـان ـ إلى الاتصـال بـالسلطان المرابطي وإعلان استعدادهم لتسليم مدينتهم إليه. وقـد تمّ ذلك فعـلاً، عندمـا خرج عماد الدولة من عاصمته بعد توجه قائد المرابطين إليها، أو أنـه أُجبر عـلى الخـروج منهـا تحت ضغط أهلهـا المنتـظرين دخـول الأخـير إليهـا (٥٠٣هـ)[1]، لينتهي أمـر هذه الـدولة، التي دامت حـوالى قرن من الـزمن، على نحـوٍ لم تبلغه دولة أخرى، إذا ما أخذنـا في الاعتبار العهـد «التجيبي» الأول الذي سبق عهـد بني هـود الجذاميـين، الذي شغلوا دوراً ربمـا كان الأكـثر خطورة في تـاريخ تلك الفترة من الأندلس.

دولة بني ذي النون في طليطلة (٤٠٠ ـ ٤٧٨هـ):

تكتسب هذه الدولة أهمية خاصة، إنطلاقاً من مـوقعها المتـاخم للممالـك الاسبانية، كما جعلها دولة مواجهة ـ إذا جاز التعبير ـ أو حاجزاً بين هـذه الأخيرة وبين الدويلات الإسلامية. وقد ارتبطت هذه الدولة التي اتخذت مقرها في قاعدة القـوط القديمـة طليطلة، بـأسرة بني ذي النـون التي تعود في أصـولها إلى البـربـر (هوارة)[2]، كانت قد دخلت في خدمة الأمير محمـد بن عبد الـرحمن (الأوسط)، وشـارك أحد أبنـائها (مـوسى بن ذي النون) في الفتنـة التي سبقت عهد الخـلافة وأدت إلى قيام الطوائف الأولى، عندما استقل بالثغـر الأدنى (الأوسط) واتخذ من عاصمته طليطلة مقرّاً له، حيث ارتبط تاريخها بهذه الأسرة منذ ذلـك الحين. وفي مـطالع «الفتنـة الثانيـة» التي رافقت انحلال الخـلافة الأمـويـة، وتـلاشي الحكم المركزي، قام قاضي المدينة أبو بكر يعيش بن محمد الأسدي، بتسيير الأمور فيها، معتمـداً عـلى عـدد من رؤوسـاء القبـائـل[3]. وقـد ظلت هـذه «السلطة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٥،

Dozy. Hist des musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête des Almoravides. Vol III. p. 154.

(٢) عنان، دول الطوائف ص ٩٥.

(٣) أعمال الاعلام ص ١٧٦.

الجماعية» تمارس نفوذها في طليطلة نحو عشرين عاماً، عندما وقع الانقسام بين أفرادها وقام أهل المدينة بعزل القاضي والاتصال بصاحب «شنت برية» عبد الرحمن بن ذي النون (٤٢٧هـ) كي يتولى أمرهم، حيث أرسل إليهم ابنه إسماعيل الذي لقب نفسه بالظافر، وسار على سياسة نالت رضى الجميع[١]، مما رسخ جذور هذه الأسرة في طليطلة وأدى إلى تعاقب أبنائها على الحكم حتى سقوطها على يد الأسبان (٤٧٨هـ/١٠٨٥م).

ثم تولى يحيى بن إسماعيل (المأمون) الحكم (٤٣٥هـ)، متأثراً بسياسة أبيه ونهجه، وعاصر خلال نيف وثلاثين عاماً من عهده الطويل أحداثاً خطيرة، حيث قام نزاع بينه وبين بني هود في سرقسطة حول وادي الحجارة، جرَّ إلى سلسلة من الحروب والوقائع كان النصر خلالها حليفاً لبني هود الذين طاردوا المأمون حتى طلبيرة[٢]. ولكن الأخير لم يسكت على هزيمته، بل توجه إلى ملك قشتالة طالباً منه المساعدة لقاء «جزية» يؤديها له[٣]. فلبى الملك الاسباني دعوته، وأرسل جنوده يعبثون في أراضي الهوديين قتلاً وتخريباً ودماراً، في الوقت الذي هاجم فيه المأمون مناطق أخرى وأنزل فيها ما أنزلته القوات القشتالية[٤]. وقد شجعت هذه التطورات المأمون على تقوية أوضاعه، حين مدّ يده إلى صاحب قرطبة المعتضد وطلب مساعدته ضد بني هود، حيث استجاب لذلك، ولكن شرط الاعتراف بالخليفة هشام (المؤيد) الذي اتخذه المعتضد وسيلة لتحقيق أهدافه السياسية، فاضطر المأمون إلى تلبية شرطه، بعقد البيعة لهشام والدعاء له على منابر طليطلة[٥]. بيد أن ذلك لم يؤد إلى تجميد العلاقة العدائية بين الدولتين، حيث لم يتورع ابن هود من السير في الطريق نفسه الذي سلكه المأمون

(١) البيان المغرب ج٣، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.
(٢) المصدر نفسه ج٣، ص ٢٧٨.
(٣) المكان نفسه.
(٤) دول الطوائف ص ٩٩.
(٥) البيان المغرب ج٣، ص ٢٧٩.

مسبقاً، عندما تحالف مع الأسبان وردّ لخصمه الضربة بمثلها[1]، مما دفع أهل طليطلة إلى مناشدة ابن هود الاستجابة إلى الهدنة. ولكن الأخير برغم تظاهره بالموافقة على الصلح، ما لبث أن شن هجوماً على مدينة سالم (من أعمال طليطلة)، معتمداً في ذلك على بعض خصوم المأمون من الأسرة الحاكمة، وكذلك على دعم حلفائه الاسبان[2]. وهكذا كان دأب أمراء الطوائف، استنفاد طاقاتهم في هذه الصراعات الدموية التي كان المستفيد الأكبر منها، الملوك الاسبان، المتنقلين من موقع إلى آخر، فارضين شروطهم وضرائبهم على الدويلات الإسلامية، التي لم تتعظ من التجارب العديدة التي خاضتها مباشرة أم غير مباشرة.

ومن هذا المنظور، فإن المأمون ينتقل بعد ركود جبهته مع سرقسطة، في أعقاب موت أميرها سليمان بن هود، إلى إثارة هذه الجبهة مع بني عبّاد، ومنافستهم في مخططهم الرامي إلى السيطرة على قرطبة، معتمداً على أحد رجال ابن السقاء (وزير بني جهور) وربما أحد الضالعين بقتله، وهو حكم بن عكاشة لتحقيق هذا الهدف. وقد نجح الأخير في تنفيذ مشيئة المأمون، ممهداً له السيطرة على قرطبة ودخولها (٤٦٧هـ)، ولكنها كانت الأخيرة في عهده الطويل الذي لم يدم بعد ذلك سوى شهور قليلة، قضى بعدها المأمون تاركاً الأمر لابن عكاشة[3]، الذي عجز عن الاحتفاظ بموقعه أمام ضغط المعتمد بن عبّاد، حيث قدّر له أن يقطف مشروعاً ناضجاً، كان أبوه المعتضد قد عمل كثيراً في سبيله.

وكان الأمير الثالث والأخير في هذه الأسرة، هو حفيد المأمون (يحيى بن هشام)، الملقب بالقادر الذي وُصف بأنه ضعيف الشخصية قليل التجربة، معتمداً في شؤون الحكم على وزيري جده[4]، كان الأخير قد أوصاهما بتسيير

---

(١) البيان المغرب ج٣، ص ٢٧٩.
(٢) المصدر نفسه ج٣، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.
(٣) دول الطوائف ص ١٠٤.
(٤) ابن الفرج وأبو بكر الحديدي. المرجع نفسه ص ١٠٧.

أمور الدولة ورعاية الأمير الحدث. ولقد أثبت أنه قصير النظر في السياسة ومتأثراً بآراء صحبته الذين نفخوا فيه العزم للتخلص من هذه الوصاية، حيث دفع وزيره الفقيه (ابن الحديدي) ثمناً باهظاً لهذه الخفة في شخصية القادر، عندما استدعاه إلى مجلسه وترك المجال لخصومه بأن يفتكوا به. ولكن سرعان ما يستولي عليه الندم لغدره بوزيره، بعد أن وجد نفسه أسير الفئة التي حرضته عليه وكانت المستفيدة من ارتفاع المراقبة عنها، والتدخل ما شاء لها في أمور الدولة، مما انعكس على موقع القادر الذي ازداد ضعفاً وارتهاناً للآخرين، الممسكين بزمام الأوضاع فيها.

ومن جهة أخرى فإن المتاعب لم تقتصر على الشؤون الداخلية في طليطلة، ولكن ثمة متاعب أشد صعوبة كانت تحيط به من الخارج، حيث الأمير الهودي لم يدع له فرصة للاستكانة، ولا ينفك مظهراً أطماعه في دولته، التي افتقدت موقعاً هاماً في هذا الصراع بين الأميرين، عندما استولى ابن هود على مدينة شنتبرية التابعة لطليطلة. وفي الوقت نفسه، يمدّ الأخير يده إلى حاكم بلنسية (أبو بكر بن عبد العزيز) الذي ثار على طليطلة وأعلن استقلاله عنها، مما دفع القادر إلى إحياء حلفه مع الفونسو السادس، وطلب مساعدته لمواجهة الضغط الهودي عليه. ولكن ملك قشتالة لم يشأ القبول بالثمن نفسه الذي تقاضاه سابقاً، حين رفض الاكتفاء بالمال فقط، واشترط على القادر تسليمه بعض الحصون المتاخمة لدولته[٢].

وهكذا فإن مصير هذه الدولة تقاذفته حينذاك أطماع بني هود من جهة، والاسبان من جهة ثانية، فضلاً عن الصراعات الداخلية الضارية، التي عجز القادر عن استيعابها واضطرته إلى مغادرة طليطلة بعد إعلان خصومه الثورة عليه (٤٧٢هـ)، ومن ثم المناداة بأمير بطليوس[٣] حاكماً عليهم. على أن ذلك لم يطل

(١) دول الطوائف ص ١٠٧.
(٢) المرجع نفسه ص ١٠٨.
(٣) المتوكل بن الأفطس.

كثيراً، حيث التجأ القادر إلى الفونسو لمساعدته في استرجاع «ملكه»، فلم يخيب الأخير طلبه، لا سيما وأنه كان يتوجه باطماعه حينذاك إلى طليطلة، ويعتبرها امتداداً لدولته وهدفاً حيوياً في مشروعه التوسعي. وفي الوقت الذي رجع فيه القادر تحت حماية القشتاليين إلى عاصمته، كان أميربطليوس يغادرها، ولكن بعد أن أصبحت خاوية من المال والمؤن والسلاح، الذي تحوّل إلى عاصمة الأخير[1]. بيد أن هذه العودة المخزية للقادر، لم تكن تعني سوى أن المدينة أصبحت في آخر اللحظات من تاريخها العربي الإسلامي، بعد انهيارها الداخلي وما جرّ إليه ذلك من الفوضى والتقاتل، وبعد اقتراب الخطر الخارجي يوماً بعد آخر، منذراً بالمصير المظلم الذي يتربص بهذه المدينة. ذلك أن الفونسو عندما استجاب لمناشدة القادر بدعم عودته إلى عاصمته، لم يجد في حكم الأخير ما يستحق الدعم، سوى أن يكون توطئة لدخوله الوشيك إلى الحاضرة القوطية، بما لذلك من دلالة هامة على إحياء الدولة الاسبانية إنطلاقاً من عاصمتها القديمة، التي كانت الهدف المحوري لأبرز ملوك الاسبان في ذلك الحين. وفي ظل هذه المحنة التي عصفت بطليطلة خاصة وبقية مدن الأندلس عامة، حيث الأمراء جميعاً كانوا يتنافسون على ودّ الفونسو، دون تقدير لما ينتظر عاصمة الثغر الأدنى من خطر شديد، لم يتردد الأخير في الهجوم على المدينة ومحاصرتها (١٠٨٤/٤٧٧)، بعد أن حانت اللحظة الحاسمة لذلك. ولم يدم الحصار أكثر من بضعة شهور، عانت المدينة خلاله الشدائد والأهوال، دون أن يتحرك أحد من «ملوك» الطوائف لتخفيف الضغط عنها، باستثناء صاحب بطليوس الذي قام بمحاولة لنجدتها لم يكتب لها النجاح. ولم تلبث طليطلة أن استسلمت للملك القشتالي مقابل شروط نصّت على تأمين أهلها في أنفسهم وأموالهم ومغادرة من يشاء منهم مع أموالهم وأن يدفع المقيمون فيها ضرائب للملك المنتصر، وأن يسلموا القلاع والحصون، على أن يحتفظوا بمساجدهم ويمارسوا شعائرهم الدينية بحرية[2].

(١) ابن بسام، الذخيرة القسم الرابع ـ المجلد الأول، ص ١٢٤ ـ ١٢٦.
(٢) أعمال الاعلام ص ١٨١. دول الطوائف ص ١١٣ ـ ١١٤.

لقد عرضنا فيما تقدم أربعة نماذج من دويلات الطوائف، التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية في الأندلس. ولم نشأ في الواقع الإحاطة بجميع هذه النماذج، كونها لا تختلف كثيراً في أوضاعها السياسية وعلاقاتها مع بعضها أو مع الاسبان، وبالتالي فإن ذلك خارج عن سياق هذا الكتاب الذي يحاول التركيز على فترة الدولة المرتبطة بالأسرة الأموية في الأندلس. أما بقية هذه الأجزاء التي جرفتها تلك الموجة الانفصالية، فقد كان من أبرزها دولة بني الأفطس في بطليوس (الغرب) (٤١٣-٤٨٧هـ)، حيث يحيط الغموض بأصول أصحابها إذا كانوا متحدرين من قبيلة تجيب التي تولى ثلاثة منها حكم سرقسطة قبل العهد الهودي، كما سبقت الإشارة، أو أنهم يتمون إلى البربر، حيث يرجح إحسان عباس ذلك[1]. وقد قامت هذه الدولة بدور كبير في الأحداث السياسية، كما مرَّ معنا، سواء في علاقاتها العدائية مع بني عبّاد أو في موقفها من الاسبان الذي تجلى في الانفراد بمساعدة طليطلة خلال محنتها الأخيرة. ومن هذه الدويلات أيضاً، دولة بني زيري من الصنهاجيين (البربر) في غرناطة ومالقة (٤٠٣ ـ ٤٨٣هـ) وبني حمود الحسينين في مالقة والجزيرة الخضراء (٤٢٧ ـ ٤٤٦هـ) وبني برزال الزناتيين (البربر) في قرمونة (٤٠٤ ـ ٤٦٠هـ)، وبني يفرن الزناتيين أيضاً في رندة (٤٣١-٤٥٨هـ)، والصقالبة (موالي العامريين) في بلنسية (٤٠٦ ـ ٤٩٦هـ)، وبني صمادح التجيبيين[2] في المريّة (٤٣٣ ـ ٤٨٤ هـ) وبني طاهر (الصقالبة) في مرسية (٤٢٩ ـ ٤٧١ هـ) وبني رزين أو هذيل (البربر) في السهلة (٤٠٣ ـ ٤٩٧هـ) وبني القاسم الفهريين (العرب) في البونت (٤٢١ ـ ٤٩٧هـ)، وغيرها من الدويلات الصغيرة التي كانت في الغالب تابعة للدويلات الأكثر قوة، دون أن يكون لها دور ما في المتغيرات السياسية، سوى أنها أضفت المزيد من التفتت والانقسام والصراعات

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٣.

(٢) ثمة من يدرجهم مع البربر. راجع: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٢ وخالد الصوفي، جمهورية بني جهور ص ٤١.

الداخلية التي أخذت تؤتي ثمارها لدى الاسبان، لولا أن شهدت الأندلس محطة أخرى من تاريخها الإسلامي المديد، مع دخول المرابطين الذين أنقذوها بدون ريب من السقوط، حيث لم يكن يمنع تكرار ما حدث في طليطلة وانتقال محنتها من مدينة إلى أخرى دون ثمة الكثير من العوائق.

المرابطون والموحدون في الأندلس

المرابطون في الأندلس

٤٤٨ - ٥٤١ / ١٠٥٦ - ١١٤٧

ثمة غموض ما يحيط بأخبار الدولة المرابطية وقيامها في المغرب الأقصى، حيث المصادر قليلة في هذا السبيل. ولكن المتواتر أن المرابطين ينتمون إلى «لمتونة» أحدى فروع القبيلة الكبرى صنهاجة البربرية، التي كان لها دور كبير في أحداث القرن الهجري الرابع في تلك المنطقة، على الرغم من زعم البعض بأن أصولها عربية من حمير[١]. وكانت شنقيط (موريتانيا اليوم) في الصحراء الغربية موطنهم الأصلي، حيث البيئة قريبة الشبه من البيئة الحجازية، طبيعةً ونمطاً حياتياً واجتماعياً[٢]، كذلك فإن الوثنية كانت عقيدة هؤلاء قبل أن يتسرب إليهم الإسلام في وقت متأخر نسبياً عن القبائل الأخرى في وسط المغرب وشماله، بحيث إن التغيير الحقيقي في عقيدتهم لم يحدث إلّا في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، عندما شهد اللمتانيون أو «الملثمون»[٣] كما أطلق عليهم، حركة توحيدية في صفوفهم، تزّعمها يحيى بن إبراهيم الكدالي وهو رئيس «كدالة» المتفرعة من لمتونة.

(١) روض القرطاس ص ٧٥.

(٢) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٧٨.

(٣) ثمة آراء عديدة حول استخدام اللمتانيين اللثام، يمكن الاطلاع عليها في تاريخ المغرب للدكتور إبراهيم حركات جـ ١، ص ١٥٥ - ١٥٦. وفي التاريخ العباسي والأندلسي للدكتور مختار العبادي ص ٤٧٩ - ٤٨٠.

فقد هال هذا الأخير، رؤية التخلف والجهل في قومه، مما دفعه إلى الجولان في بعض المراكز العلمية في المغرب، باحثاً عن شخصية تتولى تثقيف جماعته وتنويرهم بأمور الإسلام، حتى إذا انتهى إلى القيروان ـ وكانت لها شهرتها العلمية والدينية الواسعة حينذاك ـ تعرّف على الفقيه المالكي الكبير أبي عمران الفاسي[1]، الذي يعتبره البعض المنظّر الأول للدعوة المرابطية، حيث انطلقت حينذاك فكرة تأسيس دولة على قواعد إسلامية صحيحة في المغرب، لإنقاذه من حالة التمزق والفوضى، فقد أرسله أبو عمران إلى تلميذ له (وجاج بن زولو اللمطي) كان يعتزل في «رباط»، على مقربة من مصب نهر السنغال في أقصى المغرب[2]، ذلك المكان الذي استوحى الملثمون الصحراويون اسمه لإطلاقه على دعوتهم[3] التي أخذت منعطفاً هاماً، مع انتداب وجاج أحد «المرابطين» معه لتفقيه الصحراويين في أمورهم الدينية، وهو عبد الله بن ياسين الجزولي الصنهاجي، الذي تتلمذ على شيوخ قرطبة والقيروان، وتمتع بشخصية قوية ومؤثرة، فضلاً عن حماسته الشديدة للقيام بهذا الدور الذي لقي كثيراً من النجاح.

والواقع أننا غير معنيين هنا بالتفاصيل الواسعة التي رافقت قيام هذه الدعوة وتوحيدها للمغرب الأقصى، بعد سلسلة من المواقع والصراعات القبلية، حيث الهدف من هذه الدراسة هو تتبع الدور المرابطي في الأندلس. فقد توفي الزعيم السياسي للحركة يحيى بن إبراهيم (٤٤٠هـ) وخلفه يحيى بن عمر في شؤون السياسة والحرب أيضاً، بينما ظل لإبن ياسين الشؤون الدينية. وبعد سبع سنوات توفي ابن عمر (أبو زكريا)، ليخلفه في الرئاسة أخوه أبو بكر الذي اختار ابن عمه يوسف بن تاشفين لشؤون الحرب، حيث لمع اسمه فيها بعد، قائداً كبيراً ومقاتلاً شجاعاً، لا سيما في معارك السوس والمعركة الشهيرة ضد قبيلة

(١) ينتمي إلى غفجوم من بطون زناتة. العبادي،في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٤٨٠.
(٢) حركات تاريخ المغرب ج ١ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٣) يرى ابن عذاري أن عبد الله بن ياسين قد أطلق على أصحابه هذا الإسم بعد انتصارهم على «قبائل غير مسلمة مجاورة لقبيلة لمتونة». البيان المغرب ج ٤، ص ١٢.

برغواطة بالقرب من الرباط (٤٥١هـ)، التي استشهد فيها فقيه الدعوة ومنظرها ابن ياسين[1]. وبعد هذه المعركة بعامين فقط (٤٥٣هـ) أصبح يوسف بن تاشفين أميراً للمرابطين بعد تنازل أبو بكر له عن الخلافة، حيث يعتبر المؤسس الفعلي لدولتهم، بما يعنيه ذلك من اتخاذ عاصمة لها في مراكش وإنشاء أسطول بحري وجيش قوي، ملقباً نفسه بأمير المسلمين وناصر الدين[2].

وهكذا فقد تتوج توحيد المغرب في إطار حركة المرابطين، التي تحولت إلى دولة بكل ما تعنيه هذه الكلمة بقيادة ابن تاشفين. وكان هذا الأخير نموذجاً لرجالات الدعوة المرابطية، الممتلئين حماسة للجهاد الديني الذي جسّده الفقيه ابن ياسين. ولذلك فإن هموم سلطان المرابطين لم تنحصر في المغرب، حيث كانت أخطار جسيمة تحاصر المسلمين وتهدد وجودهم على الضفة الأخرى من المضيق. فقد كانت الأندلس امتداداً للمغرب على أكثر من صعيد ومتداخلة معها سياسياً واجتماعياً، فضلاً عن المتغيرات التي تزامنت مع قيام دعوة المرابطين، عندما تولى الحكم في قشتالة الفونسو السادس في ظل موجة صليبية أوروبية، تمكّن خلالها من ضم ليون إلى مملكته وتحقيق الإنجاز الأهم بسقوط طليطلة، التي أثارت الرعب لدى أمراء الطوائف المسلمين. وكان بين هؤلاء من اعترف بعد لأي بهذا الواقع المرير، وهو المعتمد بن عبّاد، الذي لم يختلف عن أقرانه في أطماعه وشهواته السلطوية، ولكنه كان أكثر موضوعية منهم، عندما ناشد ابن تاشفين الدخول إلى الأندلس، معبّراً عن ذلك بما نسب إليه من قول ردّ فيه على المحذّرين من السلطان المرابطي وأطماعه: «رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير»[3]، حيث المقارنة واضحة بين حال الأندلس تحت سيطرة الاسبان وبين حالها تحت سلطان المرابطين.

ولم يتحرك ابن تاشفين نحو الأندلس إلاّ بعد مراسلات مع ابن عبّاد

---

(١) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٥٠٤.
(٢) المرجع نفسه ص ٥١٥.
(٣) الحلل الموشية ص ٣٢.

للوقوف على تفاصيل الوضع فيها، وربما بعد شروط من الأول، بأن تكون له الجزيرة الخضراء[1]. وقيل في هذا السياق إن الفونسو الذي بلغت مسامعه هذه الاتصالات، أرسل يهدد ابن تاشفين إذا ما استجاب لدعوة ابن عبّاد، مما أثار السلطان المرابطي ودفعه إلى التأهب للحرب واجتياز المضيق إلى الأندلس[2] متخذاً من الجزيرة الخضراء قاعدة له. وسرعان ما تقدم منها نحو إشبيلية، ليلتقي الملك الفونسو في سهل الزلاقة (٤٧٩/١٠٨٦) على مقربة من بطليوس في غربي الأندلس، ويحقق انتصاراً باهراً على الجيش الاسباني[3] الذي كان في أتمّ استعداده وخارجاً لتوه من حصار سرقسطة، حيث كانت على وشك من السقوط.

تركت هذه المعركة تأثيراً عميقاً على مسار الأحداث في الأندلس،في وقت بلغت فيه حافة النهاية وعانت أسوأ الظروف على الصعد السياسية والاجتماعية. وقد بالغ المؤرخون في وصف هذه المعركة ونتائجها، حيث أدرجوها بين المواقع العظيمة التي شهدتها تلك البلاد مثل «وادي لكة» و «المصارة».

والواقع أن هذا التصوّر ينطوي على شيء من المبالغة، لأن أية معركة مهما عظمت، لم تكن قادرة حينذاك على تغيير حركة التاريخ التي بدا أنها اتخذت مسارها الآخر. وكان السلطان المنتصر مدركاً لهذه الحقيقة، بعد أن صدمته مواقف أمراء الطوائف وتناقضاتهم، مما حمله على العودة إلى المغرب تاركاً جنوده في الأندلس، بعد أن ضاق بأجوائها المريبة. وهكذا يمكن القول إن أبرز نتائج معركة الزلّاقة، أنها كسرت شوكة الملك المتغطرس الفونسو السادس، وعززت الروح المعنوية لأهل الأندلس، بعد أن وصلت إلى الحضيض قبيل ذلك، فضلاً عن الإنجاز الأهم وهو توحيد القطرين (المغرب والأندلس) تحت راية المرابطين الذين اتخذوا من مراكش عاصمة لهم.

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) المراكشي، المعجب ص ١٣٢ ـ ١٣٥.

وقد أتاحت مغادرة ابن تاشفين الفرصة للملك القشتالي أن يعود إلى سابق نشاطه في إطار المشروع الصليبي الذي دأب على تحقيقه، بدعم من البابوية وبعض القوى الأوروبية، كذلك فإن الصراعات التي عادت إلى وتيرتها أو الكثير منها لدى أمراء الطوائف، وتبرّم بعضهم من حماية المرابطين وسيطرة جنودهم على بلادهم، كانت حافزاً لاستئناف تحركه ضد المسلمين في جنوبي شرق الأندلس. فقد ذكرت الروايات أن الفونسو بعد هزيمة الزلاّقة لجأ إلى تحصين المواقع المتاخمة لمرسية وبلنسية، لا سيما لبيط (على مقربة من لورقة)، موعزاً إلى أحد قواده بأن يشن هجمات في هذه الجهات، مما أثار قلق المسلمين عامة والمعتمد بن عبّاد خاصة الذي كانت له السيادة على بلنسية، حيث قام بحملة فاشلة لإنقاذ الأخيرة، دفعته إلى الاستنجاد مرة أخرى بالسلطان المرابطي. فعبر المضيق إلى المغرب والتقى ابن تاشفين عند وادي سبو[1]، حيث كانت قد سبقته دعوات ملحّة من فقهاء الأندلس محذرة من الخطر القشتالي. فاستجاب لنداء المعتمد ودخل الأندلس ثانية (ربيع الأول ٤٨١)[2]، بعد أن طلب من أمرائها موافاته عند حصن لبيط، ولكن دون أن ينجح في مهمته على الرغم من محاصرة الحصن والتضييق عليه، حيث اشتد الخلاف حينذاك بين المعتمد بن عبّاد وابن رشيق صاحب مرسية واتهم الأول الثاني بالتحالف سرّاً مع الاسبان. بالإضافة إلى ذلك فقد أدرك ابن تاشفين عدم جدوى الحصار الذي لم يكن فيه سوى نفر قليل من الجند، ما لبث الفونسو أن أمر بإخراجهم من الحصن وإحراقه. وكانت هذه التجربة أكثر مرارة لابن تاشفين من سابقتها التي اقترنت بالنصر، بينما اقترن الفشل بالصدمة في هذه المهمة، ليعود أدراجه حانقاً إلى عاصمته في المغرب[3]، ومعه خيبة الأمل من أمراء الطوائف.

ولكن مرارة التجربة لم تحل دون قيام ابن تاشفين بواجبه حيث تشتد الحاجة، لا سيما وهو القوي العقيدة، المطبوع على الجهاد، مما جعل للفقهاء

(١) الحلل الموشية ص ٥٤.
(٢) روض القرطاس ص ٩٨.
(٣) المراكشي، المعجب ص ٨٩.

كلمة مسموعة عنده. فقام مرة ثالثة بالعبور إلى الأندلس (٤٨٣هـ) مستجيباً لدعوة هؤلاء، وفي ذهنه افتتاح طليطلة والسيطرة على البلاد بصورة فعلية.

وفي تلك الأثناء نشب خلاف بين المعتمد ـ وقد كان حتى ذلك الحين موضع ثقة ابن تاشفين ـ وبين سير بن أبي بكر قائد المرابطين في الأندلس، بسبب رفض الأول التنازل للمرابطين عن «دولته» ومحاولته الاستعانة بالاسبان، مما دفع القائد المرابطي إلى القبض عليه وإرساله أسيراً إلى أغمات (المغرب)[1]. أما يوسف بن تاشفين فقد جال في الأندلس، محاصراً طليطلة قبل أن يقضي على دويلات الطوائف، وتصبح موحدة تحت سلطانه المباشر. وقد توّج أعماله الظافرة باستعادة أشبونة التي سبق للقشتاليين السيطرة عليها[2]، بحيث كان ذلك دافعاً إلى قيام الفونسو بحملة كبيرة إلى قرطبة، ولكنه تحوّل عنها إلى قرمونة وإشبيلية، ومن ثم قفل عائداً إلى بلاده بعد أن أدرك قوة حاميات هذه المدن وصعوبة اختراقها[3]، مكتفياً بما حققه من تخريب وبما ناله من غنائم.

وهكذا خضعت الأندلس لحكم المرابطين المباشر، باستثناء سرقسطة التي احتفظ بالسلطة فيها بنو هود بالاتفاق مع ابن تاشفين[4]. وبعد أن حقق الأخير هذه المنجزات توفي في عاصمته (مراكش)[5]، بعد أن بايع ابنه علي الذي كان أقل كفاءة ومرونة من سلفه، وأكثر تأثراً بمواقف الفقهاء وانصياعاً لآرائهم[6]. على أنه لم يختلف عنه حماسة للجهاد، حيث كان أخوه (تميم) يتولى قتال الاسبان والإغارة على معاقلهم، مستفيداً من الوضع التراجعي لهؤلاء في تلك الحقبة، نتيجة صراعاتهم على الحكم، منتصراً عليهم في معركة اقليش الشهيرة

(١) الحلل الموشية ص ٦٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٥٥.
(٣) دول الطوائف ص ٣٧١.
(٤) حركات، تاريخ المغرب ص ١٦٥.
(٥) توفي سنة خمسماية للهجرة.
(٦) حركات ص ١٦٦.

(٥٠١هـ)[1] على أن أبرز قادة المرابطين الذين قاموا بأعمال جهادية هامة، هو القائد سير بن أبي بكر في غزواته المظفرة في غربي الأندلس. ولكن الاسبان لم يدخروا جهداً في توحيد موقفهم واستئناف غزواتهم ضد المدن الإسلامية، متخذين من سرقسطة هدفاً محورياً، ما لبث أن تحقق بسقوط عاصمة الثغر الأعلى بعد دفاع مستميت من أهلها، دون أن تكون مجدية حملات المرابطين ـ على أهميتها ـ لاستعادة المدينة، التي هزّ سقوطها نفوذهم في الأندلس (٥١٢هـ). والواقع أن العدّ العكسي ـ للمرابطين على الأقل ـ قد بدأ مع سقوط هذه المدينة، التي لم يتوقف عندها الاسبان، بل سقطت في أيديهم عدة مواقع هامة في شرقي البلاد وجنوبها.

وهكذا شغلت أحداث الأندلس وقت علي بن يوسف، دون أن يتمكن من ضرب الخطر الاسباني أو تحجيمه، كما حدث في أعقاب معركة الزلّاقة. فلم تعد الظروف مواتية لانتصار مرابطي مماثل، بعد أن ثقلت المشاكل على عاتق السلطان، في وقت خبا فيه وهج الدعوة المرابطية وعزف الأندلسيون عنها أو خفت عندهم الحماسة، مما أوجد شرخاً في العلاقة مع قادتها في الأندلس. وإذا أضفنا إلى ذلك ما شهده المغرب من حركة معارضة للمرابطين، بقيادة المهدي بن تومرت الذي حاول الاستيلاء على مراكش، لبات واضحاً أن دولة المرابطين احترقت مبكراً في أتون الأندلس، حيث بذلت فيه من الجهد ما جاء على حساب قاعدتها الأساسية في المغرب، الذي هبت عليه رياح دعوة جديدة بعد سنوات قليلة من وفاة علي بن يوسف، عندما دخل الموحدون مراكش (٥٤١ هـ) وورثوا الدور المرابطي في المغرب والأندلس.

الموحدون في الأندلس (٥٤١ ـ ٦٣٣ / ١١٤٧ ـ ١٢٣٥):

لقد شابهت الدعوة الموحدية سابقتها في عدة جوانب، ليس أقلها الجانب الديني الذي حرَّك الدعوتين اللتين قامتا في مرحلة تمزق الخلافة وتشرذم المسلمين، وما رافق ذلك من الانهيار الأخلاقي، بحيث كان «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» أول عناوين هذه الدعوة الموحدية.

(١) حركات ص١٦٦.

أما عناصر الاختلاف فكانت قبلية، عندما انطلقت الأخيرة من قبيلة متفرعة من مصمودة، ومذهبية حيث انتقد مؤسسها جمود الاجتهاد لدى الفقهاء المالكيين، وتنظيمية تتعلق بشخصية زعيمها (ابن تومرت) الذي كان «رجل سياسة ودين»[١] في الوقت نفسه، خلافاً للدعوة المرابطية التي قادها اثنان: سياسي وديني كما سبقت الإشارة.

يتحدر زعيم الموحدين محمد بن تومرت من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة، من كبريات قبائل البربر في المغرب الأقصى، وإن زعم أن له نسباً عربياً شريفاً ينتهي إلى الحسن بن علي[١]، ومن ثم لقّب نفسه بـ «المهدي»[٢]، لإضفاء هالة على دعوته. أما نشأته فكانت في بيئة متدينة في السوس، دفعته إلى التجوال في عدد من المراكز العلمية مثل قرطبة والإسكندرية وبغداد، فضلاً عن أدائه فريضة الحج قبل عودته إلى بلاده[٣]. وقيل إنه أخذ يبشر بدعوته على متن السفينة ويلزم ركابها بإقامة الصلاة، حتى ضاق به الربان وألقى به في البحر، حيث أنقذه الركاب أو أنقذ نفسه بالوصول بعد لأي إلى «المهدية»، ثم انطلق منها إلى «بجاية» ومنها إلى «ملالة» المجاورة لها، ليلتقي مصادفة في الأخيرة عبد المؤمن بن عليّ الرناتي، وهو في طريقه إلى المشرق طلباً للعلم[٤]، عندما أقنعه ابن تومرت بالعزوف عن ذلك. فاستجاب لرغبته وانضم إلى مسيرة أستاذه ولقي من التشريد والملاحقة والمعاناة ما لقيه الأخير، وهما يجولان المغرب ويبثان الدعوة ضد المرابطين، ويستقطبان الاتباع والأنصار، لا سيما وأن كلاهما كانت له شخصية جذابة وقوية، وكان أول انتصار لهما على عامل السوس المرابطي[٥]، ثم تابعا معاً في المغرب

(١) عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب ص ٦٦.
(٢) المعجب ص ١١٥، مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ.
(٢) عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب ص ٦٥.
(٣) المرجع نفسه ص ٥١.
(٤) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٤٩.
(٥) السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى جـ ٢، ص ٧٧.

الأقصى، حيث القيادة العسكرية كانت لعبد المؤمن الذي أثبت جدارة أهّلته لخلافة مؤسس الدعوة بعد موته (٥٢٤هـ)[١].

وبعد عشر سنوات كانت خطة عبد المؤمن قد نضجت للسيطرة على المغرب، حيث بدأت الفتوح في جبال غمارة وانتهت في مكناس، التي صمدت نحو سبعة أعوام قبل السيطرة عليها سنة ٥٤٣هـ[٢]. وبعد ذلك توجه عبد المؤمن نحو المغرب الأوسط الذي تمت السيطرة عليه بعد أعوام قليلة، ومن ثم المغرب الأدنى بعد أن وصل مع قواته إلى تونس والمهدية فضلاً عن طرابلس[٣].
ولعل ما يعنينا من هذا الانتشار السياسي والعسكري للحركة الموحدية، هو التوقف عند دورها في الأندلس، حيث كان من الطبيعي أن تتوجه إلى هذا الإقليم بعد أن سارت في حربها على المرابطين شوطاً لم يبلغه هؤلاء، فكيف بالأندلس التي كانت تعتبر امتداداً للمغرب الأقصى ـ معقل الحركة ـ ومتداخلة معه إلى حدٍ كبير. والواقع أن وضع المرابطين كان قد ساء إلى حدٍّ كبير، بعد عجزهم عن المحافظة على وحدته السياسية وإيقاف التدهور الذي عاد أو كاد إلى ما يشبه مرحلة الطوائف، حيث كانت ثورة قرطبة (٥٣٩هـ) قد أجهزت على ما تبقى لهم من هيبة في الأندلس، بعد أن أدت التطورات حينذاك إلى دخول القشتاليين المدينة. ومن هنا، فإن الموحدين الذين تمسكوا ـ شأن أسلافهم ـ بنظرية الجهاد، لم يترددوا في الدخول إلى الأندلس والسيطرة عليها. فقد عبر عبد المؤمن إلى جبل طارق، وأشرف على عمليات عسكرية في الجهات الغربية، المهددةبقيام مملكة مستقلة فيها (البرتغال)، كما أعدّ في هذا السبيل، أسطولاً كبيراً وآلاف المجاهدين[٤]، الذين انتشروا في الثغور المغربية تمهيداً لعبورهم إلى الأندلس. ولكن عبد المؤمن لم تتح له الفرصة لتنفيذ خطته، حيث وافته المنية في سلا وتولى بعده الأمر ابنه يوسف الملقب بأبي يعقوب (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ).

(١) ابن خلدون، العبر جـ ٦، ص ٣٢٧.
(٢) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٦١.
(٣) المرجع نفسه ص ٢٦٣.
(٤) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٦٧.

وليس ثمة شك أن مهمة الموحدين في الأندلس، كانت أكثر دقة وصعوبة من أسلافهم،بعد أن ازدحمت بالمتمردين الذين تداخلوا مع تحركات الاسبان، سواء في التآمر أم في التوقيت. فقد استفاد الفونسو السابع من حالة الاضطراب القائمة، واستولى على عدة ثغور هامة، كما هدد بطليوس، مما دعا الخليفة (وهو اللقب الذي اتخذه أمراء الموحدين) أبو يعقوب للعبور إلى الأندلس، بالقوة التي كان قد أعدّها سلفه (٥٦٦هـ)، معلناً بدء الجهاد الحقيقي في هذه البلاد، فتمت له السيطرة على قرطبة وإشبيلية التي اتخذها الموحدون عاصمتهم، وذلك لأسباب عسكرية، بعد أن اشتد الضغط من جانب البرتغاليين على هذه الجهات.

ومن إشبيلية قام يوسف بغزوة إلى وبذة (وهي حصن بقرب أقليش)[١]، فحاصرها وعاثت قواته في الأراضي القشتالية، ولكن دون أن ينجح في الاستيلاء على «باجة» التي استهدفها الخليفة. وفي الوقت الذي عاد إلى المغرب (٥٧١هـ)، كان الصراع لا يزال مستمراً بين الموحدين والأطراف الاسبانية، والغارات متبادلة بصورة خاصة مع البرتغاليين، الذين كانوا أشدّ ضغطاً وخطورة في تلك المرحلة[١]. ونتيجة لذلك يعود الخليفة، بقوة كبيرة إلى الأندلس (٥٨٠هـ)، حيث كانت أولى منجزاته السيطرة على «شنترين»، قبل أن يرسل ابنه (أبو إسحق) للهجوم على أشبونة (البرتغال). ولكن البرتغاليين كانوا راصدين تحركاته، حين هاجم قائدهم سانشو معسكره، وأوقع الهزيمة بجيش الموحّدين الذي ثبت على رأسه يوسف حتى سقوطه صريعاً في المعركة، في العام نفسه الذي دخل فيه إلى الأندلس[٣].

وقد تولى الأمر بعده ابنه يعقوب الملقب بالمنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ)، الذي كان معاصراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي، في وقت كانت المعركة الصليبية على

---

(١) الحميري، الروض المعطار ص ٦٠٧.
(٢) حركات، تاريخ المغرب ص ٢٧١.
(٣) المكان نفسه.

أشدها في المشرق والمغرب. وكانت أولى أعماله في الأندلس، تلك الحملة الانتقامية التي قادها إلى شنترين وأشبونة، حيث انتشر جنودها في هذه المناطق وعاثوا فيها، وغنموا ما شاء لهم، دون أن يتصدى لهم أحد، في الوقت الذي نجح فيه قائده على قرطبة في السيطرة على شلب، بعد عام تقريباً من حملته (٥٨٦هـ). ويبدو أن اتفاقاً على الصلح قد عقده المنصور مع أعدائه، ثم نقضوه بعد خمس سنوات، مما دفعه إلى الدخول مرة ثانية إلى الأندلس (٥٩١هـ)، التي شهدت حينذاك مرحلة جديدة من الصراع المسيحي الإسلامي في اسبانية، بعد اتساع المشاركة الصليبية مع ملوك هذه الأخيرة، متوّجاً أعماله الجهادية بانتصاره الباهر في معركة «الأرك» على الفونسو التاسع ملك قشتالة في العام نفسه[1]. وقد ماجت الأندلس بهذا الانتصار وراح الشعراء يمجدون في المنصور قيادته وشجاعته، ملتمسين فيه ما يماثل انتصار الزلّاقة أو الكثير منه، إنطلاقاً من الصدى الواسع الذي تركته معركة «الأرك» على أهل الأندلس، المتعطشين لأخبار الانتصارات الكبيرة التي طال غيابها في ذلك الحين. على أن هذه المعركة لم تكن كسابقتها والظروف لم تكن ذاتها أيضاً، حيث صدى المعركة كان قوياً كذلك على الملوك الاسبان، فضلاً عن البابوية التي قامت بأوسع تعبئة للقوى المسيحية في أوروبا ضد مسلمي الأندلس، مرتفعة بذلك الوتيرة الصليبية إلى مداها البعيد. أما على جبهة الموحدين، فقد توفي المنصور بعد سنوات قليلة وهو يتابع جهاده في الأندلس (٥٩٥هـ) وتولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالناصر (٥٩٥-٦١٠هـ)، الذي كان عليه مواجهة تلك الأخطار الشديدة.

وكان الملوك الاسبان تحت ضغط البابوية قد تجاوزوا خلافاتهم التي نشبت في أعقاب معركة «الأرك»، حيث تركت الأخيرة أسىً في نفس الملك القشتالي، دفعه إلى استنهاض خصومه والقيام بغزوة إلى جنوبي شرق الأندلس. ولم يلبث «الناصر» أن تصدى بدوره لهذا الموقف الخطير، وقاد جيشاً ضخماً لمواجهة الزحف القشتالي، بينما قام الاسبان الذين أمدّتهم البابوية بعدد كبير من

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

المتطوعين، بالثأر لمعركة «الأرك» واسترجاع هذا الحصن. أما المسلمون بقيادة الناصر، فقد حاولوا التقدم نحو قشتالة، مروراً بحصن «سلبطرة»، دون أن يتمكنوا من السيطرة عليه، حيث أمضوا الشتاء بجواره خلافاً لرغبة الناصر الذي كان يريد متابعة زحفه شمالاً، لولا أن نصحه وزيره بذلك. وبعد سقوط الحصن صلحاً، توجه الناصر بقواته التي تسرَّب إليها الملل، فضلاً عن الانقسام بين الجنود المغاربة والأندلسيين، لمقابلة الزحف الاسباني المتماسك، حيث التقى الفريقان بالقرب من حصن «العقاب» (بين جيّان وقلعة رباح)[1] ـ وكانت الأخيرة قد سقطت لتوها في أيدي الاسبان ـ واشتبكا في معركة عنيفة (١٢١٢/٦٠٩)، انتهت بهزيمة قاسية للناصر وقواته[2].

والواقع أن هذه الهزيمة لم تكن عادية بالنسبة للمسلمين في الأندلس، حيث بات من الصعوبة كثيراً تجاوزها ومحاولة تعديل الموازين العسكرية لمصلحتهم مرة ثانية في هذه البلاد. فبعد أقل من ربع قرن فقط، أخذت المدن الأندلسية التي ارتبطت، تاريخاً وحضارة بالعرب المسلمين، تتساقط الواحدة تلو الأخرى، بدءاً بالعاصمة قرطبة (١٢٣٦م) وأشبيلية (١٢٤٤)، وبقية المدن الكبيرة والصغيرة، حتى كادت الأندلس بكامل أراضيها تنتهي إلى السقوط في ظل هذه الموجة الصارمة التي قادها بصورة خاصة ملكا ليون وقشتالة، اللذين توحدا في جبهة قوية ومتماسكة، كان من نتائجها ما حدث من منجزات هامة لدى الجانب الاسباني. ولكن ما جرى حينذاك، هو أن مقاطعة إسلامية في الجنوب الشرقي، بين جبال نيفادا وساحل البحر المتوسط، ظلت شامخة ومتحدية، برغم الحصار والأخطار المحدقة بها، تلك هي غرناطة التي قاومت السقوط نيفاً وقرنين من الزمن.

---

(١) الحميري، الروض المعطار ص ٤١٦.
(٢) المكان نفسه.

«مملكة» غرناطة

٦٣٤/١٢٣٧ - ٨٩٨ - ١٤٩٢

لم تكن غرناطة مدينة شهيرة في العهود الأولى من الحكم العربي الإسلامي في أسبانية، على غرار قرطبة وأشبيلية وسرقسطة وغيرها من المدن الكبيرة. وقد استمرت قاعدة ثانوية حتى سقوط الخلافة وقيام دويلات الطوائف، عندما شملتها رياح التمزق مع سيطرة بني زيري الصنهاجيين عليها واتخاذها مقراً لملكهم في هذه المنطقة. ودام حكم هذه الأسرة البربرية نحو ستين عاماً، تقلد الأمر خلالها أربعة من الأمراء هم : المؤسس زاوي بن زيري وابن أخيه حبوس بن ماكس (المظفر) وباديس بن حبوس (الناصر) وعبد الله بن باديس (سيف الدولة)[١] . ثم خضعت ، شأن بقية الأندلس لحكم المرابطين نحو ستين عاماً أخرى ، قبل أن تخضع للموحدين (٥٥١ هـ) الذين احتفظوا بالسلطة فيها حتى معركة «العقاب» وقيام ابي عبد الله محمد بن يوسف بن هود بالثورة في هذه المنطقة (٦١٦/١٢١٧) . وكانت حركة ابن هود ناجحة في بدايتها، حيث امتدت سيطرتها الى عدد من المدن الهامة في جنوب وغربي الأندلس مثل أشبيلية وماردة وجيان وبطليوس ، مستغلة على ما يبدو ارتباك الموحدين بعد هزيمتهم القاسية وتلكؤ الاسبان حيناً، قبل اجتياحهم المراكز الاسلامية الكبرى، مما أدى الى زوال نفوذه بعد بضع سنوات، إثر تساقط

(١) عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص ٢٨ ، الصوفي، جمهورية بني جهور ص ٤٣ .

هذه المراكز ومن ثم قتله بعد ذلك في ظروف غامضة في المرية (٦٣٥هـ)[١].

وكان ثمة زعيم عربي قد ابرزته حينذاك الأحداث، هو محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي المعروف بابن الأحمر، استطاع ان يملأ غياب ابن هود في المنطقة لا سيما وأن بني نصر كانوا أصحاب أرجونة، القريبة من جيّان في جنوب الأندلس. فبعد مقتل ابن هود، قامت ثورة في غرناطة ضد الوالي (عتبة بن يحيى المغيلي) الذي كان خصماً لابن الأحمر، انتهت بقتله واعلان الأخير أميراً على المدينة.

وهكذا نشأت هذه «الدولة»، دون ان تكون لها جذور بعيدة في الأرض، ودون ان يكون للأسرة الحاكمة محل بين الأسر التي مرت على السلطة في العهود الماضية من تاريخ الأندلس .وقد انتشرت مساحةً ما بين جيان وبياسة حتى البحر، وشرقاً حتى المرية وغرباً حتى مصب الوادي الكبير،ويخترقها في الوسط نهرا «شنيل والدارو»[٢]. وقد يفرض السؤال نفسه عن موقف الأسبان المنتصرين من هذا الجيب النافر في دولتهم الموحدة،وعن الاسباب التي حدت بهم الى التوقف عند تخوم هذه «الدويلة» والسماح بقيامها أو استمرارها، في ظل الموجة الصليبية العاتية المسيطرة على اسبانية في ذلك الحين ؟ فلعل ابن الأحمر تمتع بتأييد الأغلبية الإسلامية المتمركزة في الجنوب، حيث بدا لها الأمل الأخير في تلك الظروف المأساوية، مجسداً ذلك في اختياره الصعب، بأن يدافع عن امارته ضد الأسبان، الذين شنوا هجوماً في نواحي جيان، عندما قام بغزو أحدى القلاع التابعة لهم[٣]، قبل ان يضطر الى رفع الحصار عنها بعد نجدتهم لها، ولكن دون أن ينقذ ذلك ابن الأحمر من المواجهة مع اعدائه الذين حلت بهم الهزيمة وقتل عدد من قادتهم الكبار[٤]. وكان ذلك حافزاً للملك القشتالي فرناندو الثالث، بأن يتعاطى بصورة أكثر جدية مع هذا الجيب الإسلامي، حين اوفد ابنه الفونسو في حملة عسكرية الى جيان، تمكنت من اخضاع عدة حصون تابعة لغرناطة في

(١) ابن خلدون، جـ ٤، ص ٢٦٩.

(٢) يوسف فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر ص ٢٥.

(٣) قلعة مرتش، إلى الجنوب الغربي من جيان. نهاية الأندلس ص ٤٢.

(٤) عنان، نهاية الأندلس ص ٤٢.

هذه المنطقة، فضلاً عن حصارها لهذه الأخيرة ، التي دافعت عن نفسها وردت الحملة عن أسوارها ومعها خسائرها الكثيرة(١) .

والواقع ان هذه المواجهة كان لها تأثيرها على الطرفين ، حيث ادرك ابن الأحمر صعوبة المضي فيها، كما رأى فرناندو خطورة استنزاف قواته في هذه المنطقة البعيدة، التي قامت في فترة نهوض جديدة في المشرق، قادها المماليك انطلاقاً من مصر، مسهمين في تعديل موازين العلاقات مع القوى الأوروبية لمصلحة المسلمين ، دون ان يكون المدى السياسي لهؤلاء محصوراً في بلاد الشام ، بعد ان دحروا فيها الجيوب الأخيرة للحركة الصليبية، ولكنهم وجدوا انفسهم معنيين بهذه الأمارة الصغيرة (غرناطة) وتقديم العون لها، من خلال خطوط الامدادات التي بقيت مفتوحة على العالم الإسلامي في الجنوب ، دون ان ننسى المرينيين الذين قاموا على أنقاض الدولة الموحدية في المغرب، وما قدموه من مساعدة عسكرية لهذه الدولة الفتية. ومن هذا المنظور يُعقد اتفاق مهادنة بين ابن الأحمر والملك القشتالي، نصَّ على تحديد الإطار الجغرافي والسياسي لدولة الأول، على أن يؤدي له ضريبة سنوية وبعض الحصون والقلاع(٢). ولا نستطيع في هذا السياق اغفال تجاهل ابن الأحمر للنشاط العسكري الاسباني ، الذي استهدف حينذاك المدن الكبرى، لاسيما اشبيلية التي سقطت بعد سنوات قليلة جداً من هذا الاتفاق، ومن ثم تبعتها مدن ومواقع أخرى، دون ان يجد ابن الأحمر ما يحمله على تغيير موقفه المرسوم في الاتفاق المشار اليه .

وهكذا يؤثر ابن الأحمر الهدوء في «مملكته»، متعايشاً ما أمكنه مع اعدائه الاسبان، واضعاً كل جهوده في تنظيم شؤونها وتعميرها، حيث نسب له بناء القصر الشهير (الحمراء)(٣)، الذي يعتبر أحدى مفاخر الحضارة العربية الإسلامية في

(١) عنان، نهاية الأندلس ص ٤٢ .
(٢) الذخيرة السنية، ص ٧٢.
(٣) فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر ص ٣٢ .

الأندلس .وبعد حياة طويلة نافت على الثمانين توفي ابن الأحمر، بعد أن أوصى بالحكم لابنه محمد الثاني المعروف بالفقيه[1] (٦٧٢ ـ ٧٠١ هـ) الذي سار على خطى ابيه في سياسته الاسبانية المهادنة. ولكن ثمة ما عكر العلاقة مع الملك القشتالي، عندما ثار أصهار بني الأحمر[2] على الملك الجديد ورفض الأخير مساعدته إلّا بعد تنازلات «حدودية» جعلته يتصل ببني مرين الزناتيين الذين خيبوا آماله في المساعدة، بعد آن أثروا عليه أصهاره، مما جعله ينكفىء على نفسه في غرناطة، في الوقت الذي تحمس فيه السلطان المريني للجهاد، وانتصر على الأسبان بالقرب من استجة[3] (٦٧٤ هـ)، حيث شجعه ذلك على المضي نحو أشبيلية في العام نفسه، قبل أن يعود إلى المغرب محمّلاً بأثقال الغنائم[4]. والواقع ان الموقف المريني في الأندلس، خلّف حرجاً لدى ملك غرناطة، الذي خشي انعكاس هذه الحوادث على وضعه السياسي، فبادر الى تحسين علاقته بالملك القشتالي، محرضاً الأخير على خصمه المريني والحؤول دون عودته الى الأندلس، بينما عاد هذا الموقف بالفائدة على ابن الأحمر الذي استعاد مالقة، بعد استدراج صاحبها إلى التنازل عنها[5] لقاء بعض الثغور البحرية جنوبي غرناطة[6].

على ان التطورات تتخذ منحى آخر، عندما عاود السلطان المريني (المنصور) عبوره إلى الأندلس مجدداً تهديده لإشبيلية (٦٨٤هـ) ومستغلاً الصراع الداخلي في قشتالة. ذلك ان ابن الأحمر خرج عن مألوف موقفه المهادن للاسبان، الى التحالف مع المنصور ومساعدته في هذه الحرب التي أقلقت الملك القشتالي ودفعته إلى طلب الصلح من السلطان، واستجابته لشرط الأخير

(١) ابن خلدون، ج٤، ص ١٧٢.
(٢) بنو أشقيلولة.
(٣) الذخيرة السنية، ص ١٧٠ ـ ١٧٢.
(٤) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٠١.
(٥) المرجع نفسه، ص ١٠٢.
(٦) المكان نفسه.

بالمحافظة على المسلمين في الأندلس ورفع الضرائب عنهم وعدم الوقيعة بينهم[1].
والواقع أن سياسة المرينيين في الأندلس، كان لها تأثيرها الايجابي على غرناطة وعلى المسلمين بشكل عام، الذين شعروا بانحسار وطأة القشتاليين عن كاهلهم لأول مرة منذ وقعة «العقاب». لذلك يعتبر هذا العهد أحد المراحل الهامة في تكوين الإمارة الغرناطية، سواء في اتخاذ دورها على الصعيد السياسي أو بروزها على الصعيد العلمي والثقافي، حيث كان «ملكها» الفقيه، متضلعاً في العلوم القرآنية راعياً لنهضتها الفكرية التي غدت من سماتها اللافتة في ذلك الحين.

وبعد هذا العهد التأسيسي الذي مثله محمد الأول وابنه محمد الثاني، تعاقب على غرناطة عدد كبير من «الملوك» المتحدرين من الأسرة النصرية نفسها خلال نحو قرنين من الزمن[2] بعد وفاة الأخير. وسنحاول هنا التوقف عند المحطات الهامة من تاريخ هذه «الدولة» لا سيما المتصلة بالتحديات الاسبانية، حيث كانت تخرج هذه الأخيرة ظافرة أحياناً، برغم اختلال الموازين بالمقارنة مع أعدائها الأقوياء. كما حدث على سبيل المثال في عهد «نصر بن محمد»، عندما هزم فرناندو الرابع القشتالي، بعد مؤازرة المرينيين له. وكذلك في عهد «محمد بن إسماعيل»[3] الذي هزم بمساعدة هؤلاء أيضاً الفونسو الحادي عشر (القشتالي)[4]، وخليفته (يوسف الأول) الذي وصفه ابن الخطيب بأنه «بدر الملوك وزين الأمراء»[5]، حيث دارت حروب عنيفة في عهده مع الاسبان وقتل ابنه في إحدى المعارك[6]. وقد استمرت هذه العلاقة المميزة مع بني مرين في أيام الملك محمد الخامس الذي استوزر المؤرخ والشاعر الكبير لسان الدين بن الخطيب، بحيث كان لها دورها في التوازن العسكري القائم بشكل ما في ذلك الوقت،

(١) عنان، نهاية الأندلس ص ١٠٦.
(٢) راجع: فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٢٣ ـ ٦٨.
(٣) ابن خلدون، ج٧، ص ٢٤٠.
(٤) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٣- ٩٤.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٢.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

دون أن تغفل في هذا المجال الصراعات التي قامت بين قشتالة وأراغون بصورة خاصة[1]. ولم تلبث غرناطة أن شهدت هذا النوع من الصراع على السلطة، وذلك لأول مرة منذ تأسيس الدولة النصرية، عندما أرغم محمد الخامس على التخلي عن منصبه والخروج من «الحمراء»، بينما أودع وزيره ابن الخطيب السجن[2]. ولكن هذا الغياب لم يطل كثيراً، حيث فشل المتغلب على السلطة في غرناطة الاحتفاظ بها، بسبب سوء سياسته، ممهداً بذلك الطريق لعودة محمد الخامس إلى عرشه المفقود بعد أقل من سنة على غيابه[3].

وقد وجد المؤرخون في هذا «الملك» شخصية مميزة، أضفى عليها جاذبية مساعده ابن الخطيب الذي عاد بدوره إلى الوزارة، وكذلك المؤرخ الشهير ابن خلدون سفير غرناطة إلى الملك القشتالي[4]، حيث كانت أواصر الصداقة قد توثقت بين المؤرخ وابن الخطيب خلال لجوء الأخير إلى المغرب. ومن ناحية ثانية، فإن اتصالاً جرى حينذاك مع السلطان المملوكي في مصر، لاكتساب مودته وضمان مساعدته لمواجهة ما تخططه القوى المسيحية المتربصة بغرناطة وما تعدّه للقضاء عليها[5]. وكان نجم البلاط النصري بدون ريب، هو الوزير ابن الخطيب الذي حاز على النفوذ الواسع وحظي بالثقة العالية، ومعه أقرب معاونيه، الشاعر أبو عبد الله بن زمرك. وهنا تكمن مأساة كبار الساسة والقادة، الذين يبلغون هذه المراتب من السلطان، حيث يكون ذلك على حساب المسؤول الأول الذي يكتشف ضعف نفوذه أمام أعوانه ومساعديه، سواء مباشرةً أم عبر الآخرين من الحسّاد، التوّاقين إلى اتخاذ مواقعهم في السلطة. ويبدو أن ابن الخطيب شعر بهذا الجو العدائي يحيط به، فقرر مغادرة غرناطة إلى المغرب واللجوء إلى بلاد السلطان المريني (٧٧٣ هـ)، تاركاً الوزارة لمساعده المقرّب ابن زمرك الذي كان

(١) فرحات، غرناطة ص ٤٥.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٨٤ - ٨٥.
(٣) أعمال الاعلام، ص ٣٠٩.
(٤) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤٢.
(٥) نفح الطيب، ج١، ص ٣٢١.

في طليعة المتآمرين عليه. ولكن أشهر وزراء بني الأحمر وشاعر غرناطة وعالمها ومؤرخها الكبير ابن الخطيب، الذي تفادى الوقوع في الشرك المتربص به في الأندلس، لم يستطع النجاة منه في المغرب. فقد توفي صديقه السلطان بعد سنوات ثلاث من التجائه إلى بلاطه، تاركاً الدولة المرينية تتخبط اضطراباً في عهد ابنه الطفل، مما سهّل قيام انقلاب عليه أوصل أحمد بن سالم إلى العرش، بدعم من الملك الغرناطي الذي يمت بصداقة إلى هذا الأخير. وكان ذلك إيذاناً باقتراب نهاية ابن الخطيب، بعد أن تكاثر أعداؤه في بلاطيّ الدولتين، حيث أُلقي القبض عليه بتهمة الزندقة وقتل بُعَيْدَ ذلك (٧٧٦ هـ)[1].

ولعل هذا العهد كان الأبرز في تاريخ الدولة النصرية، مستمداً بريقه من ملك قوي الشخصية ووزير موهوب، قلّ أن عرفت هذه الدولة مثيلاً لهما عبر عهودها المتعاقبة، لا سيما الثاني الذي ترك فراغاً كبيراً في غرناطة، لم يستطع مساعده القديم أن يملأ القليل منه. فقد حقق ابن زمرك آماله في الوزارة (الحجابة)، بعد رحيل ابن الخطيب من غرناطة، ثم انقطع عنها في عهد يوسف بن محمد القصير، وعاد إليها في عهد محمد بن يوسف، ولكن لشهور قليلة عندما ضاق به الأخير وأوقع به ما وقع لسلفه ابن الخطيب، حين هاجمه رجاله في داره وقتلوه[2] (٧٩٧ هـ).

وستعرف الحقبة التالية، نفوذاً أقوى للوزراء، على حساب ضعاف الملوك الذين مثّلوا هذه الحقبة، تاركين لبني سراج ـ المتحدّرين من أسرة عربية عريقة في الأندلس[3] ـ سياسة الدولة العامة والخاصة. وقد وزر أحد أبناء هذه الأسرة (يوسف) للملك محمد بن يوسف المعروف بالأيسر، الذي سادت النقمة في عهده واضطربت أحوال الدولة واستهدفتها غزوات الاسبان، مما سوّغ الثورة

(١) ابن خلدون، ج ٧، ص ٣٣٦.
(٢) نفح الطيب، ج٤، ص ٢٩٠.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ١٣٨.

عليه والإتيان بابن أخيه[1] المعروف بـ «الزغبي» أو أبي عبد الله الصغير[2]. ولم يستطع الملك الجديد، على ما تميز به من فروسية وثقافة، أن ينقذ دولته من الفوضى، لا سيما وأن بني سراج الذين كان لهم نفوذهم القوي فيها، كانوا من خصومه الألداء. ولم يلبث هؤلاء أن خرجوا من المدينة خوفاً من انتقام «الصغير»، واتصل زعيمهم بملك قشتالة طالباً حمايته، كما اتصل بالملك السابق (الأيسر)، ودعاه إلى التحرك لاستعادة عرشه، حيث تمَّ له ذلك وعاد إلى عاصمته في كنف بني سراج ودعم الملك القشتالي، الذي سرعان ما طلب تسديد ثمن العودة، وفوقه ضريبة سنوية باهظة، بحيث أدى ذلك ألى تأزم العلاقة بين الطرفين وقيام القشتاليين بغزو عدد من المواقع الاسلامية. وفي تلك الأثناء تضطرب الأوضاع الداخلية في غرناطة، وتحاك مؤامرة أخرى للإطاحة بالأيسر ومبايعة أحد الأمراء النصريين، مستغلاً أصحابها سوء العلاقة بين الأول وملك قشتالة. وقد تصدى ابن سراج للمتآمرين على «ملكه» الذي تراجع إلى قصره وأخذ أمواله وكنوزه قبل أن يغادره إلى مالقة، بينما قتل الوزير بعد ارفضاض أكثرية المناصرين عنه[3]. ومن المثير أن لا يبقى هذا الملك سوى ستة أشهر، ويعود الأيسر مرة ثالثة إلى الحكم دون أن يتخلى عن بني سراج، حيث تولى عبد البر بن يوسف الوزارة، مثبتاً كفاءته في السلم كما في الحرب، التي شهدته فارساً مقداماً، قبل أن يسقط في إحدى المعارك مع الاسبان[4].

بعد ذلك يأخذ نجم الدولة النصرية بالأفول، مع ارتفاع حدة التناقضات في الداخل وتصاعد الخطر من الخارج، بعد نجاح الأسبان في قطع أحد الخطوط الأسبانية مع المغرب، عندما وصلت قواتهم إلى جبل طارق[5].

ولعل بداية النهاية الحقيقية أخذت تتضح في السنوات الثلاثين الأخيرة من

---

(١) محمد بن محمد بن يوسف.
(٢) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٥.
(٣) المرجع نفسه ص ١٦٠.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٦١.
(٥) فرحات، غرناطة، ص ٥٦.

تاريخ هذه الدولة، متزامناً ذلك مع ولاية أبي الحسن علي (الغالب بالله)[1]، الذي اقترن اسمه بإحدى شهيرات المرحلة عائشة[2] «الحرّة»، صاحبة الموقف الشهير في لحظة وداع العرب المسلمين لملكهم في الأندلس. وقد اتصف أبو الحسن بالشجاعة والحزم والنزعة إلى الجهاد، ولكن متاعبه الداخلية صرفته عن القيام بدوره الصعب، حيث تمرّد عليه أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل الذي تلقى الدعم من الملك القشتالي، في الوقت الذي ثارت فيه مالقة، دون أن يفلح أبو الحسن في إخماد ثورتها، التي انتهت لمصلحة الزغل، بعد أن اتصل به المتمردون وبايعوه ملكاً عليهم، مؤدياً ذلك إلى سابقة خطيرة وهي انقسام الدولة بين الأخوين المتنافسين[3]. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الواقع الجديد إلى مزيد من التبعية للأسبان، حيث كلاهما كان بحاجة لدعمهم من أجل القضاء على الآخر، في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يمعنون في ابتزاز الطرفين والحصول على مكاسب جديدة، سواء تمثلت بالأرض أو بالمال. وما لبث الوضع الجديد أن تحول إلى أمر واقع ونسي أبو الحسن ما حلّ بدولته، لينصرف إلى الدعة والحياة الهادئة، حيث كان لزوجته الاسبانية الجديدة، تأثير كبير في هذه الرغبة عن مواجهة الأمور الجسام. فقد أنجبت من أبي الحسن ولدين، كانت تعمل على أن يكون الملك من نصيب احدهما، دون ابني عائشة (زوجته الأولى)، التي وصل التآمر عليها من جانب منافستها الاسبانية وأعوانها في القصر، إلى حدّ «اعتقالها» في برج قمارش، قبل أن تتمكن من الخروج مع ولديها والاختفاء بعض الوقت[4].

ويبدو أن خصوم أبي الحسن في الداخل، انتهزوا غيابه عن غرناطة لصد هجوم قشتالي على إحدى القلاع القريبة من الأخيرة، مخترقاً اتفاق الهدنة بين الطرفين، مما سهل عليهم ليس تأمين خروج عائشة من «معتقلها»، ولكن التمرد

(١) نفح الطيب، ج٢، ص ٦٠٧.
(٢) ابنة أبي عبد الله الأيسر.
(٣) نهاية الأندلس، ص ١٩٢.
(٤) نفح الطيب، ج٤، ص ٣١٢ ـ ٣١٤.

على الملك والبيعة لابنه (من زوجته الأولى) أبي عبد الله محمد. وفي الوقت الذي انصرف فيه الأخير إلى تثبيت سلطانه في المدينة، معتمداً على عدد من المؤيدين، لا سيما بني سراج الذين وقفوا إلى جانب والدته (عائشة)، التحق أبوه بمالقة حيث أخوه الزغل كان يستعد لصد هجوم قشتالي عليها[1]، نجح بعد ذلك في صده وسط هالة من التأييد والإعجاب. ويبدو أن معركة الزغل مع القشتاليين أثارت حماسة أبي عبد الله، لتحقيق انتصار عسكري يوظفه في تثبيت سلطته في المدينة، فقام بهجوم نحو قرطبة، حقق خلاله انتصارات محدودة، قبل أن يحاصر قلعة «لوسينا»، حيث نشبت معركة عنيفة، انتهت بهزيمة الغرناطيين ومقتل قائدهم ووقوع ملكهم في الأسر (ربيع الأول ٨٨٨/ نيسان ١٤٨٣)[2].

وكان من الممكن أن يؤدي هذا الأمر إلى نتائج خطيرة في غرناطة، لو لم تكن والدته (عائشة) على عادتها قوية متماسكة وسريعة التحرك، تفادياً للفوضى والتمرد. فبادرت إلى دعوة زوجها الملك المخلوع أبي الحسن لاستلام السلطة، ولكن الأخير الذي تقدمت به السن وأنهكته الأحداث، لم يستطع النهوض طويلاً بأعباء الحكم، حيث تنازل عنه لأخيه الزغل (٨٩٠/١٤٨٥). بيد أن «الملك» الجديد، على ما عُرف عنه من شجاعة وفروسية، لم يثبت جدارة في السلطة، التي كانت تحتاج إلى رجل فذّ، تجتمع فيه السياسة إلى جانب الإقدام، وهو ما لم يتوفر في أيٍّ من ملوك السنوات الأخيرة من هذه الدولة. فما كاد الزغل يتولى مهام منصبه، حتى اندلعت ثورة ضده في أحد أحياء المدينة (البيازين)، كانت مقدمة حرب أهلية ضارية بين الزغل من جهة وبين أبي عبد الله الذي افتدته والدته بمبلغ كبير من المال، دفعته للملك القشتالي مقابل إطلاقه من الأسر[3]. وقد انتهت هذه الحرب بانتصار أبي عبد الله الذي عاد إلى عاصمته

---

(١) نهاية الأندلس، ص ٢٠٢.
(٢) نفح الطيب، ج٤، ص ٥١٥.
(٣) نهاية الأندلس، ص ٢٠٤، ٢١٣.

(١٤٨٧/٨٨٢)، بينما خرج منها الزغل إلى عاصمته السابقة (مالقـة) التي كانت تواجه حينذاك خطر السقوط أمام القشتاليين الذين انتهزوا الصـراع الداخـلي في غرناطة وأخضعوا أحد أهم حصونها[١] في ذلك الوقت.

كان ذلك هو الفصل الأخير من تاريخ دولة صغيـرة عاشت في هـذا الخضم من التحديات، التي تجاوزت كثيراً طاقتها المحدودة ورقعتها الضيقة من الأرض. فقد عادت الدولة مرة ثانية دولتين، إحداهما في غـرناطـة والثانيـة في مالقـة، كما اشتد ضغط الاسبان الذين ما انفكّوا يقتطعون موقعاً إثر موقع، حتى بلغوا مالقـة وحـاصروهـا من البرّ والبحـر (جمادي الثانية٨٩٢هـ)، حيث دافعت عن نفسهـا بضراوة، بقيادة أميرها الزغل، وصمدت ثلاثـة أشهر أمـام الضغط الاسباني، لم يدَّخر خلالها الـزغل وسيلة من أجـل انقاذهـا، ولكن محاولاتـه أخفقت ولم تنفع السفـارات التي أوفدهـا إلى الملوك المسلمين في مصر والقسـطنطينيـة (كـانت قـد سقـطت في يد الأتـراك العثمانيـين) في إنقاذ المـدينة، التي تجـاهلهـا أيضـاً ملك غرناطة المنكفىء على نفسه، مما أرغمها على الاستسـلام أخيراً تحت وطـأة القتل والمرض والجوع (١٤٨٧/٨٩٢)[٢].

لقد كان من الصعب جداً احتواء مـا حلّ بهـذه المدينـة التي شكلت الجناح الثاني لهذه الـدولة بعـد غرنـاطة، فضـلاً عن موقعهـا الحيوي كثغـر بحري هـام بالنسبة للأخيرة، مما يعني تضييق دائرة الحصار حتى الاختناق حول العاصمـة التي افتقدت معظم حصونها ومدنها خلال السنوات الأربـع التاليـة لسقوط مـالقـة. وفي تلك الأثناء كان الزغل قـد التجأ الى وادي آش، ومكث وقتـاً ساوم خـلاله الاسبان على التنازل عن كل المواقع التابعة له، مقابل مبلغ من المال والخـروج من الأندلس[٣]، بعد ان ادرك عبث البقـاء في هذه الأخيرة، تاركاً ابن أخيه لمصيـره القريب. وبالفعل فقد سـارع ملكا قشتـالة واراغـوان (فرديـنـاندو وايـزابيلا) الى

(١) حصن بلش. نهاية الأندلس، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٢) عنان، نهاية الأندلس، ص ٢١٧. فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٦٢.
(٣) نفح الطيب، ج٤، ص ٥٢٣ وما بعدها.

اعلان الحصار حول غرناطة (ربيع ١٤٩١/٨٩٧)، التي غصت حينذاك بالمقاتلين، من أهلها ومن التحق بها من المغرب، والطلب الى ملكها تسليم المدينة[١]، حيث ابو عبد الله لم يكن لديه سوى خيار المقاومة والدفاع عن عاصمته حتى الموت. وعلى الرغم من شدة الحصار الذي دام سبعة شهور، فقد قاتل الغرناطيون وعلى رأسهم ملكهم بضراوة، واستبسل قادتها الشجعان الذين اخترقوا مرات خطوط الحصار إلى الأسبان. على أن ذلك لم يغير من واقع الحال وانعدام التكافؤ عدداً وعدة بين الطرفين، مما دفع زعماء المدينة إلى اتخاذ قرار بتسليمها، رفض الالتزام به قائدها العسكري الأبرز موسى بن غسان[٢] الذي يبدو أنه قاتل حتى الرمق الأخير.

وكان الوزير ابو القاسم عبد الملك، ممثل الغرناطيين في المفاوضات التي دامت بضعة أسابيع وانتهت الى معاهدة للتسليم تناولت بنودها الاساسية : وقف الحرب سبعين يوماً يجري بعدها تسليم غرناطة، واطلاق الأسرى وتأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم واعراضهم واحتفاظهم بشريعتهم وقضائهم ومساجدهم، وأن لا يؤخذ منهم ضرائب تتجاوز ما كانوا يدفعونه لملوكهم، وان يترك للتجار حق الدخول الى سائر النواحي وأن لا يدفعوا من الضرائب فوق ما يدفعه التجار النصارى، كذلك ان يجتاز من يشاء الى المغرب من المسلمين، إلى آخر ما حوته هذه الوثيقة الشاملة من بنود تناولت كافة شؤون المسلمين وعلاقاتهم وحياتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية[٣]،كما نصت الوثيقة على خروج الملك من الحمراء، على أن يقيم حيث يشاء في ضياعه وممتلكاته، مؤثراً البشرات المطلة على غرناطة وقصرها المنيف. ولم يلبث الاتفاق ان دخل حيز التنفيذ قبل اوانه بكثير، عندما أمر ابو عبد الله بفتح ابواب المدينة في مطلع العام (٢ كانون الثاني ١٤٩٢)، ممهداً الدخول لحاكمها الاسباني الجديد

---

(١) نهاية الأندلس، ص ٢٣٢.
(٢) فرحات، غرناطة، ص ٦٤.
(٣) نهاية الأندلس، ص ٢٤٥، وما بعدها.

«الكـونت تنديـلا»، الذي تسلم مفـاتيح المـدينة، حيث سـار في أعقابـه الملكين الـظافرين، وارتفعت أعلامهما والصلبـان على أبـراج الحمـراء، بينـما غـادر ابـو عبد الله مع اسرته وحاشيته الى حيث اختار المقام في البشـرات ، حتى إذا بلغ تلة مشـرفة عـلى قصره السـابق، تلفت الى الـوراء وقـد اعتصر قلبـه الأسى قبـل ان يجهش بـالبكاء . ولم تكن والـدته عـائشة التي قـدّر لهـا مـواكبـة تلك الأحـداث الصعاب في غرناطة، أقل حزناً وحسرة منه، حين التفتت اليه بانكسـار، لتقـول له عبارتها الشهيرة: « ابكِ مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال ».

ملاحق

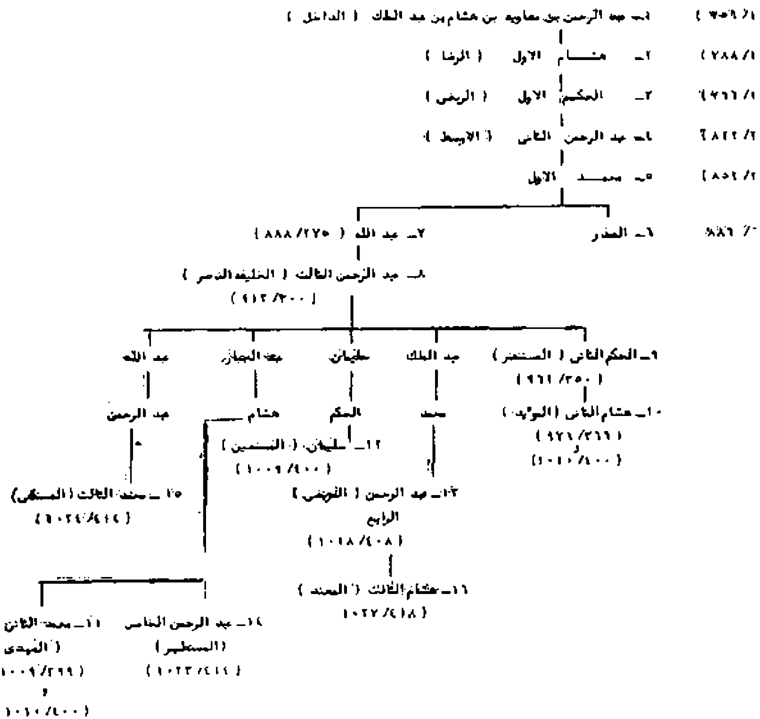
١ ـ الولاة الأمويون في الأندلس.
٢ ـ الأمراء والخلفاء الأمويون.
٣ ـ أمراء الطوائف.
٤ ـ أمراء غرناطة.
٥ ـ الخرائط.
٦ ـ المصادر والمراجع.
٧ ـ فهرست الأعلام.
٨ ـ فهرست القبائل.
٩ ـ فهرست الأماكن.
١٠ ـ محتويات الكتاب.

١ ـ الولاة الأمويون في الأندلس

١ ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير ٩٥هـ /٧١٤م
٢ ـ أيوب بن حبيب اللخمي ٩٧هـ /٧١٦م
٣ ـ الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي ٩٨هـ /٧١٧م
٤ ـ السمح بن مالك الخولاني ١٠٠هـ /٧١٩م
٥ ـ عنبسة بن سُحيْم الكلبي ١٠٣هـ/٧٢٢
٦ ـ عذره بن عبد الله الفهري .
٧ ـ يحيى بن سلمة الكلبي
٨ ـ حذيفة بن الأحوص القيسي ١٠٧هـ /٧٢٦م ـ١١٣هـ /٧٣١م
٩ ـ عثمان بن أبي نسعة الخثعمي
١٠ ـ الهيثم بن عبيد الكناني
١١ ـ محمد بن عبد الله الأشجعي
١٢ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ١١٣هـ /٧٣١م
١٣ ـ عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الأولى) ١١٤هـ/٧٣٢م
١٤ ـ عقبة بن الحجاج السلولي ١١٦هـ /٧٣٤م
١٥ ـ عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الثانية) ١٢١هـ /٧٣٩م
١٦ ـ بلج بن بشر القشيري ١٢٤هـ /٧٤٢م
١٧ ـ ثعلبة بن سلامة العاملي ١٢٥هـ /٧٤٣م
١٨ ـ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ١٢٥هـ/٧٤٣م
١٩ ـ ثوابه بن سلامة الجذامي ١٢٨هـ /٧٤٥م
٢٠ ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري ١٢٩هـ ـ ٧٤٧م
الصميل بن حاتم الكلابي

٢ ـ الأمراء والخلفاء الأمويون في الأندلس[١]

(١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ / ٧٥٦ ـ ١٠٣١ م)



(١) من كتاب طبقات سلاطين الاسلام لستانلي لين بول .

٣ - أمراء الطوائف

١ - بنو جهور - قرطبة

ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور ٤٢٢ - ٤٣٥ هـ

ابو الوليد محمد بن جهور ٤٣٥ - ٤٥٦

عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٥٦ - ٤٦٢

٢ - بنو عباد - اشبيلية

ابو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد (القاضي) ٤١٤ - ٤٣٣

أبو عمرو عبّاد بن محمد (المعتضد) ٤٣٣-٤٦١

ابو القاسم محمد بن عباد (المعتمد) ٤٦١-٤٨٤

٣ - بنو تجيب - سرقسطة

المنذر بن يحيى ٤٠٨ - ٤١٤

يحيى بن المنذر (المظفر) ٤١٤ - ٤٢٠

المنذر بن يحيى (معز الدولة) ٤٢٠ - ٤٣١

٤ - بنو هود - سرقسطة

سليمان بن محمد بن هود (المستعين) ٤٣١ - ٤٣٨

أحمد بن سليمان (المقتدر) ٤٣٨ - ٤٧٤

يوسف بن أحمد (المؤتمن) ٤٧٤ - ٤٨٧

أحمد بن يوسف (المستعين) ٤٧٨ - ٥٠٤

عبد الملك بن أحمد (عماد الدولة) ٥٠٤

٥ - بنو زيري الصنهاجيين - غرناطة ومالقة

زاوي بن زيري ٤٠٣ - ٤١٠

حبوس بن ماكسن (المظفر) ٤١٠- ٤٣٠

باديس بن حبوس (الناصر) ٤٣٠- ٤٦٦

٦ ـ بنو حمود ـ مالقة

ادريس بن علي بن حمود (المتأيد بالله) ٤٢٧ ـ ٤٣١

يحيى بن ادريس (القائم) ٤٣١ ـ ٤٣١

الحسن بن يحيى (المستنصر) ٤٣١ـ ٤٣٤

ادريس بن يحيى الثاني (العالي) ٤٣٤ ـ ٤٣٨

محمد بن ادريس (المهدي) ٤٣٨ ـ ٤٤٤

ادريس بن يحيى الثالث ٤٤٤

ادريس الثاني (مرة ثانية) ٤٤٤ ـ ٤٤٦

محمد بن ادريس (المستعلي) ٤٤٦ـ٤٤٩

٧ ـ بنو ذي النون ـ طليطلة

يعيش بن محمد بن يعيش ٤٠٠ ـ ٤٢٨

اسماعيل بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون ٤٢٨ ـ ٤٣٥

يحيى بن اسماعيل (المأمون) ٤٣٥ ـ ٤٦٨

يحيى بن هشام بن يحيى (القادر) ٤٦٨ ـ ٤٧٨

٨ ـ بنو الأفطس ـ بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة (المنصور) ٤١٣ ـ ٤٣٧

محمد بن عبد الله (المظفر) ٤٣٧ ـ ٤٥٦

يحيى بن محمد (المنصور) ٤٥٦ ـ ٤٦٠

عمر بن محمد (المتوكل) ٤٦٠ ـ ٤٨٧

٩ ـ بنو عامر ـ بنو صمادح ـ المرية

معن بن محمد صمادح ٤٣٣ ـ ٤٤٣

محمد بن معن (المعتصم) ٤٤٣ ـ ٤٨٤

أحمد بن محمد (معز الدولة) ٤٨٤

١٠ ـ بنو عامر ـ بنو طاهر ـ مرسية

خيران (صاحب المرية) ٤٠٣ ـ ٤١٩

زهير (صاحب المرية) ٤١٩ ـ ٤٢٩

ابو بكر بن طاهر ٤٢٩ ـ ٤٥٥

ابو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ ـ ٤٧١

١١ ـ بنو يحصب ـ لبلة

ابو العباس أحمد بن يحيى ٤١٤ ـ ٤٣٤

محمد بن يحيى (عز الدولة) ٤٣٤ ـ ٤٤٣

فتح بن خلف (ناصر الدولة) ٤٤٣ ـ ٤٤٥

١٢ ـ دولة بني مُزين ـ باجة وشلب

الحاجب بن محمد ٤٣٢

محمد بن عيسى (عميد الدولة) ٤٣٢ ـ ٤٤٠

عيسى بن مُزين (المظفر) ٤٤٠ ـ ٤٤٥

محمد بن عيسى (الناصر) ٤٤٥ ـ ٤٥٠

عيسى بن محمد (المظفر) ٤٥٠ ـ ٤٥٥

١٣ ـ بنو هارون ـ شنتمرية

سعيد بن هارون ٤١٧ ـ ٤٣٣

محمد بن سعيد (المعتصم) ٤٣٣ ـ ٤٤٣

١٤ ـ بنو برزال ـ قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال ٤٠٤ ـ ٤٣٤

عزيز بن محمد (المستظهر) ٤٣٤ ـ ٤٥٩

١٥ ـ بنو دمَّر ـ مورور

نوح بن أبي تزيري الدمري ٤٠٣ ـ ٤٣٣

محمد بن نوح (عز الدولة) ٤٣٣ ـ ٤٤٥

مناد بن محمد (عماد الدولة) ٤٤٥ ـ ٤٥٨

١٦ ـ بنو خزرون ـ أركش

محمد بن خزرون (عماد الدولة) ٤٠٢ ـ ٤٢٠

عبدون بن محمد بن خزرون ٤٢٠ ـ ٤٤٥

محمد بن محمد بن خزرون (القائم) ٤٤٥ ـ ٤٦١

١٧ ـ بنو يفرن ـ رندة

هلال بن أبي قسرة اليفرني ٤٠٦ ـ ٤٤٥

باديس بن هلال ٤٤٥ ـ ٤٤٩

أبو نصر بن هلال ٤٤٩ ـ ٤٥٧

١٨ـ بنو عامر ـ دانية والجزائر

مجاهد بن يوسف بن علي العامري (الموفق) ٤٠٠ ـ ٤٣٦

علي بن مجاهد (اقبال الدولة) ٤٣٦ ـ ٤٦٩

١٩ ـ الصقالبة ـ بلنسية

مظفر ومبارك ٤٠٦ ـ ٤٠٨

لبيب العامري ٤٠٨ ـ ٤١١

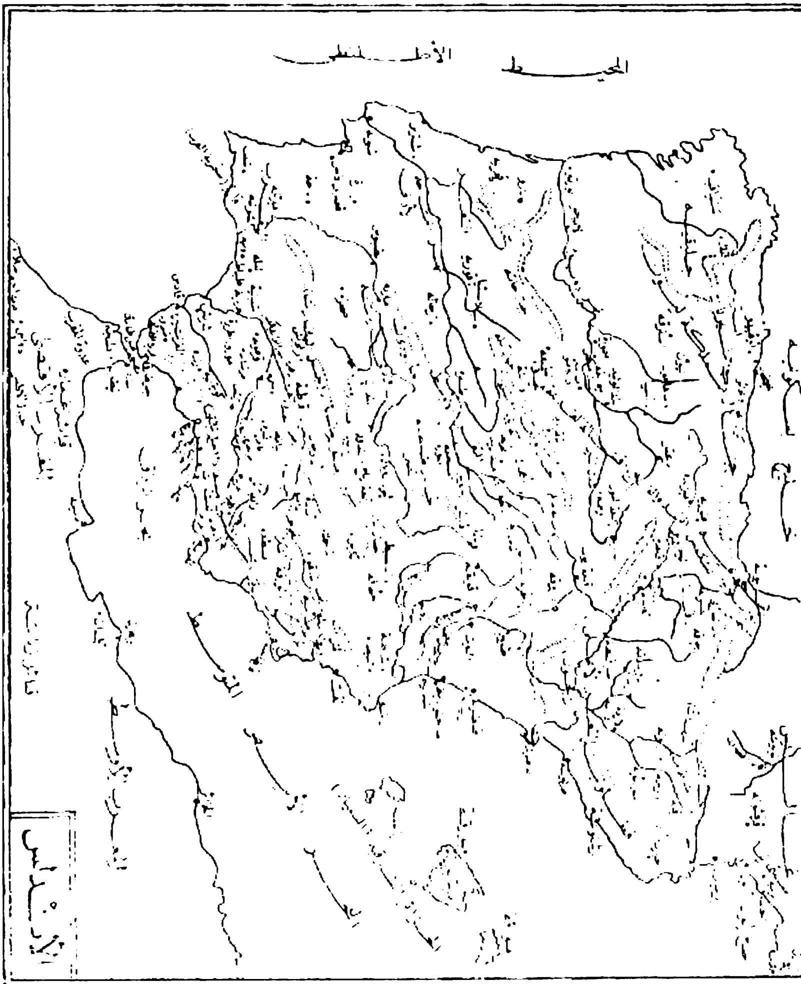
عبد العزيز (المنصور) ٤١١ ـ ٤٥٢

عبد الملك بن عبد العزيز ٤٥٢ ـ ٤٥٧

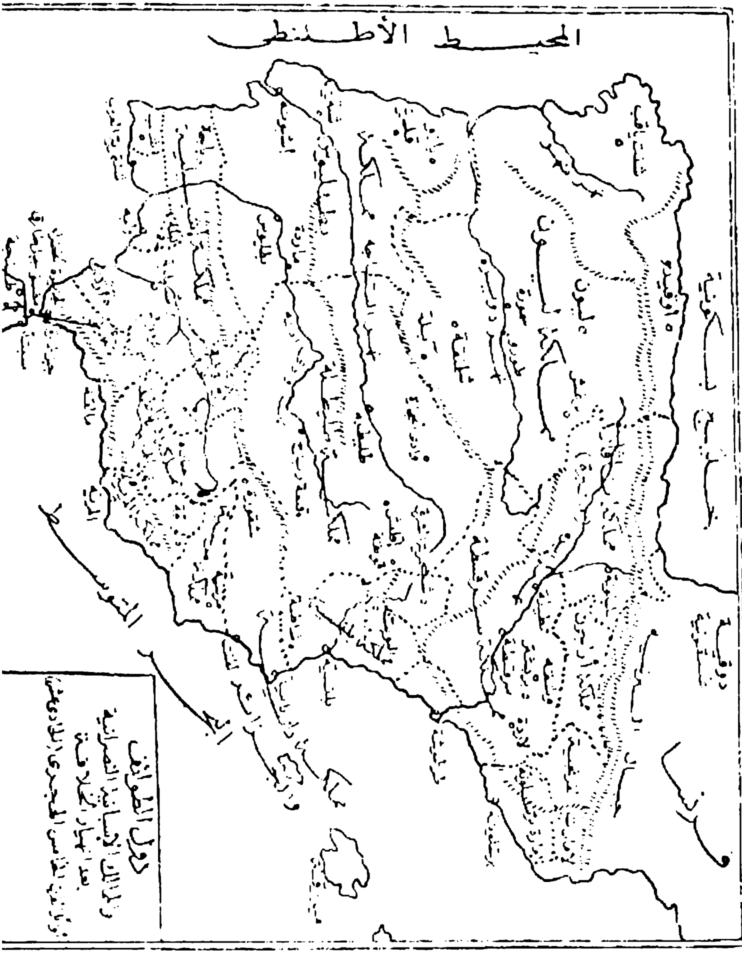
٤ ـ أمراء غرناطة

١ ـ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر (ابن الأحمر) ٦٢٩ / ٦٧٢هـ
٢ ـ محمد الثاني (الفقيه) ٦٧٢ ـ ٧٠١هـ
٣ ـ محمد الثالث (أبو عبد الله) ٧٠١ ـ ٧٠٨
٤ ـ نصر بن محمد ٧٠٨ ـ ٧١٣
٥ ـ اسماعيل الأول ٧١٣ ـ ٧٢٥
٦ ـ محمد الرابع ٧٢٥ ـ ٧٣٣
٧ ـ يوسف الأول ٧٣٣ ـ ٧٥٥
٨ ـ محمد الخامس (المرة الأولى) ٧٥٥ ـ ٧٦٠
٩ ـ اسماعيل الثاني ٧٦٠ ـ ٧٦٢
١٠ ـ محمد الخامس (المرة الثانية) ٧٦٢ ـ ٧٩٣
١١ ـ يوسف الثاني ٧٩٣ ـ ٧٩٥
١٢ ـ محمد السادس(الغني بالله) ٧٩٥ ـ ٨١٠
١٣ ـ يوسف الثالث ٨١٠ ـ ٨٢٠
١٤ ـ محمد السابع (الأيسر) ٨٢٠ ـ ٨٥٨
١٥ ـ سعيد بن اسماعيل ٨٥٨ ـ ٨٦٨
١٦ ـ أبو الحسن علي (مولاي حسن) ٨٦٨ ـ ٨٨٧
١٧ ـ ابو عبد الله محمد (ابن الحرّة) ٨٨٧ ـ ٨٨٨
١٨ ـ ابو الحسن علي (المرة الثانية) ٨٨٨ ـ ٨٩٠
١٩ ـ ابو عبد الله محمد بن سعد (الزغل) ٨٩٠ ـ ٨٩٢
٢٠ ـ أبو عبد الله محمد (المرة الثانية) ٨٩٢ ـ ٨٩٧

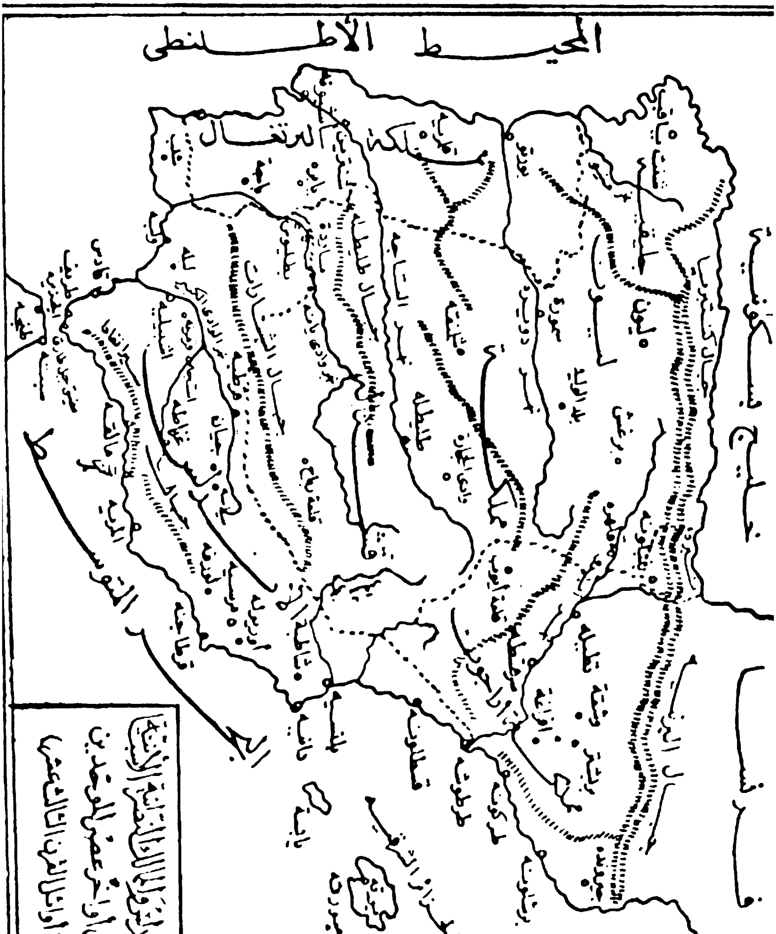
٥ - خرائط



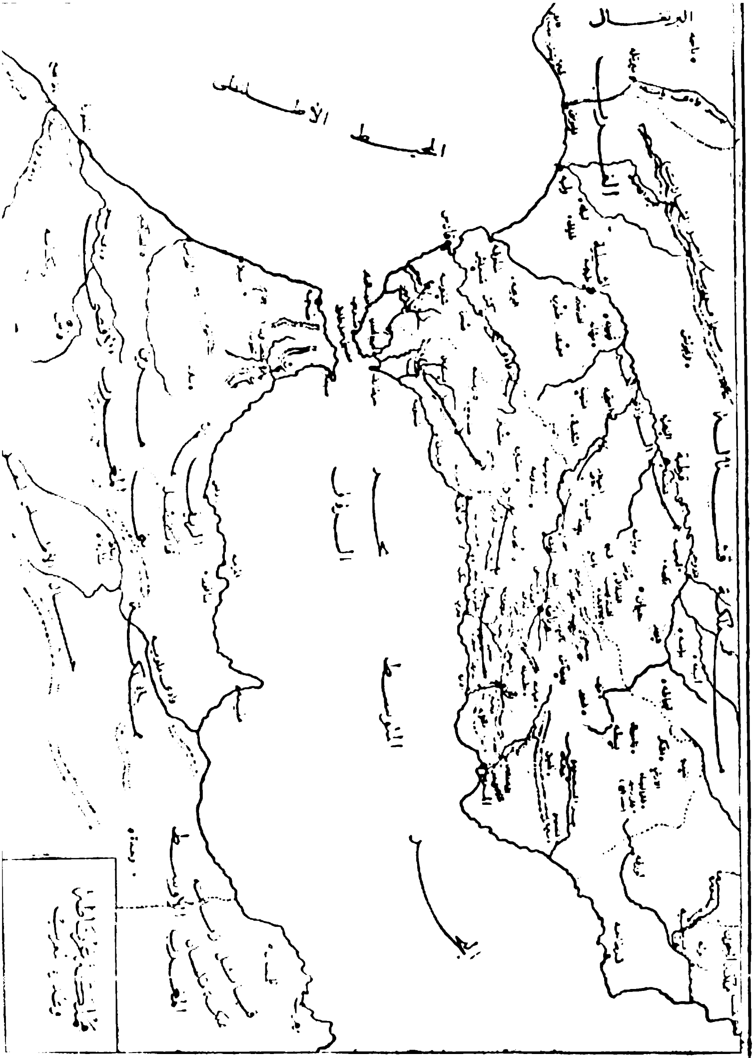
(١) - عن «تاريخ الأدب الأندلسي» د. إحسان عباس



(٢) - عن «دول الطوائف» محمد عبد الله عنان



(٣) ـ عن «نهاية الأندلس» محمد عبد الله عنان.



(٤) ـ عن «نهاية الأندلس» محمد عبد الله عنان

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر :

ابن الأبّار، ابو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي
ـ كتاب الحلّة السيراء . تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٣

ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي
ـ الكامل في التاريخ، القاهرة ١٩٤٩

ابن بسام، ابو الحسن علي الشنتريني
ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ـ القاهرة ١٩٣٩

ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن الأتابكي
ـ النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة ١٩٦٣

ابن حزم، ابو محمد علي بن أحمد
ـ جمهرة أنساب العرب . تحقيق هارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٢

ابن حوقل، ابو القاسم محمد النصيبي
ـ صورة الأرض . ليدن ١٩٣٨

ابن حيان، ابو مروان بن خلف القرطبي
ـ المقتبس في تاريخ الأندلس . باريس ١٩٣٧

ابن الخطيب، لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني
ـ الاحاطة في أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ١٩٥٦
ـ اعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . تحقيق ليفي بروفنسال . بيروت ١٩٥٦

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي
ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر . القاهرة ١٩٦٧

ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري

- تاريخ خليفة بن خياط.تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٦٨

ابن دحية الكلبي، ابو الخطاب عمر بن الحسن البلنسي

- المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق الأبياري. القاهرة

ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي

- فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى - بغداد

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي

- العقد الفريد. تحقيق محمد سعيد العريان - بيروت

ابن عذاري، ابو عبد الله محمد المراكشي

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق كولان - ليفي بروفنسال. دار الثقافة - بيروت

ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري

- الامامة والسياسة (ينسب له) القاهرة (د. ت)

ابن القوطية، ابو بكر محمد بن عمر القرطبي

- تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق عبد الله طباع. دار النشر للجامعيين - بيروت

ابن كثير، ابو الفداء حافظ

- البداية والنهاية. بيروت ١٩٦٦

الأدريسي، محمد بن عبد العزيز

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - ليدن ١٨٩٣

البغدادي، عبد القاهر بن طاهر

- الفرق بين الفرق. القاهرة ١٩١٠

الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي

- كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس.مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠

الخشني، ابو الحسن بن عبد الله بن الحسن النّباهي المالقي

- تاريخ قضاة الأندلس - مدريد ١٩١٤

الطبري، ابو جعفر بن جرير

- تاريخ الأمم والملوك.مكتبة خياط بيروت (د. ت)

الضبيّ، أحمد بن يحيى بن عميرة
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. دار الكاتب العربي ١٩٦٧
القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا - القاهرة ١٩١٣
المراكشي، عبد الواحد بن علي
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان - القاهرة ١٩٦٣
المقري، أحمد بن محمد التلمساني
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٦٨
مؤلف مجهول
- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها والحروب الواقعة بينهم.مدريد ١٨٦٧
- ألذ خيرة السنية في أخبار الدولة المرينية. الجزائر ١٩٢٠
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تونس ١٣٣٧ هـ
النويري، شهاب الدين محمد
- نهاية الأرب في فنون الأدب. القاهرة
ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله
- معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦

١ ـ مراجع عربية ومترجمة

بيضون، إبراهيم

ـ تاريخ العرب السياسي من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد (بالاشتراك مع د. سهيل زكار)دار الفكر ١٩٧٤

ـ ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري. دار النهضة العربية ١٩٧٩

ـ الدولة الأموية والمعارضة.دار الحداثة ١٩٨ .

الجنحاني، الطيب

ـ دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي.دار الطليعة ١٩٨٠

حركات، ابراهيم

ـ المغرب عبر العصور. دار الرشاد الحديثة ١٩٨٤

حسن، حسن إبراهيم، طه شرف

ـ المعزّ لدين الله. القاهرة

الخربوطلي علي حسني

ـ العراق في ظل الحكم الأموي. القاهرة ١٩٥٩ .

دايفز Davis

ـ شارلمان. ترجمة السيد الباز العريني. القاهرة.

رستم، أسد

ـ الروم، في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. بيروت ١٩٥٦ .

رفاعي، أحمد فريد

ـ عصر المأمون. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٢٧ .

ريسلر، جاك س

ـ الحضارة العربية. ترجمة غنيم عبدون. القاهرة.

الريس، محمد ضياء الدين
- الخراج في الدولة الإسلامية. القاهرة ١٩٥٧.
- عبد الملك بن مروان، موحّد الدولة العربية. القاهرة ١٩٦٢
سالم، السيد عبد العزيز
- المغرب الكبير (العصر الإسلامي). القاهرة ١٩٦٦
- قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس. دار النهضةالعربية ١٩٧١
- تاريخ مدينة المرية الإسلامية دار النهضة العربية ١٩٦٩
السلاوي الناصري
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء ١٩٥٦.
سيديو (ل. أ)
- تاريخ العزب العام. ترجمة عادل زعيتر. الطبعة الثانية ١٩٦٩.
الشامي، صلاح الدين
- الوطن العربي، دراسة جغرافية ١٩٦٣
الشعراوي، أحمد إبراهيم
- الأمويون أمراء الأندلس الأول. دار النهضة العربية ١٩٦٩.
الصوفي، خالد
- جمهورية بني جهور. دمشق ١٩٥٩
عاشور، سعيد عبد الفتاح
- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. القاهرة ١٩٦٤.
العبادي،أحمد مختار
- في التاريخ العباسي والأندلسي. القاهرة ١٩٧١.
- الصقالبة في اسبانيا. المعهد العربي للدراسات الإسلامية. مدريد.
العبادي، عبد الحميد
- المجمل في تاريخ الأندلس. القاهرة ١٩٦٤
عباس، إحسان
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) دار الثقافة - بيروت ١٩٧٣
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) دار الثقافة ١٩٨١

عبد الحميد، سعد زغلول

- تاريخ المغرب العربي، من الفتح حتى دول الأغالبة والرستميين والأدارسة . القاهرة ١٩٦٤ .

العدوى، إبراهيم

- موسى بن نصير، مؤسس المغرب العربي. القاهرة

العروي، عبد الله

- تاريخ المغرب، محاولة في التركيب.ت. ذوقان قرقوط . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٧ .

علام، عبد الله علي

- الدولة الموحدية بالمغرب. دار المعارف بمصر

عمر، فاروق

- العباسيون الأوائل. بيروت ١٩٧٠ .
- طبعة الثورة العباسية. بيروت ١٩٧٠ .

عنان، محمد عبد الله

- دولة الإسلام في الأندلس. الطبعة الرابعة. القاهرة ١٩٦٩ .
- دول الطوائف. الطبعة الثانية ـ مكتبة الخانجي ١٩٦٩ .
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين. الطبعة الثالثة. القاهرة ١٩٦٦ .

فرحات، يوسف

- غرناطة في ظلّ بني الأحمر. المؤسسة الجامعية الجامعية للدراسات. بيروت ١٩٨٢ .

كاشف، سيدة اسماعيل

- الوليد بن عبد الملك. القاهرة ١٩٦٢

كاهن، كلود

- تاريخ العرب والشعوب الاسلامية. ترجمة د. بدر الدين القاسم، بيروت ١٩٧٢ .

روم لاندو Rom landau

- الإسلام والعرب. ترجمة منير بعلبكي. بيروت ١٩٦٢ .

لويس، أرشيبالد Archibald R. Lewis
- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. ترجمة أحمد محمد عيسى. القاهرة ١٩٥٠.

لين بول، ستانلي Stanley Lane-Poole
- العرب في اسبانية. ترجمه علي الجارم. القاهرة ١٩٦٣.
- طبقات سلاطين الإسلام. ترجمه إلى الفارسية عباس أقبال وإلى العربية مكي الكعبي. حققه علي البصري. دار منشورات البصري ١٩٦٨.

ماجد، عبد المنعم
- التاريخ السياسي للدولة العربية. القاهرة ١٩٦٠.
- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى. بيروت
- الاطلسي التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى. بالاشتراك مع علي البنا. القاهرة ١٩٦٠.

محمود، حسن
- قيام دولة المرابطين. القاهرة.

مؤنس، حسين
- فجر الأندلس. القاهرة ١٩٥٩.
- فتح العرب للمغرب. القاهرة ١٩٤٧.

النصّ، احسان
- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي. بيروت

٣ - مراجع باللغة الفرنسية

DOZY. R

- Histoire des Musulmans d'Espagne. leyde 1932
- Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes. Leyde 1881.
- Recherches sur l'Histoire et la litterature de l'Espagne. Leyde 1881.

FOURNEL

- Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes. Paris 1881

GABRIELI

- Les Arabes. Paris 1963

GAUDEL

- Les Premieres Invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord. 1900

GAUTIER E. F

- Le passé de l'Afrique du Nord. Paris 1952.
- l'Islamisation de l'Afrique du Nord. Paris 1937

JULIEN. A

- Histoire de l'Afrique du Nord. 1955.

LAMBERT. E

- Les Origines de la masquée et l'Architecture Religieuse des Omeiyades. Paris 1956.
- Les Mosquées de type Andalou en Espagne et en Afrique du Nord. 1949.

LEGENDRE. M

- Nouvelle histoire d'Espagne. Paris. 1939

LEVI - PROVENCAL

- Histoire de l'Espagne Musulmane, 3tomes. paris 1950.
- La péninsule Ibérique. leyde 1938
- La civilisation Arabe en Espagne. Paris 1948
- Extraits des historiens Arabes du maroc. Paris 1948.

Marçais.G

- La Berbérie Musulmane et l'orient en Moyen Age. paris 1946

MERCIER ET SEGUIN

- Charls martel et la bataille de poitiers. Paris 1944

PERES. H

- La poesie Andalouse en Arabe classique au xı siecle. Paris 1953.

PERIER. J

- Vie d'al - Hadjadj Ibn yoûsof al - Taqafi. Paris 1904

TERRASSE. H

- Histoire du marco. casablanca. 1949.

YALAOUI

- Les Relations entre Fatimides de l'Afriquiya et Omayyades d'Espagne à treavers le diwan d'Ibn Hni, Madrid 1937.

٧ ـ الأعلام

(ن)

(هـ)

(و)

٨ القبائل

٩ ـ الأماكن

(أ)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(ل)

(ي)

المحتويات

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ تاريخ العرب السياسي، من فجر الإسلام حتى سقوط بغداد (بالإشتراك مع د. سهيل زكار) ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٤.

٢ ـ التوّابون ـ (ط ١) دار التراث الإسلامي ـ بيروت ١٩٧٥
(ط ٢) دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ١٩٧٨.

٣ ـ الدولة العربية في اسبانية، من الفتح حتى سقوط الخلافة ـ دار النهضة العربية. بيروت. (ط ١) ١٩٧٧ ـ (ط ٢) ١٩٨٠ (ط ٣) ١٩٨٦.

٤ ـ ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ـ دار النهضة العربية ١٩٧٩.

٥ ـ صفحات من تاريخ جبل عامل (مع آخرين) ـ المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ١٩٧٩.

٦ ـ الدولة الأموية والمعارضة، مدخل إلى كتاب السيطرة العربية للمستشرق فان فلوتن، مع ترجمة له (ط ١) دار الحداثة ـ بيروت ١٩٨٠ (ط ٢) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٥.

٧ ـ الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في أشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري ـ المؤسسة الجامعية للدراسات ١٩٨٣.

٨ ـ تكوّن الإتجاهات السياسية في الاسلام الأول، من دولة المدينة إلى دولة عمر دار إقرأ ـ بيروت ١٩٨٥.

٩ ـ من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول ـ دار إقرأ ١٩٨٦.

١٠ ـ إتجاهات المعارضة في الكوفة، دراسة في التكوين الإجتماعي والسياسي معهد الإنماء العربي ـ بيروت ١٩٨٦.